وزارة التعليـــم العالـــي و البحـــث العلمـــي
جـــــامعة قاصدي مرباح ورقلـــــــة
كليـــة الآداب و اللغـــات
قسم اللغـــة والأدب العربي

مصطلح الحداثـــة عند أدونيس

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي
تخصّص : النقد العربي و مصطلحاته

– إعداد الطّالب :
منصور زيطة

– إشـــــــراف :
أ.د / عبد الحميد هيمة

أعضاء لجنة المناقشة :

– أ.د/ أحمد موساوي :	جـــامعة قاصدي مربـــاح ــ ورقلة	رئيساً
– أ.د/ عبد الحميد هيمة:	جـــامعة قاصدي مربـــاح ــ ورقلة	مقرِّراً
– د / أحمد قيطـــون :	جـــامعة قاصدي مربـــاح ــ ورقلة	مناقشاً
– د /عمار حلاســـة :	جـــامعة قاصدي مربـــاح ــ ورقلة	مناقشاً

السنـــــة الجـــــامعية:
2013 / 2012

مفتـــاح الرمـــوز

مفتاح الرموز

الرمز	معناه
م	للميلاد
هـــ	للهجرة
ص	الصفحة
ط	رقم الطبعة
(د،ط)	دون طبعة
(د،ت)	دون تاريخ
تر	ترجمة
ج	الجزء
مج	المجلد
ع	العدد

مقدمـــة

لا يخفى على أيّ باحثٍ في أيّ حقلٍ من حقول المعرفة الدورُ الكبير الذي تؤدّيه المصطلحات في بناء العلوم والمعارف و التي يرتبطُ تطوّرُها وازدهارُها بمدى توفّر و دقّة و عدم اضّطراب المصطلحات الخاصّة بها، فالمصطلح هو الوسيلة الأساسية لتكوين وتنظيم وتقدّم أيّ معرفة، وليس من المبالغة في شيء القولُ إنّه لا وجود لعلمٍ أو منهجٍ من غير جهاز مصطلحي خاص به، وبخاصّة في هذا العصر الذي تشعبّت فيه المعارف والعلوم وتوسّعت بشكلٍ لم تشهدْه البشرية من قبل، ولهذا كان من الضروري على كلّ أمّة تهدف إلى أن تكون لها مكانة في مجال العلوم أن تكون لغتُها متوفرةً على مصطلحات دقيقة وواضحة، لأنّ دقة ألفاظ لغة ما ووضوح مفاهيمها من دقّة تفكير المتكلمين بها، وبمدى عناية أمة ما بالمصطلحات يمكن أن نقيس مرتبتها في السلوك العلمي الذي هو أساس كل تقدم.

إنّ من أهمّ أسباب ضعف النقد الأدبي هو افتقاره إلى مصطلحات خاصة به تسهم في إمداده بمعايير و ضوابط دقيقة ومناهج تساعده على إصدار أحكام عادلة وبالتالي في تطوره وتطور الأدب عموماً. لقد مرّ النقد العربي بمراحل تمكّن فيها بفضل بعض النقّاد و البلاغيين العرب من أن يشكّل تراثا بلاغيا و نقديا لا يستهانُ به، ولكن يعود النقد العربي بعد فترة من الجمود في العصر الحديث و المعاصر ليجد نفسه غريبا عاجزًا في عصر تمكّن فيه نظيره الغربي من الوصول إلى مراتب متقدمة في مجال البحث العلمي الموضوعي بفضل عوامل متعدّدة ساندته في تشكيل مناهج علمية و مصطلحات دقيقة .

ويُعدُّ مصطلح الحداثة من أهم المصطلحات التي أثارت الكثير من الجدل ليس في النقد الأدبي العربي فقط و لكن في الفكر العربي عموما ، ذلك لكونه مصطلحا يتضمن الكثير من الالتباس والتعقيد، و لكونه أيضا من المصطلحات القليلة التي استوعبتها أغلب العلوم الإنسانية –إن لم نقل جميعها–فهو مصطلح شامل يعبّر عن رغبة الكائن البشري في استكشاف المجاهيل والغوص في المستقبل البعيد و ركوب التطور المستمر الذي لا تحده نهاية.

يمكن أن نقول بدون تردد أن الشاعر المفكر(أدونيس) أثار الكثير من الجدل حوله، ليس بسبب شعره فقط و إنما بسبب الأفكار و الآراء الجريئة التي يطرحها حول كل القضايا التي تهم المجتمع العربي خاصة تلك التي ترتبط بالتراث عموما و بالدين الإسلامي خصوصا،كذلك يمكن أن نقول أنه لا يوجد شخص ارتبط اسمه بمصطلح الحداثة في حياتنا العربية المعاصرة مثل (أدونيس) .

إنّ أهمّية مصطلح الحداثة في الأدب العربي وفي حياتنا العربية بجميع مجالاتها، كافية لتجعل منه مبرّراً لاختياره، أمّا اختيار (أدونيس) فكان لسببين ،أوّلهما أنّه الأكثر ارتباطاً بهذا المصطلح، وثانيهما أنّه أثار الكثير من الجدل بسبب آرائه ومواقفه وهذا عامل يغري أيّ باحث على استقصاء هذه الآراء واستكشافها.

من أهم التساؤلات التي يحاول هذا البحث الإجابة عنها تساؤلان رئيسان هما :

- ما هي أهم خصائص مصطلح الحداثة عند (أدونيس) ؟
- ما المكانة التي يحتلّها مفهوم الحداثة في الفكر الأدونيسي؟

ولا شكّ أنّ الإجابة عن هاذين التساؤلين يفضي إلى الإجابة عن الكثير من التساؤلات التي لا مفرّ من الإجابة عنها مثل:

- كيف وظف (أدونيس) مصطلح الحداثة ؟
- ما هي مفاهيم الحداثة عند (أدونيس) ؟
- ما هي المرجعية الفكرية والأبعاد لمصطلح الحداثة عند (أدونيس) ؟
- ما علاقة الحداثة بمفاهيم مركزية كالتراث واللغة ...الخ في المشروع الأدونيسي؟
- ما أهمّ الظروف التي أحاطت بنشأة مصطلح الحداثة في الغرب ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها و بعد مطالعة واسعة شملت أغلب مؤلّفات (أدونيس) التنظيرية قُسّم البحثُ إلى تمهيد وثلاثة فصول ، جاء التمهيد موسوماً بـ(**الحداثة المصطلح والمفهوم**) وتناول أهمّ التحوّلات التي شهدها المجتمع الأوربي في ما يسمّى بالعصور الحديثة (عصر النهضة وعصر التنوير وما بعدهما) والتي نشأ في أحضانها هذا المصطلح ، و أهمّ مفاهيم الحداثة في الفكر الغربي وفي الأدب العربي والجدل الذي أثاره، وخُصّص الفصل الأوّل (**الحداثة عند أدونيس:المصطلح والمفهوم**) للحديث عن مصطلح الحداثة وخلفياته الفكرية وأبعاده ومفاهيمه عند (أدونيس) وأهمّ معوّقات الحداثة العربية وعلاقتها بالحداثة الغربية وقد تمّ اختيار مدوّنة تشكّلت من خمسة كتب للدراسة الإحصائية هي:

1- فاتحة لنهايات القرن بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة

2- الشعرية العربية

3- النص القرآني وآفاق الكتابة

4- الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب ،ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري

5- كلام البدايات

أمّا الفصل الثاني (**مشروع الحداثة الأدونيسية**) فقد تناول تلك العلاقات الهامّة التي تأسّست في فكر (أدونيس) بين مفهوم الحداثة وبعض المفاهيم المهمّة الأخرى في الأدب العربي كالتراث واللغة وغيرهما ، وهو ما يبيّنُ المكانة التي يحظى بها مفهوم الحداثة في الفكر الأدونيسي ، ولأهمّية الشعر في هذا الفكر فقد خُصّص الفصل الثالث (**الحداثة والشعر عند أدونيس**) للحديث عن الحداثة في الشعر كما يراها (أدونيس)، وكان التركيز فيه على ماهية الشعر واللغة الشعرية والإيقاع والتلقّي، وفي الأخير جاءت الخاتمة بأهمّ النتائج التي وصل إليها هذا البحث.

وإذا كان لكلّ بحثٍ منهج يتّكأ عليه فقد اقتضت طبيعة البحث الاستناد على المنهج التاريخي وبخاصة في التمهيد والمنهج الإحصائي وعلى إجراءات وآليات الوصف والاستقراء والتحليل، ولا شكّ أنّ كلّ بحث تعترضه صعوبات ،ولعلّ أهمّ ما اعترض سبيل هذا البحث هو طبيعة مصطلح الحداثة نفسه الذي أقرّ كلّ من تناوله بالدراسة —سواء من العرب أو غيرهم- بأنّه مصطلح شديد التعقيد، عصيّ عن التحديد ، أمّا الصعوبة الثانية فهي قلّة المراجع التي تناولت مصطلح الحداثة في الفكر النقدي عند (أدونيس) وأغلب المراجع التي تتحدّث عن (أدونيس) تخوض في إبداعه الشعري و مظاهر الحداثة فيه،ومن المراجع التي سبقت هذا البحث في دراسة مصطلح الحداثة عند (أدونيس) والتي أفدت منها كثيرا :

1- **عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر**

2- سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً

3- حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني.

وفي الأخير لا يسعُني إلاّ أن أتقدّم بالشكر الجزيل والتقدير العميق للأستاذ المشرف الدكتور (عبد الحميد هيمة) الذي لولاه لما عرف هذا البحث طريقاً إلى الوجود، لقد أحاطني بالتشجيع المتواصل والنصح المفيد والتوجيهات الصائبة،وإنّي أدعو اللّه عزّ وجلّ أن يجعله ذخراً وعوناً لكلّ طالب علم،كما أشكرُ جميع أساتذة قسم اللغة والأدب العربي في جامعة ورقلة والقائمين على مكتبته.

تمهيـــد

الحداثـــة المصطلح والمفهـــوم

- **الحداثـــة عند الغرب**
  - الإطار المكاني والزماني
  - مفاهيم الحداثة في الفكر الغربي
- **الحداثـــة عند العرب**
  - مفهوم الحداثة في الأدب العربي
  - جدل الحداثة في الأدب العربي

بين المصطلح و العلم علاقة وجود، فلا علم بلا مصطلحات، يقول(عبد السلام المسدي) "إن بين العلم والمصطلح لحاما هو كالتماهي الذي يقوم بين الدال والمدلول في المسلمات اللغوية الأولى"[1] ، بل إن اضطراب المصطلح يؤدي إلى صعوبة في استيعاب المعارف وربما استحالة إدراكها ،فإذا علمنا أن التطور أو التقدم في أي ميدان من ميادين الحياة مرتبط بعلم من العلوم، أدركنا أهمية المصطلح و تأثيره على مسيرة المجتمعات الفكرية و التكنولوجية "فللمصطلحات إذن تأثيرات نادراً ما يقدر الناس أبعادها أو يولونها ما تستحقه من اهتمام ، وتتصل تلك التأثيرات بالجوانب الفكرية العامة – لأن المصطلح هو صورة مكثفة للعلاقة العضويّة القائمة بين العقل واللغة- وتتصل أيضا بالظواهر المعرفيّة لأنّ المصطلحات في كلّ علم من العلوم هي بمثابة النواة المركزية التي يمتدّ بها مجال الإشعاع المعرفي ويترسّخ بها الاستقطاب الفكري"[2]، و لكل مصطلح ظروف تحيط بنشأته وتشكّله وقد يستغرق تبلوره وانتشاره مدة زمنية طويلة كما هو الحال بالنسبة إلى مصطلح الحداثة الذي نشأ في ظروف هامة جدا شهدتها أوربا ،شملت تحولات فكرية كبرى انعكست تأثيراتها على البشرية قاطبة ،في بداية القرن العشرين كانت أوربا قد بلغت فيها العلوم في شتى الميادين ذروتها وعجّت هذه العلوم بعدد هائل من المصطلحات التي تدفقت إلى العالم العربي و منها المصطلحات النقدية و اللسانية التي انتشرت بعد الثورة اللسانية التي فجّرها (دي سوسير)(de Saussure) رائد اللسانيات الحديثة،"وقد شهدت الحياة الثقافية والأكاديمية والمعجمية حركة عربية ناشطة للتعامل مع هذا الانفجار المعجمي والاصطلاحي الجديد سواءٌ ضبط المفاهيم أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيات مترجمة لهذه المفاهيم"[3]،ولعلّ الترجمة من أهم هذه النشاطات التي تم بها نقل المعرفة من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية، والترجمة هي إحدى آليات صياغة المصطلح"إن عملية صوغ المصطلح كعملية إبداعية تخضع عند الترجمة لكل نواميس وضع المصطلح التي تبدأ بالاصطفاء الدلالي الذي يحفظ للقيمة فعاليتها وقدرتها على التواطؤ والشيوع وتنتهي عند درجة التفضيل التي توقف عندها الشارع"[4]،وعن طريق الترجمة تم نقل مصطلح الحداثة من الفكر الغربي إلى الفكر العربي.

---

[1] عبد السلام المسدي : المصطلح النقدي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ، تونس ، ط1، 1994،ص 11

[2] المرجع نفسه ، ص 126

[3] فاضل ثامر : اللغة الثانية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1994، ص169

[4] عزت محمد جاد : نظرية المصطلح النقدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة–مصر، (د.ط) ، 2002، ص57

الحداثـــة عنـــد الـــغـــــرب :

أ- الإطـــار المكـــاني و الزمـــاني :

ليس من السهل الفصل زمنيا بين ما يسمى بالعصور الوسطى و العصر الحديث في أوربـــا، ولكن على الرغم من تداخل العصرين فإنّ أغلب المؤرخين يميزون بينهما "انطلاقاً من حوادث تاريخية مهمة كسقوط القسطنطينية سنة 1453م واكتشاف القارة الأمريكية ســـنة 1492م"[1] ، على هذا الأساس يمكن تحديد العصور الوسطى زمنيا من بداية القرن الرابع للميلاد إلى غايـــة نهاية القرن الخامس عشر للميلاد،وهي فترة زمنية طويلـــة يقـــسّمها المؤرّخـــون إلى ثـــلاث مراحل،فمرحلتها الأولى التي استغرقت سبعة قرون تميّزت بالفوضى والتخلّف إنّهـــا المرحلـــة المظلمة في التاريخ الأوربي ، ثمّ أعقبتها المرحلة الثانية (1000م-1300م) وأهمّ ما يميّـــز هـــذه المرحلة "الحروب الصليبية الاستعمارية التي شنتها أوربا الغربية بزعامة البابوية علـــى المـــشرق العربي الإسلامي.كذلك نما فيها و رسخ النظام الإقطاعي ونظام الفروسية.و في القرن الحادي عشر بدأ الفكر الأوربي ينطلق من عقاله، محاولا الخروج من دائرة الجمود الفكري المغلقة الـــتي عاش أسيراً فيها قروناً عديدة"[2]، و لقد واجهت الكنيسة البابوية هذا الفكر المتحـــرر الجديـــد بشدة واتهمت أصحابه بالسحر و الهرطقة ، ذلك أنها رأت فيه خطراً يهدد كيانهـــا و يـــشجع المواطنين على الخروج عن تعاليمها.

في المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى (1300م-1500م) —و هي الـــتي ســـبقت عـــصر النهضة- شهدت أوربا تطورا ملحوظا في أغلب مجالات الحياة ، وعرفت هذه المرحلة بدايـــة زوال النظام الإقطاعي بعد التحوّل الكبير الذي عرفه الاقتصاد نتيجة اكتشاف القارة الأمريكية والهند والصين وظهور المدن الصناعية — التجارية، في المجال السياسي تحوّلت نظرة الـــشعوب الأوربية إلى الملك من زعيم إقطاعي إلى رئيس دولة وظهـــرت البرلمانـــات لانتـــشار الفكـــر الديمقراطي، أمّا في الجانب الديني فقد خاضت الكنيسة البابوية صراعا مع الأمراء و الملوك من أجل تمكين السلطة الدينية من السيطرة على السلطة الدنيوية ، هذا الصراع و ما نـــتج عنـــه انعكس سلبا على مكانة الكنيسة في قلوب الناس ، وتعرّضت إلى الهجوم العلني مـــن طـــرف المفكّرين، الذين اجتهدوا في ترسيخ المفاهيم العلمية الجديدة والتي ساعد في انتشارها اختـــراع

---

[1] فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2006، ص26

[2] نعيم فرح:الحضارة الأوربية في العصور الوسطى،منشورات جامعة دمشق-سوريا، ط2، 1999-2000، ص 12 -13

الطباعة وتزايد الجامعات في المدن الكبرى، كلّ هذه التحوّلات التي عرفتها المجتمعات الأوربية مهّدت لعصرٍ جديد هو ما عُرف بعصر النهضة الأوربية.

يشكّل عصر النهضة بداية العصر الحديث في أوربا ومصطلح النهضة هو ترجمة عربية للكلمة (Renaissance) و التي تعني الإحياء أو الميلاد الجديد أو المولد الجديد أو المتجدد...الخ،ويعتبر هذا العصر عصر الثورة الفكرية و الفنية فقد شهد ميلاد تيارات ونظريات فكرية جديدة سعت إلى إحياء الدراسات اللاتينية و الرومانية القديمة ، و لكن بروح متجدّدة تستند إل الشك و النقد و البحث و كشف الحقائق نابذة كل تلك المعارف الجاهزة التي كانت تفرضها الكنيسة البابوية فرضا ،وهناك ثلاث حركات – على الأقل- أسهمت في تلك التحوّلات الكبرى التي شهدها المجتمع الأوربي في عصر النهضة.

أولى هذه الحركات هي حركة الإصلاح الديني بزعامة(مارتن لوثر)(Martin Luther)[1]، "وهي الحركة التي بدأت في ألمانيا ثم شملت عددا من البلدان الأوربية"[2]،و قد تمتع مارتن لوثر بشخصية فذة و إرادة قوية مكّنته من الوقوف أمام السلطة البابوية أكبر قوة دينية آنذاك، فثار على ممارسات الكنيسة و هاجم السلطة التي تمثلها ،ونتج عن هذه الحركة ظهور المذهب البروتستانتي الذي سعى إلى إلغاء احتكار الكنيسة البابوية لتفسير الكتاب المقدس ، وهو مايعني دعوة لحرية الفكر و عدم التقيّد بأيّ حدود دينية أو سلطوية،"و لعل ما يهم المؤرخ الفكري أساسا عن البروتستانتية هو أنّها كانت عاملا مُذيباً – و أقوى العوامل المذيبة في زمانها – لسلطة العصور الوسطى "[3].

الحركة الثانية هي النزعة الإنسانية أو الإنسانوية (Humanisme)، و"يعود جذر المفردة إلى "الإنسان" ،و لهذا فالإنسانوية كمفهوم وكمذهب فلسفي تركز على الإنسان كمحور لتفسير الكون بأسره"[4] ، هذه الحركة أسسها مفكرو عصر النهضة ولذلك أطلق عليهم اسم الإنسانيين أو الإنسانويين (Humanistes)،لقد ثاروا على السلطة الدينية ورفضوا نظرتها للإنسان وانتقدوا

---

[1] مارتن لوثر :مصلح ديني ألماني (1432م–1546م) أسّس المذهب البروتستانتي ، درس الآداب والقانون ، انتسب إلى رهبانية القديس أوغسطينوس وحصل على درجة البكالوريوس ثمّ الدكتوراه في الكتاب المقدّس وفي عام 1542م حصل على كرسي الكتاب المقدس في جامعة فيتنبرغ التي ألقى فيها شروحه المعروفة [ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت – لبنان، ط1 ، 1987 ، ص 542–546]

[2] فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، ص29

[3] كرين برينتون:تشكيل العقل الحديث،تر شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة–مصر ،(د.ط)، 2004، ص 108

[4] ميجان الرويلي و سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء–المغرب ، ط4، 2005 ، ص 46

الطرق التقليدية في جميع الميادين مما جعلهم يبتكرون طرقا حديثة وأساليب جديدة وانصبّ اهتمامهم على الدراسات الإنسانية بدل الدراسات القديمة التي كانت تركز على موضوع اللاهوت ، وبذلك مجّدوا الإنسان وجعلوه محور الفكر وسعوا إلى بعث المعارف الإغريقية واللاتينية القديمة التي اهتمّت بالقيم والحرية، وركّزوا على الآداب والفنون والسياسة والتاريخ وكان هدفهم أنْ يطوّر الإنسان ذاته بالتعليم و التربية و أن يسعى لحب الخير للجميع، إنّ الحركة الإنسانية من أهمّ الحركات الفكرية التي ميّزت عصر النهضة والتي أسهمت في ذلك التحوّل الكبير الذي شهده المجتمع الأوربي "و تشترك مع البروتستانتية في تأثيرها كعامل تفتيت للمعايير التي تخلفت عن العصور الوسطى"[1].

الحركة الثالثة و التي لا تقل أهمية عن سابقتيها هي النزعة العقلانية(Rationalisme) و قد أدّتْ دورا خطيرا في تطور الحركة العلمية بشكل مذهل لم تعرفه البشرية من قبل،و العقلانية "مجموعة من الأفكار تفضي إل الاعتقاد بأن الكون يعمل على نحو ما يعمل العقل حين يفكر بصورة منطقية و موضوعية ، و لهذا فإن الإنسان يمكنه في نهاية الأمر أن يفهم كل ما يدخل خبرته مثلما يفهم ، على سبيل المثال ، مشكلة رياضية أوميكانيكية بسيطة ، و إنّ ذات القدرات العقلية التي كشفت للإنسان سبيل صنع و استخدام وتشغيل و إصلاح أي آلة مترلية سوف تكشف للإنسان في نهاية المطاف ، كما يأمل المفكر العقلاني ، السبيل لفهم كل شيء عن الموجودات الأخرى"[2]، إنّ الدور المتزايد للعقل في الفكر الأوربي نتج عنه تقدم سريع في كل ميادين العلم وانحسار كبير لسلطة الكنيسة، وبخاصة بعد توصّل العلم إلى إثبات مركزية الشمس و أن الأرض كوكب يدور في فلكها بدل الاعتقاد الذي كان يرى أنّ الأرض هي مركز هي مركز الكون و الذي كانت تفرضه الكنيسة و تنشره و تبرره دينيا ، كلّ هذا أدّى إلى حدوث تغيّر كبير في نظرة الإنسان الأوربي للكون المحيط به،إن التقدم في ميادين العلوم المختلفة لم يحقق مكاسب نفعية مادية للإنسان فحسب ، و لكنّه شجّع الفكر على المزيد من الحرية و أكسبه الثقة في القدرة التي يتمتع بها العقل البشري و التي تمكّنه من تفسير الكثير من ظواهر الطبيعة بل ومن السيطرة عليها ، "لقد أطاح المفكر العقلاني بجانب كبير من المسيحية الكاثوليكية التقليدية فاق كثيراً ما فعله البروتستانتي أو الإنساني . إنه لم يقنع بإسقاط ما هو

---

[1] كرين برينتون :تشكيل العقل الحديث، ص 109

[2] المرجع نفسه ، ص 70

غيبي أو خارق للطبيعة من عالمه ، بل كان مستعداً لكي يضع الإنسان نفسه برمته داخل إطار الطبيعة أو((الكون المادي))ورأى في الحقيقة أن على الإنسان أن يهدي نفسه وفق معايير عن الصواب والخطأ ."[1] .

تلك هي – باختصار- أهم الحركات التي لعبت دورا كبيرا في التحولات الفكرية التي شهدها عصر النهضة في أوربا ، هذه التحولات الفكرية الجذرية هي ما يمكن أن نسميها القاعدة الأساسية التي انطلق منها الفكر الحداثي و الذي سيتجلّى في الفترة الزمنية الموالية و هي ما اتّفق على تسميتها بـ عصر التنوير أو عصر الأنوار(Siècle des Lumières)،و الذي يمتدّ من القرن السابع عشر للميلاد إلى القرن الثامن عشر للميلاد ،والتنوير مصطلح لا يحمل مفهوماً واضحاً إذْ" على الرغم من كثرة استعمال مصطلح "التنوير" و مرادفاته في مختلف اللغات و في حقول معرفية مختلفة فإن من الصعب الوصول إلى تعريف دقيق له ، بل إن مؤرخي تلك الظاهرة / الحركة مختلفون في تحديد دلالاته ، و من أبرز النقاط المختلف عليها الصفة التي ينبغي إطلاقها عليه، هل هو ظاهرة أم حركة ."[2]،ومع ذلك فيمكن الإشارة إلى أهمّ الأفكار التي اقترنت بمصطلح التنوير وهي فكرة تحرير العقل من كلّ قيد يعيق عمله وهي الفكرة التي يرسّخها (كانط)[3] (Kant)، " يقول كانط في العبارة الأولى من إجابته عن سؤال " ما هو التنوير؟" الذي طرحته عليه دورية ألمانية عام 1784م : "التنوير هو تحرر الإنسان من الوصاية [Unmundigkeit] التي يفرضها على نفسه." ثم يعرّف الوصاية بأنها عجز الإنسان عن استعمال قدرته على الفهم دون توجيه من الآخرين."[4]، لقد تغيّرت نظرة الإنسان إلى الكون ، وازدادت ثقته في قدرته الكبيرة على التغيير وعلى إمكانية السيطرة على الطبيعة وعلى المزيد من البحث عن الحقيقة والمزيد من الاكتشاف ، اكتشاف الكون الذي يحيط به و اكتشاف هذه الذات البشرية بكلّ مكوّناتها، هذه هي الحالة التي كان يعيشها الإنسان في عصر التنوير" إن الفكرة الأساسية والإبداع المذهل لعصر التنوير – أي الفكرة التي تجعل منه نظرة جديدة إلى الكون في شموله وعناصره – هي الاعتقاد بأن البشر جميعا يمكنهم أن يبلغوا على هذه الأرض

---

[1] كرين برينتون :تشكيل العقل الحديث، ص 110

[2] ميجان الرويلي و سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي ، ص 128

[3] إيمانويل كانط :فيلسوف ألماني (1724م–1804م) انتسب إلى كلية اللاهوت في الجامعة لكنّه مال إلى دراسة الفلسفة والطبيعيات، حصل على الدكتوراه واشتغل كأستاذ خاص لكرسي الرياضيات والفلسفة ، تأثّر بروسو ، من أشهر مؤلفاته (نقد العقل الخالص) الذي أسّس فيه منهجا جديدا في النظر إلى المسائل الفلسفية وتحليلها[ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ، ص 474–478]

[4] ميجان الرويلي و سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي ، ص 129

قدرا من الكمال،"[1]، ليس من السهل الحديث عن عصر التنوير باختصار و كم يصعب الحديث عنه بالتفصيل لأنّ في هذه الفترة الزمنية شهد العالم تطوّرا مذهلا في جميع ميادين الحياة ، فكم من مدارس و مذاهب فكرية ظهرت وكم من ابتكارات و اختراعات رأت النور في هذا العصر وكم من مفكّرين وعلماء وُلدوا وترعرعوا فيه شغلوا الدنيا بنظرياتهم إلى يومنا هذا، لقد كان تراكما معرفيا هائلا ساعد في انتشاره الطباعة والأكاديميات العلمية ..الخ.

من أبرز الشخصيات التي أسهمت في فكر التنوير – على سبيل المثال لا الحصر – الفيلسوف الانجليزي (فرنسيس بيكون)[2] (Francis Bacon) الذي يعود إليه الفضل في إرساء دعائم المنهج التجريبي " لقد سعى فرانسيس بيكون إلى تخليص الفكر البشري من التقاليد الأفلاطونية و الأرسطية بالتنظير للمنهج التجريبي ، حيث رأى أن المنطق الأرسطي غير مفيد للكشف عن الحقيقة ، لأنه يجبرنا على التسليم بنتيجته ، ولا يكشف شيئا جديدا "[3] .

من الشخصيات البارزة أيضا و التي أثّرت كثيرا في الفكر الفلسفي الفيلسوف و الرياضي الشهير (رينيه ديكارت)[4](René Descartes) صاحب المقولة الشهيرة "أنا أفكر ، إذن أنا موجود "، يشير الباحثون إلى عاملين رئيسين دفعاه إلى تأسيس مذهبه الفلسفي وهما الاهتمام المتزايد بالرياضيات و قضية البحث عن المنهج" ولقد امتزج هذان العاملان عند رينيه ديكارت RenéDescartes (1596م-1650م) ليؤلفا مذهبا فلسفيا جديدا على طريقة القدماء في تكوين مذاهب شاملة . و من هنا كان يعد ، عن حق ، مؤسس الفلسفة الحديثة. "[5]، لقد تمكن هذا الفيلسوف الرياضي الكبير من ابتكار نظام الإحداثيات الديكارتية الذي شكل نواة الهندسة التحليلية في الرياضيات و يعتبر بلا شك رائدا من رواد العقلانية في الفكر الغربي .

هناك الكثير من المفكرين الذين كان لهم الأثر الكبير في بناء الفكر الأوربي الحديث لكن لا

---

[1] كرين برينتون :تشكيل العقل الحديث، ص 115

[2] فرنسيس بيكون :فيلسوف انجليزي (1561م– 1626م) عاش بين حب المعرفة والرغبة في السلطة ، وعلى الرغم من انتسابه إلى جامعة كمبريدج فإنه لم يحصل على أيّ دبلوم ، كانت حياته شديدة التقلّب ومع ذلك فقد كان مكّبا على البحث من أهمّ إنجازاته إسهامه الكبير في تأسيس المنهج الاستقرائي[ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ، ص 203–206]

[3] فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، ص 31

[4] رينيه ديكارت :فيلسوف ورياضي فرنسي (1596م– 1650م) في بداياته انتسب إلى مدرسة يديرها الآباء اليسوعيون نال فيها أصنافا من العلوم وبعد عامين من انفصاله عنها حصل على البكالوريا وعلى إجازة في الحقوق ثم تطوع في الجيش وعاش متنقلا بين فرنسا وهولندا، وهو بحق مؤسس الفلسفة الحديثة[ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ، ص 270–276]

[5] برتراند رسل : حكمة الغرب الفلسفة الحديثة و المعاصرة ج2 ، تر: فؤاد زكريا ،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 1983، ص 67

يتّسع المقام لذكرهم، لكن ما يجب ذكره هو ذلك الإنجاز الذي شهده عصر التنوير في فرنسا والمتمثل في موسوعة ضخمة اشترك في تأليفها مجموعة من الكتاب و العلماء في فرنسا ، "وهكذا جمعوا في عمل ضخم كل المعرفة العلمية المتاحة في عصرهم ، لا بوصفها سجلا مرتبا ترتيبا أبجديا فحسب ، بل من حيث هي وصف للطريقة العلمية في التعامل مع العالم ،"[1]، وتعتبر من النماذج الأولى للعمل الموسوعي كما هو عليه الآن ،ذلك هو عصر التنوير الذي حمل الكثير من القيم مثل الحرية و الفردية و التقدم و الإرادة والتسامح ...الخ.

مسيرة التحولات التي انطلقت من نهاية العصر الوسيط مرورا بعصري النهضة و التنوير تُوّجت بثورتين ، الثورة الصناعية في انجلترا و الثورة الفرنسية ، "ومجموع هذه التحولات ، في تعالقها و تفاعلها ، هو الذي شرع بالتدريج أفق الحداثة "[2] ، كل هذا المخاض الذي عاشته أوربا ، أو لنقل كل هذه الثورات خاصة في المجال الفكري نتج عنها تغير كلي في نظرة الإنسان إلى كل شيء ، إلى الكون و إلى المعرفة و إلى الدين و إلى ذاته...الخ ، وكلّ ذلك شكّل أسلوبا جديدا في الحياة هو أسلوب أو نمط الحداثة ، و بالتالي كلّ تلك المفاهيم الجديدة المتجدّدة و ما تولّد عنها من قيم أسّست للفكر الحداثي لدى الغرب .

ب- مفاهيم الحداثة في الفكر الغربي :

قبل التطرق إلى مفاهيم الحداثة في الفكر الغربي ، لا بأس من تسليط الضوء على أهمّ المصطلحات المتداولة في فكر الحداثة لإزالة بعض الالتباس – إن أمكن- في استعمالاتها العربية وهي (moderne , modern) و (modernisme,modernism)

و(modernisation , modernization) وأخيرا (modernité , modernity)

ما يمكن ملاحظته أنّ هناك شبه إجماع على أن كلمة "حديث" هي الترجمة العربية لمصطلح (moderne , modern) ، من الصعب جدا تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها كلمة "حديث" ، لكن أغلب التوجهات تشير إلى أن بداية تداولها كان في القرن السادس عشر للميلاد في اللغتين الانجليزية و الفرنسية –و هناك من يشير إلى القرن الرابع عشر للميلاد- والكلمة "مستقاة من ظرف الزمان اللاتيني(modo) .بمعنى "توّاً". "[3]، في بداية ظهور المصطلح

---

[1] برتراند رسل : حكمة الغرب الفلسفة الحديثة و المعاصرة ج2، ص 149

[2] محمد الشيكر : هايدغر و سؤال الحداثة ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء – المغرب ، (د،ط) ، 2006 ، ص 38

[3] طوني بينيت و لورانس غروسبيرغ و ميغان موريس : مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع ، تر:سعيد الغانمي ، المنظمة العربية للترجمة ،بيروت-لبنان ، ط1 ، 2010 ، ص276

كان الغرض من استخدامه ، التمييز بين فترتين زمنيتين و في نفس الوقت "للتعبير عن الاعتراض على ما هو قديم والذي كان يميز العصور اليونانية و الرومانية القديمة "[1]، لكن مع مرور الزمن بدأ يكتسب معاني جديدة تتحول باستمرار ما جعله يتسم بنوع من التعقيد ، من المعاني التي دل عليها أهمية الوقت الراهن و محاولة استيعاب كل جديد مع تأكيد القطيعة مع الأزمنة الماضية،كذلك محاولة تجاوز انجازات عصر النهضة تجلى ذلك في صراع القدماء والمحدثين في الأدب الفرنسي حول القيم ، من المعاني الخطيرة التي حملها أيضا هي نظرة بعض التيارات الغربية إلى المجتمعات غير الأوربية بأنها غير حديثة و هذا ما جعل الكثير يربط كلمة حديث بالغرب بمعنى أن كل غربي حديث و كل غير غربي ليس حديثا و هذا منطق استعلائي عنصري و استهانة بالحضارات غير الأوربية ، أيضا من معانيه الخطيرة معاداته لكل هيمنة إيديولوجية أو قومية "من المستحيل أن نطلق كلمة "حديث" على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقاً لوحي إلهي أو جوهر قومي."[2]، أمّا في عصرنا الحالي فلم تعد كلمة "حديث" تحمل تلك الشحنة العاطفية وفقدت الكثير من دلالاتها و بريقها "في أواخر القرن العشرين ، فقد "الحديث" إلى حد كبير معانيه الإيحائية بصدمة المستقبل و القطيعة التاريخية ، وأصبح في الاستعمال مجرد مصطلح فترة يدل على تقليد أسلوبي ثابت بأصوله في الماضي(النحت الحديث،الرقص الحديث ،الجاز الحديث)." [3].

من الصعب التفريق بين (modernisme , modernism) و (modernité , modernity) بسبب الالتباس الكبير الذي وقع أثناء ترجمتهما للغة العربية ، لكن ما يخفف النتائج السلبية لهذا الوضع ، تداخل مفهوميهما في الفكر الغربي نفسه ، وأيضا اتفاق الغالبية من الكتاب العرب على أن كلمة "حداثة" هي المقابل العربي لمصطلح (modernité) – إلاّ من شذ عن ذلك – يتداخل هذان المصطلحان إلى حد الترادف عند بعض الكتاب العرب[4] ، و يترجم مصطلح modernisme إلى نزعة الحداثة ، النزعة الحداثية ، حركة الحداثة ، الحداثوية ، العصرية، الحداثية ، الحداثانية، التجديد ...، و لمعرفة المعنى الذي يحمله هذا المصطلح نعود إلى أحد

---

[1] محمد نور الدين أفاية :الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء – المغرب ، ط2 ، 1998 ، ص 108

[2] ألان تورين : نقد الحداثة ، تر: أنور مغيث ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر ، (د،ط) ، 1997، ص29

[3] طوني بينيت ، لورانس غروسبيرغ ، ميغان موريس : مفاتيح اصطلاحية جديدة ، ص 282

[4] ينظر سمير حجازي :المتقن معجم المصطلحات اللغوية و الأدبية الحديثة ، دار الراتب الجامعية ، بيروت – لبنان ،(د،ط) ، (د،ت) مادة modernisme وmodernité

القواميس الفرنسية و هو (le ROBERT quotidien) فنجد أنّه يحمل معنيين ، المعـــنى الأول يشير إلى نوع من التذوق لكل ما هو حديث و التذوق هنا بمعنى القدرة على إدراك العناصـــر الجمالية في كل أثر فني ، أما المعنى الثاني فيشير إلى حركة مسيحية دعت إلى تفـــسير جديـــد للمعتقدات والمذاهب التقليدية و ذلك اعتماداً على تأويل حديث للنصوص التي تحمل معـــانٍ غامضة[1]، وبالتالي فإن هذا المصطلح اقترن ظهوره بمجالين هما الفن و الدين ، وقد نشأ في فترة زمنية معينة في كنف ظروف خاصة ، وتدل اللاحقة "isme" على أنه يدل على مدرســـة أو مذهب وهذا ما ذهب إليه (عزت محمد جاد)حين ترجمه إلى "الحداثية" و عرّفه بأنه "مـــذهب فلسفي أدبي وفني جاء من حقل الفنون التشكيلية ليعبر عن الحركات و الأعمال الفنية المرتبطة بالحداثة في مجالات الثقافة و علم الجمال ، وأصبحت رؤية أصحاب هذا المذهب ثورة علـــى محاكاة الطبيعة إلى أن يجردها الفنان و يعيد صياغتها ، "[2]، أما المفكر الفلسطيني (هشام شرابي) فيحدد العلاقة بين (الحداثة modernité)و(modernisme) والذي ترجمـــه إلى " النزعـــة الحداثية " ويرى أنها تعني الوعي بالحداثة و تنادي بالأفكار التي تسعى إلى تغيير الذات الإنسانية و العالم بأسره [3] ،وهناك ترجمة شاذة لهذا المصطلح أوردها المعجم الفلسفي الذي أصدره مجمع اللغة العربية في مصر حيث ترجم (modernisme) إلى "تجديد" و عرف المصطلح بأنّه "نزعـــة تأخذ بأساليب جديدة في نواحي الحياة الفكرية و العملية ، ومنه (التجديـــد المتطـــرف)"[4] ، ويذهب عالم الاجتماع الفرنـــسي (ألان تـــورين) (AlainTouraine) إلى إنـــشاء علاقـــة إيديولوجية بين (modernité) و(modernisme) فيقول "الأيديولوجيـــة الغربيـــة للحداثـــة modernité والتي يمكن أن نسميها بالحداثيةmodernisme قد ألغت فكرة الذات وفكـــرة الله المرتبطة بها وبنفس الطريقة استبدلت تشريح الجثث أو دراسة نقاط التلاحم العـــصبي في المـــخ بالتأملات حول النفس. "[5] .

---

[1] **le ROBERT quotidien :Dictionnaires LE ROBERT , paris , France ,1996** (مادة **modernisme**)

[2] **عزت محمد جاد : نظرية المصطلح النقدي ، ص 477**

[3] **ينظر عزّ الدين الخطابي :أسئلة الحداثة و رهاناتها في المجتمع و السياسة و التربية ،منشورات الاختلاف،الجزائر ، ط1، 2009،ص17**

[4] **مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة–مصر ، (د،ط) ، 1983، مادة تجديد**

[5] **ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 32**

المفهوم الآخر الذي اقترن بالفكر الحداثي هو (modernisation , modernization) ، ما يمكن ملاحظته كذلك أنّ هناك اتفاق وإجماع على أن كلمة " تحديث" هي المقابل العربي له ، يبدو هذا المصطلح أكثر ارتباطا بالجانب المادي و بالحياة اليومية للإنسان و مع ذلك فإنه يمس أيضا الجانب الفكري والذهني له ، إن التحديث هو عملية استخدام التكنولوجيا والاختراعات الحديثة في الحياة الاجتماعية ، وهناك نظرتان متباينتان للتحديث "فالغربيون يعنون بالتحديث قيام المجتمعات غير الغربية، باقتباس ما أنتجه المجتمع الصناعي الغربي منذ القرن التاسع عشر،أو ما قبله ، "[1]، ولا يقتصر الاقتباس هنا على الجانب التكنولوجي و التنظيمي والتعليمي بل يتجاوزه إلى المجال الفكري و معايير الأخلاق و نمط الحياة و هذا ما يرفضه مفكرون من بلدان آسيا و إفريقيا "حيث يرون أن الفهم المذكور للتحديث يعني "التغريب"–من غربة المجتمع غير الغربي عن أصوله الثقافية، ومن الاصطباغ بالصبغة الغربية أيضا، "[2]، ويذهبون إلى أنه يمكن لأي مجتمع غير غربي أن يقتبس من الغرب ما يمكنه من النمو و التطور مع الاحتفاظ بخصوصيته الثقافية والدينية، إن ما يعزّز ذلك الارتباط بين التحديث و التغريب هو التداخل الكبير بين الحداثة والتحديث في الفكر الغربي "لأن التحديث الغربي قد سبق بزمن كبير كل عمليات التحديث الأخرى، ولأنه منح الدول الأوربية خلال ثلاث قرون ، وبعد ذلك الولايات المتحدة ، وضعًا سائداً ، يقوم مفكرو هذه البلاد بالتوحيد غالباً بين تحديثهم والحداثة بشكل عام ،" [3]مما جعل البعض ينظر إلى التحديث على أنّه "تلك المحاولات و"التطلعات" التي تستهدف تحقيق النماذج الغربية ، أو هي تلك الإمكانية التي من خلالها نتصور البنيات المؤسسية القادرة على استيعاب التحولات المختلفة التي تطرأ على الزمن والمجتمع."[4] و بالعودة إلى مفهوم التحديث في الفكر الغربي نجد أنه يقترن غالبا بالنمو و التنمية في مجالات الحياة المختلفة، ويتسع مفهوم التحديث ليشير إلى "جملة من سيرورات تراكمية يشد بعضها بعضا.فهو يعني بناء تحديث الموارد و تحويلها إلى رؤوس أموال،ونمو القوى الإنتاجية ، وزيادة إنتاجية العمل ، كما يشير إلى إنشاء سلطات السياسة المركزية و تشكل هويات قومية، ويشير أيضا إلى نشر حقوق المشاركة السياسية ، وأشكال العيش المدني والتعليم العام ، وأخيرا

---

[1] سامي خشبة :مصطلحات فكرية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – مصر ، (د،ط) ، 1997 ، ص 61

[2] المرجع نفسه ، ص 61

[3] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 51

[4] محمد نور الدين أفاية : الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس ، ص 108

يشير إلى علمنة القيم و المعايير، الخ.."[1] أما (ألان تـــورين) (AlainTouraine)فيؤكـــد أن التحديث هو إنجاز للعقل وللعقل وحده و أن "التحديث يفرض تحطيم العلاقات الاجتماعيـــة والمشاعر والعادات والاعتقادات المسماة بالتقليدية،"[2] .

ونصل أخيرا إلى مفهوم (modernité , modernity) ، هذا المصطلح الفكـــري الـــذي تعددت مفاهيمه و تشعبت لسمة الشمولية التي يمتاز بها بسبب الظروف التي أحاطت بنـــشأته، تعتبر كلمة "حداثة" الترجمة العربية له الأكثر انتشارا ، وإن كان البعض من الكتاب العرب قد ترجمه إلى "المعاصرة" أو "العصرية" ،قبل الخوض في المفاهيم التي يحملها هذا المصطلح ، لابأس أن نحاول الكشف عن أول ظهور له في الكتابات الغربية ، يتفق أغلب المهـــتمين بالحداثـــة أن الكلمة (modernité) ظهرت لأول مرة في القرن التاسع عشر ، لكن يبقى الاختلاف حـــول أول من استعملها ، في اللغة الفرنسية يشير القاموس (le ROBERT) أن الروائـــي الفرنـــسي (بلزاك)(Balzac) هو أول من استعمل لفظ (modernité) وذلك سنة 1823 للميلاد[3] بينمـــا تأخذ بعض الآراء منحـــى آخـــر وتعتـــبر الكاتـــب الفرنـــسي « فرانـــسوا شـــاتوبريان » (François deChateaubriand)أول من استخدم هذا المصطلح "و أول من استعمل كلمـــة "الحداثة" la modernité هو شاتوبريان عام 1849م."[4]،لكن يتّفق الكثير أن الشاعر الفرنسي (شارل بودلير)(Charles Baudelaire) هو أول من صاغ مفهوما للحداثة "ولعل بـــودلير – حسب ما تتناقله جل الدراسات- كان سبّاقا في بلورة مفهوم نظري لمصطلح الحداثة."[5] ، إذا كان من الصعب تحديد أول استعمال لمصطلح الحداثة ، فليس من السهل الإحاطة بمفهومـــه في الفكر الغربي إذْ "لا يختلف الأمر كثيرا في الدخول إلى مصطلح (الحداثة) عن الدخول في منطقة (الربع الخالي)، حيث الرمال التي تبتلع كل من يطأها، "[6] ، إن كل من يتعرض له بالدراســـة يُقرّ بالصعوبة التي يواجهها "إن مفهوم الحداثة مفهوم عائم، لا يقبـــل التحديـــد ولا ينـــصاع للاختزال، لأنه يشير إلى صيرورة ، ويدل على تحول دائب دائم.كما أن مفهوم الحداثة لـــيس

---

[1] هبرماس: القول الفلسفي للحداثة ، تر: فاطمة الجيوشي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق – سوريا ، (د، ط) ، 1995، ص 9

[2] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 30

[3] ينظر ،le ROBERT quotidien ، مادة modernité

[4] عبد الرحمن عبد الحميد علي: النقد الأدبي بين الحداثة و التقليد ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة – مصر ،(د، ط) ، 2005 ، ص95

[5] خيرة حمر العين : جدل الحداثة في نقد الشعر العربي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق –سوريا ، (د، ط) ، 1996 ، ص31

[6] عزت محمد جاد : نظرية المصطلح النقدي ، ص 422

مقترنا بحقل معرفي بعينه ،" [1]إن هذا التحول المستمر لمصطلح الحداثة قد جعل منه "ذلك السؤال المتجدد في كل حين ، الذي يرفض الانصياع والخضوع لأي جواب، فهو -دائماً- مهاجر لا يكاد يحط الرحال بمكان حتى ينتقل إلى غيره في رحلة دائمة ،فهو فلوت يأبى أن يمسك بـــه ، لأن في إمساكه قتلا له وقضاءً على حريته ، هو الحاضر/الغائب"[2] ، ومع كل ذلك فلا مفرّ من محاولة تحديد مفاهيم الحداثة ، وذلك بالاعتماد على آراء أهم منظريها و على أهم الرؤى الـــتي تشكل الأساس الذي يرتكز عليه فكر الحداثة عند الغرب ، بداية يشير الكاتب المغربي (محمد بنيس) إلى أنه يمكن رؤية المقاربات الغربية للحداثة في ضوء مسارين أساسيين، مسارٍ يتجه إلى قطيعة مع الماضي و هو "المسار الذي يحصر الحداثة في الفترة التاريخية لما بعـــد 1453، ســـنة سقوط القسطنطينية ، فيفصلها ، بذلك، عن كل من العصور القديمة و الوسطى. ويثبت مـــا يطبع القرنين الخامس و السادس عشر من حركة الإصلاح الديني، والإنسية في الحقل الثقـــافي والاكتشافات الكبرى في الحقل العلمي ."[3] ، و مسارٍ آخر يتجه إلى ربط الصلة مع الماضـــي وهو المسار الذي يمثله "جُوسْ الذي يرى أن مصطلح "الحداثة" "مترسخ في تقاليد أدبية عريقة" تعود إلى الثقافة اليونانية و اللاتينية على السواء ، حيث كان ،على امتداد تاريخ أدب هـــاتين الثقافتين ، صراع بين أنصار الحديث و أنصار القديم تبعاً لرغبة كل جيل في الاعتراف بزمنه ، وهو ما تكرر مع مرور الزمن ، "[4]، وعلى الرغم من أن هاذين المسارين يزيـــدان في مـــستوى الالتباس لمصطلح الحداثة ، فإنهما —حسب (محمد بنيس)- يمكّنان من التخلص مـــن المقاربـــة الأحادية للحداثة، وبالتالي يفتحان الباب على مصراعيه للاجتهاد و لتعدد القراءات ، لكن يبدو أن المقاربات الغربية للحداثة في ضوء المسار الأول هي الأكثر انتشارا ، إن شمولية الحداثة نتج عنه تعدد للرؤى و بالتالي لتعريفاتها و كل هذا أدى إلى صعوبة الإحاطة بمفهوم محـــدد لهـــا ، ولذلك سعى بعض الباحثين لربطها بحركة محدَّدة أو فكرة معينة "توجد تعريفات كثيرة لمفهوم الحداثة ، لكن ثمة ما يشبه الإجماع على أن الحداثة مرتبطة تماماً بفكر حركة الاستنارة الـــذي ينطلق من فكرة أن الإنسان هو مركز الكون و سيده ، وأنه لا يحتـــاج إلاّ إلى عقله ســـواء في

---

[1] محمد الشيكر : هايدغر وسؤال الحداثة ، ص 11

[2] عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر مقاربة حوارية في الأصول المعرفية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (د، ط) ، 2005 ،ص15

[3] محمد بنيس :الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته 4.مساءلة الحداثة،دار توبقال للنشر،الدارالبيضاء-المغرب،ط2،2001،ص 158

[4] المرجع نفسه ، ص 160

دراسة الواقع أو إدارة المجتمع أو للتمييز بين الصالح والطالح، وفي هذا الإطار يصبح العلم أساس الفكر ، مصدر المعنى والقيمة، والتكنولوجيا هي الآلية الأساسية في محاولة تسير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته،والعقل هو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة. " [1]، إن الحداثة الغربية هي نتاج مجتمع بأكمله و بجميع فئاته ، ناضل من أجل تغيير أوضاع سائدة ، قيّدت الفكر و فرضت معرفة محنطة تأبى التجديد وتحارب الحقائق العلمية و لا تحب العيش إلا في الظلام و لذلك " ليست الحداثة نظرية خاصة، ولا هي فلسفة،كما أنها ليست نتاج مدرسة فكرية بعينها ،ولا مدارس.هي سيرورة اجتماعية أساساً، وفكرية،وحضارية تأخذ مسار نضال إنساني تفرضه الضرورة من زاوية كونها محايثة لهذا المسار.لكن هذا لا يعني أن الحداثة ليست من إسهام مفكرين وضعوا فلسفات ونظريات قادت إليها بفعل إسهامهم النظري إلى درجة أننا نستطيع أن نميز بين منظرين كلاسيكيين للحداثة ، ومنظرين مجددين لها. "[2].

إنّ ذلك المسار النضالي الشاق جدا ، استغرق فترة زمنية طويلة حيث "لم تشرع الحداثة الغربية في تلمس الوعي بذاتها إلا بعد انصرام ما يقارب ثلاثة قرون على انطلاق ديناميتها في أوربا الغربية منذ مطلع القرن الخامس عشر."[3] ليحل القرن التاسع عشر و قد ظهر مصطلح الحداثة ليستخدم لأول مرة –حسب بعض الآراء – في الحقل الأدبي "ثم استُثمر ووُظّف في حقول معرفية أخرى كالاجتماع والسياسة والتحليل النفسي والتقنية والألسنية والاقتصاد واللاهوت ليشير إلى فترة زمنية تاريخية مرّ بها الغرب، " [4] .

تبلور مفهوم الحداثة –كما رأينا سابقا – عند الشاعر الفرنسي (بودلير) (Baudelaire)و"ظل هذا المصطلح يكتسب لديه دلالات مغايرة تنصهر فيها ثنائية الطبيعي والمصطنع حيث يقول "ما أعنيه بالحداثة هو العابر والهارب والعرضي ونصف الفن الذي يكون نصفه الآخر أزليا وثابتا""[5] ، لقد عاش يبحث عن الجمال الكامن في كل شيء ليعبّر عنه إسهاماً منه في العصر الحديث واحتفالاً به "كان بودلير يؤكد على ضرورة التعبير عن روح العصر،ولم يهرب مطلقاً من نثرية الحياة المعاصرة ولم يتقوقع في برجه العاجي كغوتييه بل على

---

[1] عبد الوهاب المسيري:دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، مكتبة الشروق الدولية ،القاهرة – مصر ، ط1 ، 2006 ،ص34

[2] مصطفى خُلال : الحداثة و نقد الأدلُوجَة الأصوليَّة ،رؤية للنشر و التوزيع ،القاهرة – مصر ، ط1 ، 2007 ،ص72

[3] محمد سبيلا : الحداثة و ما بعد الحداثة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء – المغرب ، ط2 ، 2007 ،ص22

[4] رضوان جودت زيادة :صدى الحداثة ما بعد الحداثة في زمنها القادم،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء–المغرب،ط1، 2003، ص19

[5] خيرة حمر العين : جدل الحداثة في نقد الشعر العربي ، ص31

العكس ، تمكّن من استيعاب هذه النثرية بمنتهى تواترها وبكل ملكته الإبداعية."[1]، وما يدل على شغفه بالجمال الفني هو اتساع اهتمامه بالفن ليشمل الفنون التشكيلية والموضة والكاريكاتير والتصوير الفوتوغرافي ...الخ ، لقد ظل يُصرّ على التعبير عن جمال العصر بكل الفنون ، وهذا ما جعله ينبه الفنانين الذين ارتدوا الملابس التركية واليونانية القديمة إلى ارتداء الملابس الحديثة السوداء رمز الحداد الأبدي [2] ، لم تكن الرؤية البودليرية ضيّقة الأفق ،بل كانت تشمل كلّ الحياة تعتمد على استخلاص كل ما هو أزلي من أي شيء عابر ، إنه "يرى في الحياة الحديثة ، في طريقتها وفنها، حضوراً للأبدي في اللحظي ."[3] ، وثنائية الحاضر و الأزل ثنائية مهمة لفهم الحداثة عنده ، فالزمن الراهن لا يعي نفسه بمعارضته لزمن مضى ، إنّه لم يعدْ موجوداً بالقياس إلى الماضي وإنما صار موجوداً بحد ذاته ولذاته "ولهذا يحتل العمل الفني الحديث،عند بودلير ، مكانة فريدة عند تقاطع إحداثيات الحاضر و الأزل "[4] ، إنّ ارتباطه بعصره و بحثه الدؤوب عن الجمال الذي يتضمنه و التعبير عنه بروح العصر ، والتخلص من الأساليب التقليدية العريقة ، كل هذا يؤسس اعتقاداً راسخاً في فكره ، جعله دائماً يبحث عن رومانسية نقية تعتنق الفن الأصيل المعبر عن العصر فهو"يرى أنّ الفن يجب أن يكون أصيلاً وحقيقياً قي تعبيره عن الطابع المحلي،وليست أصالة الفن في محاكاة الفن اليوناني أو الروماني ، إنما في نقل المشاعر الحقيقية ، الحزينة والعميقة ،المفرحة والكئيبة ."[5]،إنها الحداثة التي تسعى إلى تأسيس ذاتها من خلال البحث عن كل ما هو جديد وغير متوقع وقطع الصلة مع الماضي ، إنها في مفهومها الجمالي سواء عنده أو عند (رامبو) (Rimbaud) " تُمثل ، أساسا ، عملية تدمير للأشكال الثابتة التي تحول دون تطور الفن والمشاعر والأفكار والعادات..الخ"[6]،ويؤكد(رامبو) (Rimbaud) هذه القطيعة بقوله "من الضروري أن نكون محدثين قطعاً"[7]، ويتشابه موقفا الشاعرين الفرنسيين إزاء الحداثة "فكلاهما يكره الحداثة إذا كانت تدل على التقدم المادي أو

---

[1] زينات بيطار : بودلير ناقدا فنيا ، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1993 ، ص 41

[2] ينظر المرجع نفسه ، ص 47

[3] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 21

[4] هبرماس : القول الفلسفي للحداثة ، ص 18

[5] زينات بيطار : بودلير ناقدا فنيا ، ص 44

[6] محمد نور الدين أفاية : الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس ، ص 110

[7] مالكولم برادبري و جيمس مكفارلين :حركة الحداثة ،ج1، تر: عيسى سمعان ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق – سوريا ، (د، ط) ، 1998، ص 16

التطور العلمي ، وكلاهما يتشبث بها بقدر ما تعطيه من تجارب جديدة ، تدفعه بخشونتهما وسوادها على أن ينشئ فيها قصائد خشنة سوداء ."[1]، لقد كان (رامبو)(Rimbaud) منذ صغره متمرّدا على كل ما هو مألوف ،عاشقا لكل ما هو خارق للعادة ، لقد أسهم في تأسيس الحداثة الشعرية من خلال ابتكاره للأساليب الجديدة و فصله الذات الشخصية عن الذات الشعرية وإيمانه المطلق بالإبداع و الخلق الفني ،أما الشاعر الفرنسي الثالث وهو أيضا من رواد الحداثة في الشعر ، فهو (مالارميه)(Mallarmé) الذي امتاز شعره بالغموض الذي يعتبر من أهم عناصر شعر الحداثة يقول "فإذا كانت الحداثة تفكيرا في اللامفكر فيه ،فإنها ، شعريا،بحث عما لم يحدث"[2]،هناك أيضا الشاعر الأمريكي(إدغارآلان بو)(Edgar Allan Poe) الذي يعتبر من مؤسسي الشعر الحديث إلى جانب الشاعر البريطاني(توماس اليوت) (Thomas Eliot) وهو من أهم شعراء الحداثة في الغرب وأكثرهم تأثيراً على شعراء الحداثة العرب ،ولم تقتصر رؤيته الحداثية على شعره بل امتدّت إلى مقالاته النقدية "وتبدو ملامح الحداثة واضحة في الكتابات النظرية والإبداعية لإليوت وذلك من خلال تمرّده على العالم الحديث ،وكذا التوفيق بين الشعر والأسطورة ،فهي الوحيدة القادرة على حمل تناقضات هذا العالم."[3]،لقد دعا إلى عدم التقيد بالوزن والقافية وإلى توظيف الأسطورة وكل ذلك من أهم سمات الحداثة في الشعر.

أما الروائي الفرنسي (فلوبير)(Flaubert) فيرتبط مفهوم الحداثة عنده بالزمن وفعل الكتابة "يقول فلوبير "الحداثة هي التعصب للحاضر ضد الماضي"..بمعنى أن الوعي الحداثي ليس تشيعا لسلطة ماضوية وحنينا إلى أصل تليد وحقبة ذهبية،بل هو تمجيد للحاضر وانفتاح على الآتي."[4]، قد تكون القطيعة مع الماضي من أهم خصائص الحداثة في الأدب ، وذلك لرغبة المبدعين دائما في كتابة ما هو جديد وغير مألوف، وهذا ما عبّر عنه (فلوبير) (Flaubert) حين قال "إن ما يثيرني لكونه جميلا، ما يروق لي أن أفعله، هو كتاب يدور حول لا شيء، كتاب خال من الارتباطات الخارجية،متماسك بذاته من خلال القوة الداخلية لأسلوبه "[5]، هذه الرؤية الحداثية

---

[1] عبد الغفار مكاوي : ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحديث، ج1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة–مصر، (د.ط) ، 1972، ص112

[2] خيرة حمر العين : جدل الحداثة في نقد الشعر العربي ، ص35

[3] بشير تاوريريت : الشعرية والحداثة بين أفق النقد الأدبي وأفق النظرية الشعرية ،دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع دمشق–سوريا ،ط1، 2008، ص72

[4] محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة ، ص12

[5] مالكولم برادبري و جيمس مكفارلين :حركة الحداثة ،ج1، ص20–21

تتجاوز الكتابة الأدبية لتسع كلّ الفنون ، إنه الاتجاه الحديث الذي يترجم شعور كل فنـــان في ذلك العصر ، من أهم أفكار الروائي (فلوبير) (Flaubert) التي تؤسس للحداثـــة في الأدب فصل الحقيقة الموجودة عن الحقيقة الأدبية "ليس هناك مواضيع جميلة أو بذيئة إذا ابتعدنا عـــن قاعدة الفن الخالص لأننا نستطيع بالإنشاء أن نغيّر نظرتنا إلى الأشياء ،وفكرة فلوبير هذه إبداع متطور." [1] .

في مجال النقد الأدبي يعرّف الناقد الفرنسي (رولان بارت)(Roland Barthes) الحداثـــة "بأنّها انفجار معرفي لم يتوصّل الإنسان إلى السيطرة عليه"[2] ،ويقرّ بأن الحداثة لا تقدم أعمـــالا معصومة وكاملة ، ومع ذلك فيجب التمسك بها و الدفاع عنها "ينبغي أن نتخذ موقفنا مـــن الحداثة وندافع عنها في مجموعها راضين بما تنطوي عليه من نقائص لا يكـــون في اســـتطاعتنا تقديرها بالضبط." [3]، من أهم المفاهيم التي تناولها هي ما يسمّيه بلذة النص ، إنّ قراءة أعمـــال لبروست وفلوبير وبلزاك وحتى لألكسندر دوما تحقق له بعض اللذة ،غير أنّه لا يستطيع إعـــادة كتابتهم ، يقول "ويكفي أن أعلم هذا كي أنفصل عن إنتاج هذه الآثار ، هذا في الوقت الـــتي يؤسس ابتعادهم عني حداثتي (أليست الحداثة هي أن نعرف ما ينبغي تجنب العودة إليـــه؟)."[4]، وكأنّه يقول أن الحداثة في الأدب هي أن تكتب ما لم يُكتبْ،أمّا(تودوروف)(Todorov)،فيرى أن الحداثة مشروع لم يكتمل بعد، وهو قابل للاستكمال ومرغوب فيه، أما ما يسمى بـــ"مـــا بعد الحداثة" فكان من الأجدى أن يسمى الحداثة المتطرفة[5].

لا يمكن الحديث عن مفهوم الحداثة في الفكر الغربي ، دون أن نتعرض لمفهومها الفلـــسفي، لقد لعب فلاسفة الغرب دورا خطيرا في التحوّل الفكري في أوربا ، وكانت الحداثة من أهـــم المواضيع الفلسفية التي أثْرت الفكر الفلسفي، من أهم فلاسفة الغـــرب نجـــد (ديكـــارت) (Descartes) "الذي أطلق عبارته الشهيرة "إن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس" وأقام مذهبه العقلي على أساس أن الحقيقة قائمة في العقل ولا وجود لها خارج الفكر، وأن الوضوح

---

[1] فيكتور برومبير : غوستاف فلوبير ، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر ، تر:غالية شملي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1978 ، ص 22

[2] عدنان علي رضا النحوي : تقويم نظرية الحداثة ، دار النحوي للنشر و التوزيع ، الرياض –السعودية ، ط1 ، 1992 ، ص 35

[3] رولان بارت :درس السيميولوجيا ، تر:عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء–المغرب،ط3، 1993، ص44

[4] المرجع نفسه ، ص 66

[5] ينظر : محمد الشيكر : هايدغر وسؤال الحداثة ، ص22

والتميز هما معيارا هذا الفكر،"[1]، لقد ارتبط فكر (ديكارت)(Descartes) بالعقل ،وتعـدّ العقلانية من أهم مقوّمات فكر الحداثة ،ولهذا يـرى (ألان تـورين) (AlainTouraine) أن الفكر السائد في الحداثة الوليدة هو الفكر الديكارتي "لا لأنه فارس العقلانية ولكن لأنه يجعـل الحداثة تسير على قدمين واثقتين ، ولأن فكره المميز بالثنائية – الذي سـرعان مـا هاجمـه التجريبيون ولكنه امتدّ عبر كانط – ينادينا عبر قرني فلسفة التنوير وإيديولوجية التقدم لكـي يعلمنا من جديد أن نحدد الحداثة ."[2] لقد تحرّر (ديكـارت)(Descartes) مـن سـيطرة الأحاسيس ومن الآراء الخادعة بفضل اعتماده على العقل الذي تمكّن من خلالـه أن يؤسـس قواعد منهجية أوصلته إلى حقائق معرفية صحيحة ، إنّه " فعلا،وبكل تأكيد،المؤسس الأكـبر لفكرة المنهج التي يرتكز عليها المشروع العلمي للأزمنة الحديثـة ، بـل للحداثـة ذاتهـا."[3]، الفيلسوف الثاني هو (كانط) (Kant)،الذي يعتبره (هايدغر) [4](Heidegger) مؤسس الحداثة في حقل الفلسفة، أما (فوكو)[5](Foucault) فيعتبره "عتبة حـداثتنا" ويـرى "أنّ الكانطيـة كحدث اركيولوجي هي انخراط في الحاضر الراهن وفي منطق الوقت وإيقاعه ، وهي اضطلاع بالسؤال الراهني ما الأنوار؟ الذي هو سؤال عن حقيقة الحداثة ذاتها ."[6] و يعود ذلك إلى ربط فكر التنوير أو الأنوار بالحداثة، فالحداثة هي وليدة هذا الفكر،وهذا ما يؤكّـده (هبرمـاس) [7](Habermas)حينما رأى أن (كانط) (Kant) عبّر عن الحداثة دون إدراكها "يعبر كانط عن العالم الحديث ببناء عقلي.ولا يعني هذا سوى أن الملامح الأساسية للعصر تنعكس في الفلسفة

---

[1] عطيات أبو السعود : الحصاد الفلسفي للقرن العشرين ، منشأة المعارف جلال حزى و شركاه ، الأسكندرية – مـصر ، (د ،ط) ، 2002 ، ص 61

[2] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 71

[3] محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي : الحداثة وانتقاداتها نقد الحداثة من منظور غربي ، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء– المغـرب، ط1 ، 2006 ، ص 23

[4] مارتن هايدغر: (1889م–1976م) فيلسوف ألماني وهو من أعظم فلاسفة القرن العشرين، عمل أستاذا في جامعة فرايبورغ ثم تـولى عمادتها، ارتكزت فلسفته حول مسألة الوجود من مؤلفاته (الوجود والزمان)،(مدخل إلى الميتافيزيقا) [ينظر،جورج طرابيـشي:معجـم الفلاسفة ، ص 640–642]

[5] ميشال فوكو: (1926م–1984م) فيلسوف فرنسي حاصل على شهادة التبريز في الفلسفة،بحث في الأحداث التي صنعت عقلانيـة الحضارة الحديثة من مؤلفاته (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) [ينظر،المرجع نفسه ، ص 432–433]

[6] محمد الشيكر : هايدغر وسؤال الحداثة ، ص 45

[7] يورغن هابرماس:فيلسوف وعالم اجتماع ألماني ولد عام1929م دعا إلى فلسفة أنوار جديدة من مؤلفاته (البنية السلوكية للحياة العامة) [ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ، ص 635]

الكانطية كما في المرآة دون أن يفهم كانط الحداثة بوصفها كذلك"[1] ، لقد أسّس كل من (ديكارت)(Descartes) و (كانط)(Kant) الفكر المرجعي للحداثة و لا يمكن – مهما كان الاختلاف – لأحد أن ينكر فضلهما الكبير في تشكيل الحداثة في الحقل الفلسفي و الحقل المعرفي بصفة أعم " إذا كان الوعي الفلسفي بالحداثة يعود بدون جدال إلى هيجل ،فإن البراعم الأولى لهذا الوعي ، وإن بصورة غير واضحة ،يعود إلى فيلسوفين آخرين ، أولهما ديكارت الذي ارتبط، عبر الكوجيتو ، بانطلاق دينامية الفكر الحديث ، مقدما الأساس الصلب لفكر الحداثة ، وثانيهما كنط الذي يعتبره البعض مفكر الحداثة وبؤرتها ومرآتها بينما يعتبر آخرون أنه يشكل ردة بالقياس الى ديكارت ، وثورة كوبرنيكية مضادة."[2] .

إذا كان هناك اختلاف حول ريادة (كانط) (Kant) للحداثة،فإنّ هناك اتّفاق على أن الفيلسوف(هيجل)[3](Hegel) هو أوّل من جعل الحداثة موضوعة فلسفية "لم يكن هيجل الفيلسوف الأول الذي ينتمي للحداثة ولكنّه الأوّل الذي باتت الحداثة لديه مسألة."[4]، يرى (هيجل) (Hegel) أنّ أهمّ سؤال يواجه الفلسفة هو سؤال الحداثة ، بل إنّه لا يمكن فهم العصر من منظور فلسفي خارج إطار الحداثة، ويقترن مفهوم الحداثة عنده بمفهوم "الذاتية" و التي تتأسس على مفهومين رئيسين هما الحرية والتفكير و يذهب (هبرماس)(Habermas) إلى أن الذاتية تتضمن دلالات هي الفردية وحق النقد واستقلال العمل والفلسفة المثالية نفسها[5]،للفيلسوف الألماني(هايدغر) (Heidegger) رؤية خاصة للحداثة ، إذ تتميّز تحليلاته لها "عن سابقاتها بمحاولتها استكشاف الماهية الفلسفية بل الميتافيزيقية للحداثة وبتفكيكها بعيدا عن كلّ تحليل سوسيولوجي، أو اقتصادي ظرفي أو غيره ،"[6] ، ولعلّ ما يميّز رؤيته للحداثة هو ربطها بالميتافيزيقا ، على الرغم من أنّ تاريخ الحداثة يناقض الميتافيزيقا في حد ذاتها ،وهو يرفض الاحتفاء الذي أولته الحداثة للإنسان حين اعتبرته مركز الوجود ، ليس انتقاصا من منزلة البشر

---

[1] هبرماس : القول الفلسفي للحداثة ، ص 34

[2] محمد سبيلا : الحداثة وما بعد الحداثة ، ص 22

[3] جورج هيغل : (1770م–1831م) فيلسوف ألماني نشأ محبا للمطالعة حصل على دبلوم في اللاهوت،عُرف بقوة المنطق، عُيّن مدرّساً في جامعة هايدلبرغ وفي هذه المرحلة نشر أفكاره ومذهبه وذاع صيته بعد نشره لمؤلفه (موسوعة العلوم الفلسفية) [ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ، ص 664–668]

[4] هبرماس : القول الفلسفي للحداثة ، ص 72

[5] ينظر المرجع نفسه ، ص 30–31

[6] محمد سبيلا :الحداثة وما بعد الحداثة ، ص 37

وإنّما يرى أنّ الإنسان هو حارس هذا الوجود وراعيه و ليس مركزه ، إنّها مسألة اختلاف في الرؤى، يسعى (هايدغر) (Heidegger)إلى الحد من سلطة العقلانية دون أن يدعو إلى اللاعقلانية،وهذا ما يفسّر حديثه عن التقنية التي تشكل الجانب السلبي للحداثة "إن التقنية الغربية المعاصرة ، تفصح عن ذاتها،كإرادة قوة مستطيرة ، تمتطي الإنسان والعالم، وترهنهما معا في قبضتها الميتافيزيقية المتنفذة."[1] ، لقد أمست التقنية السيّد المسيطر والإرادة الفاعلة التي تتحكّم في مصير الإنسان ، تبدو الأفكار التي يطرحها وكأنّها ضد الحداثة ، لكنّه كان يؤكد دائما " أنه لا يدعو إلى الارتداد عن الحداثة أو العودة الرومانسية إلى الطبيعة والتخلي عن الآلة، بل فقط إلى تبيين مخاطر التقنية المتمثلة لا في التقنية ذاتها ، بل في ماهيتها التي تحكم بصورة مزدوجة علاقة الانسان بالكائن والكينونة، وعلاقته بماهيته ذاتها."[2]، هذا بإيجاز أهم المفاهيم الفلسفية للحداثة لأشهر فلاسفة الغرب ،إذ لا يمكن الإحاطة بكلّ الرؤى الفلسفية لأنّ المقام لا يتسع لذلك .

أخيرا نتعرّض باختصار لمفهوم الحداثة عند(ماكس فيبر)[3](Max Weber) (1864م-1920م) الذي يؤكّد على تلك العلاقة الوطيدة بين الحداثة و العقلنة والتي بفضلها تمكّنت المجتمعات الأوربيّة من التخلّص من تلك التصورات الدينية للوجود وظهرت ثقافة لادينية سادت إلى يومنا هذا ، إنّ العقلنة لم يقتصر تأثيرها على علمنة الثقافة بل أيضا أدّت إلى نمو متواتر للجماعات الحديثة "تتصف هذه البنى الاجتماعية الجديدة بالتمايز بين نظامين تبلورا حول مركزين منظمين متداخلين وظيفيا هما المشروع الرأسمالي والجهاز البيروقراطي للدولة،"[4]،وهو يتناول العلاقات المعقّدة بين الدين والاقتصاد من جهة وبين ثقافة المجتمع (الأعراف والروابط الأسرية ...) والاقتصاد من جهة أخرى ومدى تأثيرها على تحديث المجتمعات ، "وكان قصد فيبر العام هو إظهار كيف قامت الأديان الكبرى المختلفة بتحبيذ أو عرقلة العلمنة والترشيد الحديثين."[5]، لقد تعرّض (ماكس فيبر) (Max Weber) إلى مصطلح الرأسمالية بكثير من التفصيل والتحليل،

---

[1] محمد الشيكر : هايدغر وسؤال الحداثة ، ص 136

[2] محمد سبيلا :الحداثة وما بعد الحداثة ، ص 38

[3] ماكس فيبر : (1864م–1920م) عالم اجتماع واقتصاد ألماني يعتبر من بين مؤسسي علم الاجتماع المعاصر، من أهم نظرياته نظرية السيادة الكارزماتية[ينظر،عبد الناصر جندلي:تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والإجتماعية ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، (د ،ط) ، 2005 ، ص 249]

[4] هبرماس : القول الفلسفي للحداثة ، ص 8

[5] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 47

لكن يجب الإشارة إلى أنّ هذه الرأسمالية التي حلّلها لم يقصد بها الصيغة الاقتصادية للحداثة بشكل عام "ولكن لمفهوم خاص يقوم على قطيعة بين العقل و الاعتقاد، وبين الانتماءات الاجتماعية والثقافية للظواهر القابلة للتحليل والحساب من جانب والوجود والتاريخ من جانب آخر."[1] .

هذا باختصار مفاهيم الحداثة في الفكر الغربي التي لا يمكن الإحاطة بكل جوانبها ،ذلك أن الحداثة كما رأينا سابقا مفهوم شامل لم يقتصر على حقل معرفي معين ،إنه رؤية واسعة للوجود ولعلاقة الإنسان بكل ما يحيط به ، ومع ذلك فإن للحداثة مقوّمات لا يمكن أن تقوم من دونها على رأسها العقلانية و الذاتية والعدمية ....وحملت الحداثة الكثير من القيم على رأسها الفردانية و الحرية و التقدم و استقلالية العمل و التسامح و حقوق الإنسان ...الخ .

وفي ختام هذا المبحث يجب الإشارة إلى مصطلح "ما بعد الحداثة"(postmodernité)، الذي نشأ كردّ فعل للحداثة وتأسّست مفاهيمه على أرضيّة النقد الذي وُجّه للحداثة من طرف الفلاسفة وعلى رأسهم (نيتشه) (Nietzsche)[2] الذي انتقد أهم مقوم للحداثة وهي العقلانية وشكّك في بديهياتها ،في الأدب تعتبر التفكيكية من أهم مظاهر "ما بعد الحداثة، غير أن "ما بعد الحداثة" لم تستقر على مفهوم دقيق مثلها مثل الحداثة ، من جهة أخرى يعتبر (هبرماس) (Habermas) "ما بعد الحداثة" الصيغة المتقدمة للحداثة لأن الحداثة كما ردّد دائماً هي مشروع لم يكتمل بعد.

---

[1] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 49

[2] فريدريش نيتشه :فيلسوف ألماني (1844م–1900م)،انتسب إلى جامعة بون ثمّ جامعة لايبتزيغ ، تطوّع في الجيش وفي عام 1871م نشر أوّل أبحاثه ، درّس في جامعة بال وعاش متنقلا بين إيطاليا وسويسرا وفي تورينو كتب آخر أعماله (هو ذا الإنسان) قبل أن يصاب بالشلل الكامل، من أشهر مؤلفاته (هكذا تكلّم زرادشت) [ينظر،جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ، ص 625–628]

الحداثـــة عنـــد الـــعـــــرب :

أ – مفهوم الحداثة في الأدب العربي :

قبل الحديث عن مفاهيم الحداثة في أدبنا العربي الحديث، لابأس أن نعرض باختصار أهـــمّ الدلالات المعجمية للفظ الحداثة جاء في معجـــم (لـــسان العـــرب):" الحَـــديثُ : نَقـــيضُ الْقَديمِ.وَالْحُدُوثُ.نَقيضُ الْقُدْمَة.حَدَثَ الشَّئُ يَحْدُثُ حُدُوثاً وحَداثَةً، وأَحْدَثَهُ هُوَ، فَهُوَ مُحْدَثٌ وحَديثٌ، وكذلكَ اسْتَحْدَثَهُ."[1]، وقد استخدمت العربُ حدث مقابل قدُم وهو مـــا يعـــني أنّ الحداثة تعني الجدّة والحديث يعني الجديد، أمّا المعنى الآخر التي تدلّ عليه كلمة الحداثة فهو أوّلُ الأمر وبدايتهُ "حِدْثانُ الشَّيْئِ ، بالْكَسْرِ : أوَّلُهُ ، وهُوَ مَصْدَرُ حَدَثَ يَحْدُثُ حُدُوثاً وحِدْثاناً،"[2]، وقد استُخدم هذا المعنى بكثرة كنايةً عن مرحلة الشباب وأوّل العمر ، يُقالُ عن فلان أنّه فعـــل كذا في حداثة سنّه أي في مرحلة شبابه، وتقول العرب رجالٌ أَحداثُ السِّنِّ وحُـــدْثانُ الـــسِّنِّ وحِدْثانُ السِّنِّ وحُدَثاءُ السِّنِّ، والحُدْثانُ جمع حَدَث و الحَدَثُ هو الفتيّ السِّنِّ و الحَـــدَثُ هـــو أيضاً من أَحداث الدّهر شبه النازلة والأحداث أيضاً هي الأمطار الحادثة في أوّل السّنة[3]، أمّـــا الحديث فهو الخبر واستحدث الرجلُ خبراً أي وجد خبراً جديداً ونقول رجلٌ حَدِث وحَـــدُث وحِدْث وحِدّيث ومُحَدِّث بمعنى واحد مشترك وهو كثير الحديث حسن السياق له، وحـــدث الأمر بمعنى وقع، ومحدثات الأمور ما ابتدعه الناس من أمور لم يعرفها الأسلاف " وَ الْحُدُوثُ: كَوْنُ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ.وأَحْدَثَهُ اللهُ فَحَدَثَ.وحَدَثَ أَمْرٌ أَيْ وَقَعَ.ومُحدثَاتُ الأُمورِ: مَا ابْتَدَعَهُ أَهْلُ الأَهْواءِ مِنَ الأَشْياءِ الَّتي كانَ السّلَفُ الصَّالحُ على غيْرِها."[4]، وجاء في المعجم أيـــضاً أحـــدث الرجل إذا صلّعَ وأحدث الرجل كناية عن ارتكابه موبقة الزّنا ، تلك هي الدّلالات المعجميـــة لكلمة الحداثة التي وردت في جميع المعاجم القديمة التي يمكن إيجازها كما يلي :

الحداثة نقيض القدم وتعني الجدّة، والحداثة أوّل الأمر وبدايته، والحداثة كناية عـــن بدايـــة الشباب، والحَدَث الرجل الفتيّ و الحداثة وقوع الأمر، والحداثة تشيرُ إلى ما ابتدعه الناس مـــن أمور لم يعرفها السلف الصالحُ، والحديث هو الخبر الجديد، ورجلٌ حِدِّيث كـــثير الحـــديث، وأحداث الدهر نوائبه.

---

[1] ابن منظور : معجم لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة– مصر ، مادة : حدث

[2] يُنظر المرجع نفسه ، مادة : حدث

[3] يُنظر المرجع نفسه ، مادة : حدث

[4] المرجع نفسه ، مادة : حدث

في العصر الحديث لم تخرج المعاجم العربية الحديثة عن سابقاتها و لم يكتسبْ لفظ الحداثة أيّ معنى معجمي جديد وإذا أخذنا (المعجم الوسيط) وهو من أهم المعاجم العربية الحديثة نجد الحداثة مصدر فعله حَدَثَ ، نقول حدث الشيء حُدوثاً و حَداثَةً بمعنى نقيض قَدُمَ ، والحداثة هي سن الشباب ، يقالُ : أخذَ الأمرَ بحداثته أي بأوّله و ابتدائه .[1] تلك هي الدلالة المعجمية لمصطلح الحداثة، وكلمة حداثة لم تستعمل في التراث الأدبي العربي بل ارتبطت باستخدام معاصر كترجمة للمصطلح الأجنبي، لكن هناك صيغ مثل "المحدث" ، "المحدثين"، "الحديث"كان لها استعمالٌ واسعٌ في هذا التراث [2] ، بل إنّ الصراع بين القدماء و المحدثين في الشعر كان من أهمّ القضايا التي عرفها تراثنا النقدي ، وهو ما يؤكد أن الحداثة لم تكن من القضايا المستحدثة في تاريخ الأدب العربي ، فالتحولات التي عرفتها المسيرة الشعرية و النقدية العربية مسّت جوهر الحداثة "فالمساهمات الإبداعية والنقدية العربية لم تكفّ منذ القرن التاسع على أقلّ تقدير عن طرح مسألة الحداثة واستدعاء التداول بشأنها ،"[3] ،وكان الشعر العربي في العصر العباسي قد عرف شعراء حملوا لواء التجديد و لواء التمرد على القصيدة الجاهلية و كان على رأسهم (بشار بن برد) و(أبو نواس) الذي وقف " أمام الطلل وعيناه تفيضان ازدراء لهذا الذي سيّجه التقليد بقدسية عبر القرون ونفسه ممتلئة بروح البيئة الجديدة." [4] ، لقد تغيّرت نظرة الشعراء الحضريين للحياة التي تعقدت،وانعكس ذلك على شعرهم، ثم اتجه الشعر إلى الغموض والتعقيد وشهد لغة مجازية لم تعرف من قبل بخاصة في شعر « أبي تمام »"لقد تحول الشعر في العصر العباسي ، إلى بحث مستمر عن نص مدهش ، لأن الشاعر لا ينشئ شعره على مثال سابق، وإنما هو مأخوذ بالرؤيا، ويكشف عن عوالم غامضة لم تكن معروفة من قبل."[5]، وقد شهد الغرب الإسلامي تجدّدًا ملحوظاً في الشعر العربي تجلّى في ظهور الموشح الأندلسي، كل هذه التحولات تدخل في إطار ما يسمى اليوم بالحداثة الشعرية ، و لم تقتصر تلك التحولات على الشعر العربي ، فقد شهد النقد أيضا في مسيرته الطويلة محطات للتجديد على يد

---

[1] ينظر ،مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ،القاهرة – مصر ، ط4 ، 2004 ، مادة :حدث

[2] ينظر ، جابر عصفور : رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط1 ، 2008 ، ص 333

[3] سامي سويدان : جسور الحداثة المعلقة ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1997 ، ص 9

[4] محمد جود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها و مظاهرها ، دار الكتاب اللبناني بيروت – لبنان ، ط1 ، 1986 ، ص 17

[5] مشري بن خليفة : الشعرية العربية مرجعياتها و ابدالاتها النصية ، وزارة الثقافة الجزائر ، (د، ط) ، 2007 ، ص69

نقاد كبار نهلوا من مختلف الثقافات وتدارسوا كتابات (أرسطو) وغيره من الفلاسفة واستوعبوها وانعكست على كتاباتهم النقدية .

في العصر الحديث كان لتأثر الشعراء العرب بنظرائهم في الغرب انعكاس كبير على شعرهم، وتجلّى ذلك مثلا في ظهور الشعر المرسل عند (عبد الرحمان شكري)، والتجديد في اللغة عند (جبران خليل جبران) وغيرهما، ثم جاء شعر التفعيلة على يد(نازك الملائكة)و(السيّاب) ليُدشّن بداية التحرر من الشكل العمودي و أخيرا ظهور قصيدة النثر على يد(يوسف الخال) و(أدونيس) وغيرهما ، وكان (العقاد) من أبرز الداعين إلى التجديد في الشعر "فهو الذي قاد حملات هجوم حادّة وعنيفة ضد التقليديين ساعيا إلى تهديم أبرز رموزهم في العقدين الأوّلين للقرن العشرين معتبرا أن أحمد شوقي قد أضحى صنما ينبغي تحطيمه والتخلص منه ،" [1] ، أمّا ميدان النقد فيجمع أغلب المهتمين بشأن التجديد فيه أنّ الكتابات النقدية لجماعة الديوان ولـ(طه حسين) المتأثرة بالمناهج الغربية هي "بمثابة الإرهاص للحداثة النقدية المعاصرة ، خصوصا ما ترتب عن دعاوى (طه حسين) في كتابه : (في العصر الجاهلي) من ضجة وخصومات نقدية بين أنصار القديم وأصحاب المشروع التنويري (العقلي)." [2] ، ذلك بشأن مظاهر التجديد في الشعر و النقد ،أما ما يخص مصطلح الحداثة ، فقد دخل الحياة الأدبية العربية نتيجة للمثاقفة مع الغرب وصار متداولا عند فئة من الكتاب العرب الذين اتصلوا بالأدب الغربي ثم سرعان ما انتشر في الكتابات الأدبية و في الصحافة والمجلات و "لم يكتسب دلالته النقدية الجديدة، ويتردد صداه المثقل بظلال الحركات الأدبية في الغرب، في الكتابات النقدية العربية ،إلا بعد ظهور حركة الشعر الحر، وثباتها في وجه التيارات المضادة لها في الخمسينيات والستينيات."[3]، لقد كان لظروف نشأة هذا المصطلح في الغرب وشموليته وغموضه تأثير كبير على وضعيته في الأدب العربي، إذ لم يصل النقاد العرب إلى اتفاق على تحديد تعريف دقيق له وقلّد الكثير منهم نظرائهم الغربيين في تجريده من بعده الزمني و إعطائه البعد الفكري ،وكان لمجلة "شعر" التي أصدرها (يوسف الخال)سنة 1957م في لبنان دور كبير في ترسيخ مفهوم الحداثة، ففي كتابه "الحداثة في الشعر" ينطلق (يوسف الخال) في سعيه لتحديد مفهوم الحداثة في الشعر من كون الحداثة هي نظرة حديثة للوجود ويكشف أن هناك ثورة في الشعر العربي بدأت

---

[1] سامي سويدان : جسور الحداثة المعلقة ، ص 9

[2] عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر ، ص 145

[3] عبد الله أحمد المهنا :"الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة" ، مجلة عالم الفكر ، مج19 ، ع 3 ، 1988، ص 12

بـــ(شوقي) و(مطران) ، ويذهب إلى أن لكل عصر حداثته ، فالحداثة لم تقترن بعـــصر بعينـــه فـــ(امرؤ القيس) كان حديثا في نظر السلفيين من أبناء عصره "الحداثة في الشعر إبداع وخروج به على ما سلف، وهي لا ترتبط بزمن ."[1]،ليس من الضرورة اختلاف الشعر كليا عن الـــشعر الذي سبقه كي يحقق الحداثة، ولكن الأهم هو أن يؤسس الشاعر تجربة فريدة متميزة مضمونا وشكلا ومعبرة عن العصر "والحداثة في الشعر لا تمتاز بالضرورة على القدامة فيـــه، ولكنـــها تفترض بروز شخصية شعرية جديدة ذات تجربة حديثة معاصرة، وهذه التجربة فريدة تعـــرب عن ذاتها في المضمون و الشكل معا،"[2]، تبدو الحداثة موقفا من الحياة المعاصرة يهـــتم بجـــواهر الأشياء أوكما يسمّيها(يوسف الخال)"العقلية"،وهو يحاول أن يميّز بين الحداثة والتحديث،ويرى أن الإنسان العربي عليه أن يدرك أنه قادرٌ بالعقل والاعتقاد أن يسيطر على الطبيعة .

يتميز الشاعر (سعدي يوسف) برؤيته الثورية فالحداثة هي الفن الثائر "إن الحداثة تجمـــع الثورة والفن معا،بحيث لا تكون "الحداثة" كلمة مجردة ..."[3] ، ويرى أن هناك ســـعيا حثيثـــا للفصل بين الثورة والحداثة وذلك بعزل مفهوم الحداثة عن الحركة الثورية للمجتمـــع ثم تـــأتي المرحلة الثانية "وهي إكساب الحداثة معنى مناهضا للتقدم ، عبر تناول رجعي للناس والظـــواهر آنذاك تتحول الحداثة إلى ارتداد."[4] .

أما الشاعر (محمد بنيس)فيسعى إلى الوصول إلى جوهر الحداثة الشعرية ولكن بلغة نقدية صعبة،ويعتبر مفهوم التقدم إلى جانب مفاهيم الحقيقة والنبوة والخيال المصاحبة له معيارا مهمـــا لترسيم الحدود بين القدامة والحداثة في الشعر المعاصر،والحداثـــة الـــشعرية عنـــده حـــداثتان متباينتان،حداثة التقليدية (الحداثة المعطوبة) حيث يصبح في إطارها التقـــدم يعـــني عـــودة إلى الماضي،لأن الرؤية هنا دينية المصدر "وهكذا فإن التقليدية خضعت لتجميد الـــزمن في نمـــوذج موحّد ، به يتشبّه كل من يريد التقدم وإليه يؤول."[5] ، الحداثة الثانية هي حداثة الرومانـــسية العربية و الشعر المعاصر (الحداثة المعزولة) و هي تقابل التقليدية وتشترك معهـــا في اســـتخدام الزمن كسياق، و لكن نظرتها للتقدم تختلف ، فهي ترى الزمن متجه نحو المستقبل المتفوق على

---

[1] يوسف الخال : الحداثة في الشعر ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت – لبنان ، ط1 ، 1978 ، ص 15

[2] المرجع نفسه ، ص 15

[3] عمر أزراج : أحاديث في الفكر و الأدب ، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة – الجزائر ، ط1 ، 1984 ، ص 73

[4] المرجع نفسه ، ص 73

[5] محمد بنيس :الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته ، ص 163

الماضي، فالزمن هنا يتقدم نحو الأحسن والأرقى والأفضل "بهذه الرؤية إلى الزمن سيكون تأويل الرومانسية العربية والشعر المعاصر متعارضا مع التقليدية، لأنّه ينطلق من المستقبل لا من الماضي في تحديد اتجاه التقدم، كما ينطلق من المجهول لا من المعلوم ،من المفاجئ لا من المألوف"[1] ، لكن بالتخلي عن التقدم كمعيار تصبح الحداثة عابرة للأزمنة وتغدو إعادة القراءة مجالا واسعا لاكتشاف الحداثة الكامنة في أي نص مهما اتسعت المسافة الزمنية بينه وبين اللحظة الراهنة، بتعابيره الجميلة يرى(محمد بنيس)أن الحداثة "مواجهة من أجل ماء النص، به يتسمّى الزمن الشخصيّ في نص لا يتكرّر ولا يُلغى، و به تتجدّد الحداثة في لا نهائيتها،عبر الأزمنة كلّها."[2]

يبدو (الياس الخوري)مثقلاً بقضايا وطنه ولذلك نجده يربط بين الحداثة الأدبية و الحداثة السياسية، فالأدب يكشف الواقع بكل تناقضاته وهمومه ، في حديثه عن الحداثة الأدبية العربية، يصف مسيرتها بالمعقدة ، فقد تأسست انطلاقا من التراث الشعري العربي و من التأثر بالأدب الغربي يقول "مسيرة الحداثة الأدبية هي مسيرة بالغة التعقيد.قد تبدو من منظور تأريخي وكأنها تحرق في داخلها وفي سرعة تحولاتها المراحل في استعادتين مختلفتين متداخلتين : فلقد تمت استعادة الماضي الشعري في حركة الإحياء ، وتتم استعادة الماضي الغربي في حركة التجاوز التي عبّرت عن نفسها في ظاهرة الشعر الحديث ، الذي يخرج على عمود الشعر العربي ، وفي الأشكال الأدبية المستحدثة: الرواية ، القصة ، المسرح الخ.."[3]، يتحدث (الياس الخوري)عن الرواية العربية باعتبارها محاولة عربية لاستيعاب الأشكال الأدبية الجديدة ،لكنّه يركز على الشعر العربي الحديث فهو المؤشر الدقيق لمستوى الإبداع العربي و هو أيضا المرآة التي تتجلى فيها أزمة الحداثة العربية بكل تشعباتها يقول "فالشعر- اللغة ، هو الأرض التي تمت فيها الخلخلة الكاملة في الوعي التاريخي العربي.والشعر— الإبداع ، كان الإطار الذي انفجرت في داخله تناقضات إشكاليات الحداثة العربية ،فقدمت صوتا يحمل نبرة تراجيدية ، أمام العالم ، مزج الصوفية بالواقعية الجارحة ، وقدّم أكثر الإشارات دلالة في مسار الحداثة العربية ، متحديا قدرتها على التشكل داخل ومن ضمن تطوير المبنى اللغوي العربي، ووضع الحساسية العربية أمام ضرورة كسر أشكالها التقليدية "[4] .

---

[1] محمد بنيس :الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته ، ص 164

[2] المرجع نفسه ، ص 180

[3] الياس الخوري :الذاكرة المفقودة دراسات نقدية ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط2، 1990 ، ص 34

[4] المرجع نفسه ، ص 37

يرى(سامي سويدان)أنّ الحداثة في الفن عموما ليس أمرا طارئا، ولا هي مقترنة بعصر دون آخر وأنّ الحداثة والإبداع متلازمان ، فالبحث والإبداع في تفاعلهما الجدلي يشكلان أرضية لانطلاق حركة الحداثة ، إن الحداثة العربية الراهنة هي نتيجة حتمية لاحتكاك الثقافة العربية بنظيرتها الغربية ، إنّ أهم ما يميّز رؤية (سامي سويدان)للحداثة هو ربطها بحركة التحرير الاجتماعي "ارتبطت الحداثة تاريخيا بحركة التحرير الاجتماعي" [1] ، وهذا ما جعل من الثورة على الأوضاع السائدة و السعي إلى التغيير من أهم مميزات الحداثة "تقدمت الحداثة صنوا للثورة والتوق إلى التغيير"[2] ، و لم تقتصر الحداثة على الشعر فحسب بل شملت القصة و الرواية والمسرح ، غير أنّ الحداثة في الشعر كانت الأبرز و الأكثر جدّة ،ومن قضايا الحداثة حسب الكاتب فهي قضية التحرير وتمثلت في الأدب أساسا في الثورة على التقليد السائد و قضية النبوة أو الرسالة التي يحملها الأديب الحداثي و كذلك قضية التجديد ، إن الحداثة هي تمرد دائم على المألوف وسعي مستمر لكشف الآتي "إنّها تحوّل وخروج عن السائد و المألوف، انعطاف وانحراف في اتّجاه لم يكن قد طرق بعد ، تفرّع وامتداد نحو أفق كان حتى حينه مجهولا.قد يبلغ هذا التفرع مدى ويعرف ذلك الانحراف حدا يبدو معهما العمل الحديث في تأسيسه لنموذج جديد ومعايير طارئة ابتداعا من غير أصل ."[3].

يصف (شكري عياد)ذلك الواقع الذي يعيشه الحداثي العربي، إذ له حضوران ، حضور في ثقافته العربية "فهو يحارب التخلف والجمود في النظم والمؤسسات كما يحطم التقاليد اللغوية والفنية ويمارس أقصى ما يستطيع من حرية في التشكيل ، معبرا عن شهوة الإبداع وغرام الاكتشاف في كل تجربة جديدة."[4]، وهذا حضور بارزٌ ومتميّز وإن كان يُعاني من عدم الفهم، أمّا الحضور الثاني فهو حضور في الثقافة الغربية ، وهو حضور غير مهم أو غير بارز وفيه نجد الحداثي العربي "يقف ضد الثقافة التجارية الرأسمالية ، أو يجب أن يقف ضدّها." [5] ،هذا الواقع المعقد يجعل الحداثي العربي أمام خيارين بائسين ، ففي محيطه العربي غير مفهوم ، و في المحيط

---

[1] سامي سويدان : جسور الحداثة المعلقة ، ص 17

[2] المرجع نفسه ، ص 17

[3] المرجع نفسه ، ص 10

[4] شكري محمد عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 1993، ص 18

[5] المرجع نفسه ، ص 18

الغربي يتهدده الانحدار إلى السوقية وأيضا هو غير مفهوم في الثقافة الغربية لأن ما يحاربه من تخلف ومحرمات لم تعد موجودة في هذه الثقافة ، يتحدث (شكري عياد)عن الحداثة العربية ونشأتها و الأزمة التي تمر بها ويصف الأدب الحداثي بالأدب الرافض ، أمّا الحداثة من منظورها الفني فهي "ظاهرة صحية ، لأنها تعطي الفن قيمته الحقيقية ، قيمته التنبؤية، الكشفية، الجسور،وتنتشله من وهدة الدعاية الرخيصة ."[1].

يتحدث (جابر عصفور) عن لحظة الحداثة وهي لحظة تمرد الأنا المبدعة على طرائق الإدراك لتكشف عن ذاتها وعن الواقع المحيط بها "تنبثق الحداثة من اللحظة التي تتمرد فيها الأنا الفاعلة للوعي على طرائقها المعتادة في الإدراك ،سواء أكان إدراك نفسها،من حيث هي حضور مُتعيّن فاعل في الوجود ، أو إدراك علاقتها بواقعها ، من حيث هي حضور مستقل في الوجود."[2] ، إن الحداثة من المنظور الفني هي التجديد في الرؤى و محاربة التقليد والتبعية للآخر و إعطاء حرية للإبداع بما يفيده في أنتاج الفنون و المعرفة "وإذا كانت الحداثة في الفكر والعلم ابتداعا للمعرفة ولأدوات إنتاجها، فإن الحداثة في الآداب والفنون ابتداع لرؤى جديدة ولأدوات إنتاج هذه الرؤى في آن .إنها فعل متكامل لوعي متحد ينطوي على قيمة إيجابية .هذه القيمة نتعرفها في الضدية الجذرية التي تواجه اتباعية الموروث، وتواجه غياب الحرية في الواقع،ومنطق التبعية للآخر أياً كان هذا الآخر ، الضدية التي تقرن الحرية بالعدل ، وتقرن فعل الوعي الذي تنتسب إليه بفعل التثوير الدائم لأدوات إنتاج الفن ، وإنتاج المعرفة بالواقع والكون على السواء."[3]، أمّا علاقة الحداثة العربية بالتراث فهي لا تنفيه على الإطلاق وإنما تتصل بعناصره الإيجابية وتنفصل عن عناصره غير الإيجابية ،بل إن الحداثة العربية كما يؤكد (جابر عصفور) هي "حداثة تراثية بالمعنى الخلاّق لكلمة التراث ."[4]، ما يلاحظ على (جابر عصفور) هو استخدامه للمصطلحات الاقتصادية ،مثل الإنتاج ، الاستهلاك ، وتفاؤله بقرب تأسيس حداثة عربية معاصرة حداثة أصالة و ليست حداثة استهلاك ترتبط بالغرب وهو يلح على أن نصنع حداثتنا بأنفسنا انطلاقا من استغلال إيجابي للتراث و في ضوء المعطيات الجديدة المعاصرة ، بما فيها ثقافة الآخر.

---

[1] شكري محمد عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، ص 73

[2] جابر عصفور : رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر ، ص 383

[3] المرجع نفسه ، ص 387

[4] جهاد فاضل : أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب ، الدار العربية للكتاب ،تونس ،ليبيا ، (د، ط) ، (د ،ت) ، ص 51

يرفض (عبد الملك مرتاض) تقليد المناهج النقدية الغربية تقليدًا أعمى ولكـــن لا ضـــير في الاستفادة منها، لأنه من الصعب إرساء مناهج نقدية عربية في الوقت الراهن ، وينتقد بـــشدّة بعض الكتاب العرب المروجين لمصطلحات غربية لا يفهمونها و حجّتـــه في ذلـــك أنّ هـــذه المصطلحات لم تستقر على مفهوم ثابت في بيئتها، وينطبق هذا الوضع على مصطلح الحداثـــة الذي يصرّ على ربطه بالتراث يقول "في اعتقادي أنّ على الواحد منا أن ينطلق مـــن التـــراث أساساً وينتهي إلى الحداثة، لا أن يقفز إلى الحداثة قفزاً دون أن يعود إلى التراث. حـــتى كبـــار النقاد الغربيين ينطلقون من نظرية أرسطو للشعر .ينطلقون من التراث لينتهوا إلى الحداثـــة."[1] ، ولكن هذا لا يعني معاداة الثقافة الغربية بل يجب التواصل معها بما يفيد في تطور نقدنا الأدبي ، أما النص الحداثي فهو ذلك النص الخالد الذي يتجاوز كل الأزمنة دون أن يفقد بريقه الجمالي.

يُرجع (عبد الله الغذّامي) تعدّد مفاهيم الحداثة إلى كون كل مفهوم هو اجتهاد فردي ورؤية شخصية هذه الرؤية "هي بمثابة الموقف الخاص أكثر مما هي تصوّر معرفي مشترك ."[2]، قـــد لا تكمن الخطورة في تعدد المفاهيم وإنّما في تناقضها حينما تصبح المواقف الشخصية على طـــرفي نقيض ،إن حضور هذه الرؤى الفردية وغياب تصور جماعي مشترك لمفهوم الحداثة حوّل هـــذا المصطلح في الأدب العربي إلى إشكالية فكرية "أصبحنا في مواجهة مع الحداثة على أنّها إشكالية فكرية ، وليست مجرّد قضية نقدية أو إبداعية ."[3] ، يحاول (عبد الله الغذّامي) تحديـــد مفهـــوم الحداثة انطلاقا من الإبداع ومن ثنائية (الثابت ، المتغير) و اعتمادا على موروثنـــا فالحداثـــة "معادلة إبداعية بين الثابت والمتغير،أي بين الزماني والوقتي ، فهي تـــسعى دومـــاً إلى صـــقل الموروث ، لتفرز الجوهري منه فترفعه إلى الزماني ، بعد أن تزيح كل ما هو وقتي ، لأنه متغيّـــر ومرحلي، وهو ضرورة ظرفية تزول بزوال ظرفها، وتصبح طوراً يُسهم في نمو الموروث، لكنّه لا يكبّل الموروث أو يقيّده." [4]، كما يميّز بين الحداثة من جهة والمعاصرة والتجديد مـــن جهـــة أخرى ، فالجديد هو نقيض القديم ،بينما الحداثة ليست كذلك لأنها لا تقدُمُ أبداً "إنّها صـــلة استكشاف أبدية في أغوار أبرز الحقائق الإنسانية ، أقصد اللغة ،"[5] .

---

[1] جهاد فاضل : أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب ، ص 220

[2] عبد الله الغذّامي:تشريح النص مقاربة تشريحية لنصوص شعرية معاصرة،المركز الثقافي العربي،الدارالبيضاء–المغرب،ط2,2006،ص 10

[3] المرجع نفسه ، ص 11

[4] المرجع نفسه ، ص 13

[5] المرجع نفسه ، ص 15

يتميّز (عبد السلام المسدي)بجهوده الملحوظة في تأصيل مصطلح الحداثة ،والحداثة عنده مقولة وهي مقولة متلابسة في أدبنا العربي بسبب الفوضى في استعمالاتها فهي من جهة اللفظ دال متعدد الوجهات حسب سياق الجملة ومن جهة المعنى فهي حاملة لمدلولات متعددة تصل إلى حد التناقض "هكذا أصبحت الحداثة تعاني إشكالاً تصورياً متعدّد الواجهات وعلى هذا الأساس يتعذر على الناقد تناول موضوع الحداثة من موقع التنظير ما لم يفك التعاظل الاصطلاحي الحائم حول اللفظ والتشابك المفهومي الراكن في مظان المدلول "[1]، ويقترن مفهوم الحداثة عنده بمفهوم الزمن و يستخدم لغة رياضية شديدة التعقيد ، إذ نجد في لغته المصلحات ،المحور، النقطة ، الفضاء ، المطلق ، الآني ، القاسم المشترك... ، ويمثل الحداثة بنقطة متحركة على محور الزمن ، وهو ما يعني أن الحداثة لا ترتبط بعصر دون آخر ، والزمن زمنان زمن مطلق وزمن آني ولكل محوره "على هذا النمط يمكن لنا أن نحصر الحقل الدلالي لفكرة الحداثة لتحديد بؤرة المفهوم الذهني لها باعتبارها مقولة تصورية .ولا يتسنى ذلك إلا بالبحث عن القاسم الأدنى المشترك بين مبدأ الحدوث على محور الزمن المطلق ومبدأ الاقتران بمحور الزمن الآني الذي هو متول على الدوام لارتباطه بصيرورة الذات المتفوهة بلفظة الحداثة."[2] ، ثم يشير إلى النسبية باعتبارها المبدأ الذي تكمن فيه الكثافة الدلالية لمفهوم الحداثة ، فلا وجود لمفاهيم مطلقة، إنّ الحداثة في الأدب عند (المسدي)تفضي إلى حداثة في مضمون الأدب وحداثة في الصياغة ، أمّا الأولى فتعني "سعي الأديب إلى معالجة الأغراض الفنية التي تحرّره من تبعية التواتر المألوف "[3] ، وأمّا الثانية "فتتحدّد بمدى قدرة الأديب على ابتكار أسلوبه الأدائي مما لا يتقيّد بأنماط سائدة ولا معايير مطردة، "[4]، يتصدى (المسدي) للحداثة في النقد –وهي مسألة نادرا ما يتعرّض لها النقاد العرب – وهي حداثتان ، حداثة نقدية من حيث المضمون والتي لا تقوم "إلا متى جدّد النقد مقولاته التي يصدر عنها ومتصوراته التي يتجوّل بين حقولها ومصطلحاته التي يتعامل بها مُدلياً بمفاهيمه التقديرية ومُمارساً معاييره الإجرائية، " [5] أي باختصار لا يمكن للنقد أن يصير حداثيا إلا إذا أسّس لجهاز معرفي يعالج به النصوص الأدبية

---

[1] عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1983 ، ص 8

[2] المرجع نفسه ، ص 9

[3] المرجع نفسه ، ص 13

[4] المرجع نفسه ، ص 13

[5] المرجع نفسه ، ص 16

بطريقة لم تُعرفْ من قبل ،أما الحداثة الثانية فهي حداثة النقد من حيث الصياغة وهي "طبيعة الخصائص التي تتّسم بها لغة النقد في نوعيتها."[1]،ولا يرقى النقد إلى الكشف عن جماليات النص الحداثي ما لم يكُن هو ذاته حاملاً لنسبة مُعيّنة من الإبداع ، على النقد أن يجمع بين قوّة وصرامة العلم وجمالية الإبداع .

يخوض الناقد(فاضل ثامر)في مسألة الحداثة النقدية و يُشير إلى أنّ الدراسات الأوربية نفسها لم تُحدّدْ بوضوح ماهية الحداثة النقدية وهذا ما انعكس على النقد العربي فالناقد العربي "وهو يؤسس خطابه النقدي الحداثي لم يجد سمات واضحة ومحددة للحداثة النقدية الأوروبية ، بل وجد خليطاً متنافراً من الاتجاهات النقدية،كما أنّ هذا الناقد ، في إنهماكه بعملية تشخيص الملامح الحداثية للأنواع الأدبية الابداعية وبشكل خاص في ميدان الشعر ، نسي هو الآخر أن يؤشر ملامح حداثته الخاصة ،"[2]، لقد واجه الناقد العربي في بداية القرن العشرين صعوبات كبيرة في تحديد معايير تساعده في الوصول إلى ماهية النقد الحديث ،لكن في النصف الثاني من نفس القرن بدأ الناقد العربي يكتشف آفاقاً نقدية جديدة وبدأ النقد يتلمّس حداثته بعد ممارسته للمناهج النقدية الجديدة التي استمدّت مرجعيتها من اللسانيات ، وإذا كانت المقاربات الحداثية النقدية في أوربا تكتفي بالوصف المحايث فإن نظيرتها العربية تحاول أن تضيف البعد القيمي لهذه المقاربات يقول (فاضل ثامر)"إنه لا يمكن للرؤية النقدية الحداثية ، رغم كل الإغراءات الشكلية والجمالية، الاقتصار على موقف وصفي وموضوعي محايد للنص ولابد من تدعيم التحليل الألسني والأسلوبي والسيميولوجي والتأويلي بحد معين من حدود الحكم والتقويم."[3].

تلك مفاهيم الحداثة عند بعض النقاد والشعراء العرب،والتي تشكّل أهم الرؤى الأدبية لهذا المصطلح وقد اختلفت من موقف إلى آخر ، وتدرّجت من رؤى بسيطة إلى رؤى موغلة في التعقيد ومن مفهوم الحداثة الأدبية بشكل عام إلى الحداثة في الشعر أو الحداثة في النقد بوجه خاص، وارتبط مفهوم الحداثة في أغلب الرؤى بالتراث لأهميته في تأسيس وصياغة أي مفهوم حديث في الأدب عموما والشعر بصفة خاصة جدا،ومن القواسم المشتركة نجد الإبداع والتمرّد على السائد ومواكبة العصر،وعدم التقوقع على الذات ولكن دون تقليد الآخر تقليدًا أعمى.

---

[1] عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة ، ص 17

[2] فاضل ثامر : اللغة الثانية ، ص 113-114

[3] المرجع نفسه ، ص 123

ب – جدل الحداثة في الأدب العربي :

لا نبالغ إذا قلنا أنّ مصطلح الحداثة أثار الكثير من الجدل الذي لم يثره أي مصطلح آخر من قبل "لم يعرف الأدب العربي في تاريخه الطويل قضية أثارت حولها من الجدل والنقاش وما زالت كقضية "الحداثة" التي بدأت تثار منذ مطلع النصف الثاني من هذا القرن."[1]، ولقد تتعدّد الأسباب و تتداخل منها أنه مصطلح منقول وحمل معه الكثير من الغموض والالتباس و لم يستقر على مفهوم دقيق في بيئة المنشأ ووجد بيئة عربية يعاني فيها الفكر وهنا على وهن فازداد غموضا والتباسا، ثمّ إن التباين الكبير بين الثقافة الغربية و الثقافة العربية يؤثر لا محالة على وضعية المصطلح "إننا حينما نستخدم مفردات الحداثة الغربية ذات الدلالات التي ترتبط بها داخل الواقع الثقافي والحضاري الخاص بها ، نُحدث فوضى دلالية داخل واقعنا الثقافي والحضاري." [2]، كلّ الأسباب السابقة تجعل من مصطلح الحداثة مثيراً للجدل ، لكن هناك أسباب أخرى مهمة،منها أن مصطلح الحداثة لم يقترن بحقل معرفي معيّن فهو متواجد في أغلب الحقول المعرفية وهذا ما يجعله متعدد المفاهيم ،لكن حمله لبعض القيّم المتعارضة مع معتقداتنا وقيمنا وتراثنا هو من أهم الأسباب التي جعلته يثير كل هذا الجدل.

لقد أدّى نقل الحداثة إلى واقعنا العربي إلى ظهور فريقين متعارضين ، أحدهما يناصر الحداثة الغربية ويرى فيها المنقذ من التخلف الحضاري ،أما الفريق الثاني فقد وقف معارضا ومقاوما لهذه الحداثة التي يراها تهدّد كيانه وتراثه وهويته "لكن الصدمة الحقيقية لحداثتنا تمثلت في انشقاق الوعي العربي بين حضارة تقدمية تنادي بالانفتاح، وبين سلفية ماضوية تدعو إلى التمسك بالأصول."[3] ، إن هذا الفريق الذي يعارضُ الحداثة و يتمسّك بالأصول يصفه بعض الكتّاب العرب وصفا يدلّ على مدى اتّساع الشرخ بين الطرفين، فعلى سبيل المثال يهاجم (سامي سويدان)هذا الفريق ويتهمه بتعطيل الحداثة لأنّه مُعادي لكلّ ما هو حديث بل ويتّهمه بمعاداة الثقافة يقول"بينما تجد المجتمعات العربية اليوم نفسها ، وقد غلبت السلفية والأصولية على أوضاعها، في أزمة حداثة معطّلة.فالقوى السلفية المتصدية للتغيير قوى محافظة وأهدافها ارتدادية رجعية لا تقدمية تطورية.وهي معادية للحداثة وللثقافة إجمالاً بقدر ما تأخذ بنظرة

---

[1] محمد جمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها و مظاهرها ، ص 47

[2] عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 1998، ص 34

[3] خيرة حمر العين : جدل الحداثة في نقد الشعر العربي ، ص39

وحيدة غيبية وبدائية إلى الإنسان والعالم، وتمارس الإرهاب لفرضها ."[1]، من جهة أخرى نجد الفريق الذي يتبنى الحداثة الغربية يتعرّض أيضا لهجوم شرس وبخاصة من طرف الدعاة كالدكتور (عدنان النحوي)الذي وإنْ لم يكن متخصّصا في الأدب فإنّه يعبّر عن شريحة واسعة من الأدباء العرب، فهو يرى أنّ الحداثة الغربية التي يروّج لها بعض العرب لها انعكاسات خطيرة "تظهر في الفكر والأدب والسلوك، في ثورة هائجة تحاول هدم الماضي بصورة مستمرّة متتالية ، حتى لا يبقى حسب ظن رجالها شيء ثابت في الحياة، في هجوم جنوني على الدين واللغة، وعلى التراث كله بما فيه من خير وشر، وثورة على الحياة، وعلى سنن الله في الكون، بين قلق الشك والريبة،وفجور الكبر والغرور.إنها تمثّل انحطاط الإنسان إلى أسفل سافلين، بما كسبت يداه."[2]

وكما اتّهم(سامي سويدان) القوى المعارضة للحداثة بممارسة الإرهاب الفكري فكذلك نجد ناقدا معروفا هو(وهب أحمد رومية) يتّهم مروجي الحداثة الغربية بنفس التهمة إذ يتهم بعض النقاد المعاصرين بالإرهاب حينما سلّطوا على رقاب الناس سيفَ حداثةٍ لم تتضح معالمها بعد، بل يؤكّد فشل الحداثة العربية في نموذجها الغربي "لقد أخفقت الحداثة العربية في أن تكون عربية حقاّ حين بهرتها الحداثة الغربية، وعجزت عن محاورتها، فاستسلمت لها ، وتبنّت مفاهيمها ، وجاهدت جهاداً محموماً للالتحاق بها ،وعلت أصوات كثيرة تتحدث عن نقد معاصر لا عن نقد عربي معاصر."[3]، ويتهم (وهب أحمد رومية) منظّري الحداثة في الأدب العربي بعزل الشعر العربي عن محيطه وتدني مستواه و مستوى النقد يقول "وقد ساعد بعض منظري الحداثة –وهم بعض شعرائها أنفسهم، وبعض من خرج من تحت آباطهم –في تعميق الفجوة بين الشعر والمتلقي،فمضوا ينظّرون ويكتبون مهللين للإيغال في "التجريب والغموض"حتى جعلوا من النص الشعري كتابة "هيروغليفية" أو نصاً من نصوص"التعمية" لا يقوى على قراءته إلا النخبة المصطنعة الموهومة، ففتحوا بذلك الباب على مصراعيه أمام ذوي المواهب الضئيلة الضحلة من النقاد والشعراء..." [4] إنّ أنصار الحداثة الغربية في الأدب العربي يسعون إلى نشرها وإرساء قيمها و غايتهم ترقية هذا الأدب و جعله يواكب المستوى الذي وصل إليه الأدب الغربي و لم

---

[1] سامي سويدان : جسور الحداثة المعلقة ، ص 17

[2] عدنان علي رضا النحوي : تقويم نظرية الحداثة ، ص 136

[3] وهب أحمد رومية : شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت (د،ط)، 1996، ص 18

[4] المرجع نفسه ، ص 18

ينتبهوا إلى خصوصية البيئة العربية وإلى أهمية التراث الأدبي الذي أنتجته ،لقد أصبح مصطلح الحداثة في نظرهم مرادفا للتحضر والتقدمية والتطور "فالإنسان في هذه الأيام واحد فقط من اثنين، بالنسبة للحداثيين العرب : إما حداثي أو رجعي جاهل."[1] ، هذه النظرة الأُحادية والاستعلائية للحداثيين العرب جعلت منهم تلك النخبة الغريبة في مجتمعها العربي والمعزولة عن أدب الأغلبية من أبنائه والرافضة لتراثه ، ولقد أدّى ارتمائهم في حضن الثقافة الغربية إلى انبهارهم بالعقل الغربي وإنجازاته ، واحتقارهم للعقل العربي ،هذه الثنائية التي يتبناها (كمال أبو ديب) كما يقول عنه(عبد العزيز حمودة)"لم يتردد في الجهر بتبنيه لطرفي الثنائية ، فينطق ، في ما يكتب، منبهرا بالعقل الغربي ومحقرا في شأن العقل العربي."[2] ، وهي من أشدّ الأفكار تطرفا عند الحداثيين العرب ، فاستهانتهم بالعقل العربي تمتدّ لتشمل مقومات المجتمع العربي كاللغة العربية التي يتهمها الحداثيون العرب بالعجز "وهكذا ينتقل تحقير العقل العربي إلى تحقير اللغة العربية واتهامها بالقصور." [3] ، والنتيجة التي تتجلّى على أرض الأدب العربي اليوم هو دخوله في نفق مظلم ،فلا أنصار الحداثة الغربية استطاعوا أن يؤسسوا لأدب عربي حديث يرتبط بالمجتمع وبتراثه ولا أعداء الحداثة الغربية تمكّنوا من التحرر من قيود التقليد ومن إنشاء أدب يواكب روح العصر ويستفيد من ثقافة الآخر في ضوء معطيات جديدة لا يمكن تجاوزها ، إنّ رفض الحداثة الغربية جملة وتفصيلا لا يقبل به إلا جاهل ، ولهذا لا مفرّ من إيجاد مخرج أو بديل ثالث كما يسمّيه (عبد العزيز حمودة) والذي لا يتحقق "إلا إذا تحقق الفهم الكامل للحداثة الغربية حتى نختار ما يغني الفكر العربي من ناحية ،ولا نقع في محاذير الشك الكامل الذي يقول الجميع أنه أصبح الحقيقة الوحيدة اليوم من ناحية ثانية ، " [4] .

لقد أحدث مصطلح الحداثة جدلا واسعاً في الأدب العربي، ونشأ عن ذلك وجود تيارين متصارعين وإن كان أنصار الحداثة الغربية اليوم لهم الانتشار الواسع والهيمنة الكاملة ، ومع ذلك فإن الجدل في حد ذاته ظاهرة صحية قد تُفضي إلى تأسيس أدب عربي حداثي يحقق تلك المعادلة الصعبة التي تُزاوج بين الحداثة الغربية والتراث العربي.

---

[1] عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ، ص 18

[2] عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 2001 ، ص 45

[3] المرجع نفسه ، ص 46

[4] المرجع نفسه ، ص 104

الفصل الأول

الحداثـــة عند أدونيس:

المصطلح والمفهوم

- توطئة: نبذة عن حيـــاة أدونيس
- مصطلح الحداثة عند أدونيس
- المرجعيات الفكرية والأبعاد لمصطلح الحداثة عند أدونيس
- مفهوم الحداثة عند أدونيس
- بين الحداثـــة العربية والحداثة الغربية
- معوّقات الحداثـــة العربيـــة

توطئة:نبذة عن حياة أدونيس

(أدونيس) هو الشاعر والناقد والمفكر السوري (علي أحمد سعيد اسبر)وُلد سنة 1930م بقرية "قصّابين" بسوريا ، لم يعرفْ مدرسةً نظامية قبل سن الثالثة عشر ولكن تلقّى تعليمه الأوّل على يد والده الذي كان معروفاً بتصوّفه وبحبّه للشعر العربي وكان يكتب الشعر أيضاً،وخلال زيارة قام بها (شكري القوتلي)رئيس الجمهورية السورية آنذاك ألقى الشاعر أمامه قصيدةً وطنية نالت إعجاب الرئيس وكانت هذه الحادثة السبب المباشر في إرسال الطفل (أدونيس) إلى المدرسة الثانوية العلمانية الفرنسية بطرطوس عام 1942م لإكمال دراسته "بدأ أدونيس الشاعر في نشر قصائده الأولى في الأربعينيات في سوريا على صفحات مجلة القيثارة، وهي مجلة خاصة بالشعر العربي الحديث كانت تصدر باللاذقية ، في عام 1946م انتمى للحزب القومي السوري.أخذ في هذه الفترة يكتب الشعر باستمرار، وفي 1948م تبنى اسم أدونيس، الذي خرج به على تقاليد التسمية العربية. " [1] ، ولقد اشتهر بعد ذلك بهذا الاسم والذي كان سببا في تهجّم البعض عليه وذلك على أساس أنّ اختياره لهذا الاسم يدلّ على تبنّيه للفكر الغربي وابتعاده عن الثقافة العربية الإسلامية، ولكن هناك آراء أخرى ربطت اختياره لهذا الاسم "بانتمائه الحزبي ، لأن هذه الأسطورة الخاصة بالبعث والخصب ارتبطت بالخط السوري،" [2] ، لكن (أدونيس) ينفي كل هذه الآراء ، ويرجع أسباب اختياره لهذا الاسم إلى قصة طريفة ليس له أي خلفيات فكرية أو سياسية ،ففي كلّ حواراته يقول أن سبب اختياره لهذا الاسم يعود إلى فترة دراسته الثانوية ،فحينما كان يرسل كتاباته الشعرية إلى الجرائد والمجلات بتوقيع اسمه الحقيقي كانت كلها تُهمل، وذات يوم قرأ مقالةً تتحدث عن أدونيس[3] وكيف قتله الوحش البري ، فأعجبته القصة ورأى نفسه البطل أدونيس و رأى في الجرائد والمجلات ذلك الوحش وقرّر بعدها أن يُوقّع كتاباته باسم أدونيس، ومنذ ذلك الحين لازمه هذا الاسم.

في دمشق واصل(أدونيس) دراسته الجامعية ونال ليسانس في الفلسفة سنة 1954م، في نفس السنة التحق بالخدمة العسكرية و قضى منها عاما مسجوناً بتهمة انتمائه للحزب السوري

---

[1] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني،جدارا للكتاب العالمي ، عمان – الأردن ، ط1، 2008 ،ص 123

[2] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ،أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ،ط1 ، 2004، ص 134

[3] أدونيس هو أحد ألقاب الآلهة في اللغة الكنعانية –الفينيقية، فالكلمة "أدون" تحمل معنى سيد أو إله بالكنعانية مضاف إليها السين (التذكير باليونانية). وهو معشوق الإلهة عشتار انتقلت أسطورة أدونيس من الحضارة والثقافة الكنعانية للثقافة اليونانية القديمة وحبيبته صارت أفروديت. يجسد الربيع والإخصاب لدى الكنعانين والإغريق. وكان يصور كشاب رائع الجمال.

القومي الاجتماعي والذي تركه في ما بعد مُبرّراً ذلك بقوله " تركته عندما بـــدأ يتحـــول إلى مؤسسة كبقية المؤسسات ويحمل جميع أمراضها. وعندما صارت المؤسسة عند القيادة أهم من الفكرة ، وصارت السلطة أهم من الحزب ، مثلها مثل جميع التجارب في التـــاريخ ." [1]، ولم يطل به المقام في سوريا بسبب الأوضاع التي كانت تشهدها في ذلك الوقت، وشدّ الرحال إلى لبنان سنة 1956م واستقرّ في مدينة بيروت ونال الجنسية اللبنانية في ما بعد وعن قصّة خروجه من سوريا يقول "بعد تسريحي من الخدمة العسكرية كان من المحال أن أبقى في سورية في ذلك الجو المضطرب. كانت سورية، في ذلك الوقت، لا سجناً مادياً فقط بل كانت كذلك ســـجناً فكرياً وروحياً.وكنت أشعر أنني إذا بقيت في دمشق و لم أخرجْ فكأنني أحيا في قبر.هـــذا هـــو العامل الذي دفعني إلى الخروج من دمشق مهما كانت النتائج .وساعدني الحظ وخرجت مـــن مكان كان مقبرة بكل معنى الكلمة وعلى جميع المستويات."[2].

في لبنان التقى بالشاعر(يوسف الخال)العائد من أمريكا وأسّس معه مجلة "شـــعر" وصـــدر عددها الأول في 2يناير 1957م، وكان لهذه المجلة دور هام في مسيرة الشعر العربي الحديث وفي المسيرة الأدبية لـــ(أدونيس) ،إذ هيّأت له منبرا لطرح أفكاره وآرائه حـــول الأدب والـــشعر، إضافة لنشر أشعاره، لقد كانت هذه المرحلة من أهم مراحل حياته، حيث انهمك في الكتابـــة وأصدر ديوانه"قصائد أولى" سنة 1957م و ديوانه "أوراق في الريح" سنة 1958م وفي نفس هذه السنة أسّس مجلة "آفاق" مع (حليم بركات) و(عادل ضاهر)، في سنة 1960م تحصّل على منحة من الحكومة الفرنسية لقضاء سنة في باريس في فرنسا، حيث أتقن اللغة الفرنسية وتعرّف على مجموعة من الشعراء الفرنسيين و تمكّن من خلالهم ومن خلال مطالعاته المتواصلة الإطّلاع على الحركة الأدبية في فرنسا وأوربا بوجه عام ، لقد كانت هذه الرحلة من أهم المحطات التي مرّ بها (أدونيس) فقد منحته الفرصة للاتصال بالأدب الغربي والفكر الغربي عموماً والذي شكّل في ما بعد مكوّناً بارزاً في تكوينه الفكري ومن ثمّ في أغلب آرائه النقدية والفكرية وحتى في كتاباتـــه الشعرية وفي نظرته لتراثه العربي .

تميّزت الفترة الممتدّة من 1960م إلى غاية 1970م بإصداره دواوين شعرية وانفـــصاله عـــن (يوسف الخال)وتأسيسه لمجلة "مواقف" التي جمعت حولها الكثير من الشعراء العرب وقد "سمّاها

---

[1] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس الطفولة ،الشعر ، المنفى،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان ، ط1، 2000، ص44

[2] المرجع نفسه ، ص 35

"مواقف" نسبة لمواقف (النفري). هذه المجلة التي أصبحت حلقة استمرار لـــ"شعر" وأداة لخلق أسئلة وإشكاليات جديدة ، تصب في الخط العام الذي رسمه من قبل، وأقصد به خط الحداثـــة الشعرية." [1] ، في سنة 1973 م حصل على درجة الدكتوراه من "جامعة القـــدّيس يوســـف" ببيروت وكان موضوع الأطروحة "الثابت والمتحول :بحث في الإبداع و الإتباع عند العـــرب" والذي يعتبرها البعض من أهم أعماله وقد أثارت جدلاً واسعاً في أوساط الكتاب العرب "لقد كان كتاب الثابت والمتحول نقطة فاصلة في مسيرة ثقافتنا، على الرغم من الجهود التي بُـــذلت لتشويه الكتاب وبالتالي تشويه صورة مؤلفه ، وهي جهود لم تقتصر على أفراد وإنما شمل ذلك مؤسسات عديدة في مختلف أرجاء الوطن العربي، وحسب الثابت والمتحول أن يكون متناً أبرز ذائقة جديدة في الثقافة العربية ، وقدّم فهماً جريئاً وصريحاً في آن واحد،"[2] ، وفي سنة 1985 م انتقل إلى فرنسا وقد نال الكثير من الجوائز ويرشحه البعض لنيل جائزة نوبل للآداب .

(أدونيس) شاعر ومفكّر وقارئ متمرّس ، وتصب في مرجعيته الفكرية روافد عديدة ذات منبعين رئيسين التراث العربي و الثقافة الغربية ، في طفولته كان لأبيه تأثير واضح عليه يقـــول "المؤثر الأول هو ، طبعاً ، أبي. كان أبي فلاحاً، لكنه كان قارئاً ممتازاً ويكتب الشعر أيضاً."[3]، يقر (أدونيس) أن أباه هو الذي فتح عينيه على الشعر العربي والشعر العباسي خصوصاً ، لقـــد كان الشعر العربي مؤثرا قويا في تشكيل الوعي الأدونيسي أما المؤثر الآخر فهـــي النـــصوص الصوفية يقول " والصوفية هي المؤثر الثاني ، فثمة في داخلي بُعد ديني بمعنى ما.لكن هذا البعـــد الديني تحوّل إلى بعد كوني، وبعد طبيعي ، وبعد وجودي." [4] ، لقد كان للكتابات الـــصوفية الأثر الجلي على فكر(أدونيس) وعلى لغته الشعرية ويأتي على رأس المتصوفة المؤثرين(النفـــري) و(ابن عربي)، كما يقرّ (أدونيس) بالأثر الذي تركه أنطوان سعادة على رؤيته الشعرية وذلـــك من خلال كتابه "الصراع الفكري في الأدب السوري" يقول (أدونيس) عن شعوره بعد قراءته لهذا الكتاب "أثرّ فيّ كثيراً، لأنني بعد الكتاب، صرتُ أنظرُ إلى الشعر على أنّه ليس مجرّد تعـــبير عن العواطف والانفعالات فقط ،إنما هو رؤية متكاملة للإنسان وللأشياء وللعالم." [5]و لا ينكر

---

[1] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً، ص 137

[2] عصام العسل : الخطاب النقدي عند أدونيس قراءة الشعر أنموذجا ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط1 ، 2007 ، ص 8

[3] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 49

[4] المرجع نفسه ، ص 49

[5] المرجع نفسه ، ص 54

(أدونيس) تأثره بشعراء معاصرين له- فحسبه الحجر هو فقط الذي لا يتـــأثر- لكـــن يبقـــى تأثيرهم عليه محدودا من بين هؤلاء الشعراء يذكر (سعيد عقل) و(بدوي الجبل).

أما بالنسبة للثقافة الغربية يعترف (أدونيس) بأنّه أخذ منها و لكن دون التبعية المطلقة لها أو الذوبان فيها يقول "أحب هنا أن أعترف بأنّني كنتُ بين من أخذوا بثقافة الغرب .غـــير أنّـــني كنت ، كذلك ، بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك ، وقد تسلّحوا بوعيٍ ومفهومات تمكّنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة، وأن يحقّقوا استقلالهم الثقافي الـــذاتيّ." [1]، لقد قرأ الشعر الفرنسي وتأثر برواد الشعر الفرنسي الحـــديث أمثـــال (بـــودلير) و(رامبـــو) و(مالارميه) وغيرهم،واطّلع على الفلسفة الغربية "كما تأثر أدونيس بشكل مباشـــر بالرمزيـــة الفرنسية، المصدر الرئيس لنظريته الشعرية، إلاّ أنه امتلك معرفة مباشـــرة بـــالفكر الفلـــسفي والجمالي للمثاليين الألمان الذي يُتوج بـــ"هايدغر"،"[2] ، ويرى (أدونيس) أن الشعر الغـــربي لم يترك ذلك الأثر الذي تركه الفكر الغربي في تكوينه الفكري وقد يكون هذا الأمر مـــن أهـــم العوامل التي جعلت منه شاعرً مفكراً يقول "تأثرتُ بالتجارب الشعرية في الغرب . تأثرت بعدد من الشعراء، بوعي أو بلا وعي.غير أنني تأثرت أكثر بالحركات الفكرية : نيتشه وهيراقليطس، تمثيلا لا حصراً ، أكثر مما تأثرت بالشعر بحصر المعنى ."[3]، والواقع أن الفيلسوف الألماني (نيتشه) كان من أكثر الفلاسفة تأثيرا على (أدونيس) وكثير من الدراسات تناولت مدى التأثير الـــذي تركه (نيتشه) على الفكر الأدونيسي،ويذهب (عبد الله أحمد المهنا) إلى أن (ماركس) أثّر بشكل من الأشكال على (أدونيس) ويتجلّى ذلك في تلك النزعة الثورية التي تتسم بها أغلب آرائه "ولا مراء في أنّ آراء أدونيس في "الحداثة" والثورة والتجاوز، والهدم ، تصدر عن فكر ماركـــسي، فالثورة التي يدعو إليها الفكر الماركسي، تعني تماماً كل هذه الأفكار السابقة ، فهي تتنـــاقض بكل تأكيد مع قيم الماضي بكل أشكالها ، دينية كانت أو ثقافية أو فنية ، أو اجتماعية." [4].

لقد وفّرت تيارات عربية وغربية لـــ(أدونيس) مُكوّنات أساسية استطاع بفضل ما يتميّز به من قراءة معمّقة وفكر متأمّل أن يُشكّل منها فكراً مستقلاً متمرّداً علـــى المعـــارف الجـــاهزة والقوالب الجامدة الموروثة ، وأن يبلور رؤية شعرية جديدة خاصة به .

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط3 ، 2000 ، ص 86

[2] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 157

[3] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 57

[4] عبد الله أحمد المهنا : "الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة " مجلة عالم الفكر ، مج19 ، ع 3، 1988، ص 27

أثار فكر(أدونيس) وشعره جدلاً واسعاً في الأوساط الأدبية العربية انفضّ عن فريقين، فريقٍ مؤيّد ومناصر له يتبنّى آراءه ويكتب على طريقته ويجعل منه نبياً للشعر العربي الحديث، وفريقٍ آخر معارضٍ إلى درجة العداوة "ولم تقتصر العداوة لأدونيس على الشعراء والأدباء وأساتذة الجامعة بل تعدّتها إلى رجال الدين والسياسة.وظهرت هذه العداوة في كتب ومجلات وصحف."[1]، ولقد شكّلت مواقفه من الحداثة بصفة شاملة ومعارضته للتقليد -ليس في الأدب وحسب ولكن في جميع مجالات الفكر- العامل الأول في إثارة هذا الجدل"فالخصومة حول أدونيس قديمة قدم دعوته إلى الجديد والتجديد والإبداع ، ضمن مفهوم الحداثة في جميع نواحي الحياة العقلية والأدبية والعلمية."[2]، من أهم المناصرين له يأتي الناقد السوري (كمال أبوديب) الذي يعتبره من بين أهم أربعة أو خمسة شعراء في العالم اليوم،بل قد يكون — حسبه - أفضل الشعراء الموجودين عالمياً الآن ، إضافة إلى ذلك، فهو يرى فيه منظّرً ممتازًا ، أما الناقد و المفكر السوري (محمد كامل الخطيب) وفي معرض مقارنة (أدونيس) بـ(صقر قريش) يقول "لكن، ألم يفعل أدونيس، صاحب قصيدة "الصقر" ، الشيء نفسه ؟! ألم يهرب من بلده وفقره وسجنه ليقيم "عبر الحدود" مملكة، لكن للشعر والثقافة والحرية؟! ألم يشيّد أدونيس بعد هروبه صرحاً أدبياً ، شعرياً ، ثقافياً ، أو مملكة جديدة لا تقلّ في علو شأنها ومغامرتها عن مملكة عبد الرحمن بن معاوية ؟! بل ألم يشيّد أدونيس للثقافة و الحداثة والشعر العربي "دولةً جديدةً" ؟! " [3]، ويُشبّهه بـ(المتنبي)على اعتبار أنّ كلا منهما ملأ الدنيا وشغل الناس ،إنه الملك الذي تدين له كوكبة من الشعراء والمثقفين إنّه "جوهرة الشعرية العربية والحداثة العربية وورقتها الرابحة،"[4].

أمّا الشعراء من الأجيال الجديدة فقد انبهروا بـ(أدونيس) وجعلوه مثلهم الأعلى وغدت قصيدة النثر -وهو من أبرز مُنظّريها — حاضرة في كل الملتقيات الأدبية والصحف والمجلات، كما يتجلّى معجمه اللغوي وتراكيبه وأسلوبه الشعري في جميع كتابات هؤلاء الشعراء ، ومع ذلك فإن معارضيه أكثر من مؤيّديه ، بل إنّ أكبر النقاد العرب يقفون موقفا معارضا لأهم آرائه وكتاباته الشعرية ،فالناقد (محي الدين صبحي)يعتبره شاعراً إلى غاية إصداره ديوانه "أغاني مهيار الدمشقي" سنة 1965م ، ولكن بعد هذا التاريخ بدأ يمر بمرحلة موت شعري ، وصار يُفسد

---

[1] عبد الحميد جيدة : " أدونيس بين مؤيديه ومعارضيه "، مجلة فصول ، مج 16 ، ع2 ، 1997، ص 95

[2] المرجع نفسه ، ص 95

[3] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، (د ، ط) ، 2009 ، ص 135

[4] المرجع نفسه ، ص 136

الذوق العام ويجرُّ الشعراء الشبان إلى رحلة ضياع ، إنّه يحاول أن يعود من خلالهم ومن خلال سعيه الحثيث إلى الحصول على جائزة نوبل يقول عنه" هو يرى تماماً مثل المصاب بالسرطان أو بالجذام يرى نفسه وهو يموت. تتساقط أعضاؤه أمام عينه، ومع ذلك يصر على أنّه ما زال على قيد الحياة .أدونيس يرى أدونيس يموت.يموت شعرياً ويموت إبداعياً فيُحي نفسه عن أحد طريقين :إمّا عن طريق الشبيبة التي تلحقه ولا تفهم شيئاً لا في الشعر ولا في سواه. كل من لحق بأدونيس بإخلاص انفك عنه.وإمّا عن طريق الارتماء في أحضان الأوساط الفرنسية التي تضع أمامه جزرة لكي يستمر في الركض وراء جائزة نوبل أو جوائز أدبية أخرى."[1] وبلغة أشد لهجةً يعتبر المغربي (محمد السرغيني) (أدونيس) ناقلاً لأفكار الغربيين وبخاصة جماعة "tel quel" في فرنسا "أدونيس كان يقرأ في الصباح أفكار هؤلاء وفي المساء يلقيها في مقال أو كتاب." [2] ، أمّا عن اهتمام (أدونيس) بالكتابات الصوفية فهي محاولة للفت النظر إلى أدب الأقلّيات في الوطن العربي والاهتمام به "وهمه لفت نظر الناس إلى دراسة الأدب والفكر الإسماعيلي والقرمطي والنصيري الذي ينتمي إليه ."[3].

ومع كلّ ذلك فقد ابتكر (أدونيس) لغة شعرية خاصة به واستطاع "بلورة منهج جديد في الشعر العربي، يقوم على توظيف اللغة على نحو فيه قدر كبير من الإبداع والتجريب ، وكأنه يبتدع لغة جديدة غايتها أن تسمو على الاستخدامات التقليدية دون أن يخرج عن اللغة العربية الفصحى ومقاييسها النحوية واستطاع أدونيس أن ينقل الشعر العربي إلى العالمية ، ومنذ مدة طويلة يرشحه النقاد لنيل جائزة نوبل للآداب ، كما أنه –فضلا عن منجزه الشعري – يُعد واحدا من أكثر الكتاب العرب إسهاماً في المجالات الفكرية والنقدية ."[4]، ومهما اختلفت حوله الآراء ، فإنّ تجربته من التجارب النادرة والمتميّزة والتي أثّرت على جيلٍ كاملٍ من الشعراء ولا تزال ، والحقيقة التي يجب أن تُقال هو أنّه دائماً في أغلب حواراته غير راضي على الكتابات الشعرية الناقلة لطريقة تعبيره ويحثّ الشعراء الشبّان على خلق ضوئهم الخاص.

هذه سيرة مختصرة للشاعر والمفكر و الناقد العربي (أدونيس)، وتجربته الشعرية وآرائه الفكرية والنقدية مُغرياتٌ تشدّ أي باحث للغوص في أعماقها والكشف عن مكنوناتها .

---

[1] جهاد فاضل : أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب ، ص 355

[2] المرجع نفسه ، ص 327

[3] المرجع نفسه ، ص 329

[4] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 126

1 – 1- مصطلح الحداثة عند أدونيس :

بعد قراءتي لأغلب كتب(أدونيس) وقع الاختيار على المؤلفات الآتية التي شكّلت مدونة للدراسة الإحصائية لمصطلح الحداثة و هي :

6- فاتحة لنهايات القرن بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة

7- الشعرية العربية

8- النص القرآني وآفاق الكتابة

9- الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب ،ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري

10- كلام البدايات

وتوضح الجداول الآتية الصيغ التي ورد فيها مصطلح الحداثة في كل كتاب مع ذكر الصفحة:

الكتاب		**فاتحة لنهايات القرن بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة**
رقم الصفحة	تكرار مصطلح الحداثة	الصيغ و التراكيب
75	1	الخروج من هذا الواقع إلى الحداثة
86	1	انخراط في الحداثة
228	2	الاتجاه نحو الحداثة/ تقوم عليها الحداثة
242	1	نعيش في عصر الحداثة
245	1	مقياس الحداثة
249	4	الحداثة في الإبداع /الحداثة في التذوق / مشكلات الحداثة/ الكلام على الحداثة
250	1	الحداثة أو الجدّة
251	4	تتلاقى الحداثة والثورة/بين نوعين من الحداثة/شعراء الحداثة/ شعراء الحداثة
252	2	شعراء الحداثة السطحية المباشرة /شعراء الحداثة العميقة
254	1	صميم الحداثة
300	1	نبدأ الحداثة
302	1	((والحداثة انفتاح))
303	2	((والحداثة انفتاح))/((والحداثة انفتاح))
305	2	((والحداثة انفتاح))/ ((والحداثة انفتاح))

306	1	الانفتاح على هذه الحداثة
308	1	سلوك سبيل الحداثة
313	5	أوهام الحداثة/ تخرج بالحداثة عن مدارها/ ربط الحداثة بالعصر/بحسب هذا الميـــل، على الحداثة./حداثة الإبداع الشعري
314	7	حداثة الزمن./فإن من الحداثة،ما يكون ضد الزمن/لا يكتسب حداثته /وإنما الحداثة خصيصة/ أكثر حداثة /هو الحداثة أو الدليل عليها./مصدر الحداثة
315	4	لا تكون الحداثة خارج الغرب./ مقاييس الحداثة في الغرب/ مقاييس للحداثة خارج الغرب/تقتضي الحداثة قطعا مع التأسلف ومع التمغرب في آن.
316	3	هي ذروة الحداثة/لا علاقة له مع الحداثة./ حداثة النص الشعري
317	6	الحداثة الشعرية العربية / الحداثة الغربية/ الحداثة الشعرية العربية/أســـاس الحداثـــة/ مفهوم الحداثة/ مفهوم الحداثة الشعرية/ مفهوم الحداثة
320	5	ما حقيقة الحداثة؟/فالحداثة في المجتمع/أن الحداثة هي إشكاليته الرئيـــسية/ الحداثـــة الشعرية العربية/فأقسّم الحداثة إلى/
321	10	الحداثة العلمية/حداثة التغيرات الثورية-الاقتصادية،الاجتماعية الـــسياسية/الحداثـــة الفنية/تعني الحداثة/تعني الحداثة/ تعني الحداثة/ مستويات الحداثة/ فلحظة الحداثـــة/ مستوى الحداثة الفنية
322	10	حداثة علمية/ حداثة التغيرات الثورية:الاقتصادية،الاجتماعية السياسية/حداثة شعرية عربية/الحداثة الشعرية/الحداثة الشعرية الغربية/حداثة العلم/ حداثة الـــشعر/حداثـــة الشعر/الحداثة العلمية-الثورية/ الحداثة الشعرية العربية
323	1	الحداثة الثورية
324	3	الحداثة الشعرية العربية/نشوء الحداثة/ الحداثة الشعرية العربية
325	1	الحداثة الشعرية العربية
326	7	ما الحداثة /الحداثة في هذا المستوى/الحداثة إذن ملازمة للقدم/لا تبحث الحداثـــة في المطلق/فالحداثة هي دائما حداثة شعر معين/الحداثة في هذا المنظور
327	3	كأن الحداثة/تبدو الحداثة/ تبدو الحداثة
328	1	الحداثة إشكالية عربية
329	3	الحداثة العربية/ الحداثة الشعرية العربية/قضايا الحداثة الغربية
332	1	يعني أن الحداثة هي
336	1	يصح أن نقول أن الحداثة

337	3	تكون الحداثة في إنتاج/تكون الحداثة، جوهريا/ الحداثة الشعرية العربية
338	8	الحداثة العربية/معنى الحداثة/حداثة الشعر العربي/نقد الحداثة أو الحداثة النقدية/ الحداثة الشعرية العربية/نقد هذه الحداثة
340	5	الحداثة العربية/نقد الحداثة/فالحداثة انتقال/لا يقيم الشعر بحداثته/ليست كل حداثة إبداعا.
المجموع	113	[1]

الكتاب		**الشعرية العربية**
رقم الصفحة	تكرار مصطلح الحداثة	الصيغ و التراكيب
50	2	الحداثة الشعرية العربية/ الحداثة الكتابية
51	1	تجليات الحداثة
52	1	لحداثة الشعرية الكتابية
79	1	شعرية الحداثة العربية.
81	3	الحداثة الشعرية/تظل الحداثة في /كيف أن الحداثة بقيت
82	3	الحداثة العربية/بثقافته وحداثته/مسألة الحداثة
83	3	القول بالحداثة/والحداثة إذن،خروج /ترفض هذه الثقافة الحداثة
84	7	ينظرون إلى الحداثة/كانت الحداثة في/أنها حداثة/فالحداثة موقف ونظرة/الحداثة العربية/الحداثة الشعرية/حداثة الشعر الغربي
85	1	أزمة الحداثة
86	4	أبعاد الحداثة/ الحداثة الشعرية العربية/شعريته وحداثته/حداثة النظر النقدي
87	3	حداثة الغرب (المتأخرة)/حداثتنا العربية (المتقدمة)
89	5	إشكالية الحداثة/ الحداثة في الثقافة العربية/يسائل الفكر العربي الحداثة/الحداثة العربية/الحداثة الغربية
92	6	يتناقض جذريا مع الحداثة/مع الغرب وحداثته/الحداثة التلفيقية الأزيائية/ولّدت الحداثة/ كانت الحداثة بمظهرها التقنوي –الآلي/ لا ترى الحداثة إلا نوعا

[1] **ينظر أدونيس : فاتحة لنهايات القرن بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة ، دار العودة ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1980 ، ص الصفحات المذكورة في الجدول**

93	7	حداثتنا السائدة/أوهام حداثتها/يرى أن الحداثة هي/ حداثة المُلتقط/يكتسب الشعر حداثته/دليل على الحداثة
94	7	أكثر حداثة/ الغرب مصدر الحداثة/ لا حداثة خارج/لا حداثة إلا في/مقاييس الحداثة/ دخول في الحداثة/ تجديد و حداثة
95	2	شعرية الحداثة/ الحداثة الشعرية العربية
96	2	شعرية الحداثة/ شعرية الحداثة
97	1	مسيرة الحداثة
98	1	الحداثة في المجتمع العربي
100	2	أن الحداثة هي / في ممارسة الحداثة
101	1	الخاصية الأولى للحداثة في الغرب
102	1	تجربة الحداثة الشعرية
103	1	صفات الحداثة الأكثر إنسانية وعظمة
107	3	الحداثة الشعرية/يؤرّخ للحداثة/مفهوم الحداثة
108	3	الحداثة ، بصفتها أساسا/وراء ((الحداثة))و((القدم))/ ((الحداثة الثانية))
109	3	الحداثة الشعرية العربية/ للحداثة الشعرية/موقف يرافق الحداثة
110	5	الحداثة زمانية ولا زمانية/ الحداثة الشعرية /للغة الحداثة قيمة
111	8	الحداثة والقدم الشعريان/فالحداثة في اللغة العربية/حداثة عربية/الحداثة الفرنسية أو الانكليزية/ الحداثة الشعرية العربية/أن الحداثة لا تقتضي أو تتضمن/الحداثة انخراط في التاريخ/الحداثة العربية
112	4	من معرفة ((الحداثة))/ الحداثة الشعرية العربية/أنّ الحداثة تكون رؤية ابداعية/ليست كل حداثة ابداعا
المجموع	91	[1]

الكتاب		**النص القرآني وآفاق الكتابة**
رقم الصفحة	تكرار مصطلح الحداثة	الصيغ و التراكيب
66	1	الحداثة التقنية

[1] **ينظر أدونيس : الشعرية العربية ، ص الصفحات المذكورة في الجدول**

78	2	الحداثة الشعرية العربية/حركة الحداثة
91	4	نقد الحداثة/ مفهوم الحداثة/ تنطوي بحد ذاتها على الحداثة/ مسألة الحداثة
92	2	صفة الحداثة/ الحداثة بتعبير آخر سمة فرق لا سمة قيمة
93	3	أكثر حداثة /أكثر حداثة /أكثر حداثة
94	5	الحداثة في الكتابة العربية / الحداثة في المجتمع العربي/حداثة أدبية/حداثة الغرب / تجليات الحداثة في ميدان الفنون
95	2	الحداثة في إطار الموروث/كل كلام على الحداثة
96	4	الحداثة سمة للأقوال/لكل عصر حداثته/الحداثة الشعرية/الحداثة لا تُحدّد
97	3	الحداثة الفنية-الأدبية في اللغة العربية/ فهم الحداثة ومشكلاتها/ الحداثة الغربية
98	2	وراء القدامة و الحداثة/ بين القدامة و الحداثة
99	1	الحداثة ((فرق))
100	1	بأنّ الحداثة ((رفض))
101	3	توحي بالحداثة/القضية الأساسية في الحداثة/ الحداثة الشعرية
102	4	الكتابات السائدة عن الحداثة/ تجربة الحداثة/ الحداثة الشعرية/ لكتابة الحداثة
103	4	الحداثة الشعرية العربية / إن كلمتي ((حديث)) و ((حداثة)) / ما يسمى بالحداثة/ حداثة حقا
104	3	((حديث)) و ((حداثة)) /بالتباسات الحداثة/ وهل الحداثة تطابق مع الهوية
105	5	الحداثة انشقاق/ الحداثة في الغرب / الحداثة في المجتمع العربي/ الحداثة في الغرب/الحداثة العربية
107	8	لا تنشأ الحداثة مصالحة/ وراء الحداثة/ بالحداثة الشعرية العربية/ هذه الحداثة/ والحداثة في دلالتها/زاعما أن الحداثة/ يرى أن الحداثة أو الحديث/وراء القول بالحداثة أو الحديث
108	5	الحداثة والحديث/على الحداثة والحديث/حداثة ولا فكر حديث/ لا تبحث الحداثة في المجتمع العربي/أن الحداثة في أبسط دلالاتها
109	6	أن الحداثة التي نمارسها/قياسا إلى الحداثة في الغرب / حداثة مهربة/الحداثة في المجتمع العربي/ حداثة اليوم/ أن الحداثة اليوم
110	4	((الحداثة المضمرة)) /((الحداثة السائدة))/ الحداثة في الغرب/الحداثة وحدها
112	1	الحداثة الأولى
113	1	كان مبدأ حداثة

114	3	مشكلة الحداثة /ذلك أن الحداثة/ما يحول دون الحداثة
115	9	وبلا حداثة /الحداثة هي بالضرورة انشقاق/تتضمن الحداثة الرفض والتمرد/حداثتنا الخاصة/مبادئ الحداثة/((الحداثة المضمرة))/والحداثة مقرونة بالاختلاف/لا حداثة على المستوى النصي/ ممّا يسمّيه بعضهم حداثة
129	1	تأثير الحداثة على القدامة
133	1	ويرتبط الإبداع (التجديد،الحداثة)
المجموع	88	[1]

الكتاب		**الثابت والمتحول، ج4 صدمة الحداثة**
رقم الصفحة	تكرار مصطلح الحداثة	الصيغ و التراكيب
6	2	مبدأ الحداثة /تيارين للحداثة
7	3	تأسيس الحداثة /توّلدت الحداثة/ الحداثة الشعرية
10	2	فيرى أن الحداثة قيمة/ وتوكيد ابن جني على الحداثة يتضمن
11	1	الحداثة نتيجة لتغير الأزمنة
12	2	رفضوا الحداثة /الأكثر بروزا لهذه الحداثة
17	1	اتّخذت الحداثة عند أبي تمام
19	1	لا نقدر أن نحيط بنشأة الحداثة
39	1	موقع البارودي من النهضة والحداثة
63	1	لدراسة العلاقة بين((التراث)) و((المعاصرة)) (الحداثة)
92	2	أمّا من حيث الحداثة/ الجدّة أو الحداثة
96	1	أقام مفهوم الحداثة
109	1	في نقد التجديد و الحداثة
134	1	أكثر الشعر حداثة في العالم
140	1	في إرساء مفهوم الحداثة
141	1	الحداثة انفصال

[1] **ينظر أدونيس: النص القرآني وآفاق الكتابة ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1993 ، ص الصفحات المذكورة في الجدول**

142	1	الحداثة الشعرية العربية
143	1	بؤرة الحداثة الغربية-الأميريكية: نيويورك
146	2	والعناية بالمستقبل رمز الحداثة/لرؤيا الحداثة
177	1	ويسمّيها هنا الحداثة
193	1	معنى الحداثة
217	2	ممّا نسمّيه الحداثة / نشوء الحداثة
218	1	يأخذ من الحداثة منجزاتها العلمية التقنية
220	4	في اتّجاه الحداثة/إلى ارتباطه بالحداثة/ تنتحل هذه الحداثة/ كيف يعبّر بحداثته
221	1	ينتحل حداثة آتية من الحيلة الكتابية
231	1	رفض الحداثة
233	1	عالم الحداثة ومقتضياته
234	1	للحداثة الشعرية الحقيقية
261	1	ذلك هو طابع الحداثة أو الإحداث في مراحله الأولى
المجموع	39	[1]

الكتاب		**كلام البدايات**
رقم الصفحة	تكرار مصطلح الحداثة	الصيغ و التراكيب
124	1	إشكالية الحداثة
144	2	الحداثة العربية / الحداثة العربية
146	2	مشكلة الحداثة / إلاّ نوعا من الحداثة
151	1	تضيء الحداثة ماضينا
152	4	ليست الحداثة نفيا /القدم و الحداثة/وتكون الحداثة/حاضرة في الحداثة
153	2	الحداثة الشعرية/ مفهوم الحداثة
154	1	أن الحداثة نوع من الاستمرار

[1] **ينظر أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب ،ج 4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط9 ، 2006 ، ص الصفحات المذكورة في الجدول**

156	1	زمن الحداثة
63	1	لدراسة العلاقة بين((التراث)) و((المعاصرة)) (الحداثة)
178	3	الحداثة/ ألم تصبح الحداثة/ الكلام على الحداثة
187	2	إشكالية التجديد والحداثة/يؤوّل الحداثة على أنها
188	1	فالحداثة ليست
المجموع	20	[1]

ويمكن تلخيص الجداول السابقة في الجدول الآتي التي يوضح العدد الإجمالي لمصطلح الحداثة في المدونة مع النسبة المئوية لورود هذا المصطلح في كل كتاب :

الرقم	الكتاب	تكرار مصطلح الحداثة	النسبة المئوية
1	فاتحة لنهايات القرن	113	% 32.19
2	الشعرية العربية	91	% 25.93
3	النص القرآني وآفاق الكتابة	88	% 25.07
4	الثابت والمتحول ج4صدمة الحداثة	39	% 11.11
5	كلام البدايات	20	%05.70
	المدونة	351	% 100

من الواضح أن (أدونيس) كان في كتابه (فاتحة لنهايات القرن) أكثر استخداما لمصطلح الحداثة ويعود ذلك أساسا لأنّه ضمّن في هذا الكتاب (بيان الحداثة) المعروف،أمّا في كتابه (الشعرية العربية) فقد حمل أحد فصوله (وهو في الأصل نص محاضرة) اسم الشعرية والحداثة ما يفسّر حضور المصطلح في هذا الكتاب،وفي كتابه (النص القرآني وآفاق الكتابة) استخدم (أدونيس) أيضا المصطلح بكثافة لأن هذا الكتاب من الكتب الجديدة نسبيا (1993م) التي تحدث فيه عن نقد الحداثة العربية ، ويقل حضور مصطلح الحداثة في الكتابين الأخيرين لأن أدونيس تعرّض فيهما للتراث العربي وهو عادة حينما يتحدث عن التراث لا يستخدم مصطلح الحداثة كثيرا و إنّما يلجأ إلى استخدام مشتقات من جذره اللغوي مثل محدث وإحداث وحديث، لكن ما يجب الإشارة إليه هو أنّ (أدونيس) غالباً ما يتعرّض لمفهوم الحداثة دون إيراد هذا المصطلح حرفياً بل يستخدم كلمات أخرى وتراكيب تؤدّي نفس الغرض.

[1] **ينظر أدونيس : كلام البدايات ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1989، ص الصفحات المذكورة في الجدول**

تمثيل بياني (المدرج التكراري الإحصائي) يبين نسبة ورود مصطلح الحداثة في كل كتاب

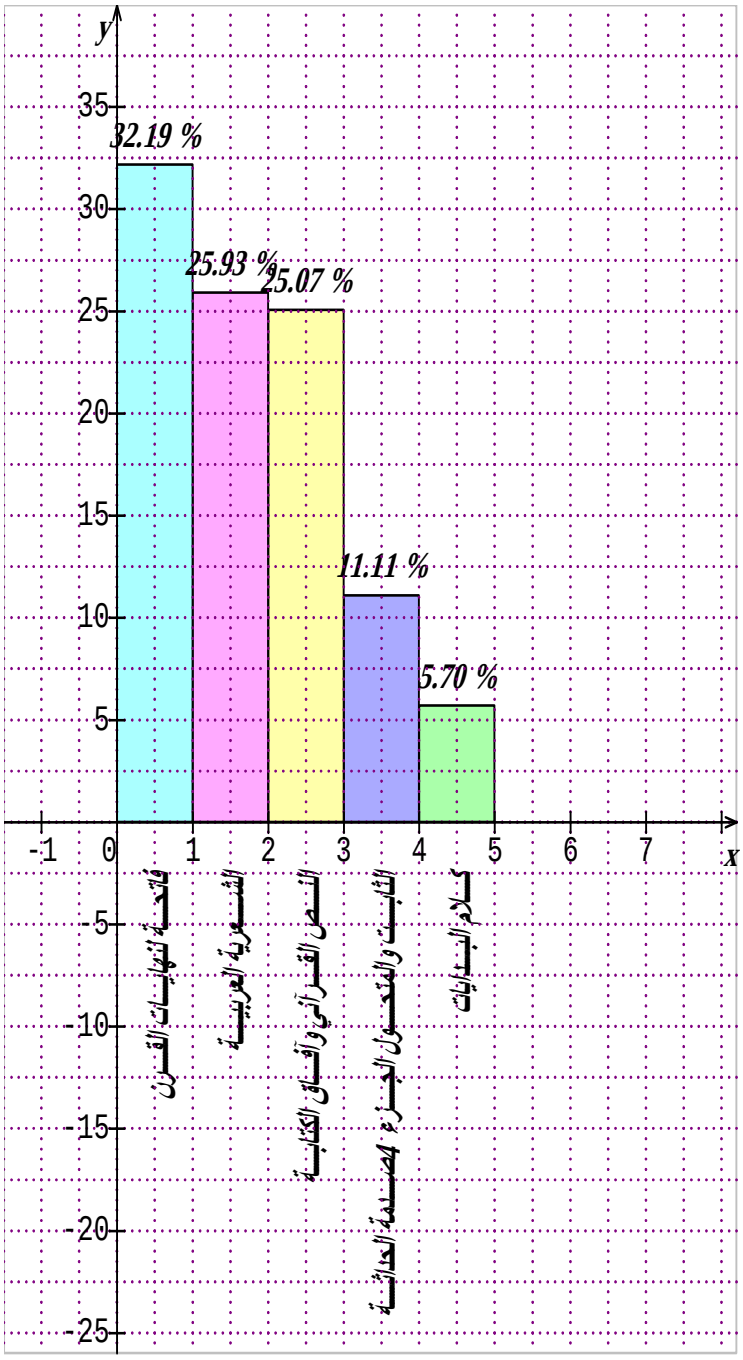

يوضّح الجدول الآتي نسبة ورود مصطلح الحداثة مطلقا ونسبة وروده مقيدا في المدونة :

الرقم	الكتاب	تكرار مصطلح الحداثة مطلقاً	النسبة المئوية	تكرار مصطلح الحداثة مقيّداً	النسبة المئوية
1	فاتحة لنهايات القرن	39	% 34.51	74	% 65.49
2	الشعرية العربية	29	% 31.87	62	% 68.13
3	النص القرآني وآفاق الكتابة	41	% 46.59	47	%53.41
4	الثابت والمتحول ج4صدمة الحداثة	18	% 46.15	21	%53.85
5	كلام البدايات	12	% 60.00	8	%40.00
	المدونة	139	% 39.60	212	%60.40

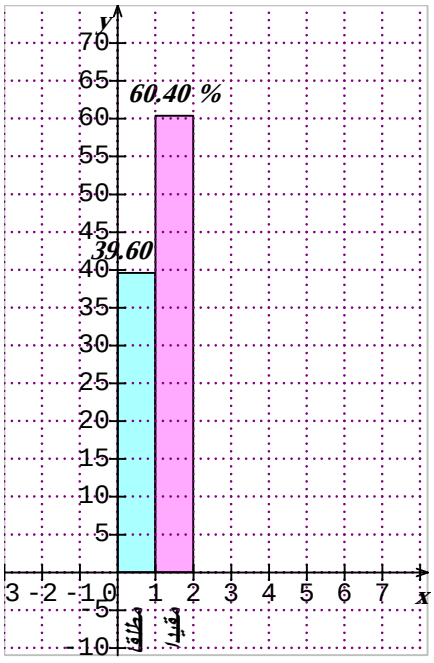

تمثيل بياني (المدرج التكراري الإحصائي) يبين نسبة ورود مصطلح الحداثة مطلقا و مقيدا في المدونة.

من خلال الجدول الإحصائي يتّضح أنّ (أدونيس) استخدم مصطلح الحداثة مقيّدا بنسبة 60.40 % بينما استخدمه مطلقا بنسبة 39.60% و هذا يعود إلى أنّ الحداثة مصطلح فكري مركّب وواسع الاستخدام في الكثير من المجالات المعرفية وهو يحتاج إلى الكثير من الوصف والشرح والتفصيل والاستقراء من جميع الجوانب و الزوايا ، ومن أهم التراكيب التي ورد فيها مصطلح الحداثة مقيّدا نجد تراكيب الإضافة والوصف.

ضمائم الإضافة :

ورد مصطلح الحداثة في إطار التركيب الإضافي مائة وثلاثا وثلاثين مرة بما نسبته 37.89% من مجموع ورود هذا المصطلح في المدونة وهي نسبة معتبرة تفسّر ارتفاع نسبة وروده مقيدا، كما تدل على ارتباطه بمفاهيم أخرى و بمجالات واسعة وعدم اكتفائه بميدان معرفي واحد،ويبين الجدول الآتي نسبة ورود هذا المصطلح مضافا ونسبة وروده مضافا إليه :

الرقم	الكتاب	تكرار مصطلح الحداثة مضافاً	النسبة المئوية	تكرار مصطلح الحداثة مضافا إليه	النسبة المئوية
1	فاتحة لنهايات القرن	12	% 10.62	35	% 30.97
2	الشعرية العربية	12	% 13.19	26	% 28.57
3	النص القرآني وآفاق الكتابة	2	% 2.27	24	%27.27
4	الثابت والمتحول ج4صدمة الحداثة	0	% 0	17	%43.59
5	كلام البدايات	0	% 0	5	%25.00
	المدونة	26	% 07.41	107	%30.48

ورد مصطلح الحداثة مضافا في ستة وعشرين موضعا(26) بنسبة 07.41 % من مجمـــوع وورود هذا المصطلح في المدونة وأخذ الشعر النصيب الأوفر في اقترانه بالحداثة بصيغ مختلفـــة، إذ ورد مصطلح الحداثة مضافا إلى الشعر في إثني عشر موضعًا (12) وهي إشارة تؤكّـــد مكانـــة الشعر في فكر (أدونيس) وانشغال هذا الفكر بحركة الشعر العربي و تطويره، وأضيف مصطلح الحداثة إلى الغرب في أربعة مواضع (4)، وهو ما يدل على اهتمام (أدونيس) وتـــأثره بـــالفكر الغربي والحداثة الغربية على وجه الخصوص، وجاء مصطلح الحداثة مضافا إلى العرب مرتين (2) وكذلك عبارة (التغييرات الثورية-الاقتصادية،الاجتماعية السياسية) مرتين (2)،ووردت كل من الكلمات الآتية : العلم ، الزمن، العصر، المُلتقط مضافًا إليها مصطلح الحداثة مرّة واحدة (1)، وجاءت عبارة (النظر النقدي) مضافًا إليها مصطلح الحداثة مرّة واحـــدة (1)، وهنـــا يـــشير (أدونيس) إلى النظر النقدي عند (عبد القاهر الجرجاني) وأخيراً جاء العلم المركّب (أبي نواس) مضافًا إليه مصطلح الحداثة مرّة واحدة (1) وهو ما يعني أنّ الحداثة قـــد تقتـــرن –حـــسب أدونيس- بشخص بعينه فيقال حداثة فلان أوعلان.

ورد مصطلح الحداثة مضافا إليه في مائة وسبعة مواضع (107) بنسبة 30.48% من مجموع وورود هذا المصطلح في المدونة وهي نسبة كبيرة تشير إلى حرص (أدونيس) على تحليل مكونات الحداثة والكشف عن ماهيتها وخصوصيتها وإبراز أهم مراحلها وعوامل تشكلّها..الخ

ويمكن تصنيف الألفاظ المضافة إلى الحداثة كما يلي:

ألفاظ دالة على مكوّنات الحداثة : أبعاد الحداثة ، مقاييس الحداثة، صميم الحداثة، ذروة الحداثة، مفهوم الحداثة، مستوى الحداثة، مستويات الحداثة، جذور الحداثة، حقيقة الحداثة، معطيات الحداثة ، معنى الحداثة ، طابع الحداثة...الخ ، وهي الألفاظ الغالبة وهو ما يؤكّد ما أشرنا إليه سابقا ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

"و ينطوي معنى الحداثة هنا على تغيير النظرة للممارسة الكتابية الشعرية،..."[1]

" أن يكون مفهوم الحداثة أصبح ((قديماً)) أمر يعني أن الحداثة،بصفتها أساساً، مفهومًا يعارض ((القديم))، قد انتهت."[2]

ألفاظ دالة على إبداعية الحداثة : شعرية الحداثة ، رؤيا الحداثة ، رمز الحداثة ، مثلا يقول (أدونيس) :"وقد أثارت شعرية الحداثة نقداً وصل إلى مستوى النّبذ قاده رجالُ الثّقافة المؤسّسية التقليدية وأنصار القديم."[3]

ألفاظ دالة على الموقف من الحداثة:رفض الحداثة ، تقليد الحداثة ، ممارسة الحداثة، معرفة الحداثة، مثلا "وعلى هذا،فإن رفض الحداثة كما تبدو بخاصة في طرق التعبير،يدلّ على نزعة محافظة غايتها..."[4]

ألفاظ دالة على الأزمة التي تمر بها الحداثة : أزمة الحداثة ، إشكالية الحداثة ، مشكلية الحداثة ، التباسات الحداثة ، أوهام الحداثة ، مثلاً "هكذا تأخذ أزمة الحداثة وجهها الأكثر تعقيدًا في مرحلة ((عصر النهضة)). "[5]

ألفاظ دالة على ارتباط الحداثة بالزمان والمكان: عصر الحداثة ، زمن الحداثة ، لحظة الحداثة، عالم الحداثة ، نشوء الحداثة ، تأسيس الحداثة ، مثلاً "وثقافتنا لذلك، نحن الذين نعيش في عصر الحداثة، إنما هي أكثر من ثقافة قديمة-إنها ثقافة مهترئة."[6]

ألفاظ دالة على حركية الحداثة وتأثيرها : سبيل الحداثة، مسيرة الحداثة، سياق الحداثة ، اتجاه الحداثة، حركة الحداثة، بفعل الحداثة، تأثير الحداثة، مثلاً " وفي هذا تمثّل حركة الحداثة نوعاً من

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 338

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 107- 108

[3] المصدر نفسه ،ص 96

[4] أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب ،ج 4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري ، ص 231

[5] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 85

[6] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 242

البداية–رؤيةً و ((كتابةً)).[1]"

ألفاظ أخرى : شعراء الحداثة ، نقد الحداثة ، إيضاح الحداثة، كتابة الحداثة ...الخ

ضمائم الوصف :

يبين الجدول الآتي نسبة ورود مصطلح الحداثة واصفاً ونسبة وروده موصوفاً :

الرقم	الكتاب	تكرار مصطلح الحداثة موصوفاً	النسبة المئوية	تكرار مصطلح الحداثة واصفاً	النسبة المئوية
1	فاتحة لنهايات القرن	42	% 37.17	0	% 00.00
2	الشعرية العربية	39	% 42.86	7	% 07.69
3	النص القرآني وآفاق الكتابة	28	% 31.82	2	% 02.27
4	الثابت والمتحول ج4صدمة الحداثة	8	%20.51	0	% 00.00
5	كلام البدايات	9	% 45.00	0	% 00.00
المدونة		126	% 35.90	9	% 02.56

ورد مصطلح الحداثة في تراكيب وصفية (واصفا أو موصوفا) مائةً وخمساً وثلاثين مرّة (135) بنسبة بلغت 38.46 % وهي نسبة تتقارب مع نسبة وروده في تراكيب الإضافة، وجاء مصطلح الحداثة موصوفاً في مائة وستة وعشرين موضعاً (126)بنسبة 35.90 % ، بينما جاء واصفاً في تسعة (9) مواضع فقط بنسبة 02.56 % ،وهي نتيجة متوقعة ومنطقية ذلك أنّ الحداثة هو المصطلح المدروس والمستهدف في كتابات (أدونيس) التنظيرية فهو يحمل مضامين ومفاهيم تحتاج إلى وصف وإيضاح واستكشاف ، ونادراً ما يستخدم (أدونيس) كلمة الحداثة واصفة ويفضّل عوضاً عن ذلك استخدامها في تراكيب الإضافة فمثلا هو يستخدم التراكيب (شعر الحداثة، شعراء الحداثة، نقد الحداثة...) ولا يستخدم التراكيب(الشعر الحداثي، الشعراء الحداثيون، النقد الحداثي...)، على الرغم من شيوع التراكيب الأخيرة في وسائل الإعلام وعند الشعراء الشبّان.

جاء مصطلح الحداثة واصفاً بصيغة (حداثي) في ثلاثة مواضع وهي في قوله "هذا الذي أقوله في ما يتعلّق بالكتابة الشعريّة الفرنسيّة (وأقوله قصديّاً،لأنّ هذه الكتابة هي مرجعيّتنا الحداثيّة

[1] **أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 78**

الأولى) ينطبق تماماً على الكتابة الشعريّة العربيّة."[1] ، وفي قوله "...شأن الأوهام التي توحي بالحداثة عند الحداثيّين،"[2] ، وفي قوله يتحدث عن مجلة (شعر) "بحيث كشفت أبعاد حداثية لم تكن معروفة،"[3] ، وفي الكتاب نفسه استخدم مصطلح الحداثة واصفاً بصيغة (حداثوي) في ستة مواضع يصف بها صدمة الغرب قائلا"وفي هذا نتلمّس بعض الأسباب التي جعلت المفكرين العرب ((الحديثين))، يتكيّفون بصدمة الغرب الحداثوّية،"[4] وأما في المواضع الأخرى فقد وصف بها التقنوية كقوله مثلا "أرى أن التقنوية الحداثوية تفقدنا، بوثوقيتها الآلية المتكررة ، معنى المستقبل ذاته..."[5] .

إستخدم (أدونيس) مصطلح الحداثة موصوفاً في مائة وستة وعشرين موضعاً محاولا بذلك إبراز مفاهيم الحداثة والكشف عن خصائصها انطلاقا من قناعاته وآرائه ومواقفه ويمكن توزيع الصفات التي أوردها للحداثة كما يلي:

صفات تُبرزُ موقف أدونيس من الحداثة وأحكامه عليها :الحداثة موقف ونظرة، الحداثة مقرونة بالاختلاف،الحداثة التلفيقية الأزيائية، الحداثة سمة للأقوال ،الحداثة انفتاح، الحداثة زمانية ولا زمانية، الحداثة سمة فرق لا سمة قيمة، الحداثة مناخ أفكار...الخ ، على سبيل المثال قول (أدونيس) "فالحداثة موقف ونظرة، قبل أن تكون نتاجاً."[6]، وقوله " فالشعر لا يكتسب حداثته بالضرورة،من مجرّد زمنيته،وإنما الحداثة خصيصة تكمن في بنيته ذاتها."[7]

صفات دالة على الجنس : الحداثة الشعرية، الحداثة الشعرية العربية،الحداثة الغربية،الحداثة الفرنسية أو الإنجليزية،الحداثة الغربية –الأمريكية ، الحداثة الكتابية...الخ، مثلاً "وعلى هذا، يجب، في فهمنا الحداثة الشعرية،أن نؤكد على بُعدها العمودي، وننظر بحذرٍ إلى بُعدها الأفقي-الظاهري."[8] ، وما يجدر بالذكر أنّ التركيب الوصفي (الحداثة الشعرية) كان الأكثر وروداً في المدونة،إذ تكرّر في ثمانية وثلاثين موضعاً(38) بنسبة30.16 % من مجموع ورود مصطلح الحداثة

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 93

[2] المصدر نفسه ، ص 101

[3] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 108

[4] المصدر نفسه ، ص 84

[5] المصدر نفسه ، ص 106

[6] المصدر نفسه ، ص 84

[7] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 314

[8] أدونيس: كلام البدايات ، ص 153

موصوفاً، وهي نتيجة تؤكّد ما أسلفناه سابقاً حول اهتمام (أدونيس) بالشعر وحداثته.

صفات دالة على ميادين معرفية :الحداثة العلمية،الحداثة الأدبيـــة، الحداثـــة الفنيـــة،الحداثـــة النقدية،الحداثة العلمية–الثورية، الحداثة التقنية...الخ، يقول (أدونيس) مثلاً "فأقسم الحداثـــة إلى ثلاثة أنواع: الحداثة العلمية،وحداثة التغيرات الثورية–الاقتصادية،الاجتماعية،السياسية، والحداثة الفنية."[1]

العلاقات:

من خلال استقراء العلاقات التي ربطت مصطلح الحداثة بمصطلحات أخرى يمكن أن نـــصنفها على النحو الآتي:

علاقة ائتلاف: ولعلّ أبرزها علاقة مصطلح الحداثة بمصطلح الجدّة أو التجديد يقول (أدونيس) عند حديثه عن قضية التأويل "وهنا، كما أرى،تكمن إشكاليّة التجديد أو الحداثة."[2]، وكذلك علاقة مصطلح الحداثة بمصطلح النهضة

علاقة اختلاف: ويمثّلها مصطلح التقليد الذي يتناقض كلّيا مع مصطلح الحداثة يقـــول عنـــه (أدونيس) "كيف تنشأُ حداثة أدبية في مجتمعٍ يقومُ، في بناه الأساسيّة ، على التقليد، في مختلف الميادين الأخرى غير الأدبيّة؟" [3]

علاقة اقتضاء: وهي العلاقة التي تربط بين مصطلح الإبداع ومصطلح الحداثة فالإبداع في أيّ فن من الفنون يقتضي الحداثة يقول (أدونيس) "لذلك، ليست كلّ حداثةٍ إبداعاً، أما الإبـــداع فهو،أبدياً، حديث."[4]

علاقة تضمين أو احتواء: وهي التي تربط مصطلح الحداثة بمصطلحات مثل الـــرفض والتمـــرد والاختلاف والحرية يقول (أدونيس) " وتتضمّن الحداثة الرَّفضَ والتمرّد من حيث أنّها تتخلّـــى عن التقليد، ومفهومات الأصول والأسس والجذور والمعايير الثابتة."[5] ، ويقول "وأودّ أولا أن أؤكّد على أن الحداثة لا تقتضي أو تتضمّن حرية الفكر وحده، وإنما تقتضي وتتضمّن حرّيـــة الجسد أيضاً"[6]

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 320–321

[2] أدونيس: كلام البدايات ، ص 187

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 94

[4] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 112

[5] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 115

[6] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 111

علاقات استمداد : وهي التي تجمع بين مصطلح الحداثة المُستمدِّ ومصطلح الماضي (التـــراث) المُمدّ، يقول (أدونيس) "هكذا تضيء الحداثة ماضينا، وتظهره في صورة جديدة.وهي،في الوقت نفسه، تستمد من الماضي قوتها وحضورها.ذلك انها لا تحدث فجأةً، فهي حدثٌ له أصـــوله وتراكماتُه.ولا تهبط من خارج، وإنما تحدث ضمن ما نرثه، وفي اللغة التي نكتب بها. "[1]

علاقة تمازج: وهي التي تجمع بين مصطلح الحداثة ومصطلح الثورة وتتّضح في قول (أدونيس) "ومن هنا تتلاقى الحداثة والثورة- فكل جمهور عربي حديث لابد أن يكون ثورياً، وكل شعر عربي حديث لابد أن يكون ثورياً،ولكن ليس بالمعنى السياسي الجزئي المباشر، وإنمـــا بـــالمعنى الحضاري الشامل."[2]

مشتقات الجذر اللغوي لمصطلح الحداثة (حدث):

تمثّل السلسلة الإحصائية الآتية مشتقات الجذر اللغوي للحداثة التي استخدمها (أدونيس) وهي {حديث،محدث،إستحداث،إحداث،حداثوية،حداثي، تحديث} ،وتتكون من ســـبع ميـــزات نوعية،ويبيّن الجدول الإحصائي الآتي تكرار كلّ منها مرفقا بالنسبة المئوية (تواتر)

الكتاب	حديث	محدث	استحداث	إحداث	حداثوية	حداثي	تحديث	المجموع
فاتحة لنهايات القرن	55	3	3	0	0	0	0	61
الشعرية العربية	31	13	1	4	6	1	0	56
النص القرآني وآفاق الكتابة	31	4	0	0	0	2	2	39
الثابت والمتحول،ج4صدمة الحداثة	42	24	0	4	0	0	0	70
كلام البدايات	15	3	7	0	0	0	0	25
المدوّنة	174	47	11	8	6	3	2	251
النسبة المئوية	% 69.32	% 18.73	% 04.38	% 03.19	% 02.39	% 01.19	% 00.80	% 100

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 151

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 251

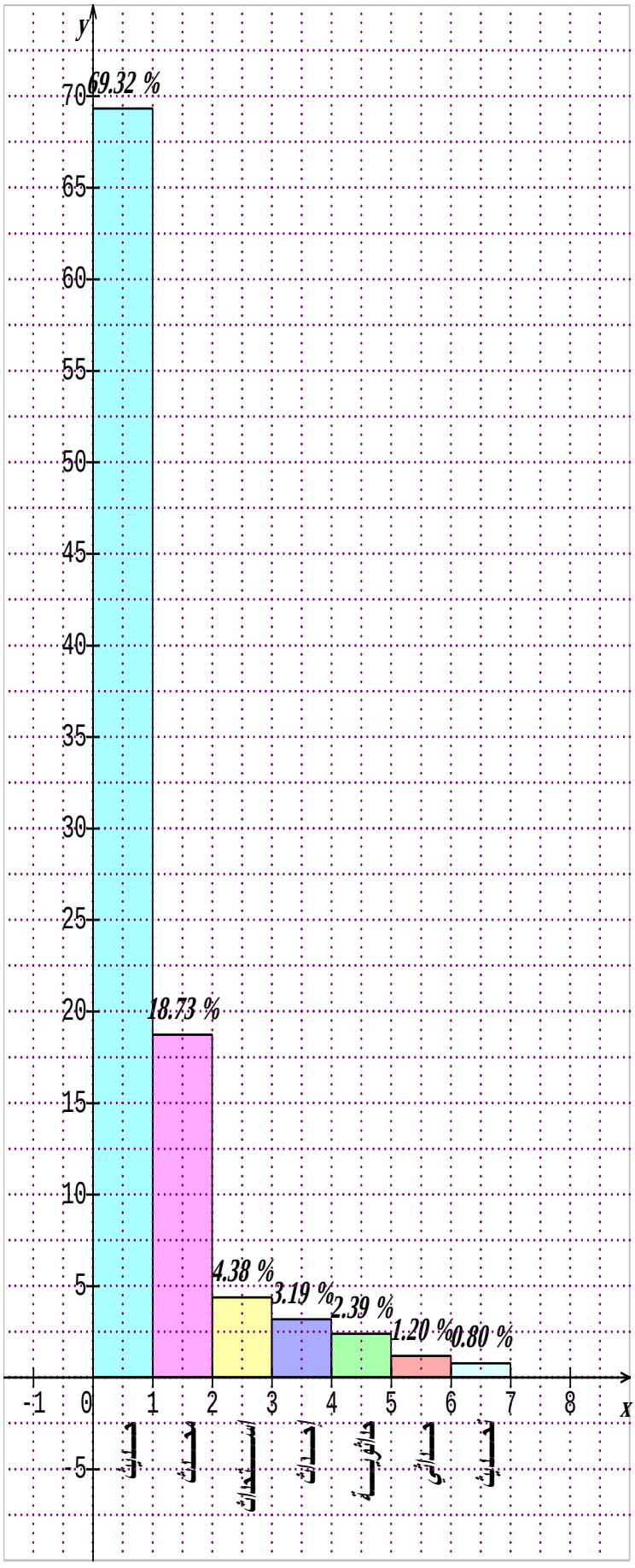

تمثيل بياني (المدرج التكراري الإحصائي) يبيّن نسبة تكرار مشتقات الجذر اللغوي لمصطلح الحداثة في المدونة

بلغة الإحصاء يُعتبر مصطلح (حديث) منوال هذه السلسلة الإحصائية لأنّه يوافق أكبر تكرار(174) ، أمّا مدى هذه السلسة فهو 174-2=172 وهو مؤشر يدل على اتّساع الفروق بين القيم النوعية لهذه السلسلة ، ويتضّح ذلك جلياً من خلال قراءة بيانية للمدرج التكراري.

لم يستخدم (أدونيس) مصطلح (تحديث) سوى مرتين (2) في كامل المدوّنة بنسبة 0.80 % وهو ما يعني عزوفا متعمّدا يعكس موقفا خاصا، ذلك أنّ (أدونيس) يربط هذا المصطلح بالحياة التي يعيشها المواطن العربي والتي طرأت عليها تغييرات شكلية فقط فهذا العربي يعيش حياة حديثة ولكن بذهنية قديمة ، وهو ما يفسّر نفوره من استخدام هذا المصطلح.

وما يقال عن مصطلح (تحديث) يمكن أن يقال أيضا عن المصطلحات (إستحداث،إحداث،حداثوية،حداثي) التي وردت بنسب استخدام ضئيلة ، وإن

وُجد تفاوت في الاستخدام بين مصطلح وآخر، فمصطلح (حداثي) استخدمها (أدونيس) صفة في مواضع قليلة جدا كما ذكرنا سابقا لأنّه يفضّل استخدام تراكيب الإضافة ،أمّا مصطلح (حداثوية) فقد استخدمها صفة للتقنوية وقد ربط هذا المصطلح بالعقلانية التقنوية أي بالتكنولوجيا المتقدمة التي اقترنت بالنشاط العقلي في الغرب على وجه الخصوص ، واستخدم هذا المصطلح في وصف صدمة الغرب التي أصابت العرب عند اتّصالهم بالحضارة الغربية الحديثة، وجاء مصطلح (إحداث) في مواضع قليلة لأنّه من المصطلحات القديمة التي لا يستعملها (أدونيس) كثيراً ، وجاء مصطلح (استحداث) بنسبة قليلة أيضا وورد ذكره في الحديث عن أوهام الحداثة (الاستحداث المضموني) ووصف به (أدونيس) نوعا من الحداثة سمّاها(الاستحداث السلفي) وأخرى سمّاها (الاستحداث العلماني).

ورد مصطلح (محدث) سبعا وأربعين مرة (47) وهي نسبة كبيرة إذا قورنت بالنسب السابقة على الرغم من أنّ هذا المصطلح من المصطلحات العربية القديمة، وبقراءة سريعة للجدول المرفق نجد أن هذا المصطلح ورد بكثرة في كتابين (الشعرية العربية)و(الثابت والمتحول ج4،صدمة الحداثة) وقد أسهب (أدونيس) فيهما عن الحديث عن التراث العربي وهذا ما جعله يستعمل المصطلحات العربية القديمة التي استخدمها النقاد والبلاغيون العرب.

أخيراً أخذ مصطلح (حديث) النصيب الأكبر من الاستخدام بنسبة بلغت69.32 % وهي نسبة كبيرة جدا مقارنة بالنسب الأخرى لبقية المشتقات، وتعني ارتباط هذا المصطلح بمصطلح الحداثة من جهة، ومن جهة أخرى عدم نفور (أدونيس) من استخدامه، لكن ما يجب الإشارة إليه هو أن هذا المصطلح لا يأتي دائما مرادفًا للحداثة أو معبّراً عنها، إذ كثيرا ما يستخدمه (أدونيس) مقابلاً لكلمة قديم أو للتعبير عن العصور المتأخّرة (العصر الحديث،النقد الحديث،الدولة الحديثة،العالم الحديث، الإعلام الحديث،...الخ).

تلك هي دراسة إحصائية تركزّت حول حضور مصطلح الحداثة في الكتابة الأدونيسية وحضور مشتقات الجذر اللغوي له،ولأنّ أهميّة مصطلح الحداثة تكمن في المضامين التي يحملها ولأنّه مصطلح فكري واسع فقد خصّصنا المباحث القادمة والفصلين القادمين للبحث في ماهية مصطلح الحداثة وأبعاده وخلفياته الفكرية وعلاقته بمفاهيم فكرية أخرى.

1 – 2 – المرجعيات الفكرية والأبعاد لمصطلح الحداثـــة عند أدونيس :

بالفكر تمكّن الإنسان من السيطرة على الطبيعة بعد أن توصّل إلى تفسير ظواهرها والكشف عن العلاقات التي تربط بين عناصرها ، بالفكر تمكّن الإنسان من تحقيق تلك التحوّلات الكبرى في جميع مجالات الحياة ، وقد لعب العقلُ دوراً مركزياً في تشكّل الفكر البشري فهذا العقل هو حقيقة الإنسان الأولى ككائن مفكّر وهو قبل ذلك هبة الرحمان لبني آدم، وبتطور الفكر تتحقّق الإنجازات الكبرى و الأعمال الخالدة ويتمّ الكشف عن حقائق جديدة مبهرة، وهو ما تجلّى في الحضارات البشرية والتي كان آخرها ذلك التحوّل الكبير الذي طرأ على المجتمع الغربي منذ نهاية ما يسمى بعصر الوسطى إلى حدّ الساعة مرورا بعصر النهضة وعصر الأنوار.

إنّ التحوّل الكبير الذي عرفته المجتمعات الغربية انعكس على البشر جميعا في مشارق الأرض ومغاربها دون تمييز وكانت الثقافة العربية من أكثر الثقافات تأثّرا بهذا التحوّل لعوامل تاريخيـــة معروفة على رأسها الهيمنة الاستعمارية الغربية على الأمة العربية والتي أخذت أشكالا مختلفة من بلد إلى آخر،وكان لاتّصال الثقافة العربية بالثقافة الغربية أثار –وما تزال- نتج عنـــها ذلـــك الصراع الذي يعرفه الفكر العربي بين تيارين كبيرين ، تيار تأثّر بالفكر الغربي وتيار سلفي يتكّأ على التراث العربي الإسلامي، ولا شكّ أنّ هاذين التيارين الكبيرين ما زالا يشكّلان إلى حـــدّ الساعة المرجعية الفكرية لأغلب أدباء الثقافة العربية ومفكّريها.

رأينا سابقاً أنّ المجتمع الغربي عرف في القرون الأخيرة أكبر تحوّر عرفته البشرية و الذي شمل جميع ميادين الحياة ، وقد أدّى الفكر دورا مركزياً في هذا التحول و قد لا نجد مصطلحا يعبّـــر عن هذا التحوّل الجذري مثل مصطلح الحداثة الذي ينطوي على الكثير من الأفكار والمفـــاهيم ويشير إلى مختلف التوجّهات والمذاهب التي نشأت حديثاً، إنّه يعبّر عن رؤية الإنـــسان الأوربي الجديدة للكون و للوجود وللذات وللدين...الخ ، إنّ الحداثة الغربية تشكّل قطيعة مع الأزمنـــة الماضية بكلّ ما تحمله من رؤى للدين و للوجود وللإنسان إنها ثورة على الكنيسة التي احتكرت المعرفة زمنا طويلا ، إنها تمجّد العقل ومن ثمّ الإنسان وتحرّر الفكر من جميـــع القيـــود....الخ ، ولقد انتقل مصطلح الحداثة بحمولته الفكرية وبقيمه الغربية إلى الثقافة العربية عن طريق الترجمة، وممّا لا شكّ فيه أنّه من المستحيل أن نفصله عن بيئته الفكرية التي نشأ فيها وفي الوقت نفـــسه يستحيل أن نتفادى تأثيره على الفكر العربي " ذلك أننا لا يمكن بحال من الأحوال أن ننفـــصل عن دائرة الاتصال العالمية في الفكر والثقافة،وإلا رددنا على أعقابنا،وانطوينا على أنفسنا كالذي

يريد أن يفقأ عينيه حتى لا يرى غيره."[1].

مصطلح الحداثة غربي النشأة وهو نتاج للثقافة الغربية والفكر الفلسفي الغربي وهو يمثّل ذلك التوجّه الذي شمل كلّ ميادين الحياة في نموها وتقدّمها وانجرافها نحو المستقبل وهو ما يعني أنّه مثقل بالحمولة الفكرية إلى جانب تعدّد أبعاده ومسوياته.

المرجعية الفكرية لمصطلح الحداثة :

اهتمّ (أدونيس) بالفكر وهو قارئ نموذجي استطاع من خلال مسيرته الطويلة أن يطّلع على الثقافة الغربية بعد اتّصاله بها وفي الوقت نفسه فهو على دراية عميقة بالتراث العربي وهو ما انعكس على مصطلح الحداثة عنده الذي استند على مرجعيتين فكريتين هما الفكر الغربي والتراث العربي.

1-المرجعية الفكرية الغربية:

لا ينكر (أدونيس) اتّصاله بالثقافة الغربية ويقرّ بتأثّره بالتجارب الشعرية الغربية وبالفيلسوف الألماني (نيتشه)(Nietzsche) واليوناني (هيراقليطس) (Heraclitus) [2]، وأثناء اتّصاله بالمجتمع الغربي تعرّف على حداثته وعلى مقوّماتها ومقتضياتها ونتائجها، وأدرك بعد وقوفه على التقدم الذي عرفته المجتمعات الغربية مدى أهمّية فكر الحداثة وخطورته في بناء الحضارة والتحرّر من أغلال التخلّف وهو ما انعكس بشكل واضح على رؤيته لماهية الحداثة و يفسّر أيضا الحضور الواسع والمركزي للحداثة في فكره، وإذا كانت الحداثة الغربية قامت على فكرة التمرّد الشامل على التقليد وعلى الكنيسة وقيمها وعلى كلّ ما يرمز إلى ممارسات القرون الوسطى وتأسّست على تمجيد الإنسان والإيمان بقدرته على التغيير،فإنّ (أدونيس) يجعل من الثورة على التقاليد وعلى النظام الثقافي السائد السبيل الأوحد لكلّ تجديد أو تحوّل ولنرى بعض مقولاته:

"وتتضمّن الحداثة الرَّفضَ والتمرّد من حيث أنّها تتخلّى عن التقليد، ومفهومات الأصول والأسس والجذور والمعايير الثابتة." [3]

"لا تنشأ الحداثة مصالحةً، وإنّما تنشأ هجوماً.تنشأ،إذن،في خرقٍ ثقافي، جذري وشامل، لما هو سائد."[4]

---

[1] عزت محمد جاد : نظرية المصطلح النقدي ، ص 53

[2] ينظر : صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 576

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 115

[4] المرجع نفسه ، ص 107

"والحداثة مقرونةٌ بالاختلاف من حيث أنّها تتعارض مع السائد من مفهومات الهويّة والوحدة والثبات والنهائيّة وتؤكّد على القطيعة والكثرة والتنوُّع والتحوُّل والتفتُّح المستمرّ واللاَّنهائيّة."[1]

من خلال المقولات السابقة يتّضح مدى تأثّر (أدونيس) بفكر الحداثة الغربية الذي تأسّس على قطيعة معرفية مع الماضي وعلى التحرّر من كلّ القيود وبخاصة قيود الكنيسة والقيم الدينية إجمالاً،لا تعترف الحداثة الغربية بقدسية أيّ قيمة موروثة بل تمجّد العقل وترفع من شأن الإنسان الذي أصبح مصدر كلّ معرفة "الغرب إذن قد تمثل الحداثة وعاشها كثورة.العقل لا يعترف بأي مكتسب من الماضي،بل على العكس يتخلص من المعتقدات وأشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي التي لا تؤسس على أدلة من النوع العلمي."[2] ،بل نجد (أدونيس) قد جعل من التمرد على التقاليد والنظام الثقافي السائد الذي تميّزت به الحداثة الغربية مقياسا مركزياً في تحديد نماذج الحداثة التي انتقاها من التراث العربي، ومن أهمّ خصائص الحداثة عند(أدونيس) نجد فكرة التجديد وهي خاصية تطبع فكره أيضا حيث نجده يميل دائما إلى التغيير وعدم القبول بما هو موجود وكلّ هذه الأفكار من أهمّ ما تميّز به الفيلسوف اليوناني (هيراقليطس) (Heraclitus)الذي نادى بالتغيّر الدائم ومن المبادئ التي اشتهر بها قوله"كل شيء في سيلان دائم" وله مقولة مشهورة يعبّر بها عن هذا المبدأ وهي "لا تستطيع أن تنزل في نفس النهر مرتين"[3]،كما اشتهر هذا الفيلسوف بالغموض وهو ما نادى به (أدونيس) أيضا في الشعر.

وحينما يربط (أدونيس) الحداثة بمفاهيم الرفض، التمرّد،الاختلاف،الهجوم، الخرق، القطيعة فهو يذكّرنا بالفيلسوف الألماني (نيتشه)(Nietzsche) الذي وضع مبدأ العدمية " وهي القول بعدم وجود أي شيء مطلق ومن ثمة نفي أية حقيقة أخلاقية وأية هيكلية للقيم."[4]، وكثيراً ما نجد (أدونيس) يدعو إلى التحرّر من جميع القيود إيمانا منه أنّ الحداثة لا تكتمل إلاّ عبر الحرية الكاملة"وأودّ أولاً أن أؤكّد على أنّ الحداثة لا تقتضي أو تتضمّن حرية الفكر وحده ، وإنّما تقتضي وتتضمّن حرية الجسد أيضاً."[5] ، والتحرّر من كلّ القيود –والإيديولوجية على وجه الخصوص – هي من أهمّ الأسس التي قامت عليها الحداثة الغربية لقد دعا الفيلسوف الألماني

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 115

[2] ألان تورين : نقد الحداثة ، ص 31

[3] ينظر عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية، ج2 ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت– لبنان ، ط1، 1984، ص 534

[4] فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، ص42

[5] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 111

(نيتشه)(Nietzsche) إلى تحطيم القيود أو الأوهام التي رسّختها المذاهب الدينية و الأخلاقية والفلسفية من أجل وضع قيم جديدة تمهّد للإنسان الأعلى أو (السوبرمان)[1] .

في مجال الحداثة الشعرية يبدو تأثر (أدونيس) بالحداثة الشعرية الغربية واضحاً ، سواء على مستوى رؤيته لماهية الشعر أو للغة الشعرية أو للإيقاع ...الخ، وهو ما سنتطرّق إليه في الفصل الثالث ، لكن ما يجب أن نشير إليه هو إيمان (أدونيس) العجيب بقدرة الشعر على إحداث التغيير في المجتمعات وتقزيمه لدور العقل في قضية الإبداع وهذا تأثّر كبير بفكر (نيتشه)(Nietzsche) الذي انتقد العقل ومجّد الفنون إذ"يعلّق على الفن مهمة الخلاص من الانحطاط، والتفلت من ربقة العدمية الدينية والفلسفية والأخلاقية."[2].

والحداثة عند (أدونيس) تتجاوز المعايير الموروثة وتهدم القيم الثابتة التي رسّخها الفكر الديني يقول "والحداثة في دلالتها البدهية الأولى دنيوة لا دينية"[3]، ولعلّ مواقف (أدونيس) من القيم الدينية من أشدّ المواقف جرأةً والتي تعرّض بسببها إلى هجوم شرس وانتقادات حادّة ، والحقيقة أنّ (أدونيس) قد استمدّ الأفكار التي تحملها هذه المواقف من المشروع الفكري لـ(نيتشه) (Nietzsche) الذي أعلن (موت الإله) معلناً بذلك موقفه المعادي لجميع القيم الروحية واحتقاره للأخلاق التقليدية ولقد تطوّر هذا الفكر في المجتمع الغربي من الثورة على الكنيسة وتسلطها واحتكارها للمعرفة إلى ثورة على الدين ، وقد حاول (أدونيس) إسقاط فكر(نيتشه) على المجتمع العربي ولكن ولأسباب عديدة أهمّها خصوصية الدين الإسلامي وتجذره في الثقافة العربية فإنّه وجّه انتقاداته – عن طريق الحداثة– إلى التأويل أو ما يسمّيه (النص الثاني) الذي يجب الثورة عيه ومواجهته يقول "فالحداثة ليست، في الأساس،مواجهةً للنصّ الأول، وإنما هي مواجهةٌ للنص الثاني.إنها ترفض أن يُحصر النصّ الأوّل، في تأويلٍ واحد، تخطّاه الزّمن وتخطّته المشكلات التي يواجهها المجتمع العربي–الإسلاميّ."[4] ،وهذا الموقف يؤكّد تأثر (أدونيس) بالحداثة الغربية التي واجهت الكنيسة والفكر الديني عموما ومجّدت الإنسان وفتحت له كلّ الآفاق وحرّرته من جميع القيود ومن ثمّ حرّرت جميع المفاهيم من هيمنة الرؤية الدينية السابقة، وقد سار (أدونيس) على دربها بدعوته إلى حداثة تواجه الفكر التأويلي للنص الأوّل (القرآن

---

[1] ينظر عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية، ج2 ، ص 533

[2] محمد الشيكر : هايدغر وسؤال الحداثة ، ص 58–59

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 107

[4] أدونيس : كلام البدايات ، ص 188

والحديث) وتفتح باب التأويل على مصراعيه لكلّ من هبّ ودبّ متناسياً أنّ تأويل النصوص الأدبية يختلف كلّياً عن النصوص الشرعية وأنّ هذا النص الثاني الذي يدعو إلى مواجهته قد استند إلى معايير علمية وقواعد وضوابط فقهية كما أنه نشأ في سياق تاريخي خاص، إنّ ما يحاول أن يقفز فوقه (أدونيس) هو تلك الفروق الجوهرية بين المجتمع العربي المسلم والمجتمع الغربي الكنسي، لقد نشأت الحداثة الغربية في ظروف خاصة وضمن معطيات أيديولوجية مختلفة وفي إطار تحوّلات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية ولا يمكن إسقاط فكر هذه الحداثة على الثقافة العربية في أيّ حال من الأحوال.

تتّكأ الحداثة عند (أدونيس) على الفكر الغربي لكنّه يحاول جاهداً أن يضع بصمته الخاصة على هذه الحداثة وذلك بالبحث العميق عن جذور لها في التراث العربي الإسلامي.

2-المرجعية الفكرية العربية:

يسعى(أدونيس) إلى تأسيس حداثة عربية وذلك من خلال رحلته الطويلة في عمق التراث العربي الإسلامي، وما يجب أن نشير إليه هو أنّ ما قام به (أدونيس) يستند إلى رؤية خاصة وأنّه عند اختياره لنماذج الحداثة العربية في التراث قد استخدم معايير الحداثة الغربية وعلى رأسها معيار الثورة على السائد ومعيار الخلق (لا على منوال سابق).

يذهب (أدونيس) إلى أنّ النص القرآني قد أسّس لحداثة عربية بما تضمنّه من إعجاز لغوي حيّر أرباب البيان كما أنّه أسّس لتلك النقلة من الثقافة الشفوية إلى ثقافة الكتابة، لقد أسهم النص القرآني في بروز الدراسات النقدية التي دفعت بالشعرية العربية إلى الإبداع والتطوّر يقول (أدونيس)" أنّ جذور الحداثة الشعريّة العربيّة، بخاصةٍ، والحداثة الكتابيّة، بعامّةٍ، كامنة في النصّ القرآني، من حيث أنّ الشعريّة الشفويّة الجاهليّة تمثل القدم الشعريّ، وأنّ الدراسات القرآنيّة، وضعت أسساً نقديّة جديدة لدراسة النصّ، بل ابتكرت علماً للجمال، جديداً، ممهّدة بذلك لنشوء شعريّةٍ عربيّة جديدة."[1] .

في مجال الشعر يرى (أدونيس) أنّ (امرؤ القيس) في أغلب أشعاره أكثر حداثة من شعر (شوقي) كلّه [2] ،لكن من أبرز النماذج التي رآها تمثّل الحداثة في الشعر العربي نجد (بشّار بن برد) و(أبا نواس) و(أبا تمام) ، وإذا كان المعيار الأساس الذي استخدمه (أدونيس) في اختيار

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 50-51

[2] ينظر أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 314

(بشّار بن برد) و(أبا نواس) هو التمرّد على الفكر الموروث والقيم الدينية والأعراف السائدة فإنّ المعيار الذي جعله يصنّف شعر (أبي تمام) كنموذج لشعر الحداثة العربية هو الثورة على اللغة الشعرية السائدة ، يقول (أدونيس) "كان بشار بن برد(168هـ./785م.)، على صعيد الكتابة الشعرية الوجه الأول، الأكثر بروزاً لهذه الحداثة،"[1]، أمّا الحداثة عند (أبي تمام) فقد ارتكزت على ما يسمّيه (أدونيس) (الخلق لا على مثال سابق) يقول " هكذا اتخذت الحداثة عند أبي تمام بُعداً آخر هو ما يمكن أن نسميه بُعد الخلق لا على مثال."[2]، ويشكّل شعر (أبي نواس) النموذج الشعري الأشدّ اكتمالاً للحداثة العربية لأنّه فصل الشعر عن الأخلاق والدين وتمرّد على قيم المجتمع بدعوته إلى أخلاق الخطيئة والفعل الحر الساخر من كلّ قيمة نهائية وهو بذلك يواجه الله بدينه الخاص لا بدين الجماعة كما يشير (أدونيس)[3].

من النماذج الشعرية الحديثة التي أوردها (أدونيس) نجد (جبران خليل جبران) الذي أشاد به كثيراً لقد استطاع هذا الشاعر أن يتحرّر من لغة الشعر التقليدية وأن يؤسّس لطريقة تعبير جديدة بعد أن تغيّرت طريقة تفكيره وتغيّرت نظرته للحياة وللإنسان وللأشياء لقد تمكّن هذا الشاعر من أن يقيم مفهوم الحداثة [4].

في مجال الدراسات النقدية يعتبر (أدونيس) (عبد القاهر الجرجاني) من أهمّ نماذج الحداثة النقدية، فقد أسهمت دراساته للنص القرآني في التنظير للحداثة الشعرية العربية (بنية اللغة الشعرية).

في مجال الفكر الفلسفي يورد (أدونيس) الفيلسوف (ابن رشد) كعلامة بارزة للحداثة العربية فقد أدّت أفكاره –ومنها تلك التي تعتبر العقل هو السبيل إلى الوصول إلى المعرفة والحقيقة – إلى فتح آفاق جديدة للبحث وأيضا أدّت إلى التصادم مع النظام الفكري السائد[5]، ويشير (أدونيس) كذلك إلى بعض العلماء الذين أسهموا في تأسيس الحداثة في تراثنا العربي في ميادين الفكر والعلوم المختلفة وهم (إبن الرّاوندي) و (الرازي) و (جابر بن حيّان) [6].

تبقى الكتابات الصوفية من أهمّ النماذج التي تمثّل الحداثة في تراثنا العربي –حسب أدونيس-

---

[1] أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الاتباع عند العرب ، ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، ص 12

[2] المصدر نفسه : ص 17

[3] ينظر أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 48

[4] ينظر أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الاتباع عند العرب ، ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، ص 96

[5] ينظر المصدر نفسه : ص 07

[6] ينظر أدونيس : الشعرية العربية ، ص 83

ولعلّ تميّز هذه الكتابات وتفرّدها واختلافها عن ما هو سائد وإيغالها في الغموض واستخدامها للغة فريدة وتعبيرها عن تجربة خاصة بين المخلوق و الخالق ، كلّها عوامل بهرت (أدونيس) وجعلته يضعها على رأس أهمّ الاكتشافات التي وصل إليها ، وهي عنده من أشدّ النماذج اكتمالاً للحداثة العربية التي أهملها الفكر العربي قروناً طوالاً ، ويأتي (النِّفَّري) على رأس المتصوّفة الذين تأثّر بهم (أدونيس) يقول عنه بعد دراسة أحد نصوصه "يُعطي النّفري للدّين بعداً ذاتياً، وهو في ذلك يؤسّس نظرةً معرفيّةً أخرى تغاير النظرة الدّينية التّقليديّة."[1] وهذا النص الصوفي ينبع من تجربة لا يمكن تكرارها و لذلك فهو نص أصل منفتح على اللانهائي ويظلّ يتجدّد باستمرار"هكذا يبدو نصّ النّفري قطيعةً كاملةً مع الموروث في مختلف أشكاله وتجلّياته.وبهذه القطيعة، يجدد الطّاقة الإبداعية العربية، ويجدّد اللغة الشعرية في آن."[2] ،وهذا الكلام يؤكّد ما ذهبنا إليه سابقا وهو أنّ (أدونيس) يعتمد معيار الثورة على السائد في تحديد نماذج الحداثة العربية وقد لا نبالغ حين نقول إنّ ما شدّ (أدونيس) إلى النص الصوفي هو تلك اللغة الغريبة التي يستخدمها ومن ثمّ الاختلاف على الكتابات السائدة والفكر المتمرّد الذي ينطوي عليه.

أبعاد مصطلح الحداثة:

الحداثة مصطلح شامل ومركّب لم يقترن بمجال معرفي معيّن بل يمكن القول إنّ حضوره شمل كلّ مجالات الحياة، ذلك أنّه يعبّر عن رؤية الإنسان للحياة وللوجود ويرمز إلى طموح هذا الكائن اللانهائي واندفاعه نحو التطور ومن ثمّ فقد تعدّدت أبعاد هذا المصطلح وتداخلت فيما بينها.

1- البعد الفكري :

البعد الفكري من أهمّ أبعاد الحداثة ذلك أنّ جوهر الحداثة فكر جديد تمكّن من هدم البنى الفكرية التقليدية في المجتمعات الغربية ولا يمكن أن نفصل مابين التقدم العلمي والتحوّل المعرفي من جهة وبين فكر الحداثة ، ولذلك نجد الحداثة عند (أدونيس) تقترن بطرح التساؤلات المستمرة والكشف الدائم عن المجهول والتطلّع الجارف إلى المستقبل وكلّ هذا لا بد أن يستند إلى قاعدة فكرية ومنهج علمي ومعرفة عميقة، وإذا كان التمرّد على المفاهيم الموروثة من أهمّ

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 65

[2] المصدر نفسه : ص 66

مقاييس الحداثة عند (أدونيس)، فإنّ التمرّد لا يحدث إلاّ بسبب التطلّع إلى مفاهيم جديدة والتي لا يمكن أن تتأسّس على فراغ فكري.

يرى (أدونيس) أنّ الحداثة الفكرية في المجتمع العربي اقترنت بدايتها بحركة التأويل أمّا في العصر الحديث فإنّ مسألة الحداثة غدت أهمّ قضية في الفكر العربي "فأن يُسائلَ الفكر العربي الحداثة هو أن يسائل نفسه ، قبل أيّ شيء."[1]،ذلك أنّه لا يمكن أن تُبحث الحداثة العربية ضمن الثقافة الغربية أو في إطار معطياتها المختلفة،إنّ من أهمّ التحديات التي تواجه المفكّر العربي اليوم هو الوصول إلى إيجاد معادلة توفّق بين الحداثة والتراث دون التفريط في أيّ طرف.

من مقتضيات الحداثة عند (أدونيس) تحرير الفكر من ترسبّات الماضي ذلك أنّه لا يمكن أن تعيش الحداثة إلاّ في مجتمع يضمن حرية الفكر، كذلك وفي الوقت نفسه لا تقتضي الحداثة معرفة الحاضر والإحاطة بكلّ مستجدّاته فقط بل تقتضي أيضاً معرفة الماضي معرفة عميقة[2] .

إنّ الحداثة في جوهرها موقف عقلي يركّز على التعامل العلمي مع الواقع والبعد العلمي من أهمّ أبعاد الحداثة وتعني الحداثة في بعدها العلمي عند (أدونيس) "إعادة النظر المستمرة في معرفة الطبيعة للسيطرة عليها، وتعميق هذه المعرفة وتحسينها باطراد."[3]، وهو بذلك يربط البعد العلمي للحداثة بالمعرفة الواسعة والعميقة للظواهر الطبيعية .

2- البعد الفني والأدبي :

للفنون أهمّية كبرى في حياة البشر وهو ما يفسّر استمرار جميع الفنون منذ القديم على الرغم من التحوّلات التي عرفها الإنسان، والفن قريب من عامة الناس وأكثر انتشاراً بينهم لأنّه يعبّر عن آلامهم وآمالهم، يدغدغ مشاعرهم وأحاسيسهم ولهذا السبب كانت الحداثة في مجال الفنون أكثر بروزاً،فحين يتغيّر المحيط ويتجدّد الكون وتتقدّم الأمم لابدّ من أن تتحوّل الفنون والآداب لتواكب هذه التغيّرات ولذلك فالحداثة الفنية عند (أدونيس) تعني "تساؤلاً جذرياً يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية ، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل، وشرط هذا كله الصدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون."[4] ، وينطلق (أدونيس) من كونه شاعراً وهو لذلك يركّز على اللغة باعتبارها

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 89

[2] ينظر أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق (الهوية ، الكتابة ، العنف)، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1، 2002 ، ص 134

[3] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 321

[4] المصدر نفسه ، ص 312

ميدان الفن الشعري، بل أنّ حداثة الشعر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحداثة اللغة التي يكتب بها هـذا الشعر"ذلك أن الحداثة الشعرية في لغة ما هي أولاً حداثة هذه اللغة ذاتها"[1]، والشعر من أهـمّ القضايا على الإطلاق التي تناولتها الحداثة الأدونيسية .

كثيراً ما يقرن (أدونيس) الحداثة بالإبداع، بل إنّ الإبداع عنده هو أهمّ سمة في أيّ عمـل فنّي يطمح إلى الدخول إلى عالم الحداثة السحري يقول "الحداثة تكون رؤية إبداعية، بـالمعنى الشّامل، أو لا تكون إلاّ زياً.ومنذ أن يُولَدَ الزيّ، يشيخ.غير أن الإبداع لا عُمر لـه.لـذلك، ليست كلّ حداثةٍ إبداعاً، أما الإبداع فهو، أبدياً، حديث."[2].

من القضايا الأدبية التي ارتبطت بالحداثة عند (أدونيس) نجد النقد الأدبي، فحداثة النصوص الشعرية عنده تقتضي حداثة في تذوقها وفي تلقّيها ولا يتحقّق ذلك إلاّ بتأسيس معايير نقديـة جديدة تُحدث قطيعة مع المقاييس التقليدية الموروثة "فالمفهوم النقدي التقليـدي لا يقبـلُ إلا الشعر الذي يتوافق مع الموروث وأصوله،أما المفهوم النقدي الذي ينشأ في مناخ الحداثة فإنـه يؤسس معايير نقدية تنظر إلى الشعر في ذاته، ويقومه، تبعاً لذلك، بمقاييس من داخله، من تطور التعبير الشعري بالذات."[3]، و(أدونيس) شديد الاهتمام بالحداثة النقدية على اعتبار أنّها تسهم في إرساء دعائم الحداثة الشعرية خاصة والحداثة في الأدب عموماً والحداثة في الفن بشكل أعمّ.

3- البعد السياسي الاجتماعي الاقتصادي :

ربط (أدونيس)السياسة بالاجتماع والاقتصاد ورأى أنّ الحداثة في هذه المجالات تعني الثورة على كلّ البنى القديمة وأطلق على هذه الحداثة اسم حداثـة الـتغيرات الثوريـة الاقتـصادية الاجتماعية وهي تعني " نشوء حركات ونظريات وأفكار جديدة، ومؤسسات وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البُنى التقليدية القديمة في المجتمع وقيام بُنى جديدة"[4] ، تكتسب الحداثـة هنـا الصبغة الثورية لأنّها في جوهرها ثورة شاملة على نظام سياسي واقتصادي واجتماعي مهيمن.

ويرى (أدونيس) أنّ الحداثة السياسية بدأت في المجتمع العربي بتأسيس الدولة الأموية وتمثّلت في تلك الحركات الثورية التي سعت إلى إسقاط الحكم الأموي مثل الخوارج وغيرهم [5]

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 110

[2] المصدر نفسه ، ص 112

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1996 ، ص 167

[4] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 321

[5] ينظر أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الاتباع عند العرب ، ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، ص 5-6

4- البعد التاريخي :

لم تنزل الحداثة فجأةً و لم ترتبط بزمن معيّن ولا بمجتمعٍ بعينه بل هي مسيرة من التحوّلات والصراعات التي امتدّت زمنا طويلاً وقد كانت دائمة الحضور في المجتمع البشري "ولئن كانت الحداثة لا تُحدَّد، فمن الممكن القول إنَّها كانت دائماً حاضرةً في تاريخ الإنسان-ممارسةً، أو إشارةً ودلالةً."[1]، ويرى (أدونيس) أنّ الحداثة في الشعر العربي حركة تاريخية تمثّل حلقة وصل بين ما قبلها وما بعدها وأنّه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال فصل هذه الحركة عن السياق التاريخي العام لأيّ مجتمع يمر بمراحل من التطورات والتحوّلات في مختلف بنياته الفكرية والسياسية والاجتماعية...الخ.

وإذا كانت الحداثة الغربية قد نشأت في سياق تاريخي تضمّن جملة من التحوّلات الجذرية التي وقعت بفضل تطور الفكر الفلسفي وانتشار العلوم والتقنية فإنّ الحداثة العربية –كما يشير أدونيس- نشأت في سياق تاريخي حمل سلسلة من التأويلات لعلاقة كلّ ما يحيط بالعربي المسلم من حياة وفكر بالوحي الديني و(أدونيس) يحاول دائماً عدم الفصل بين الحداثة والتاريخ فهو يؤكّد أنّها لا تحدث فجأةً وإنّما هي حدث له أصوله وتراكماته ضمن التراث الفكري واللغوي لكلّ مجتمع[2]

5- البعد الشخصي والقومي :

يذهب (أدونيس) إلى خصوصية الحداثة،فلكلّ مجتمع حداثته فقد نجد في الحداثة العربية خصائص لا نجدها في نظيرتها الغربية والعكس صحيح، ويعود ذلك إلى ارتباط الحداثة في كلّ مجتمع بماضيه وتراثه وثقافته ولغته "الحداثة ،إذن ، ملازمة للقدم في كل مجتمع وفي كل مرحلة.ومن الطبيعي أن تختلف أبعادها وأشكالها من مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى زمن."[3]، إنّ البيئة الثقافية بجميع مكوّناتها تلعب دوراً مهمّاً في تحديد خصائص الحداثة وتشكيل عناصرها الجوهرية، فدلالة الحداثة في الشعر الفرنسي تختلف عن دلالتها في الشعر الإنجليزي أو السوفياتي أو الأمريكي أو العربي، إذ لا يمكن –كما يضيف أدونيس- أن تُبحث الحداثة كمفهوم مطلق قائم بذاته منفصل عن البيئة التي نشا في تربتها الثقافية [4].

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 96

[2] ينظر أدونيس : كلام البدايات ، ص 151

[3] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 326

[4] المصدر نفسه ، ص 326

إذا كانت الحداثة تكتسب خصوصية قومية فإنّ يمكن كذلك أن تكتسب بعـــداً شخـــصياً وهو ما ذهب إليه (أدونيس) حين قرن الحداثة بشاعر بعينه يقول عن (بشار بن بـــرد) "فطـــن بعض النقاد العرب إلى أهمية بشار، فقالوا عنه إنه "قائد المحدثين" وإنه "أول المولّدين".لكنهم لم يلاحظوا من "حداثته"و"توليده" إلا أنه "أغرب في التصوير"أي جاء بتشبيهات لم تكن مألوفـــة عند الأولين."[1] ، ما يمكن قوله أنّ الشاعر الفذّ بإبداعه وخروجه على المألوف يمكن أن يؤسّس لحداثة خاصة به تحمل بصمته الخاصة وأسلوبه المتميّز ورؤيته المتفرّدة.

6- البعد الكوني والعالمي :

يُصبغ (أدونيس) على الحداثة بعداً عالمياً فهي لا تنشأ في بلد دون بلد و لم تقترن بمجتمـــع بعينه، إنّها تيار يجتاح جميع الميادين ويغزو كلّ الأزمنة والأمكنة، إنّها ظاهرة كونية لارتباطهـــا بالكائن البشري بإبداعاته وابتكاراته وطموحه وقدرته التي أودعها الله في إنّها "مناخ عـــالمي– مناخ أفكار وأشكال كونية، وليست مجرد حالة خاصة بشعب معيّن."[2]،يسعى (أدونـــيس) إلى عولمة الحداثة والحداثة الغربية بوجه خاص لأنّ كلّ المقاييس التي يستند إليهـــا مـــستمدّة مـــن النموذج الغربي للحداثة ، ومع ذلك يمكن القول أنّ الحداثة باعتبارها نضالا من أجل التقـــدم والتجديد والتغيير نحو الأفضل والإبداع والابتكار ...الخ هي ظاهرة إنسانية منذ وجد الإنسان على الأرض.

---

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 36

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 332-333

1 – 3 – مفهوم الحداثـــة عند أدونيس :

لعلاقة (أدونيس) بالحداثة تاريخ طويل ومتشعب، فلم يرتبط أديب عربي في عصرنا الحديث بمصطلحٍ كما ارتبط (أدونيس) بمصطلح الحداثة، إنّه سادنها الأول والناطق باسمها وصورتها التي تنعكس على مرآة الأدب والشعر بخاصة إذا أردنا استخدام لغة محبيه وأتباعه ، لقد حمل منـــذ بداياته الأولى لواء التجديد في الشعر العربي ، فعلى الرغم من عدم استخدامه الصريح لمصطلح الحداثة غير أنّ كل الأفكار التي كان يطرحها في كتاباته النقدية تدل – في ما لا يدعو مجـــالاً للشك – على فكرٍ ساعٍ إلى التجديد ومشرئبٍ إلى غد مختلفٍ ورافضٍ للتقليد بجميع أشـــكاله أما أشعاره الأولى فقد غلب عليها طابع الحداثة "فهناك نصوص شعرية كثيرة تحمل سمة الحداثة كان قد نشرها في مجلة "شعر"اللبنانية، تعتبر الخطوات الأولى والبارزة في دخوله إلى عالم الحداثة ، إلى جانب ذلك وردت نصوص نقدية أخرى هامة في نفس المجلة، تؤســـس للحداثـــة ."[1]، وتبدو ملامح الحداثة واضحة حتى في العناوين التي كان يضعها على مقالاتـــه أو محاضـــراته ، فهناك مقال نقدي نشره في مجلة "شعر" سنة 1959م بعنوان "محاولة في تعريف الشعر الحديث"، إن مجرد قراءة العنوان قراءة متأنية يمكن استنباط أنه رافض للمفهوم القديم للشعر وأنه يـــصبو لتأسيس عالم شعري مختلف ، أمّا المحاضرة التي شارك بها في مؤتمر روما ســـنة 1961م فكـــان عنوانها " الشعر العربي ومشكلات التجديد" ويتضح من خلال العنوان أنّه كان يحمل هـــاجس تجديد الشعر العربي ويسعى لكشف أهم العقبات التي تحول دون هذا التجديد ، كـــل ذلـــك يؤكد رؤية (أدونيس) الجديدة للشعر و الأدب عموماً " لقد بدأ أدونيس، منذ بداياتـــه ومـــن خلال جماعة "شعر"، الأكثر اضطلاعاً بين أقرانه بهموم الحداثة، ثم – فيما بعد – الأوضح تعبيراً عن مفهومها أو عن خطوطها العريضة، ليس فيما كتبه من شعر وحسب، بل فيما كتبه أيـــضاً من دراسات ومقالات." [2].

لقد كانت الحداثة حاضرة حضورًا قويًا كمفهوم في فكر (أدونيس) منذ رفع قلمه كاتبـــاً باكورة أعماله، أمّا حضور مصطلح الحداثة في كتاباته فلم تتّضح معالمـــه إلاّ في الـــسبعينيات، ومنذ ذلك الحين بدأت تترسّخ تلك العلاقة التاريخية بين (أدونيس) و الحداثة "لقد أصـــبحت إشكالية الحداثة الإشكالية الأساسية و الجوهرية في النظرية الشعرية عند أدونيس، فعلى أســـاس

---

[1] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 144

[2] جودت فخرالدين :" أدونيس:هاجس البحث والتأويل التعبير عن الحداثة شعراً ونثراً "،مجلة فصول مج 16 ،ع2 ،1997،ص 182

النظر إليها تتولد المواقف من القضايا الأدبية والفكرية الأخرى ويعتبر "بيان الحداثة" الذي كتبه أدونيس عام 1979م الرؤيا الأكثر إشكالية والأكثر إفصاحاً حول مفهوم الحداثة لكونه يطرح للنقاش والتساؤل قضايا أساسية وجوهرية في عملية تفعيل النظرية الشعرية وفق المنظور الأدونيسي." [1]، لا شك في أنّ الكثير من المهتمّين بالحداثة في المجال الأدبي يعتبرون (أدونيس) المنظر الأول لها، فقد كانت هاجسا يراوده منذ بداية رحلته الأدبية والشعرية بخاصة إلى غاية تحوّلها إلى بيان جماعي عام وإشكالية فكرية عربية ، و لم يقتصر اهتمامه بالبحث المستمر عن صورة حديثة ومغايرة للشعر العربي بل امتدّ إلى إعادة قراءة الشعر العربي القديم والنصوص النقدية والصوفية قراءةً مختلفةً في ضوء معطيات جديدة واكتشاف العناصر الدالة على الحداثة فيها " يُعتبر أدونيس ، بلا ريب ، مكتشف التنظيرات العربية للحداثة في ثقافتنا القديمة ، من خلال أقوال المبرّد وابن المعتز وابن جنّي وابن رشيق ، وهؤلاء جميعاً ينتصرون للشعر المحدث أو الشعر المكتوب في زمنهم." [2].

(أدونيس) شاعر من رواد شعراء الحداثة وكتاباته الشعرية تُجسّد بصدق رؤيته الحداثية للأدب وللحياة عموماً،وهي في الوقت نفسه تُجسّد تنظيراته التي ما فتئ ينادي بها في كل لقاءاته وينشرها في كلّ كتبه ومقالاته والتي تتمحور حول مفهوم مركزي هو الحداثة ، وهو على يقين من صعوبة الوصول إلى حقيقة الحداثة التي يدرك جيّداً مدى التعقيدات التي يتضمنها هذا المصطلح في ثقافتنا العربية ، فحين يطرح السؤال ما حقيقة الحداثة ؟ يقول "لا أزعم ، أن الجواب عن هذا السؤال أمر سهل. فالحداثة في المجتمع العربي إشكالية معقدة ، لا من حيث علاقاته بالغرب وحسب ، بل من حيث تاريخه الخاص أيضاً . بل يبدو لي أن الحداثة هي إشكاليته الرئيسية."[3]، وقد تكون إشكالية الحداثة تكمن في شموليتها وارتباطها بجميع مجالات الحياة وهي بذلك تمسّ حياة أغلبية أفراد المجتمع إن لم نقل جميع أفراده بدون استثناء ،ومعنى ذلك أنها ستتوغل في مناطق شديدة الخطورة وعلى رأسها العقيدة .

يحدّد (أدونيس) أبعاد أو مستويات الحداثة حسب تعبيره وهي عنده ثلاثة مستويات أو ثلاثة حداثات حداثة علمية وحداثة التغيرات الثورية، الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية وأخيراً الحداثة الفنية، ويلجأ إلى هذا التقسيم قصد تبسيط المفاهيم حسب رأيه.

---

[1] حبيب بوهرور : تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني ، ص 194-195

[2] محمد بنيس :الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته ، ص 161

[3] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 320

فالحداثة العلمية تقترن عنده بالمعرفة و بعلاقة الإنسان بالطبيعة يقول "علمياً، تعني الحداثة إعادة النظر المستمرة في معرفة الطبيعة للسيطرة عليها، وتعميق هذه المعرفة وتحسينها باطراد."[1]، إن (أدونيس) يعرّف هنا الحداثة العلمية بأنها تلك التحوّلات المستمرة في المعرفة العلمية للطبيعة أو المحيط الذي يعيش فيه البشر هذه المسيرة المعرفية التي لا تعرف التوقف و لا تصل إلى نهاية معروفة إنها رحلة لا نهائية نحو الكشف الدائم ،و المعرفة تشتمل على فهم الحقائق و اكتساب المعلومات إمّا عن طريق التجربة أو من خلال تأمل النفس أو من خلال الإطلاع على تجارب الآخرين و المعرفة العلمية بخاصة هي معرفة جدلية تقوم على البرهان و الملاحظة المستمرة والمنظِمة للظواهر سعياً إلى تفسيرها و كشف العلاقات التي تنظمها ، وهنا يبرز دور العقل كعامل رئيس في إنتاج المعرفة وتعميقها ويذكرنا هذا بمبدأ العقلانية و بديكارت و بعصر الأنوار في أوربا وهو ما يدل على مدى تأثر (أدونيس) بالحداثة الغربية ، تتركز الحداثة العلمية عند (أدونيس) على السعي المتواصل إلى تفسير الظواهر الطبيعية بغية إخضاع الطبيعة لإرادة الإنسان – الذي صار ذا شأن كبير في فكر الحداثة – فالطبيعة مليئة بالطاقة والقوة التي يمكن تسخيرها لخدمة البشر و لا تتم السيطرة على الطبيعة إلا من خلال القانون العلمي المحض ، إن إعادة النظر المستمر في معرفة الطبيعة يعني بلا شك النقد المتواصل لكل الآراء و النظريات العلمية و النقد من سمات الحداثة بشكل عام لأنه يحافظ على استمراريتها و تجددها ، هذا النقد أيضا هو الضامن المهم للحفاظ على الحركة الدائمة لعجلة العلم ، فنيوتن في سعيه لتفسير ظاهرة سقوط التفاحة توصل إلى قانون الجاذبية وانطلاقا من هذا القانون استطاع الإنسان اختراع الطائرة والأقمار الصناعية والمركبات الفضائية ليواصل عملية الاكتشاف .

أمّا حداثة التغيرات الثورية ،الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية فيقول عنها (أدونيس) "ثورياً، تعني الحداثة نشوء حركات ونظريات وأفكار جديدة ، ومؤسسات وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البُنى التقليدية القديمة في المجتمع وقيام بُنى جديدة." [2] ، يرتبط المفهوم الثوري للحداثة عند (أدونيس) بالمجالات الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية ، وهو هنا يتكأ على مفهوم الثورة الذي يتضمن تلك التغيرات الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية والتي تؤدي إلى تحول جذري شامل في المجتمع كالثورة الصناعية في انجلترا و الثورة السياسية في فرنسا وهما

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 321

[2] المصدر نفسه ، ص 321

ثورتان جاءتا كثمرة للفكر الحداثي في أوربا ، والثورة لا تنشأ من فراغ بل تعود إلى عامل أساسي و هو ذلك النشاط المرتبط بالعقل و الذي يؤدي إلى إنتاج فكري يميّز الإنسان عن باقي المخلوقات ، هذا الإنتاج المتمثل في أفكار تتداولها فئة مستنيرة من المجتمع تسعى إلى تغيير الأوضاع السائدة ، بعد أن تتطور تلك الأفكار إلى مجموعة من الأحكام والآراء في قضايا تهم المجتمع فتتشكل على إثرها النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتي لا يمكن تجسيدها على أرض الواقع إلا بعد أن تصبح همّاً مشتركاً و هاجساً داخل المجتمع ، وبذلك تظهر التيارات والحركات الفكرية وتنشأ الأنظمة والمؤسسات لتقود المجتمع إلى التغيير ، هذا التغيير يكمن أساساً في تشكيل بُنى جديدة تحلّ محلّ البُنى التقليدية القديمة التي لم تَعدْ تلاءمُ العصر ولا تحقّق طموحات و تطلعات أغلبية أفراد المجتمع ، إنّ مفهوم الحداثة يرتكز على الثورة كمفهوم محوري لا تتحقق الحداثة إلا عن طريقه والثورة هنا ليس من الضرورة أن تستخدم العنف المادي أو المعنوي لكن المهم هو أن تتمكّن من تحقيق التحول من الوضع القائم إلى وضع آخر أفضل وذلك سعياً إلى تجسيد مُثُل و أساليب جديدة تختلف في نظرتها وحركتها عن التصورات التقليدية السابقة، أي تجعل من المستقبل عاملاً مُهما في تشكلها ووجودها ، ويتميّز هذا التعريف بالشمولية والاقتضاب على اعتبار أن (أدونيس) يركّز كما يكرّر دائما على الحداثة الفنية ومع ذلك فهو يشير أحياناً إلى الحداثة السياسية في تشخيصه للوضع السياسي العربي الراهن أو عند تناوله للتاريخ العربي الإسلامي يقول مثلاً "إن الحداثة في المجتمع العربي بدأت موقفاً يتمثّل الماضي ويفسّره بمقتضى الحاضر.ويعني ذلك أن الحداثة بدأت،سياسياً ، بتأسيس الدولة الأموية،وبدأت فكريا ، بحركة التأويل."[1] وفي قراءته للوضع السياسي الذي ميّز فترة العهد الأموي و العبّاسي سلّط اهتمامه على الحركات والتيارات المناهضة للحكم القائم والتي يعتبرها من تيارات الحداثة ,فهي تحتكم إلى مرجعية فكرية تختلف عن فكر السلطة الحاكمة "في أثناء العهدين الأموي والعباسي حيث نرى تيارين للحداثة : الأول سياسي – فكري ويتمثّل من جهة ، في الحركات الثورية ضد النظام القائم، بدءاً من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مروراً بالقرامطة والحركات الثورية المتطرّفة. ويتمثّل ، من جهة ثانية ، في الاعتزال والعقلانية والإلحادية ، وفي الصوفية على الأخص." [2] .

---

[1] أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الاتباع عند العرب ، ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، ص 5

[2] المصدر نفسه ، ص 6

في المستوى الفني تعني الحداثة عند (أدونيس) "تساؤلاً جذرياً يستكشف اللغة الشعرية ويستقصيها، وافتتاح آفاق تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية ، وابتكار طرق للتعبير تكون في مستوى هذا التساؤل، وشرط هذا كله الصدور عن نظرة شخصية فريدة للإنسان والكون."[1]، ويتضح من هذا التعريف أنّ (أدونيس) يقتصر هنا على المجال الأدبي لأن الفن أعم و أشمل فهو إنتاج للجمال وموهبة إبداع تميّز بها الكائن البشري والفن أنواع منه التشكيلي كالرسم والصوتي كالموسيقى والحركي كالرقص و(أدونيس) نفسه حين يتحدث عن الفن يقول إنه"نظر معرفي يُصغي إلى العالم فيما يخلق صورة جديدة له .وهو، إذن ، شملُ الوجود كلّه، وجماليّة الوجود."[2] ، إنّ الحداثة الفنية عند (أدونيس) ترتبط ارتباطًا وثيقاً وقبل كلّ شيء بنظرة المبدع أو الفنان الشخصية للإنسان و للكون ،ولا نبالغ إذا قلنا أن لا حديث عن الحداثة دون تحقق هذه النظرة ، لأن فرادة أو تميّز نظرة المبدع لما يحيط به هي العامل المركزي في عملية الخلق،بعد توفر هذا الشرط الأساس يضع (أدونيس) مفهوم الحداثة الفنية على ثلاثة أعمدة لا تقوم إلا بوجودها وهي التساؤل الجذري، افتتاح آفاق تجريبية جديدة، ابتكار طرق للتعبير.

أمّا التساؤل فهو مفتاح الفكر عند (أدونيس) فكثيرا ما يلجأ إليه لإثارة قضية من القضايا المصيرية في المجتمع العربي ، إنه منهج حياته إذ يقول "والشيء الآخر الذي أثّر في هو طريقة التفكير القائلة إنه إذا كان هناك معلوم في العالم ومقابله هناك مجهول ، فإن المعرفة الحقيقية ليست معرفة المعلوم بل معرفة المجهول.وقد سكنني هاجس المجهول منذ بداية الطفولة،"[3] ، ولا تخوض النفس المجاهيل إلا إذا كانت مفعمة بهواجس التساؤلات ، وهذا التساؤل الجذري هو الذي يبحث في عمق الأشياء و يثير اللغة الشعرية ويستفزّها و يفجّر مكنوناتها ، هذه اللغة الشعرية التي تشكل انزياحا على مستوى اللغة العادية إنها خرق لقوانينها ومعاييرها إنّها " ليست مجرّد شاهدٍ على الوجود ، وإنّما هي كينونةٌ متحرّكةٌ وفعّالةٌ. "[4] .

لتحقيق الحداثة الفنية يجب أن يُفتح أفق للتجارب الجديدة في الممارسة الكتابية، فكل تجربة جديدة تؤسس مولد تجربة مختلفة و تمهّد الطريق لانبثاق تجارب أخرى متميّزة وهذا يعني انفتاحا على الكتابة الفنية و غلقاً للجمود و ما ينجر عنه من تكرار نفس التجارب أو محاكاة

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 321

[2] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 304

[3] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 50

[4] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 25

أخرى و"نقصد بالتجربة الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره و إحساسه ،" [1]، و يمكن تعميم هذا التعريف على الكتابة الابداعية بصفة عامة ، وليس من الهين ميلاد تجربة إبداعية متفردة لأن ذلك يتطلب الكثير من الجهد و المعاناة إضافة إلى توفر الموهبة الخاصة "تصدر التجربة الشعرية عن بواعث عدّة شديدة التقمص ، بحيث لا تتحدد ولا يبين منها عنصر إلا متلبسا ببقية العناصر الأخرى . وتعد الثقافة إلى جنب الموهبة عنصرا أساسيا لكل تجربة ، توفر لها الإدراك الممتد في تاريخ المعرفة الإنسانية وفي تجارب الآخرين. وتفتح أمامها آفاقا من الرؤى الخصبة التي ترى ما لا يُرى، ترى الوحدة في التعدد ،الكل في الأجزاء ، الروح في المادة ،التواصل في الانقطاع و الحياة في الموت." [2].

وأخيرا كي تتحقق الحداثة الفنية لابد من بروز طرقٌ جديدة للتعبير تكون في مستوى التساؤلات المطروحة أي ترقى لصياغة الأجوبة المُقنعة ، والتعبير بمفهومه الواسع هو تلك الحالة التي يستطيع من خلالها الإنسان الإعراب عن الخفايا التي تختلج في نفسه ويتراوح التعبير بين الإفصاح المباشر والرمزي و الإيحائي، أمّا في المجال الفني فيقتضي لغة جميلة مؤثرة ،والكلام عن ابتكار طرق التعبير يفضي إلى الكلام عن الأساليب المستحدثة التي يبتكرها المبدع والتي تميّزه عن غيره بل تصبح البصمة التي يضعها على بطاقة هويته الابداعية ذلك "أنّ الأسلوب قد ارتبط أساسا بطرق متنوعة في التعبير تحدها علاقات تركيبية لغوية ومعجمية مُنظمة."[3] ، والحديث عن الأسلوب واسعٌ ومتشعبٌ يعجز هذا المقام على احتوائه، لكنّ يكفي هنا القول إنّه تلك الطريقة التي يستخدمها المبدع للتعبير عن ما يجول في ذهنه من أفكارٍ ومعانٍ وما يختلج في قلبه من مشاعر وأحاسيس، وقد يرتبط المبدع بأسلوبه الخاص فيكشف عن نمط تفكيره و يصور شخصيته ويعكس أفكاره ومشاعره وصفاته وهذا ما يذكرنا بقولة (بيفون) الشهيرة "الأسلوب هو الرجل"، وبالعودة إلى تعريف (أدونيس) فإن الحداثة تقتضي ابتكار أسلوب جديد أو طريقة تعبير على أن تكون في مستوى التساؤلات الجذرية المطروحة.

يمكن إعادة صياغة التعريف السابق كما يلي :

---

[1] محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، بيروت – لبنان ، (د ، ط) ، 1973 ، ص 383

[2] ابراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، منشورات وزارة الثقافة الجزائرية ،الجزائر، (د ، ط)، 2007 ،ص 154 – 155

[3] محمد عبد المطلب : بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، ط2 ، 1995 ، ص 20

الحداثة في الفن نظرة فريدة جديدة للكون و للإنسان يتمكن من خلالها المبدع أن :

- يؤسس لتساؤل جذري يفجّر لغته الشعرية
- يفتح آفاقاً تجريبية جديدة في الممارسة الكتابية
- يبتكر طُرقاً للتعبير ترقى إلى مستوى التساؤل

تلك هي مستويات الحداثة عند (أدونيس) وهو يرى أنها تشترك في ميزة أساسية وهي أنها تمثّل رؤيا جديدة تحمل في جوهرها تساؤلاً و احتجاجاً " تساؤل حول الممكن ، واحتجاج على السائد، فلحظة الحداثة هي لحظة التوتر أي التناقض والتصادم بين البُنى السائدة في المجتمع، وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البُنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها." [1]، ومعنى ذلك أن الحداثة في جميع مستوياتها تسعى إلى تغيير الوضع السائد إلى ما تراه وضعاً أفضل ، لكنّها تختلف وبخاصة في حالة تجسيدها لرؤاها الجديدة على أرض الواقع فالحداثة في المستوى الأول و الثاني تهتم بتغيير الواقع مباشرة وهذا ما يجعلها تواجه صعوبات ومعوّقات جمّة وبذلك لا تصل إلى غاياتها بسهولة بينما الحداثة الفنية لا تواجه نفس الصعوبات ذلك أنّ "مستوى الحداثة الفنية، الذي لا يُعنى بتغيير الواقع ، إلاّ بشكل مداور.ولهذا نرى أنّ إمكان التغيّر على هذا المستوى أسهل وأسرع ، وليس من الضروري أن يرتبط ، عكساً أو طرداً ، بالمستويين الأولين." [2]، ويشير (أدونيس) إلى تلك المفارقة التي يعيشها المجتمع العربي ، فالحداثة على مستوى الشعر متقدمة على الحداثة العلمية و حداثة التغيرات الثورية و قد تضاهي أحيانا الحداثة الشعرية عند الغرب التي تتأخر فيه عن الحداثة العلمية و حداثة التغيرات الثورية يقول " فليس في المجتمع العربي حداثة علمية، وحداثة التغيرات: الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية ، هامشية لم تلامس البُنى العميقة، لكن ، مع ذلك ، وتلك هي المفارقة ، هناك حداثة شعرية عربية . وتبدو هذه المفارقة كبيرة حين نلاحظ أن الحداثة الشعرية في المجتمع العربي تكاد أن تضارع ، في بعض وجوهها ، الحداثة الشعرية الغربية. ومن الطريف أن نلاحظ ، في هذا الصدد ، أن حداثة العلم في الغرب متقدمة على حداثة الشعر ، بينما نرى، على العكس ، أن حداثة الشعر في المجتمع العربي متقدمة على الحداثة العلمية–الثورية." [3] ، والحقيقة أن (أدونيس) نفسه قد أعطى تفسيرا لهذه المفارقة فالحداثة الفنية لا تتطلب الجهد و الحركة الواسعة في المجتمع لكي تحقق تقدما

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 321

[2] المصدر نفسه ، ص 321

[3] المصدر نفسه ، ص 322

عكس الحداثة العلمية و الثورية ،فالحداثة الفنية والشعرية بخاصة لا تحتاج إلى عمل مؤسساتي كبير بل تقوم في أغلب الأحيان على مواهب فردية و جهود شخصية أو فئوية ، ومعنى ذلك أنك قد تجد أعظم شاعر في أكثر دول العالم تخلفاً ، ثم أن هناك إشكالا كبيرا في الحكم الذي أصدره (أدونيس) حول الحداثة الشعرية العربية في مضاهاتها لنظيرتها الغربية فهو حكم شخصي قد لا يكون محل إجماع ، بل قد تعارضه الغالبية من النقاد العرب ! .

بالعودة إلى مصطلح الحداثة عند (أدونيس) نجد أنّ هذا المصطلح يرد مفردة أو في تراكيب يبتكرها لتتحول إلى مصطلحات خاصة يُكسبها مفاهيماً انطلاقاً من رؤيته الشخصية وهي الحداثة التلفيقية الأزيائية ، الحداثة المضمرة والحداثة السائدة ، الحداثة الظاهرية والحداثة العميقة،الاستحداث السلفي .

فعن ما يسمّيها الحداثة التلفيقية الأزيائية يقول أنّ هذا الشكل من الحداثة فرضته عوامل، على رأسها بنية الفكر العربي الذي يسود في واقعنا العربي ، هذا الفكر يتناقض جذريا مع الحداثة كما يراها (أدونيس) ، لأنّ هذا الفكر يحارب أيّ تحوّل في المجتمع ،يدعمه في ذلك النظام السياسي السائد الحريص على استمراريته والعامل الثاني هو اتصال العرب في هذا الوضع الفكري المهيمن بالغرب وبحداثته على وجه الخصوص ، إنّ الحداثة التلفيقية الأزيائية "تتمثّل على الصعيد الحياتي-العملي ، في استيراد المصنوعات الحديثة من كلّ نوع ، وتتمثّل ، على الصعيد الشعري ، والفكري ، بعامّة ، في اقتباس أشكال من التّعبير ترتبط بلغات تختلف، بخصوصيتها وعبقريتها اختلافا جوهرياً ، عن خصوصية اللّغة العربية وعبقريتها،"[1] ، ويتضح أنّ «أدونيس» يعني حداثة الاستهلاك لا حداثة الإنتاج ، ففي الجانب الحياتي العملي هناك تحديث محض مستورد من الغرب يتمثل في المنتجات المصنّعة والأساليب و الطرق الجاهزة...الخ ، أمّا في الجانب الشعري فقد تأثّر الشعراء العرب بنظرائهم في الغرب لكنّه تأثير سطحي تمثّل أساسًا في اقتباس أشكال من التعبير وصياغتها باللغة العربي دون مراعاة للفوارق الكبيرة بين الثقافتين وبخاصة بين اللغة العربية واللغات الأوربية ، وبهذا فقد هذا النوع من الحداثة عنصر الإبداع والرؤية الخاصة ومغامرة الكشف المستمر عن المجهول.

هناك نوع آخر من الحداثة أطلق عليه (أدونيس) مصطلح "الاستحداث السلفي" وهي نوع يرتدّ إلى الماضي و تستند إلى بنية مرجعية-نصية للفكر العربي سادت في الماضي وتسود في

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 92

الحاضر، وهي تُعطي الأولوية لنص مرجع ومعيار أساسي (النص النموذجي)، يُعرّف (أدونيس) " الاستحداث السلفي" " بأنّه النزعة التي ، تحاول ، بشكلها الديني ، أن تقرأ الحاضر، استناداً إلى نص – مرجع ، وتحاول ، بشكلها العلماني ، أن تقرأه كذلك استناداً إلى نص – مرجع، في الحالة الأولى ، يُبني الحاضر على أساس الماضي ، وفاقاً للنص ، وفي الحالة الثانية، يُعاد "تشكيل" الماضي ، بحيث تتلاءم "صورته" مع صورة الحاضر ، كما يرسمها النص."[1] ، في الحالتين تُعتمدُ الرؤية الماضوية كسلطة تحكمُ وتُسيّرُ الحاضر ، ففي الحالة الأولى يبلغُ الماضي درجة من الكمال تعصمهُ من النقد و التحليل و الكشف ممّا يجعل الحاضر لا يستفيد من سمات هذا الكمال ليضيء بها الطريق إلى المستقبل ، أمّا في الحالة الثانية فإن الماضي "تضمن كل ما يتحدث به الحاضر : القومية ، والثورة ،والوحدة الاشتراكية ، والمادية ، والطبقية...الخ، والخلل هو في عدم العودة إلى هذه "الجذور" ، وهذه "الأصالة" ."[2] ، وفي الحالتين لمْ يُفهمْ الماضي كمجموعة من الاختبارات البشرية في فضاء من حرية البحث المعرفي والنقد لإبراز جوهر الإبداع و بعيدا عن أي نمذجة ، بل احتضنه الحاضر كفضاء كمي وانتقل الماضي كما يعبر (أدونيس) من أسطورية مغلقة إلى أسطورية مغلقة ، إنّ هناك في الحالتين "خوف من الواقع، فهو متصدع ،متناقض ، غامض ، يحير ويُقلق ويُفْلت باستمرار من محاولة القبض عليه معرفياً."[3]، هذا الواقع المخيف لا يجابه بالكشف و النقد والتحليل بل يُحجب بالاستيهامات الإيديولوجية كي ينتقل إلى حيز من الشعارات و الأجوبة الجاهزة المجلوبة دون أن تنفتح آفاق للتساؤلات وللاجتهادات التي تكشف عن المشكلات الحقيقية وعن حلولها .

يميّز (أدونيس) بين نوعين من الحداثة ، حداثة ظاهرية سياسية وحداثة عميقة " بمعنى بناء الإنسان وحياته بناء كاملاً وكلّياً " [4] ، يحاول (أدونيس) انطلاقاً من وصفه للشعراء الذين يمثلون كل نوع إبراز مفهوم كل نوع، فعن شعراء الحداثة الظاهرية يقول "يضيعون في وهم التحركات و الانجازات الصغيرة.لذلك يسقطون في التفاؤلية السطحية للالتقاء بالذات و يصبح شعرهم نوعا من الامتداح و التبشير.وهم في هذا يضيفون إلى حالة الاستلاب الأصلية حالة أخرى أشد خطورة، هي حالة التوهم بأنهم تجاوزوا الاستلاب.ومثل هذه الحالة تنقلب إلى

---

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 156

[2] المصدر نفسه ، ص 157

[3] المصدر نفسه ، ص 157

[4] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 251

كذب شامل : على الذات وعلى الواقع وعلى المستقبل."[1] ،إنهم يمثلون حداثة سياسية وعادة ما تقترن السياسة بالكذب والنفاق وتغيير المواقف ولذلك فهم يمارسون الكذب على أنفسهم حيث يتوهمون أنهم يكتبون شعراً حديثا ويكذبون على الواقع حين يمتدحون إنجازات خاوية جوفاء لا تمتُّ إلى الحداثة إلا بصلة خارجية سطحية و على المستقبل حين يعتبرون ما أُنجز دليلاً على التقدم و الحرية والنمو...إنهم يضعون القارئ داخل نفسه أي ضمن استيلابه لا ينطلق خارجها إنه شكل من أشكال التخدير أو السكر وإرساءً للتقليد السائد ، وهم يستخدمون لغة مشحونةً بأفكار ومشاعر يفرزها الاغتراب، أمّا شعراء الحداثة العميقة "فإنّ شعرهم يستلب القارئ العربي من استيلابه.ومن هنا صعوبته المؤقتة ، وانفصاله المؤقت عن الجمهور "[2] ، إنهم يقتلعون القارئ من نفسه و بذلك يضعونه خارج استيلابه فيجد نفسه في حالة من القلق والحيرة و عدم التوازن لعدم انسجامه معهم وذلك لتعوّده على نوع من الشعر ساد طويلاً، لكن هذا الأمر لن يطول إنّه – إن صحّ التعبير – حالة انتقالية لا مفرّ منها ، وهذا دائما وفقاً للرؤية الأدونيسية .

يشير (أدونيس) إلى نوع آخر من الحداثة يسميها "الحداثة المُضمرة" والتي تقابلها "الحداثة السائدة"، و"الحداثة المُضمرة" هي تلك الحداثة التي أسّسها كما يقول أسلافنا الهامشيون في القرنين التاسع والعاشر وهم فئة شملت الشعراء والفلاسفة والمتصوّفة ...الخ وتسمية الهامشيين تعني أنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع واهتماماته ويسبحون عادةً ضد التيار الشامل للمجتمع بآرائهم الاستثنائية وإبداعاتهم المتفرّدة ، لقد شكّلوا استثناءً بفضل المبادئ التي سعوا إلى نشرها والتي كانت تؤسس لتيار متمرّد على التقاليد السائدة آنذاك ، هذه المبادئ نحاول استعادتها في عصرنا الحالي ، لأنّنا لم نستطع تأسيس حداثة خاصة بنا ، يقول " والحقّ أنّنا نحن العرب اليوم ، لا نخلق حداثتنا الخاصّة في القرن العشرين بقدر ما نستعيد قليلاً أو كثيراً مبادئ الحداثة التي خلقها بعض أسلافنا الهامشيّين في القرنين التاسع والعاشر وهي استعادةٌ تتمثّل في ما سمّيته بـ"الحداثة المُضمرة"."[3] ، أمّا الحداثة السائدة فيسمّيها (أدونيس) دون أن يعطي مفهوما لها،وحسب السياق فهي التي تقابل الحداثة المضمرة أي حداثة سطحية أو زائفة ، وما يجب الإشارة إليه هو أنّ (أدونيس) يتحدث عن بعض الفلاسفة والمتصوّفة والشعراء والمعارضين

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 251

[2] المصدر نفسه ، ص 251

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 115

للحكم السائد آنذاك وهؤلاء تختلف حولهم وجهات النظر، فإذا كان (أدونيس) يعتبرهم من مؤسسي الحداثة العربية المتقدّمة ، فإن بعض الآراء ترى فيهم زنادقة ومارقين عن الإسلام.

تلك أشكالٌ من الحداثة عرضها (أدونيس)، و أوّل ما يلفتُ النظر عند بحث مفهوم الحداثة عنده ، هو كثرة التعاريف وتنوعها وتناقضها في بعض الأحيان ،وذلك يدلّ على أنّ الحداثة كانت الهاجس الأوّل وربما الوحيد في الفكر الأدونيسي وعن مفهوم الحداثة عند (أدونيس) يقول (حسن المصطفى)"إن الحداثة لدى أدونيس تعتبر مفهوما متبدلا متحركا.أي أنها ليست ذات طبيعة واحدة ساكنة.بل تمتاز بأنها تواكب التطور التاريخي والموضوعي ،في آن معا.وهذا ما يجعل بعض الأحيان الرؤية ضبابية تجاهها. وقد تكون متناقضة أحيانا.ولقد عرّف أدونيس الحداثة بعبارات شتى وعديدة ، طوال مداه الزمني والفكري."[1] .

عدم الاستقرار هذا استغلّه البعض لاتّهام (أدونيس) بعدم القدرة العلمية على تحديد دقيق للمصطلحات وينمّ عن ضعف وقلق إزاءها ، لكن هذا الحراك الذي اتسم به الخطاب الأدونيسي بعامة يعتبره (حسن المصطفى) سمة إيجابية تؤشر على تمكن هذا الخطاب من مواكبة المستجدات وتجديد بنائه ، يقول (حسن المصطفى) في هذا الشأن " هناك ميزة أساسية في الخطاب الأدونيسي وهي الحراك الدائم وعدم الثبات والتبدل المستمر، الذي يكشف عن قلق السؤال وقلق المعرفة ، كما يكشف عن حيوية الخطاب وديناميكيته ، وعدم جموده وقدرته على التجدد و المواكبة ، وعدم استغراقه في ذاتيته بل مواكبته المستمرة للآني والمستقبلي في ذات الوقت الذي يضرب فيه بجذوره في الأصل."[2] و يمكن أن نلتمس تفسيرا لتنوع التعاريف التي طرحها(أدونيس)،منها اهتمامه المستمر بمصطلح الحداثة وينتج عن ذلك الاكتشاف المستمر للجديد ،أيضا نُذكّر أن الحداثة كمفهوم قد استعصى على التحديد والإحاطة كما رأينا سابقا في منشأه في الغرب ، كذلك لا ننسى أن(أدونيس) عايش أهم فترة عربية شهدت الكثير من التحوّلات في الفكر والأدب العربيين تجاوزت الخمسين عاماً، وقد رصد أهم التحولات التي ميّزت الشعر العربي وهو بذلك سيتحول خطابه حول الحداثة الشعرية من حالة إلى أخرى ومن الصعب التوقف عند نقطة زمنية،كل ذلك يجعلنا ندرك سبب هذا التحرك الدائم في خطاب (أدونيس) ،بقي الإشارة إلى أنّ بعض التناقضات تعود أساساً لاختلاف السياقات.

---

[1] **حسن المصطفى وآخرون : عبدا لله الغذّامي والممارسة النقدية والثقافية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2003 ، ص 185**

[2] **المرجع نفسه ، ص 181-182**

يعتبر (أدونيس) الحداثة ظاهرة عالمية لم تقتصر على شعب بعينه إنّها "مناخ عالمي – مناخ أفكار وأشكال كونية ، وليست مجرد حالة خاصة بشعب معيّن . إنها حركة عامة وشاملة. وفي هذه الحركة ، تشارك جميع الشعوب ، بشكل أو آخر ، قليلاً أو كثيراً . والمشاركة تعني التقاءً وائتلافاً ، كما تعني الافتراق والاختلاف . والمسألة إذن هي مسألة الإبداع والخصوصية في هذا المناخ العام ، وليست مسألة رفضه أو الانفصال عنه." [1] ، ومعنى هذا أنّ نواة الحداثة هو الإبداع الذي تلتقي فيه جميع الشعوب ، لكن لكلّ شعب خصوصيته الثقافية واللغوية على وجه الخصوص ، إنّ هذه الخصوصية هي التي تميّز الأدب والفن بعامة عن بقية العلوم ، والإبداع عند (أدونيس) مُكوّن أساسي في بناء الحداثة ، بل لا يمكن أن تستغني عنه ،إنه " يعكس أغوار الحياة فهو رؤيا ونبوّة." [2] ، وهو التاج الذي يهفو كلّ أديب أن يضعه على رأسه ، ولا يمكن الحديث عن الإبداع من دون وجود حرية للفكر الذي يشكّل ساحة الإبداع وميدانه ولذلك تقتضي الحداثة حرية الفكر وحرية الجسد أيضاً "وأودّ أولاً أن أؤكّد على أنّ الحداثة لا تقتضي أو تتضمّن حرية الفكر وحده ، وإنّما تقتضي وتتضمّن حرية الجسد أيضاً." [3] .

والإبداع في اللغة هو إحداث شيء جديد على غير مثال سابق، إنه ذلك النشاط العقلي بطاقته الهائلة الذي يقف على طرفي نقيض من الأنشطة التقليدية الاتباعية ويؤدي الإبداع إلى ميلاد صيغ وأساليب جديدة ومعاني غير مألوفة تأخذ بالقلوب وبالألباب ، ولهذا فالحداثة رؤية عميقة يشكّلها الإبداع تتجاوز الرؤى السطحية التقليدية البالية وتؤسس لآفاق جديدة "وجوهر ذلك أنّ الحداثة تكون رؤية إبداعية، بالمعنى الشّامل، أو لا تكونُ إلاّ زيّاً. ومنذ أن يُولدَ الزيّ، يشيخ. غير أنّ الإبداع لا عُمر له .لذلك، ليست كلّ حداثةٍ إبداعاً، أمّا الإبداع فهو،أبدياً، حديث." [4]، إنها شهادة وحكم وموقف جاء بعد طول تفكير وبحث، ليبيّن أنّ الإبداع هو النواة الجوهرية للحداثة، إنه انبثاقها ومطلع شروقها، وأنّ ليس كلّ حداثة هي بالضرورة إبداعاً، لأنّها قد تكون وهمية أو مزيفة أو سطحية أو منقولة، إنّ العناصر الإبداعية هي التي تشكّلُ أهم مظاهر الحداثة في الماضي والتي غدت حبل الائتلاف الواصل بين الماضي والحاضر، بين الأصالة و المعاصرة، الإبداع هو الذي يحقق للحداثة ذلك الاختراق الزمني لتتحول إلى شمس تطارد

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 332– 333

[2] أدونيس : زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1978 ، ص 170

[3] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 111

[4] المصدر نفسه ، ص 112

الظلام اليوم كما طاردته قبل آلاف السنين لينعم الإنسان دائما بالنهار داخله وفي حاضره ومستقبله،"ومعنى ذلك أنّ الحداثة ترتبط بغنى التجربة الابداعية، بمدى كشفها عن أعماق الإنسان، ومدى كونها ضوءً يخترق ويستبق الحياة والعالم، فيما ينبثق منهما." [1].

في معرض حديثه عن علاقة الذهنية العربية بالغرب، يؤكّد (أدونيس) على أنّ الحداثة الحقيقية تكمن في الإبداع، الذي ترفضه الذهنية العربية الاتباعية، إمّا ضعفاً أو جهلاً، فهي تأخذ ما أنجزته الحداثة الغربية لكنّها تنفر من المبادئ العقلية التي قامت عليها، وبرفضها للإبداع ترفض الحداثة ذاتها لأنّ " الحداثة الحقيقية في الإبداع لا في المنجزات بذاتها.فهو ، إذن، يرفض الحداثة الحقيقية: أي يرفض الشك ، والتجريب ، وحرية البحث المطلقة والمغامرة في اكتشاف المجهول وقبوله." [2] ، ويُفهم من هذا، أنّ الحداثة حسب (أدونيس) تستند إلى الشك والتجريب،الشكّ في أي معرفة جاهزة وخوض كل تجربة جديدة تؤدي إلى فتح مجالات لم تعرف من قبل مع التحرّر من أي قيد للاستمتاع باكتشاف هذا الجديد ويتجلّى هنا تأثر (أدونيس) بالفكر الحداثي الفلسفي الغربي.

ينصحُ(أدونيس) الشاعر الحديث الثائر على التقاليد بعدم الاكتفاء بالتغيير الشكلي لأن الشعر الثوري يؤسس لبنى جديدة بعد أن يتجاوز البنى التقليدية وينصحه بعدم تبني الحداثة التي تكمن في كتابة قصيدة ذات شكل مستحدث لأنّ" الحداثة موقف وعقلية، إنها طريقة نظر وطريقة فهم. وهي فوق ذلك، وقبله، ممارسة ومعاناة.إنها قبول بكل مستلزمات الحداثة: الكشف،والمغامرة، واحتضان المجهول." [3]، فالحداثة لا تكتفي بتغيير الشكل إنها أعمق من ذلك،فهي موقف وليس من اليسر اتخاذ موقف معين من قضية ما، وبخاصة إذا ارتبطت بالفكر، فالموقف حكم يصدر بناءً على الكثير من الأسس النفسية والفكرية والاجتماعية كالخبرة والسلوك والإدراك والرغبة والمشاعر والروابط الاجتماعية والمعتقدات، والحداثة عقلية فهي بذلك تصورات ذهنية تنشأ إثر نشاط عقلي ليس لفرد فقط ولكن لفئة من المجتمع، تقل أو تكثر حسب الظروف المحيطة وكل هذا يدل على مدى عمق مفهوم الحداثة، والحداثة أيضاً طريقة نظر وطريقة فهم وطريقة النظر الصحيحة هي التي تقوم على تأمل عميق ومتأني وعلى إعمال العقل إلى أقصى حد من دون التعرض لضغوط خارجية أو اللجوء إلى أفكار محنطة جاهزة،

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 170 – 171

[2] أدونيس :الثابت والمتحول ،ج1 الأصول ، ص 62

[3] أدونيس : زمن الشعر ، ص 115

وهذه الطريقة هي التي تُفضي إلى طريقة فهم ناجعة تُدركُ من خلالهـــا الـــدلالات والأبعـــاد والعلاقات التي تتضمنّها الأفكار لينتج عن ذلك كلّه صياغة دقيقة للمفاهيم .

يركّز (أدونيس) على الكتابة الشعرية فهي ممارسة مُرفقة بمعاناة شديدة يكابدها الشاعر في سبيل الحصول على نتاج أدبي بديع، فالكتابة الراقية مضموناً وشكلاً عذاب يعيشه المبدع لأنّها تتطلّب الكثير من الجهد والأرق والتوتر العصبي، إنها كشف ومغامرة غير معروفة العواقب وهي قبول بالمفاجآت التي لا تخطر على بال، والحداثة عند (أدونيس) لا يمكن أن يُمثّلها مبدع قليل الثقافة،بل يجب على الكاتب الحداثي أن يتمتع بثقافة واسعة واطّلاع عميق ليس على المعارف الحديثة وحسب، وإنّما أيضاً على معرفة التراث، ذلك أن الحداثة لا يمكن أن تـــستغني عـــن المعرفة،لأن الحداثة الفقيرة إلى المعرفة هي حداثة جاهلة يُمثّلها الآن الكثير من الكتّاب" بل إنّني أرى في كتابة الغالبية ارتداداً عن الحداثة نفسها. ذلك أن الحداثة تقتضي إلى جانـــب معرفـــة الماضي ، معرفة الحاضر ، مما تفتقر إليه هذه الكتابة، ولهذا يُعطي نتاجها عن الحداثـــة فكـــرة ضحلة. إنّه نتاج يسيء إلى الحداثة ، كما تسيء الاتّباعيّة التقليدية للتراث. فالحداثة الجاهلة هي الصورة الأخرى للقدامة الجاهلة."[1]،وهذا ما يؤكّد أنّ (أدونيس) ليس من دعاة القطيعة المعرفية مع الماضي، لكنّه يدعو إلى قراءته قراءة نقدية جديدة و الأخذ منه وبخاصة تلـــك التجـــارب الإبداعية التي احتضنها، ومع ذلك فهو من أشدّ الداعين إلى عدم التقيّد بهذا الماضي " فالدعوة إلى التحرّر من الماضي ظاهرة هامة وهاجس أدونيس النقدي.وهذه الدعوة لم تبق عنه حبيـــسة الإطار النظري بل تعدته إلى الممارسة وإلى إنتاج شعر جديد ، يوازي نظريته الحداثية، التي من خصائصها الموقف والرؤية الجديدان، والمعاناة الصادقة الذاتية واستشراف المستقبل ..."[2] ،ذلك أنّ الحداثة من أهمّ ما تتضمّنه الثورة على التقليد و إنتاج المختلف المغاير وقولُ ما لم يُقلْ، ومع ذلك فهي قطيعة واستمرار، انشقاق ووحدة، هدم وبناء، تمرّد على كلّ تقليد ولكن ليس قبولاً لأي جديد "الحداثة هي بالضرورة انشقاقٌ وهدْمٌ من حيث أنّها تنشأ عن طـــرق معرفيّـــة لم تُؤلفْ، وتطرح قيماً لم تؤلفْ.إنّ الانشقاق جزء عضويّ من الوحـــدة، لا يجـــوز أن نخـــاف منه،والهدم وجه آخر للبناء. وتتضمّن الحداثة الرَّفضَ والتمرّد من حيث أنّها تتخلّى عن التقليد، ومفهومات الأصول والأسس والجذور والمعايير الثابتة." [3]، إنّها الحداثـــة الأدونيـــسية تحـــوّل

---

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 134

[2] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 148

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 115

التناقض إلى انسجام، إن الانشقاق والهدم لا يكونان إلا في مواجهة ممارسات النظام السائد الذي يُكرّس الخضوع له ويدعمُ الجمود والمعايير الثابتة والتأويلات الموروثة، وبذلك يتحوّل الانشقاق إلى توحّد، والهدم إلى بناء ، توحّدٍ مع كلّ حركة تتمرّد على هذا النظام وترفضه وتسعى لتجاوزه، وغايتها بناء نظام آخر ينتج قيماً جديدة وأنماطاً معرفية متجدّدة وفاعلة تحرّر الفكر وتساعده في صنع حاضره ومستقبله.

إنّ التخلّي عن مفهومات الأصول لا تعني التمرّد على الأصول ولكن تعني تفعيل عملية الحوار معها والمسائلة المستمرّة لها، لأنّ الكف عن الحوار والمساءلة معناه نفي لهذه الأصول، فتكرار الماضي كما يقول (أدونيس) هو نفي له، ومواقف (أدونيس) من الأصول وبخاصة القرآن الكريم والحديث الشريف، هي التي عرّضته لهجوم وانتقادات واسعة من طرف الكثير، لكنّه كان دائماً يقول أنهم أساؤوا فهمه وأنّهم لم يستوعبوا آرائه، فهو يؤكد أنّه ينتقدُ النصوص التي تؤولُ الأصل، أو كما يسمّيها النص الثاني،والحداثة ترفض البقاء في إطار الماضي لكن لا تدعو إلى قطيعة جذرية معه، يقول " هكذا تضيء الحداثة ماضينا، وتظهره في صورة جديدة. وهي، في الوقت نفسه، تستمد من الماضي قوتها وحضورها.ذلك إنها لا تحدث فجأةً، فهي حدثٌ له أصوله وتراكماتُه.ولا تهبط من خارج، وإنما تحدث ضمن ما نرثه ، وفي اللغة التي نكتب بها." [1]، وهنا تتجلّى علاقة الحداثة بالماضي، إنّ الحداثة لا تستوردُ و لا تُنقل بضاعةً من عند الغير وإنّما هي تتناسل بسبب تراكم معرفي، إنّها تضرب بجذورها في عمق الماضي لتتميّز بهويتها ، إنّه اتصال بالعمق واستمرار إبداعي لا يتوقف أبداً إنّها " نوع من الاستمرار لما في الماضي من الرؤى الخلاقة.وهذا الاستمرار متناقضٌ مع الاستمرارية التقليدية –الخيطية." [2]، فالحداثة اتصال مع العمق وانفصال عن السطح ممّا يعني أنّه لا يمكن الاستغناء عن الماضي في تأسيس حداثة عربية معاصرة بشرط أن تستمّد الحداثة من الماضي تلك الطاقة الخلاقة التي تواجه بها تحديات الحاضر وتفتح بها أبواب المستقبل ، هذه الرؤية التي تمزج بين القطيعة والاتصال وبين التجاوز والتأصل هي التي تُميّز مفهوم الحداثة العربية عند (أدونيس) وهو يعبّر عن هذه الرؤية بقوله أنّ الحداثة هي الاختلاف في الائتلاف " الاختلاف من أجل القدرة على التكيّف، وفقاً للتغيّرات الحضارية، ووفقاً للتقدم. والائتلاف من أجل التأصل والمقاومة ، والخصوصية.

---

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 151

[2] المصدر نفسه ، ص 154

الاختلاف المفرط عن تراث اللغة التي يكتب بها الشاعر، هو الموت- أي التبخّر كالـدخان، بالقياس إلى نار هذه وجمرها .الائتلاف المفرط هو الموت أيضاً – أي التخثـر كـالحجر." [1]، والاختلاف من أهمّ سمات الحداثة فإنتاج المختلف من مقتضياتها، لكنّ الاختلاف لا يعني أبداً الإلغاء أو النفي، بل تقتضي أيضاً الائتلاف مع الماضي و بالتدقيق مع مكوّنات منه للحفاظ على خصوصيتها واستمرار هويتها وتميّزها عن الآخر، إنّ الحداثة تعيد قراءة الماضي بأدوات تأويلية حديثة، فتأخذ منه ما ينسجم مع مقوماتها ومبادئها وتترك منه ما يتناقض مع ذلك، لكن يجب الإشارة إلى أنّ (أدونيس) لم يحدّد المعيار الدقيق الذي يُمكّن الشاعر من تحديد المسافة التي تفصله عن تراث اللغة، هذا الموقف الذي تبنّاه (أدونيس) اتجاه الماضي يفنّد تلك الآراء الـتي تتّهمـه بمعاداة التراث العربي والذوبان في الفكر الغربي وحداثته بخاصة ومحاولته دائماً فرض القيم الغربية الحديثة على المجتمع العربي، لكنّ (أدونيس) يؤكد أنّه لا يعادي التراث ولا يحتضن الفكر الغربي وإنّما يرفض محاكاة وتقليد أيّ منهما فيقول " تقتضي الحداثة قطعاً مع التّأسلف ومع التمغرب في آن، من أجل كتابة الذات الواقعية الحية، وقد وعت فرادتهـا وخـصوصيتها إزاء الآخـر، وتمثّلت، بنقد جذري إبداعي، أسطورتها التراثية – الأبوية، وتجاوزتها – أي انطلقـت، بـدءاً منها، إلى أبعاد جديدة." [2]، وهو بذلك يؤسس لمشروع خاص تمتدّ جذوره في التراث وتشرئبّ غصونه إلى الجديد في أعالي المستقبل ولا بأس أن تأخذ أوراقه من أشعة الشمس التي تشرق من الغرب ولكن للتزوّد بمناهج وآليات حديثة لا مناص من الاستفادة منها "فمسألة التشبث بروح القديم لا تتنافى والتجديد.وهذا التوازن في موقف أدونيس هو الذي يشفع له، ويدحض عنـه الاتهامات التي تضعه في خانة المخرّبين للتراث."[3]، ومع ذلك فقد اعتبر معارضو (أدونيس) هذا الموقف المعتدل مناورةً وحيلةً منه للتّصالح مع قرّاءه، ولعلاقة التراث بالحداثة أهميـة كـبيرة في خطاب (أدونيس) ولذلك خُصّص له مبحث كامل في الفصل القادم .

في حديثه عن الحداثة الشعرية العربية يهتمّ كثيراً بعنصر التساؤل المستمر لاستخراج الأجوبة الناجعة من الواقع المعيش كي تزيل الحيرة عن القلوب والعقول التي فصلها الاسـتيلاب عـن حاضرها، ولا تُقبل الأجوبة الجاهزة التي تُستمدّ من الماضي فبين الحاضر والماضي فروق لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتجاوزها يقول عن الحداثة الشعرية العربية "إنّها ، علـى الـصعيد

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 326– 327

[2] المصدر نفسه ، ص 315

[3] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 151

النظري العام ، طرح الأسئلة من ضمن إشكالية الرؤيا العربية – الإسلامية ، حول كل شيء، لكن من أجل استخراج الأجوبة من حركة الواقع نفسه ، لا من الأجوبة الماضية.وهي ، على الصعيد الشعري الخاص ، الكتابة التي تضع العالم موضع تساؤل مستمر ، وتضع الكتابة نفسها موضع تساؤل مستمر. "[1] ، حاول (أدونيس) على امتداد مسيرته الفكرية والأدبية ومن خلال كتاباته التنظيرية وإبداعه الشعري المتنوع أن يؤسّس مشروعاً عربيا للحداثة الشعرية من منظوره الخاص، ولإنارة الدرب للشعراء الشبّان حاول أن يلفت انتباههم إلى أوهام تفشت في الكتابات الشعرية الحديثة وهي "أوهام لا يصحّ الكلام على الحداثة الشعرية العربية إلاّ بدءًا من نقضها وإبطالها." [2]، ويظن الكثير من الشعراء حين تتضمنّ أشعارهم هذه الأوهام أنهم قد انخرطوا في الحداثة الشعرية، و لم تكن هذه الأوهام إلاّ سراباً شعرياً يحسبه الشاعر ماء الحداثة وما هو بذلك، والأوهام هي :

1–وهم الزمنية :يرى (أدونيس) أنّ بعض الشعراء يربطون الحداثة بالزمن الراهن ويعتبرونه الإطار الحاضن لحركات التغير والانفصال عن الزمن الماضي "والواقع أنّ هذه نظرة شكلية تجريدية، تُلحق النص الشعري بالزمن، فتؤكد على اللحظة الزمنية لا على النص بذاته، وعلى حضور شخص الشاعر، لا على حضور قوله.وهي، من هنا تؤكد على السطح لا على العمق، وتتضمن القول بأفضلية النص الراهن، إطلاقاً، على النص القديم ."[3]،وهي بالتأكيد نظرة خاطئة لأنها تجعل من الزمن معياراً وتحوّل الشعر إلى زيّ وتغفل العمق المتمثل أساساً في الرؤية الإبداعية وهي لا تقتصر على زمن دون آخر بل " إن من الحداثة ، ما يكون ضد الزمن ، كلحظة راهنة. ومنها ما يستبقه، ومنها ما يتجاوزه أيضاً." [4]، فهناك الكثير من الأشعار التي لم تزل حديثةً على الرغم من أنّها كُتبتْ في زمن ماضٍ بعيد وكُتب لها الخلود لما تضمنته من عناصر حداثية كالإبداع والرؤية المتفرّدة، إنّ«امرؤ القيس» في كثير من أشعاره أكثر حداثةً من (شوقي) و في شعر(أبي تمام) رؤية فنية لا نجدها عند (نازك الملائكة)كما يشير (أدونيس)، وهذا المعيار الزمني يذكّرنا بالصراع الذي عرفه النقد العربي بين أنصار القديم وأنصار الحديث في العصر العباسي، حيث كان هذا المعيار معتمداً من طرف أنصار الشعر القديم، لاعتقادهم

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 337

[2] المصدر نفسه ، ص 317

[3] المصدر نفسه ، ص 313

[4] المصدر نفسه ، ص 314

بأنّه الأفضل من أي شعر وُجد بعده ، إن (أدونيس) يرفض "رفضا قاطعا ربط الفعل الحداثي بالزمن ، لاعتقاده أن الزمنية كمقياس فيزيائي لا يمكن أن نقيس به الآثار الأدبية ، فليس كل حديث هو بالضرورة متجاوز للقديم ومتقدّم عليه،" [1] ، نوجزُ فنقولُ ليس كلّ شعر يُكتبُ في عصرنا الراهن ينتمي إلى الحداثة وليس كلّه أكثر حداثةً من شعر سبقه زمنيًا .

2- وهم المغايرة : يتوهم البعض أنّ كتابة شعر مختلف عن القديم في الشكل وفي الموضوع هو بالضرورة من شعر الحداثة "وينتج عن هذا الوهم القول بآراء حول بنية القصيدة ، وحول الوزن ووحدته الإيقاعية ، وحول مضموناها ، تُغاير آراء النقاد القدامى. ويكفي الشاعر في منظور هذا الوهم أن يصنع قصيدة تغاير ، بموضوعها وشكلها ، القصيدة الجاهلية أو العباسية، لكي يكون حديثاً." [2] ، وهي كسابقتها نظرة خاطئة ، لأنها تقوم على فكرة إنتاج النقيض وتجعل من علاقة التضاد مع الشعر القديم مقياساً للحداثة وبذلك يصبح الشعر العربي يُلغي بعضه بعضا، هذا الوهم يعتقد به الكثير من الشعراء اليوم إذْ يرون في كتابة المختلف دخولاً إلى عالم الحداثة " لأنّهم ينطلقون من الرفض الرافض وليس الرفض المؤسس المبني على مراجعة المرفوض لغرض الوقوف على أسباب رفضه ، وعدم القدرة على التماشي معه، وإعادة تفعيله في الراهن الإبداعي بطريقة أو بأخرى ." [3] ،والواقع الشعري الراهن يُبيّن أنّ الكثير من الشعر الذي يقوم على الاختلاف عن القديم هو أقلّ حداثةً منه.

3-وهم المماثلة :يعتقد عدد غير قليل من الشعراء أنّ الغرب هو المصدر الأوّل للحداثة بجميع مستوياتها وانطلاقاً من هذا الاعتقاد فإنّه "لا تكون الحداثة ، خارج الغرب ، إلاّ في التماثل معه. ومن هنا ينشأ وهم معياري تصبح فيه مقاييس الحداثة في الغرب ، مقاييسَ للحداثة خارج الغرب." [4] ، وهذا موقف لا يصدر إلاّ مِنْ مَنْ يحملُ روح الهزيمة في داخله وانبهارًا بحضارة الغرب باعتباره المركز الذي تدور حوله جميع الأمم ، ويذكّرنا هذا الموقف بنظرية (ابن خلدون) القائلة بتقليد المغلوب للغالب ظنّا منه أنّ هذا التقليد هو السبيل الوحيد للتخلّص من التخلّف والالتحاق بالركب المتقدّم ، إنّ شعراء المماثلة يدعون صراحةً إلى التشبّه بالغرب ويضعون حداثته المثل الأرقى الذي يجب الاقتداء به "إن الاعتقاد بأن محاكاة الغرب هي الطريقة

---

[1] **حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 195**

[2] **أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 314**

[3] **حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 196**

[4] **أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 315**

الوحيدة لوصول إلى الحداثة مُضلّل ، لأن وجهة النظر هذه تنطوي على الإقرار المسبق بتفـــوق الغرب وتقود إلى انحلال الذات في الآخر، وهذا مظهر آخر من مظاهر التقليدية " [1] ، إن مماثلة الآخر شكل من أشكال التقليد وقد يكون أسوأ من تقليد التراث ، والتقليد لا ينسجم مع فكر الحداثة ، وتقليد الغرب لا يفضي لأي حداثة بل ينفي خصوصية الإبداع ويهدم جوهر العربية وعبقريتها ويلغي التنوع والتمايز الذي يثري الفن الإنساني بشكل عام.

4-وهم التشكيل النثري : وهو يرتبط فنّياً بوهمي المماثلة و المغايرة ، فـــوهم التـــشكيل النثري استغراقٌ في المغايرة مع الشعر العربي القديم واستغراقٌ في المماثلة مع الغرب الذي عرف قصيدة النثر، هناك الكثير من الشعراء المعاصرين الذين أصبحوا يمارسون الشعر نثراً يـــرون "أن الكتابة بالنثر ، من حيث هي تماثل كامل مع الكتابة الشعرية الغربية ، وتغاير كامل مع الكتابة الشعرية العربية ، إنما هي ذروة الحداثة. ويذهبون في رأيهم إلى القول بنفي الوزن ، ناظرين إليه كرمز لقديم يناقض الحديث ." [2]، إنهم بموقفهم هذا يركزّون على الوزن ويهملون جوهر الشعر يتركون الشعر ويركضون خلف الأداة كما يعبّر (أدونيس)، فالوزن أداة والنثر أيضاً أداة، ولا يعني استخدام أي أداة أننا كتبنا شعراً ينتمي إلى الحداثة، فكثيرٌ من الشعر المكتوب نثراً غـــارقٌ في التقليدية ولا علاقة له بالحداثة " لهذا طالب (أدونيس) شعراء قصيدة النثر أن ينطلقوا مـــن فهم التراث العربي الكتابي واستيعابه بشكل عميق وشامل وأن تكون كتاباتهم انطلاقـــا مـــن تأصيل التراث وليس تجاوزه فقط، وهي دعوة ضمنية إلى كتابة قصيدة النثر على أساس أنها نص آخر في شجرة الشعر وأخت ورفيقة لقصيدة الوزن ، " [3] ، والنتيجة هو أنّه ليس كل قـــصيدة نثر يمكن نسبُها إلى شعر الحداثة ، لكن الغريب في الأمر أنّ (أدونـــيس) لم يُـــشرْ إلى ســـؤال مطروح وهو هل يمكن إدراج بعض القصائد المعاصرة من الشعر العمودي أو من شعر التفعيلة تحت ضمن شعر الحداثة ؟ ، وقد يوحي ذلك إلى أنّ (أدونيس) يعبّر عـــن موقـــف رافـــضٍ للإيقاعات الموروثة، وهو بذلك يسعى لابتكار إيقاعات في الشعر العربي لم تُعرفْ من قبل.

5-وهم الاستحداث المضموني :وهذا الوهم أو القضية أشار إليها الكثير من النقاد ، فليس الشعر الذي يصف ما استجدّ في العصر من منجزات أو يتضمن قضايا الواقـــع الجديـــد هـــو بالضرورة من شعر الحداثة، وهذا الوهم استغراق في وهم الزمنية كما يشير (أدونيس) الـــذي

---

[1] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 197

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 315 – 316

[3] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 197-198

يقول "يزعم بعضهم ، انسياقاً وراء وهم استحداث المضمون ، أن كل نص شـــعري يتنـــاول إنجازات العصر وقضاياه هو، بالضرورة ، نص حديث. وهذا زعم متهافت ، فقـــد يتنـــاول الشاعر هذه الانجازات وهذه القضايا برؤيا تقليدية ، ومقاربة فنية تقليدية ، كما فعل الزهاوي والرصافي وشوقي ، تمثيلاُ لا حصراً ، وكما يفعل اليوم بعض الشعراء ، باسم بعض النظـــرات المذهبية الإيديولوجية . فكما أن حداثة النص الشعري ليست في مجـــرّد زمنيتـــه ، أو مجـــرّد تشكيليته ، فإنها كذلك ليست في مجرّد مضمونيته." [1] ، بل قد نشير إلى قضية عكسية ، فبعض الأشعار تستخدم المعجم اللغوي القديم مثل السيف والطلل والصحراء والخيمة ....الخ، لكنّها من صميم شعر الحداثة ، لأن رؤيا أصحابها حديثة.

يمكن صياغة الأوهام السابقة إيجازاً كما يلي :

1- ليس كلّ شعرٍ يُكتبُ في الزمن الراهن هو من شعر الحداثة.

2- ليس كلّ شعرٍ يختلف شكلاً ومضموناً عن الشعر القديم هو من شعر الحداثة.

3- ليس كلّ شعرٍ يحاكي شعر الحداثة الغربي هو من شعر الحداثة.

4- ليس كلّ شعرٍ يستخدم النثر أداةً هو من شعر الحداثة.

5- ليس كلّ شعرٍ يتناول قضايا العصر ومنجزاته هو من شعر الحداثة.

استطاع (أدونيس) من خلال عرضه لهذه الأوهام أن يكشفَ إلى حدّ بعيد جوهر الحداثة في الشعر العربي، غير أنّ الواقع الشعري العربي يبرز مدى الصعوبة التي يواجهها الشعراء في تجاوز هذه الأوهام ، وقد يتجاوزها القليل –كـــ(أدونيس) مثلاً– لكن ستقابلهم معضلة أشدّ وقعـــاً وهي مسألة تلقي هذا النوع من الشعر من طرف قراء أغلبهم يرون في الشعر العربي المـــوروث النموذج الأرقى ، وهي معادلة صعبة تبحث إلى حدّ اليوم من يجد لها حلاّ.

من خلال تعرضنا لماهية الحداثة عند (أدونيس) يمكن أن نستخلص ما يلي:

مقوّمات الحداثة الأدونيسية أنّها :

1- موقفٌ وعقلية

2- رؤيا متفرّدة للكون و للإنسان

3- إبداع

4- ابتكار طرق في التعبير

---

[1] **أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 316**

من أهم خصائص الحداثة الأدونيسية :

1- التمرّد والثورة على النظام السائد والتقاليد بجميع أشكالها
2- الاتصال بالتراث والانفصال عنه في آن واحد
3- الاقتران بالاختلاف والتغير والخروج على النمطية
4- إرساء مبدأ التساؤل والاحتجاج
5- فتح آفاق جديدة للتجارب الابداعية

من مقتضيات الحداثة الأدونيسية :

1- الكشف والمغامرة والقبول بالمجهول
2- تجاوز المفاهيم الموروثة
3- معرفة معمّقة للحاضر والماضي
4- نفي وإبطال أوهام الحداثة في الشعر خاصة

أخيراً يختلف الكثيرُ حول آراء (أدونيس) ومواقفه في جميع القضايا التي يطرحها ، لكن سيتفق أغلبهم أنّ مفهومه للحداثة لم يستندْ إلى فراغ و لم يتّكأ على حججٍ واهية و لم يتأسّسْ على شطحاتٍ فكرية ، وإنّما تأسّس انطلاقاً من معرفة عميقة بالتراث العربي واتّصالٍ واعٍ بالحداثة الغربية ، وخبرةٍ طويلة واجتهادٍ فكري وتأمّلٍ مُتمعّن وممارسةٍ تنظيرية وشعرية صادقة، وحسبه –حتّى وإن عارضنا مواقفه– أنّه أثار جدلاً واسعاً وحرّك صخرة الفكر العربي ورمى حجرًا في بحيرته الرّاكدة ، وفتح باباً واسعاً لإعادة قراءة التراث العربي وبالتالي الأنا العربي قراءات مختلفة"الحداثة الأدونيسية (الرؤيا الميتافيزيقية، الممارسة الشكلانية ،نظرية النخبة) هي خروج من دائرة التاريخية– الواقعية العربية ، التي واجهت استلاب العصر باستلاب آخر،في الهروب نحو المجهول ،والتلذذ بغواية التحول في مناخ غامض. وأحدثت خللاً صميميا في بنية الحداثة العربية القائمة في واقعها على جملة إشكالات حقيقية، ومارست جنايتها على "الذات الحضارية"بمحاولة قراءتها وكتابتها ضمن منظور استشراقي "اصطناعي"." [1].

[1] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 51

1- 4 - بين الحداثة العربية والحداثة الغربية :

يحيلُنا عنوان المبحث إلى الحديث عن العلاقة الشائكة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية وبصورة عامة بين الشرق والغرب، ولهذه العلاقة جذور ضاربة في عمق التاريخ وقد شهدت – ولا تزال- تجاذبات قوية وأشكالاً متحوّلة تأرجحت بين التقارب الحذر والصراع الدامي الذي يتأسس عادةً على مبدأ إلغاء الآخر ، لقد كان التوتر وعدم الثقة والإقصاء هي السمات البارزة لهذه العلاقة لعوامل متعدّدة ، على رأسها الاختلاف العقدي إلى جانب عوامل سياسية واقتصادية وعوامل ظرفية ترتبط بمنطقة معينة وبشخصيات لعبت دروًا هامًا في التاريخ :

العامل الديني : كان الدين وما يزال العامل الأكثر تأثيرا في هذه العلاقة والمتحكّم في مصيرها وموجّهها الأول ، والصراع بين المسيحية والإسلام صراع قديم ، نتج عنه اعتقاد كلّ طرف أنّه الأحقّ والأجدر بسيادة العالم وهذا ما جعل العلاقة بين الشرق والغرب تتسم بنوع من التحدّي الحضاري والتنافس الشديد في جميع المجالات.

العامل السياسي : لا يمكن استبعاده لتداخله مع العامل السابق، وبخاصة في العصور الحديثة التي عرفت أوربا خلالها تقدّما كبيرا أوحى للإنسان الأوربي أن أمّته المتحضّرة غدت مركزاً تدور حولها جميع الأمم الأخرى وساد اعتقاد بأن أوربا عليها أن تحرّر هذه الأمم من التخلّف، ولا نستغرب آراء بعض الأدباء والفلاسفة الذين باركوا استعمار فرنسا للجزائر، والحقيقة هي أنّ هذا الاعتقاد لم يكن إلاّ قناعاً يُخفي نوايا السيطرة والتوسع واستغلال الغير وثرواتهم.

العامل الاقتصادي :وهو عاملٌ مُهمّ منذ القديم ، أمّا حديثاً فبعد التطور الذي شهده الاقتصاد الأوربي والنمو المتزايد في الإنتاج وفي عدد السكان كان لزاماً على أوربا البحث عن أسواق جديدة ومواد خام وكانت الدول العربية هدفاً قريباً يحقق لها مآربها لم تحتويه أراضيها من ثروات هائلة.

تلك هي باختصار طبيعة العلاقة التي تربط بين الشرق العربي الإسلامي و الغرب الأوربي الأمريكي ، والتي لا يبدو أنّها ستتغيّر على المدى القريب، وإن كانت هناك بعض النقط المضيئة مثل تبادل المعارف والخبرات والتعاون الاقتصادي والمثاقفة كعملية نقل العلوم والترجمة ...الخ.

لقد نتج عن هذه العلاقة ظهور ثلاثة مواقف على الساحة العربية :

موقف يقبل الغرب قبولاً مطلقاً فهو الآن مصدر الحضارة ونموذج للتقدم ولا مخرج من التخلّف إلاّ بالاندماج فيه اندماجاً كاملاً "فإذا أراد العالم العربي والإسلامي،أن يتقدّم ويلحق

بالركب الحضاري فلا بدّ أن يقبل بكل شيء يفد إليه من الغرب، ويرفض كل موروثه الثقافي والاجتماعي والحضاري."[1].

موقف يرفض الغرب رفضاً مطلقاً لأن هذا الغرب عدوّ حضاري للعرب وسبب تخلّفهم ومُسبب لكل أزماتهم وهو يحارب خصوصيتهم وتراثهم والتبعية له تعني الذوبان في منظومته الحضارية "لذلك فبداية الحل الصحيح هو غلق الباب على هذه الحضارة ورفضها بكاملها ،"[2].

موقف ثالث معتدل يدعو إلى الاستفادة من الغرب دون التفريط في قيمنا وتراثنا أو التخلّي عن خصوصيتنا ، فالوسائل العلمية والتكنولوجية والعلوم والطرق والأساليب...الخ يمنك الأخذ بها دون أن يؤدي ذلك الاندماج مع الآخر والانفصال عن الذات " لذلك فإن حجر الزاوية في عملية التوفيق أو الانفتاح الواعي، هو الحفاظ على ذاتنا الحضارية وانتمائنا المتميز، بما تتضمن هذه الذات والانتماء من تاريخ وقيم وانطلاقاً من هذه الذاتية نتعامل مع الآخر." [3].

إنّ الموقف الذي يعتبر الحضارة الأوربية هي المركز والمصدر الأوّل لجميع المعارف والعلوم والنظريات والمذاهب والمناهج والنظم...الخ وبقية الحضارات تدور في فلكها ،تستورد فكرها وتستهلك مناهجها موقفٌ خاطئٌ إلى حدّ بعيد وخطير " لقد خلق هذا الموقف انحراف الحضارات غير الأوربية كلّها وانحسارها عن واقعها ، وبترها من جذورها ، والارتباط بالحضارة الأوربية والدخول في فلكها باعتبار أنّها الحصيلة النهائية للتجربة البشرية ." [4] ، وجوهر الحقيقة أنّ الحضارة والتقدم والقوة لم تقتصر على أمّة دون أخرى ولا على زمن دون آخر وهي أيام يداولها الله بين الناس فلا حال يدوم أبدا وهو موقف معروف في تراثنا النقدي.

لم يهمّش (أدونيس) العلاقة بين الشرق والغرب في كتاباته بل تناولها مرارا ، للخطورة التي يشكّلها تواصلنا الفكري والثقافي مع الغرب بعامة ولأهمية هذا التواصل في فكره بخاصة ، لا ينكر (أدونيس) اتّصاله بالثقافة الغربية ولا تأثيرها عليه، ففي حديثه عن علاقة الأنا بالآخر يؤكد على أن معرفة الآخر لا يمكن أن تتم أو تكون ذات جدوى إلاّ بالاتّصال به عكس معرفة الذات التي تتطلّب شكلاً من أشكال الانفصال عنها لتتاح الفرصة للعقل كي يتمعّن في تفاصيلها ويلامس جوهرها يقول " إذا كانت معرفة الذات تقتضي نوعاً من الانفصال عنها ،

---

[1] محمد محفوظ : الإسلام ، الغرب وحوار المستقبل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط1 ، 1998 ، ص 18

[2] المرجع نفسه ، ص 18

[3] المرجع نفسه ، ص 20

[4] حسن حنفي : في الفكر الغربي المعاصر،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط4 ، 1990، ص12-13

فإنّ معرفة الآخر تقتضي على العكس نوعاً من الاتّصال معه ، أعني تعاطفاً عميقاً.فالإنسان، في هذا المستوى ، معرفة و"تعارف"."[1] ، ويتعمّد (أدونيس) استخدام اللفظة القرآنية "تعارف" ويسمها بالمضيئة والتي تعني حسبه حركةً من الانفصال والاتصال في آن واحد ،أي تبادل في المعارف ومشاركة بينية في المعيشة والحياة ، ويُظهر (أدونيس) شكوكه حول وجود معرفة عند العرب في الزمن الراهن مقارنةً بالمعرفة عند الغرب ويرى أنّه من الصعب الإجابة عن أسباب هذا الغياب العربي أو إيجاد كيفية للخروج منه ، ويذهب إلى أنّ معرفة الأنا هي التي تؤدي إلى معرفة الآخر " إنّ اضطرابنا في معرفة الآخر يعكس اضطرابنا في معرفة الذات.فلا يمكن أن نعرف الآخر معرفةً حقّة ، إذا لم نعرف ذاتنا معرفةً حقّة. وإنّها لمفارقة أن يكون الآخر الغربي اليوم أكثر معرفة بنا ، منّا. والسبب في ذلك هو أنّه يعرف ذاته معرفة عميقة ، وهذا يمكّنه من معرفتنا بوصفنا آخر ، معرفة عميقة ." [2] ،والواقع يؤكد صدق ما ذهب إليه (أدونيس)، فالأوربيون والأمريكيون يحتفظون بدراسات حول العالم العربي تتضمن كلّ التفاصيل في كلّ المجالات دينا ولغة وثقافة وتاريخا وتضاريسا وحتّى عقلية المواطن العربي ونظرته للأشياء ،وهذا ما يدلّ على أنّه يخطّط للمستقبل بمعرفة الآخر للاستفادة منه ولتجنب كل ضرر يصدر منه.

لم يتمكّن الغرب من معرفة ذاته بعمق إلاّ بعد أن أسّس لنقد قوي ومستمرّ أفضى إلى إرساء البنى – في كلّ المجالات – على قواعد علمية صحيحة ، ولعلّ اهتمام (أدونيس) وسعيه الدائم لإيجاد مخرج للمجتمع العربي من وضعه المتخلّف ، كان وراء اهتمامه بالآخر الأوربي الأمريكي ومحاولة فهم ثقافته وفكره فكرً عميقاً، ليستمدّ منه ما يمكن أن يساعد في بلورة الحلول وإيجاد الإجابات وما جعله يقول " يجب أن نعترف أن ما أنتجه أسلافنا في الماضي ليس كلّه قادراً على الإجابة عن مشكلاتنا الراهنة ، أو إفادتنا في التغلب عليها ،"[3] ، ويضيف أن في الغرب الكثير من الحلول لمشكلاتنا الراهنة ، ولا يتأتى ذلك إلاّ بعدم الانغلاق وبحتمية الانفتاح على الآخر ضمن ضوابط مدروسة ، إنّ التراث المعرفي والعلمي الذي تركه أسلافنا تجاوزت الأحداث الكثير منه وبخاصة في جانبه العلمي والتكنولوجي وحتّى الفنيّ وتلك سنة الحياة.

كثيراً ما يتناول (أدونيس) مسألة الصراع والحوار بين الشرق والغرب ويُرجع سبب الصراع إلى التعارض الذي ينشأ عن عوامل إيديولوجية- سياسية يقول" الانفصال إلى "شرق"

---

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 5

[2] المصدر نفسه ، ص 6

[3] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 336

و"غرب"،في الشكل الراهن ، معنى : صورته "التديّن" ، وأساسه التسيُّس – التعيُّش ، أي "الاستعمار".ومنذ الحروب الصليبية ، تم الانفصال ، وبدأ يأخذ شكله الامبريالي – الرأسمالي مع توسعات "النهضة" الأوروبية."[1] ، إنّ العامل السياسي هو المسبب الأول لهذا التعارض إلى جانب بعض الأشكال الإيديولوجية ،أمّا الإسلام فهو في نظر (أدونيس) عامل حوار وليس عامل صراع لأنّه جاء للبشر جميعاً ،إنه كوني ، ونستدلّ من هذا الرأي أن (أدونيس) كان يلمّح بلفظة "التديّن" إلى بعض المذاهب والطوائف سواء في الجانب الإسلامي أو المسيحي، والحقيقة أن الانفصال بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي انفصال جوهري لا يمكن في أي يوم من الأيام أن يتحول إلى التحام أو وحدة ، إلاّ بتخلّي أحد الطرفين أو كليهما عن معتقده، وإن كنا نجزم بأن الانفصال والاختلاف لا يعني أبداً الصراع أو إلغاء أحد الطرفين للآخر.

يعتبر (أدونيس) الفن وبخاصة الشعر عمل التقاء بين الشرق والغرب فالشعرية الغربية تأخذ الكثير من الخصائص المشرقية كالنبوة والرؤيا والحلم...الخ، فـ(بودلير)(Baudelaire) شعره ذو صبغة صوفية وفي شعر(رامبو)(Rimbaud) ثورة شرقية ضد الغرب...الخ ويذهب (أدونيس) بعيداً في موقفه هذا حين يجعل الغرب ابناً للشرق في مجال الإبداع والجانب العميق والإنساني في الحضارة يقول "إبداعياً، أعني على مستوى الحضارة بمعناها الأكثر عمقاً وإنسانية، ليس في "الغرب" شيء لم يأخذه من الشرق.الدين، الفلسفة، الشعر (الفن ،بعامة) "شرقية " كلها. ويمكنكم أن تستأنسوا بأسماء المبدعين في هذه الحقول ، بدءاً من دانتي حتى اليوم. فخصوصية"الغرب" هي التقنية، لا الإبداع.لذلك يمكن القول إن الغرب،حضارياً، هو ابن للشرق. لكنه، تقنياً، "لقيط" : انحراف ، استغلال ، هيمنة ، استعمار ، امبريالية. إنه ، في دلالة أخرى، تمرد على الأب.وهو، الآن، لم يعد يكتفي بمجرد التمرد، وإنما يريد أن يقتل الأب."[2]، قد يبدو (أدونيس) مُصيباً في وصفه للغرب لكن في الوصف مبالغة،كما أنّ التقنية ليست مجرّدة من الإبداع، و(أدونيس) يرى أنّ الغرب استغراق في التقنية والشرق استغراق في الروحانية، وهذا ما جعل الفن الغربي في كثير من أشكاله كفاحاً ضد التقنية وواقعها الجاف الخالي من نسمات الروح،وإذا كان الفكر الغربي اليوم يخضع لشيطان التقنية فإنّ الفكر العربي–حسب (أدونيس) – خاضعٌ للاستبداد المتمثّل أساساً في سيطرة التقليد وهيمنة النظام بكلّ وجوهه.

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 329

[2] المصدر نفسه ، ص 330

بعد أن يستعرض (أدونيس) العلاقة المعقّدة بين الشرق والغرب ، يخرج بموقف الحكيم المتأمّل المتأنّي والذي مفاده أنّ التعارض شرق/غرب هو حدث عارض ، وعلى العرب أن يقتصر رفضهم للغرب على جانبه الإيديولوجي والاستعماري وأنّ عليهم الأخذ من منجزاته الفكرية والتقنية دون أن يفقدوا بذلك أي عنصر من خصوصيتهم حيث يؤكد " على أن التعارض شرق/غرب ، حدث عارض ، وأنه من مستوى إيديولوجي-استعماري ، وأننا حين نرفض الغرب اليوم لا يجوز أن نرفضه إلا على هذا المستوى. أما إبداعاته الحضارية فيمكن أن نأخذها ، بخصوصيتنا الحضارية ، تماماً كما فعل هو ، بالنسبة إلى ما أخذه عنّا سابقاً."[1]، من الصعب الاتفاق مع (أدونيس) في اعتبار التعارض شرق/غرب حدث عارض، ذلك أنّ الخلاف بينهما جوهري يتمثل أساساً في المعتقد الدّيني وعلى وجه الخصوص الإسلام ،فإذا كانت المسيحية تتحرك على هامش حياة الإنسان الغربي ، فإن الإسلام على العكس تماماً ، يبقى منذ ظهوره العامل المهم في حياة المسلم ونواة أي حضارة يؤسسها وهو الموجه الأول والمرجعية الأم للمسلم في علاقته بذاته وبأسرته وبمجتمعه وبدولته وبعلاقته بالآخر غير المسلم وهذا واقع لا يمكن تجاوزه ، والتاريخ يثبت بما لا يدع للشك أن هذه العلاقة لم تكن أبداً حدثاً عارضاً لطبيعة الإسلام نفسه،ولو كان دين العرب غير الإسلام ربما كان رأي (أدونيس) مقبولاً.

تعتبر علاقة الحداثة العربية بالحداثة الغربية عيّنة من علاقة شرق/غرب، أو لنقلْ هي صورة من أهم صور هذه العلاقة اليوم، وكما اعترف (أدونيس) بتأثّره بالفكر الغربي عُموماً، لم ينف علاقته بالحداثة الغربية، بل على العكس يُقرّ بأنّ تعرّفه على الحداثة الغربية هو الذي أرشده إلى اكتشاف الحداثة في تراثنا العربي يقول "ولست أجد أي مفارقةٍ في قولي إنّ حداثة الغرب (المتأخّرة) هي التي جعلتني أكتشف حداثتنا العربية (المتقدّمة) ، فيما يتجاوز نظامنا الثقافي السياسي "الحديث"، الذي أُنشئَ على مثالٍ غربيّ." [2]، ويمكن أن نستنبط أنّ (أدونيس) لو لم يتّصلْ بالثقافة الغربية لما اكتشفَ الحداثة في موروثنا العربي، وهذا يؤكّد أنّ النظام الثقافي العربي اليوم ما زال يفتقرُ إلى مناهج وأدوات البحث والاكتشاف إنه نظام عاجز تقليدي لا يستجيب إلى المرحلة الراهنة وإلى مقتضيات العصر، وعلى الرغم من ذلك فإنّ (أدونيس) يرى أنّ الحداثة العربية لا يجبُ أن تُبحثَ من منظور غربي، بل يجبُ أن تُدرس وفق معطيات الفكر

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 335-336

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 87

العربي وخصوصيته وأدواته وهذا يعود إلى التباين القائم بين المجتمعات في قضايا الإبداع والفنون "فلا يصحّ أن تُبحث الحداثة العربية من منظورٍ غربيّ وضمن مُعطيات الحداثة الغربية ، وإنّما يجب أن تُبحث في أفق الفكر العربيّ – أصولاً وتاريخاً ، وضمن معطياته الخاصّة، وبأدواته المعرفيّة ، وفي إطار القضايا التي أثارتها أو نتجتْ عنها."[1]، وهو يقصد هنا الحداثة العربية التي تضمنّها التراث العربي وليس الحداثة المعاصرة ، لأنّ الحداثة في المجتمع العربي اليوم ذات صبغة غربية وإن لم ينف وجود بعض الاستثناءات" لنقلْ بوضوحٍ إنّ الحداثة اليوم، في المجتمع العربي، بوصفها مفهوماً أو تنظيراً ، وبِشكلِها العامّ، السائد، إنّما هي غربيّة بكاملها، وإنّنا عندما نتكلّم عليها، إنّما نتكلّم على الآخر، متوهّمين أنّ هذا الآخر هو الذات." [2].

إنّ الحداثة في المجتمعات العربية اليوم -إن وجدت- في المستويات العلمية والسياسية والاقتصادية و الاجتماعية جميعها ذات صبغة غربية، وفي كثير من الفنون وتبقى الاستثناءات في المستوى الفنّي والشعري بخاصّة ، إذ يرى (أدونيس) كما أشرنا سابقا إل أنّ الحداثة الشعرية العربية اليوم تضاهي في بعض أشكالها الحداثة الشعرية في الغرب، وفي الشعر قد يلجأ الشاعر العربي إلى استخدام بعض المفهومات النظرية والتقنية الغربية مثل قصيدة النثر على سبيل المثال لا الحصر "والتي تُدخل الحداثة الشعرية العربيّة في ائتلافٍ مع الحداثة الشعرية الغربيّة، حين يُنظرُ إليها في ذاتها، وبمعزلٍ عن سياقها في الممارسة."[3] ، لكن يحرص (أدونيس) دائما على أنّ الشاعر العربي يجب عليه أن يُنتج المختلف عن نظيره الغربي وأن يكيّف هذه المفهومات المستوردة مع طبيعة وخصائص المحيط الثقافي العربي واللغة العربية وعبقريتها على وجه الخصوص، فطريقة الآخر حين أستعملها يجب أن تحمل شخصيتي والرؤيا الخاصة بي وسمات لغتي و طاقاتها ، لكن الغريب أنّ (أدونيس) حين يعتمد الحداثة الغربية كمعيار ، لا ينفي وجود الحداثة العربية فقط ، وإنّما ينفي وجود الشعر أصلاً يقول " إذا أخذنا الحداثة في الغرب ، معياراً ، فمن الممكن القول : ليست الحداثة وحدها غير موجودة في الحياة العربيّة ، وإنّما الشعر نفسه هو كذلك غير موجود،وأعني طبعاً الشّعر بوصفه رؤيةً تأسيسيّة، وبوصفه فاعليّة معرفيّة كشفيّة قائمة بذاتها." [4]، ويمكنُ أن نلتمس تعليلاً لهذا التناقض في موقف (أدونيس) ،فهو حكم عام يشمل

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 89

[2] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 109-110

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 75

[4] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 110

أغلب الشعر المكتوب في الساحة الأدبية المعاصرة ، لأنّ (أدونيس) لا يمكنُ أن يحكم على شعره بالعدم ، والأحكام المتشائمة كثيراً ما يُطلقها (أدونيس) على الحداثة العربية بمستواها العام نظراً للتخلّف الذي يقبعُ في حضيضه المجتمع العربي مقارنةً بالمجتمعات الغربية التي يناقش مفكّروها مشكلات ما بعد الحداثة ، والتي وصل علمائها إلى عصر الفضاء والثورة الالكترونية..الخ يقول "في الغرب تجاوزوا الحداثة ، بينما نحن لم نصلْ إليها بعد." [1].

لا نستغرب من(أدونيس) شدّة اهتمامه بالغرب ومحاولته الدائمة الاستفادة من تجاربه المتنوعة لاطلاعه على المستوى الذي وصل إليه من التقدم العلمي والتكنولوجي والتوسع الفكري الهائل، ولاطلاعه أيضا على الوضع العربي المزري، ولهذا نجده يقارن بين الوضعين، وللمقارنة أهمية كبيرة في كونها تكشف عن الآراء المختلفة والمتناقضة والمتوافقة في آن واحد بين وضعين أو حقلين معرفيين وتُبرزُ جوهر كلّ منهما وكما قيل قديماً " تُعرفُ الأشياء بأضدادها" وتهدف المقارنة عموماً إلى تحقيق المعرفة وتوسيعها وتُسهمُ في إرساء الفهم المتبادل والتعاون في الكشف عن الإشكاليات وحلّها،وقد قارن (أدونيس) بين الحداثة الغربية والحداثة العربية وفي بداية المقارنة يقول " لنقُمْ ببعض المقارنات بين الحداثة في الغرب وما نسمّيه الحداثة في المجتمع العربي." [2]، وواضح أنّ (أدونيس) لا يؤمن بوجود حداثة عربية في العصر الراهن بالمعايير التي يريد والتي في مجملها من الفكر الغربي، فعبارة "ما نسمّيه" تعني إطلاق اسمٍ على مُسمّى غير جديرٍ به ، وسيتّضح من خصائص الحداثة العربية أنّ أغلبها سمات تتعارض مع مفهوم الحداثة بالمنظور الأدونيسي، يرى (أدونيس) أنّ الفروقات بين الحداثتين نتجت أساساً عن الاختلاف في النشأة يقول " نشأت الحداثة في الغرب في تاريخٍ من التغيّر عبر الفلسفة والعلم والتقنيّة، ونشأت الحداثة العربية في تاريخٍ من التأويل، تأويلٍ لعلاقة الحياة والفكر بالوحي الديني، وبالماضي إجمالاً." [3]، لقد وُلدت الحداثة الغربية من رحم التحولات الكبرى التي شهدتها أوربا في كلّ المجالات،أمّا الحداثة العربية فقد قامت على أساس التأويل،أي على أساس الاجتهاد الذي سعى إلى تفسير علاقة الحياة والفكر بالقرآن أو بالماضي إجمالاً ، وهذا أمر يعود إلى أهمية القرآن في حياة المجتمع العربي الإسلامي، فهو مصدر التشريع الأوّل وأي تأويل له يعني استنباط أحكام شرعية تؤثر على الفكر والحياة، بل و توجّه أي إبداع في فكري وهذا ينطبق على الحديث

---

[1] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 94

[2] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 104

[3] المصدر نفسه ، ص 105

النبوي وحتّى على بعض النصوص الأخرى ، وهذا ما جعل الحداثة العربية تقوم على تفسير علاقة الحياة بالماضي عموماً ، لأنّ هذا الماضي العريق هو الذي يوجّه الفكر والإبداع العربي باعتباره المرجيعة الأولى ،هذا اختلاف جوهري وإن كانت الحداثة في الغرب لم تنشأ على قطيعة جذرية بالتراث اليوناني والروماني ، غير أنّ التحولات كان لها دور بارز في نشأتها ، كما أنّ الحداثة العربية لم تنشأ فقط على الفكر التأويلي ، على الرغم من سيطرته على الحياة الفكرية العربية ، ويمكن أن نوجز أهمّ الفروقات[1] في الجدول الآتي :

	الحداثة الغربية	الحداثة العربية
1	مغامرة في المجهول	عودة إلى المعلوم
2	تؤكد على الأنا–الذات	تؤكّد على النحن–الأمّة
3	الإبداع مرجعيتها الوحيدة	مرجعياتها مُتعدّدة
4	نوع من المناجاة	صلاة إلى القبيلة أو الحزب أو الإيديولوجيا
5	تعيش في عالم انتصر على الدنيوي لا يخضع لأيّ مقدّس أو رمز ديني	تعيش في عالم تسيطر فيه المؤسسات والرموز الدينية
6	تساؤل وشكّ	يقين وتسليم
7	انفتاح ولا نهائية	مذهبية وانغلاق
8	تتأسس على البعد النقدي والحركية	تتأسس على بعد القبول والخضوع
9	فرادات	أنساق
10	انفجار معرفي هُمّشت فيه الرؤية الدينية	هامش صغير في متنٍ تسيطر عليه وتوجّهه الرؤية الدينية
11	تعدّد واحتمالات	واحدّية ،مبدأ مؤسس وحيد وحقيقة واحدة
12	تتحرّك في عالم أمات مفهوم الله وأحيا الإنسان	تتحرّك في عالم ، فيه الإنسان ميّت والله وحده الحيّ
13	تفترض في الذات وفي من تخاطبه الحيرة والغموض والشك	تفترض في الذات وفي من تخاطبه الوضوح والإيمان واليقين
14	تصدرُ عن قيمة تُردّ إليها جميع القيم، قيمة تهيمن على وعي العصر وتوجّهه	هي هامش ومنبوذة ولا تعيش إلاّ بفضل التصدّعات القائمة في المجتمع العربي
15	هي دُنيوة	هي دَينية

[1] ينظر : أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 105–106–107

ما يمكن الإشارة إليه هو ذلك الخطأ الشائع الذي ينشأ عن الترجمة العربية للعبارات باللغات الأوربية (mort de dieu) أو (death of god) حيث تُترجم إلى (موت الله)، وهذا لا يجوز،والترجمة المقبولة هي موت الإله أو موت الربّ ، وقد يكون هذا ما جعل (أدونيس) يتجنّب ذلك ويستبدلها بقوله (أمات مفهوم الله) .

أوّل ما يلفت الانتباه هو أنّ الحداثة العربية لا تستجيب لكلّ المعايير الغربية وهذا ما يجعلها من المنظور الغربي ليست حداثة ومن منظور (أدونيس) مشكوك في وجودها ،من خلال هذه المقارنة يمكن أن نقول إن (أدونيس) يقارن بين الفكر الغربي بالمفهوم الواسع والفكر العربي في العصر الراهن ، على أنّ أهمّ ما يميّز الحداثة الغربية هي تحرّرها الكامل من كلّ القيود، عكس نظيرتها العربية التي ما زالت تعاني من تسلّط المؤسسات السياسية والدينية وبعبارة أدّق رؤى سياسية ودينية بعينها ، إنّ الحرّية التي تتمتّع بها الحداثة الغربية يمكّنها من الانطلاق من الإبداع كمرجعية وحيدة وهذا غير مُتاح للحداثة العربية التي يجد الإبداع فيها الكثير من القيود التي تفرضها هيمنة النظام السائد ،مع الإشارة هنا إلى أنّ الإبداع المطلق لا يخلو من السواد ولا يؤدي دائماً إلى عمل فنّي راقي يستجيب لمعايير الجمال، وهذا يؤكّد أنّ الحرية المطلقة قد تؤدي أحياناً إلى الفوضى المدمّرة ،من أهمّ ما يميّز الحداثة الغربية هو ذلك الحراك الدائم للآلة النقدية وهو ما تفتقر إليه الحداثة العربية والتي تجعل من النقد في بعض الحالات مروقاً على الدّين أو على الأقلّ خروجا على النظام القائم بجميع مستوياته ، إنّ النقد هو من سمات الكائن البشري وهو الذي يُطوّر المنظومة الفكرية ويُحسّن من أدائها وكلّ ذلك ينعكس بالإيجاب على حياة المجتمع، ما يميّز الحداثة الغربية أيضاً عدم إيمانها بأي مقدّسات وتمجيدها للإنسان باعتباره الحقيقة الماثلة في الأرض ،عكس الحداثة العربية التي تُهمِّش الفرد على حساب الجماعة ، وهذا ما يؤدي إلى تهميش الإبداع أي الحداثة، أخيراً يمكن أن نختصر الوصف في ما يلي :

الحداثة الغربية تؤكّد على الذات وتتأسّس على النقد المستمرّ الذي ينتج عنه التساؤل والشكّ، وتؤكّد على الحرية المطلقة في الفكر و هو ما يؤدي إلى إلغاء المقدّسات من الحياة والدنيوة الشاملة والانفتاح واللانهائية والمغامرة في المجهول ويصبح الإبداع هو المرجعية الوحيدة.

الحداثة العربية تقبل بالخضوع والقبول وهو ما يكرّس الواقع والانغلاق وترتكز على مفهوم الأمّة وتعيش في عالم تسيطر عليه مؤسسات ورموز تقليدية تقيّد الفكر وتحارب النقد ولا تشجع على التساؤل بل تنشر ثقافة التسليم بالأمر الواقع ، وهو ما يجعل الفكر لا يبحث إلاّ في

ما هو معلوم ويتجنّب المغامرة في المجهول وبصفة عامة يسود فكر يُصبغ على كلّ شيء الطابع الدّيني وذلك تماشيا مع الاتجّاه العام الذي يكرّسه النظام السياسي – الديني القائم، مع التأكيد هنا على أنّ (أدونيس) ومن خلال كتاباته وحواراته يلّح دائما على أنّه يُفرّق بين الإسلام وبين النظام الديني القائم الذي لا يمثّل إلا تأويلات شخصية أو مذهبية غير معصومة، وأيّ قراءة متأنّية وموضوعية ترتكز على العقل المحض يتبيّن أن الإسلام لم يعارض الإبداع ودعا إلى إعمال العقل والتفكّر في الكون والحرّية المنظّمة أو لنقل النسبية، لأنّه لا توجد حقيقة مطلقة في الحياة البشرية ، بل إنّ العقل ذاته والذي يقوم عليه الفكر الحداثي يقف عاجزاً أمام الكثير من القضايا ويفشل في إيجاد الحلول للكثير من الإشكاليات ، فإذا كانت الحداثة الغربية دنيوة والحداثة العربية دينية فإن الحداثة المنشودة يجب أن تكون دنيوة ودينية وهو جوهر الإسلام.

يرى (حبيب بوهرور) أن (أدونيس) من خلال هذه المقارنة ينقد الحداثة العربية وفي نقده هذا "ارتكز على نقد الذات العربية الخاضعة ، فانعدام المساءلات الفكرية المستدامة في الوعي النقدي والكتابة العربية هو الذي شوّه مشروع الحداثة العربية منذ الستينيات من القرن الماضي، حيث تحوّل الإنسان/الشاعر إلى وسيط بين النص والسلطة فبعدما كان مشروعه الحداثي هو بعث سلطة النص كثقافة وتقانة في الكتابة الحداثية ، ساهم عكسياً في خلق مسار جديد هو نص السلطة. " [1] .

أمّا (عبد الغني بارة) فيعتبر قيام (أدونيس) بهذه المقارنة ، دليلٌ قاطعٌ على مرجعيّته الغربية وتمجيده للحداثة الغربية ، هذا الانبهار بالآخر يعني الذوبان فيه والتخلّي عن أهمّ ما يميّز الأنا عنه، حيث يقول " هذه المقارنة لا تدع مجالاً للشك في المرجعية الغربية للحداثة الأدونيسية، ولعل هذا ما جعله يدعو إلى الانفتاح على الآخر/الغرب ، مُبرراً ذلك بعالمية الثقافة، وأن كلّ الثقافات في العالم نشأت من أصول غربية المنبت.تُرى ، هل من مكان ، بعد هذا ، لخصوصية الذات في هذا الانفتاح اللامشروط ؟ " [2] ،وهو موقف أغلب النقاد العرب الذين يرون في (أدونيس) واحداً من أشدّ أنصار الحداثة الغربية و لم تشفع له مواقفه التي عرضنا بعضها سابقاً والتي تدعو إلى عدم تقليد الآخر مع عدم رفض فكره رفضاً مطلقاً.

---

[1] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 205

[2] عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر ، ص 162

1-5- معوقّات الحداثة العربية :

من خلال كتابات (أدونيس) يبدو تذمرّه جلّياً من الوضع الذي يعيشه المجتمع العربي والفكر بخاصة، هذا الوضع ينعكس بطبيعة الحال على وضعية الحداثة العربية التي ينظر إليها في كثير من الأحيان نظرة تشاؤمية وهو "في كل مرّة يُنظّرُ فيها لكتابة الحداثة ويدافع عنها لا يفوته أن يعتبرها وهما وسرابا في المجتمع العربي ، لأنه لم يُحسنْ بعد تفعيل سؤاله المعرفي ،"[1] ، وإن بدا في بعض الأحايين مُتفائلاً بوضع الحداثة الشعرية العربية التي تُضاهي نظيرتها الغربية ، ومن خلال نظرة مُتفحّصة لكتاباته النظرية ومن خلال حواراته نُدرك أنّ أهمّ المُعوّقات التي تُعيق حركة الحداثة في المجتمع العربي هي هيمنة النظام السائد بجميع مستوياته والتقليد المُتعدّد وكذلك الإشكالية على مستوى اللغة العربية ومستعمليها.

أبرز عائقٍ حقيقي للحداثة العربية في جميع مستوياتها ، هو طبيعة الفكر السائد والثقافة المهيمنة في المجتمعات العربية التي ترفض كلّ تحوّلٍ أو تغيير في بناها الأساسية ، وعن مفهوم الثقافة السائدة يقول (أدونيس) "أعني بالثقافة السائدة مجموعة الأفكار والقيم والأساليب التي ما تزال راسخة وفعّالة في المؤسسات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية في المجتمع العربي.هذه الثقافة السائدة هي استمرار للماضي على جميع المستويات، بمعنى أنه لم تنشأ أيّ بنية جديدة للعائلة مثلاً أو المدرسة أو مناهج وطرق التعليم أو صلة الإنسان بالإنسان أو صلته بالدولة.فنحن لا نزال نستعيد ثقافة الماضي.لا نزال نعيش في الثقافة التي نشأت في بلاط الخلافة، ورسّختها ، بمظاهرها السلبية ، على الأخص ، فترة الاستعمار التركي. وثقافتنا لذلك،نحن الذين نعيش في عصر الحداثة ، إنّما هي أكثر من ثقافة قديمة – إنّها ثقافة مُهترئة."[2]، لا نتفّق مع (أدونيس) حين يرى في الخلافة العثمانية استعماراً تركياً للعرب، ولا يمكن اعتبار المرحلة العثمانية تخلّفاً، فقد استطاع العثمانيون توحيد العرب وغزو أوربا،وهو موقف فيه الكثير من التجنّي على الخلافة العثمانية، يرى (أدونيس) أنّ الفكر العربي السائد المنغلق المتحجّر الرافض لأيّ تحوّل أو حركة لا يمكن أن يستوعب أيّ عنصر من عناصر الحداثة؟ وهي التي يتطلّب ظهورها وجود حدٍّ أدنى من الحراك والتغيير ،هذا الوضع أدّى إلى انتشار وهم في الأوساط الفكرية والثقافية يدعو إلى الحيرة والأسى في آن واحد ، فقد أمسى العقل العربي

---

[1] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 204

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 242

يتوهم أنّ الحداثة ذاتُ أصول غير عربية وأنّها إنتاج خاص بالآخر ولا علاقة له بالمجتمع العربي "إنّ الذّهن العربي السائد يرى أنّ الحداثة أو الحديث لا يجيئان من الذات ، و إنّما من الآخر الأجنبي ، ذلك أنّ وراء القول بالحداثة أو الحديث دعوى الإتيان بشيء لم تأت به الرؤية العربية ، وهي إذن ، دعوى تتّهم هذه الرؤية بالنّقص وتشكّك في صحّتها. هكذا نتحدّث عن ظاهرة وعن مفهوم ينبذهما جوهرياً النظام المعرفي الذي نكتب بلغته، ونمارس قيمه ، ويؤسّس لحياتنا وفكرنا، عنيتُ الحداثة والحديث. "[1] ، وهذا الوهم الذي يعشّش في فكرنا العربي السائد داءٌ خطير، ناتجٌ عن روح الهزيمة والشعور بالنقص والضعف إزاء الآخر الأوربي الأمريكي، هذا الشعور لا يُمكن أن يرفع راية التحدّي الحضاري في يوم من الأيّام ، وهذا النظام المعرفي السائد لا يمكن أن نتناساه أو ندّعي عدم وجوده كما يقول (أدونيس)،إنّ تناسي هذا النظام الذي يشكّل وجودنا توهم آخر، هذا الوضع العربي ليس فشلاً إنّه أكثر من ذلك، إنّه عجزٌ كامل "لذلك لا نقدرُ أن نبني شيئاً، ولن نقدر أن نغيّر شيئاً.كأنّنا نعيشُ بعقل الآخر، وأدواته، وتذوُّقه، داخل قفصٍ اسمه الذات."[2] ، هذا النوع من الفكر لن يستطيع إنتاج أو استيعاب الحداثة،إنّه في أحسن الأحوال يتحوّل إلى مستهلكٍ لمنجزاتها ، إنّه يقوم على التأويل الديني لكلّ ما يُصادفه في الحياة وهو بذلك يُصبغُ على المفاهيم صبغةً دينية، أو بعبارة أدقّ صبغة ناتجة عن رؤية دينية والحداثة تأسست على رفض المعارف الجاهزة واعتبرتْ الإنسان مصدر المعرفة وهذا ما يعبّر عنه (أدونيس) بقوله عن الحداثة الشعرية العربية "إنّ هذه الحداثة على افتراض وجودها كما قلت تتحرّك في إطار ثقافي، مهيمن، هاجسه الأوّل، الأساس ، هو دينَنَةُ الدنيا ، والحداثة في دلالتها البدهيّة الأولى دنيَوَة لا دينَنَةُ ."[3] ، وهذا الموقف الأدونيسي يطرح إشكالاً كبيراً وقضية شديدة الأهمّية وهي علاقة الدّين بالحداثة ، وفي صورة خاصة علاقة الإسلام بالحداثة ، فكما هو معروف تاريخياً فإنّ الحداثة الغربية نشأت في ظروف خاصة وواجهت محيطاً دينياً خاصا، ولذلك فمن الإجحاف تعميم هذا الوضع على جميع الأديان ،أي أنّ موقف الحداثة الغربية من الكنيسة البابوية ليس من الضرورة أن تتبنّاه أي حداثة أخرى إزاء أي دين آخر، و لم يقف (أدونيس) موقفاً واضحاً في علاقة الحداثة بالإسلام وإن كان يميل دائماً إلى أنّ هناك رؤى دينية خاصة تتعارض مع الحداثة ، وهي رؤى تتأسّس على تأويل النص الأوّل ، ففي حديثه عن

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 107-108

[2] المصدر نفسه ، ص 108

[3] المصدر نفسه ، ص 107

موقف الإسلام من الشعر يرى أنّ الالتباس الذي أحاط بهذا الموقف نتج أساساً عن أنّ هذا الموقف بُني على تأويل للقرآن وأصبح هذا التأويل (النص الثاني)، هو المرجع ، وعادةً ما يرتبطُ هذا التأويل بالسلطة فيتحوّل هو نفسه إلى سلطة نصّية ترى في أي تأويل آخر خروج عن الدين وعن السلطة "هذا الالتباس ، على المستوى الشعريّ الخاص، نموذج لالتباسٍ شاملٍ، على المستوى الفكريّ العام ، في التأويل الذي ساد المجتمع العربي ولا يزالُ سائداً.وهنا ، كما أرى، تكمنُ إشكاليّة التجديد أو الحداثة . فهذا النص الثاني (التأويل القرآني السائد) يؤوّل الحداثة على أنّها خروجٌ على النص الأوّل (القرآن والسنّة)، بينما هي في الحقيقة خروجٌ على النصّ الثاني نفسه ، بحيث تجعل منه نصّاً لا يُلزمُ أحداً ، اليوم، وتحاول أن تقرأ النصّ الأوّل قراءتها الخاصّة، وتؤوّلهُ تأويلها الخاصّ. فالحداثة ليست ، في الأساس ، مواجهةً للنصّ الأوّل ، وإنّما هي مواجهةٌ للنصّ الثاني."[1] ، هذه الحداثة التي تواجه النص الثاني ولا تواجه النص الأوّل ،هي في الحقيقة الحداثة الأدونيسية التي لم تتّضح علاقتها بالإسلام ،لأنّ هذه العلاقة أعقد من أن تفسّرها عباراتٌ وجيزة .

يشير (أدونيس) إلى دور الفكر الديني السائد وتأثيره على الشعر، لقد سادت ثقافة ترى أنّ الحقيقة كامنة في النص ولا تُستمدّ من التجارب أو من الواقع ولا حقيقة غيرها وعلى الفكر أن يشرح ويُفسّر ويُعلّم وهو مؤمن بهذه الحقيقة دون أن يسعى للبحث عن غيرها، وانعكس هذا على وضع الشعر العربي ،حيث رفضت أغلب الأوساط الأدبية أي تجديد لأنّه خروج على النص الشعري الأصلي وصارت تشكّ في كلّ نص مختلف أو مغاير "من هنا ، كان طبيعيّاً أن ترفض هذه الثّقافة الحداثة التي تتناقض نظرياً، مع أصولها – خصوصاً في كلّ ما يُمكن أن يؤدّي إلى التشكيك في رؤيتها الدّينية ، وجهازها المعرفي الدّينيّ."[2] ، والمعضلة أنّ هذه الثقافة السائدة لم تزلْ سائدةً إلى غاية العصر الرّاهن ،على الرّغم من كلّ التحوّلات الكبرى التي شهدها العالم في القرون الأخيرة ، وذلك لغياب جهاز نقدي قوي وجريء يواجهها مواجهة علمية "ومما زاد في هيمنة هذه الممارسة المعرفيّة أنّ الفكر العربيّ "الحديث" لم يواجهها مواجهة تحليلٍ ونقدٍ وتفكيك."[3] ، ولغياب هذه المواجهة عوامل على الرغم من أنّ هذا الغياب ليس غياباً مطلقاً فهناك حضور شكّله بعض المفكّرين العرب الذين تميّزوا بدراسات نقدية علمية

---

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ، ص 187-188

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 83

[3] المصدر نفسه ، ص 84

جادّة وجريئة للفكر العربي ،من أهمّ العوامل التي ساعدت على هيمنة هذه الثقافة سعي النظام السياسي – الديني الدائم لإرسائها بهدف الإبقاء على سيطرته ومكاسبه ، وليس من الغريب أن يتأثّر الأدب بهذا الوضع ويتبنّى الكثير من الأدباء هذه الثقافة أو النظام المعرفي ويبالغون في رفضهم للحداثة معلّلين رفضهم بأنّ الحداثة غربية و ليست عربية يقول (أدونيس) "من هنا يسود الحياة الأدبية تيار يقف من الحداثة موقفاً، هو من العدائية بحيث لا يتيح لنا إلا أن نستنتج ان ممثليه يفصلون بين العروبة والحداثة ، ويرون أنّ كلّ ما هو حديث إنّما هو غير عربي.وهكذا يُمنعُ عن الجمهور العربي الحاضر ، ما سيكون ، وحده ، مجده الأدبي في المستقبل. "[1].

إنّ الفكر العربي السائد أدّى إلى ظهور تيارين كبيرين في الأدب العربي ، تيّار يعادي الحداثة الغربية وتيّار آخر يتبنّاها بقوّة ويدافع عنها ، وهو ما أفضى إلى ظهور عائق آخر في طريق الحداثة العربية ، هو عائق التقليد الذي يتجلّى أكثر في المجال الشعري ، إنّ الشاعر العربي الذي ينشدُ جوهر الحداثة يجدُ نفسه في تعارض أساسي مع ثقافة تقليدية عربية يُكرّسها النظام العربي وفي تعارض آخر مع ثقافة غربية سطحية تتمثّل أساساً في جانبها التقني والاستهلاكي يتبنّاها نفس النظام ويُعمّمها "وتتمثّل المشكلة بجانبها الحاد، في كون الشاعر العربي الحديث حقاً يعيش في حصار مزدوج، تضربه عليه ثقافة التبعيّة للآخر ، من جهة ، وثقافة الارتباط الجنينيّ بالماضي التقليديّ، من جهة ثانية."[2] ، وفي هذا الوضع من الصعب جدّاً ، الكشف عن الحداثة التي أسسّها الشعراء العرب في التراث ، ومن الصعب أيضاً تأسيس حداثة عربية معاصرة تستجيب لمعايير العصر ومقتضياته، ويرى (أدونيس) أنّ "عصر النهضة" العربية هو الذي أسّس لتبعية مزدوجة للماضي العربي من جهة وللغرب الأوربي–الأمريكي من جهة ثانية ، هذا الوضع يُفسّر "كيف نشأ الشعراء (والنقاد والأدباء و والمفكّرون) ، منذ الخمسينيات ، بين تقليدين ثقافيين :تقليدٍ للذات (القديمة ، الأصولية) ، وتقليدٍ للآخر (الحديث ، الأوروبيّ–الأميركي).وهذان التقليدان يطمسان، كلٌّ بخصوصيّته وآليّته ، أبعاد الحداثة وقيم الإبداع في التّراث العربيّ. الأوّل يطمسُها، بحجّة العودة إلى الأصول الأولى.ويطمسها الثاني،إمّا جهلاً بها ، وإمّا انبهاراً بالآخر بصرف الذّات عن الاستبصار في هويّتها الخاصّة، وفي ما يميّزها عن الآخر. "[3] ، هذا الكلام يبيّن موقف (أدونيس) الساعي إلى تأسيس حداثة عربية معاصرة في حضور الوعي الكامل

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 67

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 87

[3] المصدر نفسه ، ص 86

بعلاقة الأنا العربية بتراثها من جهة ، وبعلاقتها بالحداثة الغربية من جهة ثانيـــة ، إنّ الحداثـــة العربية لا يمكن أن تفرح بميلادها إلاّ بعد أن تُحدّد المسافة بينها وبين التراث العربي ، والمسافة بينها وبين الحداثة الغربية ، وهذا يتطلّب جهداً كبيراً ودراساتٍ مُعمّقة من طرف النقّاد العرب، ويتطلّبُ أيضاً وعياً كبيراً بطبيعة العلاقة بين الإبداع والتقليد من طرف المبدعين العرب ، وليس من السهل على أيّ مبدعٍ عربي ، التخلّص نهائياً من أسلوب التقليد في مجتمع يقومُ أساساً على الفكر التقليدي الذي يرفضُ التجديدَ ولا يُنتجُ شيئاً ، بل يعيشُ عالةً على التراث العربي وعالةً على الآخرين ، هذا المجتمع العربي يستهلك منجزات الحداثة ويتوهم أنّه حديث وهو لا يفرّق بين الحداثة والتحديث، على الرّغم من توفّر كلّ المقوّمات التي تؤهلّه للدخول إلى عالم الحداثة من أوسع أبوابها ، وهذا ما جعل (أدونيس)يتساءلُ "كيف تنشأُ حداثة أدبية في مجتمعٍ يقومُ، في بناه الأساسيّة ، على التقليد ، في مختلف الميادين الأخرى غير الأدبيّة؟"[1] .

إذا كان تقليد الذّات نتيجة منطقية للفكر العربي السائد، فإنّ تقليد الآخر جاء نتيجة لرفض هذا الوضع السائد وكذلك انبهاراً بالآخر وبمنجزاته وأيضاً لعدم فهم حداثته فهماً عميقاً، لقد أخذ العربي المنجزات و لم يتعلّم طرق الإنجاز "أحبّ كذلك أن أشير إلى أنّنا أخطأنا،منذ البداية، في فهم حداثة الغرب. لم ننظر إليها في ارتباطها العضويّ بالحضارة الغربيّة، بأسُسها العقلانيّـــة خصوصاً،وإنّما نظرنا إليها بوصفها أبنية وتشكيلات لغويّة.رأينا تجلّيات الحداثة في ميدان الفنون والآداب ،دون أن نرى الأسس النظريّة والمبادئ العقليّة الكامنة وراءها. ومن هنا غابت عنّـــا دلالتها العميقة في الكتابة وفي الحياة على السّواء."[2] ، يمكن أن نضيف أنّ تقليد الأنا جاء أيضاً نتيجة عدم فهمنا لتراثنا فهماً عميقاً وعدم استفادتنا منه.

من القضايا التي تُشكّلُ عقبة في مسيرة الحداثة العربية،وضع اللغة العربيـــة في المجتمعـــات العربية،لا يخفى على أحد أهميّة اللغة ودورها الخطير في بناء حضارة أيّ مجتمع ، فهـــي الـــتي تشكّل هويته وتميّزه عن الآخرين، وترتبط اللغة بالفكر والإبداع ارتباطاً وثيقاً، وانطلاقاً ممّا سبق لا يمكن أن تقوم حداثة عربية من دون الحضور القوي والمؤثّر للغة العربية،هـــذه اللغـــة الـــتي شكّلت وجود الإنسان العربي قديماً كما يذهب (أدونيس) في قوله "فقد نشأ العربيّ في ثقافـــةٍ ترى إلى اللغة بوصفها صورته الناطقة، وبوصفه صورتها الشاعرة والمفكّرة، فهي وحـــدة عَقْلٍ

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 94

[2] المصدر نفسه ، ص 94 – 95

وشعور، وهي الرّمز الأوّل للهوّية العربيّة، وضمانها الأوّل،كأنّ اللغة في هذه النّظرة، هي الـــتي "خلقت" العربيّ- فطرةً في الجاهليّة، ووحياً في النّبوّة،وعقلاً في الإسلام.بل تبدو اللغة،في الوعي العربيّ الأصليّ، كأنها الكائن نفسه ،و يبدو علمها كأنّه علم الكائن.من"ماديـــة"هـــذه اللغـــة المخلوقة، يتفجّر إيقاع الوجود، وينبثقُ جوهره. " [1]، لقد نشأ العربي في الجاهلية علـــى حـــبّ العربية يرضع من حليبها ويتغنّى بأشعارها ومع نزول القرآن ارتقت مكاناً عليّاً وارتدت مـــن قدسيته نوراً، وتأسّست الحضارة العربية الإسلامية وازدهرتْ في أفق هذه المكانة التي وصـــلتها اللغة العربية في قلوب المسلمين وغدتْ " اللغة، في هذه النظرة وهذا الوعي، ليستْ مجـــرّد أداة لإيصال معنىً"منفصل" عنها.إنّها، بالأحرى، المعنى لأنّها هي الفكر.بل إنّها سابقة عليـــه، لأنّ المعرفة لاحقة، ومن هنا كان معيار المعنى في اللغة، وكان محدّداً بقواعدها."[2] .

في العصر الراهن تغيّر الوضعُ ،حيث أمست اللغة العربية تعيش في غربة بين أهلها حيـــث هجروها إلى لهجات عامية ولغات أجنبية وأروبية تحديداً وغدتْ هذه اللغة التي شكّلتْ جوهر الكائن العربي "تبدو في الممارسة العمليّة ركاماً من الألفاظ:هذا لا يتقنها، وذاك يهجرها إلى لغةٍ أخرى عامّية أو أجنبية ، وذلك لا يعرف أن يستخدمها إبداعياً، فكأنّها "مستودعٌ" ضـــخم، ينفرُ منه بشكلٍ أو آخر، بحجّة أو أخرى ،كلّ من يدخل إليه ويغترف حاجته منه.فهناك مسافةٌ بينها وبين من ينطقُ بها. وهذا يعني أنّ ما كان غايةً ، يبدو الآن مجرّد وسيلة."[3] .

إنّ الوضع المتأزّم بين العربي ولغته اليوم لا يمكن أن يوفّر أرضاً خصبةً للإبداع، وهو وضع يشكّل عقبةً حقيقيةً في وجه الحداثة العربية بعامّة والحداثة الشعرية بخاصة التي لا يمكن أن تقوم ما لم تنشأ رابطة روحيّة بين الشاعر واللغة،إنّ على الشاعر أن يكتشف ذاته ولا يتحقّق له ذلك إلا بعد أن يغوص في أعماق اللغة وهو ما يجعل اللغة تتّحد بالذات الشاعرة ويـــصبح الفـــصل بينهما أمراً مستحيلاً فالحداثة الشعرية كما يقول (أدونيس) "تفترض، بدئياً، معرفـــة الـــشاعر العربي نفسه بوصفه ذاتاً، وبوصف هذه الذات لغة، وبوصف هذه اللغة أداة كشف ، وإفصاح، وإيصال. هذه الإحاطة المعرفيّة بالذات، والتي هي الشرط الأوّل والبدهيّ لكتابة الحداثة تعـــبيراً عن الذّات، إنّما هي في الوقت نفسه ، الشرط الأوّل البدهيّ للعلاقة الخلاّقة مع الآخر."[4]، وهو

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 87-88

[2] المصدر نفسه ، ص 88

[3] المصدر نفسه ، ص 88

[4] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 102

ما يؤكد أنّ معرفة الذات تقتضي معرفة اللغة معرفة معمّقة وخاصة جـــدّاً تؤسّـــس للحداثـــة ولعلاقة متكافئة مع الآخر تنتج إبداعاً ، على الشاعر أن يذوب في اللغة وتذوب فيه، يغرق فيها وتغرق فيه، تفجّره ويفجّرها يدركها في الوعي وفي اللاوعي يغدو دليلاً لها وتغدو دليلاً لـــه، باختصار يختلطان ويشكّلان جسداً واحداً،هذا ما يجب أن يكون ، لكن الواقع الذي يعيـــشه أغلب الشعراء يكشف عن هوّة كبيرة بينهم وبين اللغة العربية،فالمسافة اليوم بين الشاعر العربي ولغته مسافة طويلة جدّاً، وعلاقته بها علاقة سطحية جافة جوفاء فاترة عديمة اللون وصار الشعر في هذا الأفق نظمًا للكلمات وقرعاً للأجراس وكما قال (أدونيس) نبدو " أنّنا، إبداعياً، بلا لغة : أنّنا لا نكتبُ، بل نرسمُ ألفاظاً، وأنّنا لا نتكلّمُ بل نُصدرُ أصواتاً."[1]، هذه العلاقة الشكلية بين العرب ولغتهم أدّت إلى فراغ فكري تملأه هياكل ثقافية بلا أرواح ، هذا الفصل بـــين اللغـــة العربية والجسد العربي تكرّسه -كما يقول (أدونيس) - السلطة القائمة بجميع أشكالها، وبعـــد مقارنة بين وضع اللغة العربية قديماً وحديثاً يخلصُ إلى القول " هكذا تتّضح لنا، بشكل أكثـــر تعقيداً، إشكاليّة الحداثة ، اليوم، على مستوى اللغة.فما كان العلامـــة الأولى علـــى حـــضور العرب، كيانيّاً و إبداعيّاً، يفسد ويتراجع.فالعربيّ اليوم، بعبارةٍ ثانية، لا "يعرف" الأساس الأوّل الذي عرف به الوجود، وأسّس حضوره في التاريخ.لقد فقد حسّ اللغة، بالمعنى الذي يتحدّث عنه ابن خلدون.وفي ذلك يبدو كأنّه يجهلُ ما أعطاه هوّيته، أو يجهل ما هُو." [2].

تلك هي أهمّ معوّقات الحداثة العربية من المنظور الأدونيسي ، ويبدو جليّاً أنّ النظام المعرفي السائد والذي يكرّسه النظام السياسي-الديني القائم هو أساس الأزمة التي تعيشها الحداثة العربية والفكر العربي بصفة عامة، وهذا ما جعل (أدونيس) يدعو دائماً إلى مواجهته فكريـــاً ونقـــدياً وهي الحقيقة التي يجب الوصول إليها والإعلان عنها جهراً "هذه الحقيقة هي تجـــاوز العـــائق المعرفيّ،هي الجهر بتفكيك هذا النظام ،وتجاوزه ، هي الجهر بنهاية المطلق.دون هذا الجهر والسير فكريّاً بمقتضياته ، لا يمكن في نظري ، أن يكون في المجتمع العربي حداثة ولا فكر حديث ، بل لا يمكن أن يكون هناك فكر، بحصر المعنى." [3]، هذه الثقافة السائدة لا تشكّل حـــاجزاً أمـــام حركة الحداثة العربية وحسب بل هي -كما يذهب (أدونيس) - علامة من علامات تخلّـــف الفكر وانحطاطه بل هي أكثر من ذلك إنّها علامة من علامات انحطـــاط الإنـــسان، لـــذلك

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 84

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 89

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 108

فـــ(أدونيس) يتمرّد عليها ويحاربها، إلى درجة دعمه الكـــامل لأيّ فكر تراه هذه الثقافة انحرافاً وخروجاً عن مسارها يقول "فإن كلّ ما تراه الثقافة السائدة انحرافاً ،أو تهديماً، أتعاطف معـــه واحتضنه.لأنني أعتقد أن الثقافة السائدة ليست علامة على انحطاط الفكر وحسب، وإنما هـــي علامة على انحطاط الإنسان، أيضاً أن تبدع، في هذا المستوى ، هو أن تبتكر كل ما ترفـــضه هذه الثقافة: هو أن تبتكر الأخطاء." [1] ، ويبدو (أدونيس) هنا يقف موقفاً متطرّفاً ،فليس كلّ ما ترفضه هذه الثقافة إبداعاً، و لم تقتصر محاربته على هذه الثقافة السائدة بل امتدّت إلى محاربة التقليد بكلّ أنواعه، فالتقليد يناقض الإبداع أي يناقض الحداثة التي تقتضي "قطعاً مع التّأسلف ومع التمغرب في آن، من أجل كتابة الذات الواقعيّة الحيّة، وقد وعت فرادتها وخصوصيتها إزاء الآخر ، وتمثّلت ، بنقد جذري إبداعي ، أسطورتها التراثية-الأبوية ، وتجاوزتها – أي انطلقت، بدءاً منها، إلى أبعاد جديدة."[2] ، وهو بذلك يطمح لتأسيس حداثة عربية ترتكز على الإبـــداع العربي المعاصر، وفي مسألة اللغة العربية يُرجع وضعها المتدهور إلى العـــرب أنفـــسهم حيـــث يقول"العرب الآن في وضع هالك ، ولكن ليس بسبب اللغة بل بسبب عقولهم.اللغة لا ذنـــب لها.الذنب هو ذنب العقل العربي. وأقول : إذا كانت اللغة العربية تموت فمعنى ذلك أنّ العقـــل العربي والعرب كلّهم يموتون لا لغتهم فقط."[3] ، وينصح الشعراء بالتوسّع في معرفة اللغـــة لأنّ الحداثة في أيّ لغة لا تقوم إلاّ بمعرفة تاريخ وماضي هذه اللغة وهذا ما يجب على الشعراء القيام به لتأسيس حداثة شعرية عربية في العصر الراهن.

يسعى (أدونيس) إلى الكشف عن أسباب الأزمة التي تتخبّط فيها الحداثة العربية والفكـــر العربي، ويحاول تقديم الحلول فحين يتطرق لأوهام الحداثة في الشعر فهو في حقيقة الأمر يمهّـــد الطريق للشعراء الشبّان ويساعدهم في التأسيس لحداثة شعرية عربية ،و لا يكتفي بـــذلك بـــل يكتبُ شعراً و يقدّمه كنموذج لشعر الحداثة العربية من منظوره هو، إنّه يسخّر حياتـــه لبنـــاء حداثة عربية تقوم على إعادة قراءة التراث قراءة جديدة متجدّدة تعتمد على النقد والتفكيـــك، كما تقوم على الاستفادة من الحداثة الغربية دون أن تكون مرآةً عاكسة لها .

---

[1] عمر أزراج : أحاديث في الفكر و الأدب ، ص 50

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 315

[3] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 81

الفصل الثانـــي

مشروع الحداثـــة الأدونيسية

- توطئة: أدونيس ومشروع التغيير
- النّص القرآني و الحداثـــة
- التـــراث و الحداثـــة
- اللغة و الحداثـــة
- النقـــد و الحداثـــة
- الثـــورة و الحداثـــة

توطئة:أدونيس ومشروع التغيير

المشروع الأدونيسي مشروع شامل يهدف إلى إحداث تغيير جذري في الفكر العربي ومن ثمّ في حياة المجتمع العربي بجميع مستوياتها ، هذه الرؤية التي ترتكز على التغيير الجذري رافقت (أدونيس) منذ شبابه إلى يومنا هذا ، فالبحث في المجهول والتطلّع إلى المستقبل وإعادة قراءة التراث قراءة نقدية ، كلّها أفكار سيطرت على فكره و رؤيته للحياة ، وإذا كان (أدونيس) شاعراً فهو شاعر فوق العادة لأنّه مفكّر من طراز خاص أو راءٍ كما قال عن نفسه ، انطلق من الشعر ليؤسس مشروعاً فكرياً خاصاً يسعى إلى هدم النظام المعرفي العربي السائد ليحلّ محلّه نظام معرفي فكري جديد يستجيب لمقتضيات العصر ومستجدّاته و يحقّق النقلة التي تخلّص المجتمع العربي من حالة التخلّف التي يرزح تحت ظلامها مدة زمنية طويلة ، ووجد (أدونيس) في مصطلح الحداثة الوقود الذي يحرّك جميع أجهزة و آلات هذا المشروع ، وهكذا أصبحت الحداثة الأدونيسية المنظار الذي يرى من خلاله (أدونيس) إلى كل شيء ، إلى المفاهيم و إلى العلاقات و إلى المنجزات الفكرية و إلى الشخصيات...الخ ، ويكسبها طابعا خاصاً غير مألوف، وبسبب هذا التغييرات الجذرية التي يحملها هذا المشروع أُتُّهم صاحبه بأنّه يحاول التشكيك في القيم الراسخة للمجتمع العربي الإسلامي و بخاصة ما يرتبط منها بالعقيدة الإسلامية لتأثره الشديد بالفكر الغربي يقول عبد الغني بارة "إنّ أدونيس يسعى قصارى جهده أن يجد مبررات للفكر الغربي في التراث العربي ، وكأنّه يتعمد ذلك ، حتّى يحقق مشروعه الحداثي القائم على مبدأ خلخلة بنية العقل العربي الماضوي ، بالمصطلح الأدونيسي ، بل وليشكّك في الأسس التي انبنى عليها."[1] ، و أمام هذه الانتقادات ، يصرّ (أدونيس) على أنّه يسعى إلى إعادة قراءة التراث قراءة نقدية جديدة ، ليس للتشكيك في أسسه ولكن لإعادة بناء تواصل جديد معه يمكّن الفكر العربي من استلهام طاقات هذا التراث العريق لتأسيس فكر عربي حديث يواكب التطورات التي عرفها العالم ، لأنّه من المستحيل العيش في هذا العصر بفكر قديم غير قادر على تقديم الحلول للكثير من الإشكاليات ، في هذا المشروع تؤسس الحداثة الأدونيسية الكثير من العلاقات مع المفاهيم والقيم للتتشكّل بعدها مفاهيمٌ جديدة غير مألوفة من قبل ، بل ورؤى جديدة تبشّر بعالم عربي جديد يجمع بين الأصالة و المعاصرة ، ولأهمّية الشعر في المشروع الأدونيسي فقد خُصّص له فصل كامل.

[1] عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر ، ص 175

2 – 1 – النّص القرآني و الحداثـــة :

الشعر العربي قديمُ النشأة و ذهب أغلب المؤرّخين إلى أنّ بدايته تعود إلى حوالي مائتي ســـنة قبل الإسلام – وربّما أكثر – وهو ما يفسّر بلوغه ذلك المستوى الراقي عند نـــزول القـــرآن، واتسّم بالغزارة والجودة وعرف سوقاً رائجة لتعلّق نفوس العرب به ، وفي هذه الفتـــرة بلـــغ الشعراء مكانة عالية بين القبائل ، تُقبل شفاعتهم و تُكرم وفادتهم و يُترل عند قضائهم، ينادمون الملوك وتفتخر القبيلة بشاعرها ،فهو لسان حالها ومخلّد أمجادها، لقد بلغ الشعراء مترلة الأنبياء، أمّا الشعر فكان عند العرب وعاء تجاربهم ومستودع حكمتهم وديوان معـــارفهم وعلـــومهم وسجّل أيّامهم حتّى سُمي بحق "ديوان العرب" و لقد عرفت فترة نزول القـــرآن إلى جانـــب الشعراء خطباء اشتهروا بفصاحتهم و بلاغتهم و بحكمهم و أمثالهم التي رسخت في النفـــوس وتداولتها الألسن على مرّ الزمان ، وهكذا كان عصر نزول القرآن عصر فصاحةٍ وبلاغةٍ ، بلغ فيه الأدب نثراً و شعراً مبلغاً بعيداً ، واكتملتْ للغة العربية خصائصها التي برزت من خلال هذا الأدب، في هذا الزمن الذي يفيض أدباً والذي يفتخر بلغته أيّما فخر و يتحدّى بها جميع الأزمنة و العصور نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين على أرباب الفصاحة و البيان فانبهروا به لمـــا وجدوا فيه من قول فصيح بلغتهم ما عهدوه من قبل يأخذ بالأفئدة و الألبـــاب ويتغلغـــلُ في النفوس فلا تستطيع له دفعا ولا منه هروبا،ومن أثر هذه الهزّة التي أحدثها في وجـــدانهم،آمـــن البعض منهم والآخرون اتّبعوا الشيطان و اتّهموا النبي صلّى الله عليه وسلّم بالسحر و بـــالجنون وبالشعر وهم موقنون أنّ هذا القول ليس بشعر وليس بكلام السحرة أو الجان .

لم يزلْ القرآن بعد مرور أربعة عشر قرناً وبعد كلّ هذا التطوّر الهائل في جميـــع المعـــارف والعلوم والمناهج يجود بأسراره على أكثر من مستوى "يراه الأديبُ معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أربابُ القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماءُ الاقتصاد معجزاً ويراه المربّون معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كلّ راسخٍ في علمـــه معجـــزاً."[1]،ولا عجب فهو ليس من قول البشر ولا يمكن أن يأتي بمثله بشر، تحدّى الله بـــه فـــصحاء العـــرب وشعرائهم وخطبائهم في أزهى عصور البيان العربي، فعجزوا أن يأتوا بسورةٍ من سوره أو آيـــةٍ من آياته، لقد جمع بين الجزالة والعذوبة وكان غايةً في الفصاحة وجاء بأسلوبٍ جديدٍ لم يعرفهُ العرب من قبل، يأخذ طريقه إلى القلوب ويستولي على النفوس، لقد أوجد الإحساس بإمكـــان

[1] فاضل صالح السامرّائي : التعبير القرآني ، دار عمار ، عمان – الأردن ، ط4 ، 2006 ، ص 20

شعري مدهـــش يقع خارج النثر المطلق وخارج الشعر المطلق، إنّه إعادة الاعتبار لفاعلية نصّية لا تستمدّ قيمتها من وزن وقافية، لكنّها مع ذلك، تطفح بإمكانات تعبيرية مؤثّرة إلى حـــدّ لم يُعرفْ له مثيل من قبل ولا من بعد، لقد فتح النص القرآني آفاقاً جديدة أمام الشعرية العربيـــة وأمام الكتابة العربية بوجه عام وأحدث وأسّس لقطيعة مع الماضي الجاهلي تـــشمل المـــستوى المعرفي والمستوى التعبيري اللغوي،لقد أسّس لكتابة جديدة "وهكذا كان النص القرآني تحـــولا جذرياً وشاملاً، حيث استطاع أن يحقّق النقلة من ثقافة الارتجال والبديهة، إلى ثقافة التأمـــل، ومن الشفوية إلى الكتابة."[1].

حطّم القرآن أغلالاً قيّدت عقول العرب وحاصرتْ فكرهم زمناً طويلاً، فانطلقتْ عقولهم واتّسع فكرهم وتغيّرت نظرتهم إلى كلّ ما يحيط بهم فاستوعبوا قيماً ومبادئ جديدة وحطّمـــوا قيماً أخرى كما حطّموا أصنامهم" أحدث النص القرآني تحولا في مسار الثقافة العربيـــة، إذ أن المرجعية التي جاء بها الإسلام، أسّست لرؤية جديدة، لله والكون والإنسان."[2]، ألا يمكن القول دون تردّد أنّ النّص القرآني هو أقصى غاية ينشدها كلّ مبدعٍ وبأي لغـــةٍ وفي أي زمـــنٍ ولا يستطيع إلى ذلك سبيلا، إنّه النص الأزلي الذي يتجاوز الزمن، نزل بلسان العربية ففجّر طاقاتها تفجيرا وكشف أبعاداً فيها لم تخطر على قلب شاعر أو خطيب ولا تحيط بها عقول العلمـــاء، لقد فجّر أيضاً قرائح الشعراء بعد فترةٍ من الذهول والانبهار، أليس غاية الحداثة الأدبية اليـــوم وغداً إبداعُ نصوصٍ تتجاوز الحاضر والمستقبل تتفجّر بالجمال الأبدي الـــذي لا ينـــضب، لا يلامسه صدأ الزمان ولا غباره يغلي بالحراك الدائم الذي لا نهاية له، ألا نستطيع الجزم أنّ النص القرآني في جانبه الأدبي فقط هو نص تجاوز الإبداع الذي تنشده الحداثة بمسافة لا حدود لها.

يبدو (أدونيس) شديد الاهتمام بالنص القرآني وهو حين يتناوله بالدراسة يؤكّد على دراسة جانبه اللغوي فقط " أشيرُ أوّلاً، أنّني أتكلّم على الكتابة القرآنية بوصفها نصّاً لغويّاً، خارج كلّ بُعدٍ ديني، نظراً وممارسةً: نصّاً نقرؤه،كما نقرأ نصّاً أدبيّاً."[3]، إنّه يقتصرُ في دراسته على الجانب الأدبي ولكن يستحيلُ النظر للقرآن على أنّه نص لغوي محض،ففي هذه الحالة يصبح نصاً لغوياً كغيره من النصوص وهذا أمر خطير وموقف غير مقبول،أمّا عن إدراجه لمـــصطلح "الكتابـــة الأدبية" فيقول "وربّما أثارت عبارة((الكتابة الأدبية))تساؤلاً، ذلك أنّ القرآن نزل وحياً ، وبُلّغ

---

[1] مشري بن خليفة : الشعرية العربية مرجعياتها و ابدالاتها النصية ، ص64

[2] المرجع نفسه ، ص 64

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 19

شفوياً. والكتابة عمل إنساني قام به أشخاص كلّفو به. والجواب عن هذا التساؤل هو أنّني أتحدّث عن النصّ القرآني كما دُوّن، استناداً إلى سماعه من ناقله النبي الذي سمعه مباشرةً من الوسيط بينه وبين الله: الملاك جبرائيل، ممّا تُجمع عليه الروايات كلّها."[1].

يتحدّث(أدونيس) عن انبهار العرب بهذا النص المعجز وبلغته العربية العجيبة التي لم يألفوها من قبل، هذه اللغة هي التي أدهشت أشدّ الكفّار عداوةً للنبي صلّى الله عليه وسلّم وشرحت قلوب الكثيرين للإيمان فدخلوا في دين الله أفواجا يقول (أدونيس) "غير أنّ دهشة العرب الأولى، إزاء القرآن، كانت لغويّة. فقد افْتُتنوا بلغته-جمالاً، وفنّاً.وكانت هذه اللغة المفتاحَ المباشر الذي فتح الأبواب لدخول عالم النصّ القرآني، والإيمان بدين الإسلام. "[2]، هذه الكتابة الفريدة لم تكن بلغة يجهلونها بل جاءت بلغة عربية فصيحة يعرفونها كما يعرفون أنفسهم، لكنّها تجلّت في النص القرآني بثوب جديد باهرٍ وبروح فاتنة، وإذا كانت عقولهم علمت علم اليقين أن لغة القرآن هي لغتهم العربية فإنّ سرائرهم كانت تهمس مرتابةً (كأنّها هي)، ولذلك يرى (أدونيس) أنّ العرب في عصر النبوة لم يدركوا ما جاء في القرآن من أسرار و معجزات علمية و نظام تشريعي للحياة وهو ما يعني أنّهم آمنوا به بسبب الإعجاز اللغوي الذي أتى به،فقد كان تواصل العرب الأول مع القرآن تواصلاً لغوياً تعبيرياً، لقد أسرتهم لغته فغيّرت كيانهم وحياتهم وارتبطوا به وبلغته ارتباطاً يكاد يكون التحاماً " تماهوا معه- لغةً وتعبيراً، فصار هو نفسه وجودَهم. كأنّ اللّغة هنا هي الإنسان، لا بوصفها أداةً تصل بينه و بين العالم، بل بِوصفها ماهيّةً له."[3]، وهذا أمرٌ منطقي لأنّ العربي في الجاهلية لم يكن ذا رصيد معرفي وعلمي يمكّنه من استيعاب ما جاء في القرآن كلّه،فلا يمكن لذلك العربي الذي يعيش حياةً بسيطة وعلى الفطرة أن يصل إدراكه المتواضع إلى فهم ما جاء به القرآن من نظام جديد للحياة و منهاج ينظّم علاقة المسلم بربّه وبأخيه وبالآخر، لكن هذا العربي وبفضل علاقته الفريدة بلغته كان يستطيع إدراك القول البليغ واللفظ الفصيح و الأسلوب الغريب....الخ.

لم يقتصر تأثير النص القرآني على الجانب اللغوي، لقد جاء أيضاً برؤية جديدة للحياة تهدمُ ما كان سائداً ومألوفاً وأتى بقيم ومفاهيم لم يعرفها العرب من قبل، لقد أحدث هزّةً شديدة في عقل العربي ووجدانه وتحوّلت حياته من أيّام رتيبة مغلقة على نفسها إلى حياة منفتحة

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 20

[2] المصدر نفسه ، ص 21-22

[3] المصدر نفسه ، ص 22

تدعو إلى التأمّل والكشف وترقب الجديد والمختلف حياة مليئة بالحراك على جميع المستويات "لم يكن القرآن رؤية أو قراءة جديدة للإنسان والعالم وحسب، وإنما كان أيضاً كتابةً جديدة.وكما أنّه يمثّل قطيعة مع الجاهلية ، على مستوى المعرفة ، فإنّه يمثّل أيضا قطيعة معها، على مستوى الشكل التعبيريّ. هكذا كان النّص القرآني تحوّلاً جذرياً وشاملاً:به وفيه، تأسّست النّقلة من الشفوية إلى الكتابة،- من ثقافة البديهة والارتجال، إلى ثقافة الرؤية والتأمّل، ومن النظرة التي لا تلامس الوجود إلاّ في ظاهره الوثنيّ، إلى النّظرة التي تلامسه في عمقه الميتافيزيائي، وفي شموله – نشأةً، ومصيراً، ومعاداً."[1].

لا يخفي (أدونيس) انبهاره بهذا النص المعجز،بلغته وأسلوبه، بكتابته الفريدة التي تعجزُ كلّ معايير الأنواع الأدبية أن تجد له اسماً، لأنّه النص الوحيد الذي يؤسس لمعاييره الخاصة به وهو الكتاب الاسم النابع منه " أي أنّ **الكتاب** هنا اسمٌ إلهيٌّ، أو هو اسمه لغةً وكتابةً ومعنى ذلك أنّه مطلق: لا يُدرك معناه، ولا يَبدأُ ولا ينتهي.وهو،بوصفه مطلقاً يتجلّى في زمانٍ ومكانٍ، متحرّكُ الدلالة، مفتوحٌ بلا نهاية.إنّه الأبديّة المتزمّنة.إنّه ما وراء التاريخ الذي نستشفّه ونقرؤه عبر التاريخ."[2]، إنّه نصّ معانيه بحرٌ عميق لا قاع له، يجري نهره بالجمال الأبديّ المتجدّد، نهرٌ إذا علمت بعضُ منابعه فإنّ أكثرها لم يدركها بعد العقل البشري،نصٌ لا يحقّقُ مبادئ الحداثة وحسب،بل يتجاوزها فهو ملهمٌ لنصوصٍ تجلّت فيها الحداثة بامتياز ولا يزال إلى يومنا هذا تستلهم منه الأشعار إبداعاتها،وهو ما يشير إليه (أدونيس) بعد أن يستعرض أهمّ الدراسات الأدبية التي اهتمّت بالنص القرآني وكشفت عن بعض إعجازه يقول "يتجلّى لنا، في ضوء ما تقدّم، أنّ جذور الحداثة الشعريّة العربيّة، بخاصة، والحداثة الكتابيّة، بعامّة، كامنة في النصّ القرآني، من حيث أنّ الشعريّة الشفويّة الجاهليّة تمثل القدم الشعريّ، وأنّ الدراسات القرآنيّة، وضعت أسساً نقديّة جديدة لدراسة النصّ، بل ابتكرت علماً للجمال، جديداً، ممهّدة بذلك لنشوء شعريّةٍ عربيّة جديدة."[3]، لقد ولّدت الكتابة القرآنية تذوّقاً فنّياً جديداً للغة وأسّست لممارسة كتابيّة جديدة تجلّت في الكتابات الشعرية والنقدية والصوفية، ومن الشعراء الذين تأثّروا بهذه الدراسات القرآنية يذكر(أدونيس) (مسلم بن الوليد) و(بشّار بن برد) و(أبا نوّاس) و(أبا تمّام) ويوجز في خمسة مبادئ عامة تجلّيات الحداثة التي أسّس لها النصّ القرآني وهي :

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 35-36

[2] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 29-30

[3] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 50-51

"أوّلاً – مبدأ الكتابة دون احتذاء نموذج مسبق."[1]، فعلى الشاعر أن يؤسّس لنص شعري جديد خاص به لا يحاكي نموذجًا آخر وهو بذلك يفتح أفقاً جديداً للتعبير و لا يتأتّى له ذلك إلاّ إذا تميّز برؤية جديدة وتجربة فريدة وموهبة فذّة وهذا ما ظهر عند (أبي نوّاس) .

"ثانيا – اشتراط الثقافة العميقة الواسعة لكلٍّ من الشّاعر والناقدً."[2]، وذلك من أجل تأسيس كتابة جديدة وهذا يعني أنّ العلم باللغة والبداهة والطبع لا تكفي وحدها.

"ثالثاً – النّظر إلى كلّ من النّص الشعري القديم ، والنّص الشعري المحدث ، في معزلٍ عن السَّبق الزمني أو التأخر،وتقيم كلّ منهما بحسب جودته الفنية في ذاته."[3] ، وهو المبدأ الذي أخذ به الكثير من النقّاد في تراثنا النقدي ، حيث جعلوا معيار الجودة الفنية هو المعيار الوحيد .

"رابعاً –نشوء نظرة جماليّة جديدة– فلم يعد الوضوح الشفويّ الجاهلي معياراً للجمال والتأثير،بل صار هذا الوضوح يُعدّ على العكس، نقيضاً للشعريّة،كما يراها **الجرجاني**."[4]،وهو تحوّل جذري في الشعرية العربية التي تأسّست على المعنى المسبق والوضوح الذي صار عند(عبد القاهرالجرجاني) لا يعبّر على الشعرية،التي أمست تكمن في النص المنفتح على أكثر من دلالة.

"خامساً – إعطاء الأوّلية لحركيّة الإبداع و التجربة ، بحيث يبدو الشعر تجاوزاً دائماً للعاديّ،المشتركِ ، الموروث،..."[5]، وهو ما يعني الاحتفاء بالجديد الذي يتضمّن إبداعاً وتجربة جديدة تفضي إلى نصوص متفرّدة تختلف شكلاً ومضموناً عن النصوص القديمة والمعاصرة لها.

يرى (أدونيس) في النص القرآني، نصاً متفرّداً في ذاته ، ملهماً ولا يزال لنصوصٍ استمدّت منه لغة جديدة ورؤية جديدة، هذا النص المعجز هو الذي فتح آفاقاً للإبداع ،إنّه الباعث الأوّل للحداثة العربية في تراثنا العربي والتي تجلّت في الكتابات الشعرية و النقدية و الصوفيّة "والظاهر أنّ (أدونيس) يجتهد أكثر فأكثر في الإقرار بشاعرية النص القرآني ذاته، لأنه يعتقد أن اللغة القرآنية هي التي ساعدت شعراء الرفض والتأسيس ابتداء من مرحلة التساؤل ومرحلة التحول وصولا إلى مرحلة الرؤيا، في تخطي أنموذج الكتابة الشفوية الجاهلية، أو على الأقل الصياغة على أساس من الاجترار و التنميط."[6] .

---

[1] **أدونيس : الشعرية العربية ، ص53**

[2] **المصدر نفسه ، ص 53**

[3] **المصدر نفسه ، ص 54**

[4] **المصدر نفسه ، ص 54**

[5] **المصدر نفسه ، ص 55**

[6] **حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 154**

2 – 2 – التـــراث و الحداثـــة :

التراث كلمة عربية فصيحة وردت في القرآن الكريم أصلها من مادة وَرِثَ ونقـــول وَرِثَ فلاناً المالَ، ومنه، وعنه،:صار إليه بعد موته ، ويُقال ورِث أباه مالَه ومجـــده أي ورِث عنـــه[1]، وحرف التاء في كلمة تراث أصلها واواً، فكلمة التراث لغةً تعني مـــا يتركـــه المتـــوفى لمـــن يرثونه،لكن اكتسبت هذه الكلمة بمرور الزمن و بطول الاستعمال واختلافه دلالـــةً أعمـــق، ويذهب التعريف الشامل للتراث على أنّه كلّ ما تركه الأوائل للأواخر في حضارة ما من علوم ومعارف و معتقدات و فنون و عمران و.....الخ، وشكّل مفهوم التراث جدلاً واسعاً في الفكر العربي و بخاصة بعد "عصر النهضة" أي بعد اتّصال العرب بالثقافة الغربية، ويركّز الجدل حول مفهوم التراث وكيفية التعامل معه وما جدواه في إخراج المجتمع العربي من حالة التخلّف الـــتي يعيشها ، إضافة إلى علاقة التراث بالحداثة، وهي تساؤلات في غاية الأهمّية ولا نبالغ إذا قلنا أنّ الإجابة عنها هي التي تؤسّس للوجود العربي حاضراً ومستقبلاً، وهذا ما جعل أهمّ الدراســـات العربية الفلسفية والفكرية بعامة تركّز على مفهوم التراث وأثره الخطير علـــى الفكـــر العـــربي المعاصر و على علاقته ببقية الحضارات.

من أهم المفكّرين الذين اهتمّوا بمسألة التراث نجد (محمد أركون) و(حسن حنفي) و (محمد عابد الجابري) الذي يذهب إلى أنّ كلمة "تراث" لم تشهد هذا الاهتمام الكبير في الفكر العربي كما تشهده اليوم ، وهي كلمة ارتبطت بالثقافة العربية حتّى أصبح من الصعب ترجمتها للغـــة أخرى بسبب ما تحمله من دلالات عميقة تخص الوجدان العربي و معتقداته"لعل أول ما ينبغي إبرازه هنا هو أن تداول كلمة "تراث" ، في اللغة العربية ، لم يعرف في أي عصر من عـــصور التاريخ العربي من الازدهار ما عرفه في هذا القرن ، بل يمكن القول ، منذ البداية ، إن المضامين التي تحملها هذه الكلمة في أذهاننا اليوم ، نحن عرب القرن العشرين ، لم تكن تحملـــها في أي وقت مضى. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يمكن أن نلاحظ أن "الإشباع" الذي يتميّز بـــه مفهوم "التراث" في خطابنا العربي المعاصر يجعله غير قابل للنقل ، بكـــل شـــحناته الوجدانيـــة ومضامينه الايديولوجية، إلى أي لغة أخرى معاصرة."[2]، ويعود ذلك أساساً إلى الأهمية الكبيرة التي يشكّلها التراث في الفكر العربي المعـــاصر و إلى التحدّيات التي يواجهها هذا الفكر بعد

---

[1] ينظر ، المعجم الوسيط ، مادة :ورث

[2] محمد عابد الجابري :التراث والحداثة دراسات ..ومناقشات ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان ، ط1، 1991 ، ص 21

التحوّلات الكبرى التي شملت جميع ميادين الحياة، وفي هذا الوضع يضطرّ الفكر العربي المعاصر إلى إعادة النظر في كلّ المفاهيم،وهو ما يتجلىّ في مفهوم التراث في خطابنا الفكري المعاصر والذي يعني الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفنّي وهو مفهوم لم يكن متداولا في الخطاب الفكري العربي القديم ويختلف أيضاً عن مفاهيمه الغربية، هذه الخصوصية الشديدة للمفهوم المعاصر للتراث تجعل من أي دراسة له لا تخرج عن الإطار الفكري العربي المعاصر، ويتّسم مفهوم التراث بخصوصية فرضتها طبيعة الدين الإسلامي واللغة العربية وطبيعة العلاقة الفريدة بينهما، فأغلب موروثنا الفكري مرتبط بالإسلام والعربية ولذلك فمن المستحيل دراسة التراث العربي بمعزل عن الدين الإسلامي وهو ما ذهب إليه (النفيسي) في قوله " فإذا ما انتقلنا إلى تراثنا نحن وموقفنا المعاصر منه فثمة ملاحظة أساسية وهي الالتحام الوثيق بين تراثنا من جهة والإسلام والعروبة من جهة أخرى.وأية محاولة لتصوير تراثنا على أنه مجموع ممارسات(علمانية)لا علاقة لها بالإسلام أو حشدا من الخبرات والتجارب الإسلامية لا علاقة لها بالعروبة، وتسعى للفصل بين الاثنين إنما هي محاولة انفعالية غير علمية، جزئية غير كلية، موقوتة غير دائمة، وطارئة غير أصيلة."[1]،وارتباط التراث بالإسلام واللغة العربية جعل حضوره دائما في الوعي العربي بل ومسيطراً على أي نشاط فكري وموجّهاً له، وهو ما يطرح اليوم أهمّ تحدّي للفكر العربي وهو كيفية التعامل معه، لأنّ هذه الكيفية هي التي تحدّد مسارهذا الفكر بل والوجود العربي في ظلّ التحوّلات الكبرى التي شهدها العالم على جميع المستويات.

من أهم القضايا التي يطرحها (الجابري) هي"علاقتنا بالتراث" وهو لا يدعو إلى القطيعة مع التراث ولكن يدعو إلى تغيير فهمنا له وذلك بالتخلّي عن نوع من الفهم يسمّيه الفهم التراثي للتراث "إن ما ندعو إليه هو : التخلي عن الفهم التراثي للتراث ، أي التحرر من الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث،"[2] ، وعلى رأس هذه الرواسب معيار القياس (النحوي-الفقهي-الكلامي) ، إنّ الواقع الذي يعيشه العربي اليوم هو واقع تحت أفق التراث ، فالذّات العربية اندمجت اندماجاً كلّياً في تراثها فهو المهيمن على التفكير و الموجّه له ، وتحوّل العربي كما يقول (الجابري) إلى "كائن تراثي" عوض أن يكون "كائن له تراث" وهذا ما يفقدُ الفكر حرّيته ويقيّد الإبداع إن لم يقتله و يغيّب الروح النقدية ، وكل هذا يؤدي إلى جمود في الفكر

---

[1] عبدالله فهد النفيسي : التراث وتحديات العصر ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع – الكويت ، ط1 ، 1986 ، ص 14

[2] محمد عابد الجابري :نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان ، ط6 ، 1993، ص21

وتحول الجهاز الثقافي العربي إلى جهاز مستهلك بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى "القارئ العربي مؤطر بتراثه ، بمعنى أنّ التراث يحتويه احتواء يفقده استقلاله وحريته."[1] ، وعلاقة العربي بالتراث تفضي إلى علاقة أخرى هامّة وهي علاقة التراث بالحداثة في المجتمع العربي وهي قضية مركزية في أغلب الدراسات الفكرية العربية اليوم، ومن أهم الأسئلة التي تعالجها هذه الدراسات "كيف نتعامل مع التراث؟" الذي يقول عنه (الجابري)"لا يمكن تقديمه كتابة ومرّة واحدة.إنه من تلك الأسئلة التي تحثّ على العمل لتجديد طرح السؤال كلما حصل تقدم على طريق الجواب.إنه سؤال "الحداثة"، سؤال يندرج تحت إشكالية "الأصالة والمعاصرة" التي تسكن الفكر العربي منذ قرن من الزمان و لم يتمكّن بعد من تجاوزها."[2]، هذا السؤال متلازم مع أسئلة أخرى يضيف(الجابري)أهمها "كيف نتعامل مع عصرنا؟"وكلّ هذه الأسئلة تفرضها مستجدّات عصرية وتطورات هائلة وتحوّلات جذرية طرأت على المجتمع البشري برمّته، جعلت من المستحيل وجود مجتمع لا يتأثّر ببقية المجتمعات أو يؤثّر عليها، والحداثة في نظر (الجابري)"لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسمّيه "المعاصرة"، أعني مواكبة التقدّم الحاصل على الصعيد العالمي."[3] .

تلك مقدمة مقتضبة تبيّن أهمية التراث في الفكر العربي المعاصر وما يثيره من إشكاليات معقّدة لا يزال العقل العربي تائها في البحث عن حلول لها ، ولا نستغرب الحضور البارز لمفهوم التراث في الفكر الأدونيسي ، بل إنّ موقف (أدونيس) من التراث من أكثر المواقف التي أثارت جدلا واسعا في الساحة الفكرية العربية، فالكثير من الآراء إتّهمت (أدونيس) علناً بمحاولة هدم التراث ، لكّنه كان دائما يوضح موقفه من التراث وعن من يزعمون أنّهم يدافعون عن التراث يقول "ماذا يفعل للتراث هؤلاء الذين يدافعون عنه؟ إن كانت المسألة مسألة مباهاة فما من عربي معاصر يقدر أن يقول إنه كشف عن الجوانب المضيئة الحية في التراث العربي ، كما فعلت أنا، أو إنه درسه كما درسته، أو حاول أن يفهمه ككل، في ضوء العصر الحاضر، كما حاولت."[4] ، إنّه يُوجّه الأنظار إلى الدراسات التي قام بها حول التراث العربي ، والتي تمحورت حول مصطلحي الثابت و المتحوّل في نتاج العرب الفكري و الأدبي ، والثابت عند(أدونيس)

---

[1] محمد عابد الجابري :نحن والتراث ، ص 22

[2] محمد عابد الجابري :التراث والحداثة ، ص 10

[3] المرجع نفسه ، ص 15-16

[4] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 244

في ثقافتنا العربية هو الفكر الذي يستند إلى النص وبما أن هذا النص ثابت فإن هذا الفكر يتخذ ذلك حجة لثبات فهمه وتقويمه ويفرض نفسه كمعنى صحيح أبدي لهذا النص ويرفض أي فكر آخر مغاير، أما المتحوّل فهو فكر ينهض على النص لكن بتأويل يعطي حرّية للنص في التجدد والتأقلم، أو هو فكر لا يعتمد النص كمرجعية وإنما يعتمد على العقل،لا النقل[1] ، وإن كان (أدونيس) يشير إلى أن الثبات والتحول مفهومان نسبيان .

يتّهمُ (أدونيس) من يدّعون الدفاع عن التراث، بعدم فهمه لأنّهم يقرؤونه قراءة سطحية بعيدة عن التأمّل العميق والفحص الدقيق والشامل، إنّه لا يرفض التراث والدليل أنّه لم يحتضنْ أديبٌ الشعر العربي كما احتضنه لكنّه يُميّز بين جزء من التراث لم يعد يجيب عن تساؤلات الحاضر والمستقبل وجزءٍ آخر ينطوي على عناصر إبداعية تسهم التجارب العربية الحديثة "إنني أميز، في التراث بيمن مستويين: مستوى النظام الذي ساد أو الثقافة التي سادت،ومستوى المحاولات التي قامت لتجاوز هذا النظام أو هذه الثقافة.المستوى الأول أسميه اتباعياً، بشكل عام.والمستوى الثاني أسميه إبداعياً، بشكل عام أيضاً،إذ أن فيه جوانب اتباعية كثيرة."[2]، ويبيّن ذلك بإطلاق مصطلحي السطح والغور على هاذين المستويين، فالسطح يمثّل كلّ المواقف والأفكار المرتبطة بالحدث التاريخي أي الزمن الفيزيائي والتي تزول بزواله، بينما يمثّل الغور تلك التجارب التي تسعى إلى التغيير وتتمثّل في التيارات المتمرّدة على الوضع السائد، يقول (أدونيس) بعد أن يطرح السؤال هل الحداثة خروج على التراث؟ "يجب أن نميّز في التراث بين مستويين:الغور والسطح. السطح هنا يمثّل الأفكار والمواقف والأشكال.أمّا الغور فيمثّل التفجّر، التطلّع، التغيّر، لذلك ليست مسألة الغور أن نتجاوزه بل أن ننصهر فيه.لكن ، لا نكون أحياء مالم نتجاوز السطح.ذلك أن السطح متصل بالوقائع والفترة الزمنية، أي بتجربة تاريخية معينة، بينما يتصل الغور بالإنسان كإنسان.الغور مطلق ، أما السّطح فتاريخي."[3].

لا يختارُ (أدونيس) من التراث إلاّ ما يوافق رؤيته الخاصّة وهذا ما انعكس على تحديده لمفهوم التراث، فالتراث عنده ليس كلّ ما تركه الأوّلون لنا إنّه فقط ذلك النتاج الذي يستجيب لمقتضيات الحداثة، والذي يُسهمُ في دفع حركة التغيير في المجتمع العربي الرّاهن ويضيءُ الطريق التي تؤدّي إلى المستقبل الجديد " التراث ليس الكتب والمحفوظات والإنجازات التي نرثها عن

---

[1] ينظر أدونيس : الثابت والمتحول ، ج1– الأصول ، ص 13– 14

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 273

[3] أدونيس : زمن الشعر ، ص 169– 170

الماضي،وإنما هو القوى الحية التي تدفعنا باتجاه المستقبل."[1]، إنّها الحداثة الأدونيسية التي تضفي على المفاهيم المألوفة طابعاً جديدا خاصاً غير مألوف، فالتراث لا يُقرأ قراءةً عادية وإنّما قراءة جديدة أو لنقل قراءة حداثية فيتحوّل بذلك هذا التراث إلى تلك التجارب الإبداعية التي احتضنها الماضي والتي ما تزال تشعّ بنورها الخلاّق الدائم"فالتراثُ ليس النتاج كله الذي أُنتج في الماضي ، وإنما هو الطاقة الابداعية التي تجسّدت في مُنجزات لا تُستنفد- بل تظل فعالة، متوهجة ، وجزءاً من حركية التاريخ."[2] .

إنّ موقف (أدونيس) من التراث موقف انتقائي، يختار من التراث ما يتوافق مع فكره واتجاهه ومنطلقاته ويرفض منه لا يعكس ذلك، هذا الموقف أثار حوله الكثير من الانتقاد و اتّهم بأنّه يقرأ التراث قراءة غير موضوعية " لم تكن قراءة أدونيس للتراث قراءة حيادية أو موضوعية، إذ كان الوصول إلى فهم الجوانب التراثية مرتبطا بجانب أيديولوجي حرص أدونيس على عدم إظهاره،"[3]، هي قراءة كما يقول البعض لم تكن شاملة واقتصرت على النتاج الفكري المخالف للنظام السائد والذي لا يكون بالضرورة إبداعيا أو أفضل ممّا هو سائد،كما أنّ التأويل الذي اعتمده (أدونيس) هو تأويل موجّه مسبقاً يعزّز أفكار (أدونيس) وفرضياته.

إنّ هذا الموقف جعل (أدونيس) يقع تحت طائلة الاتّهام بمحاولته هدم التراث و التشكيك في قيمه الثابتة، وربما يعود ذلك ليس فقط من موقفه ولكن من عدم فهم هذا الموقف واستيعابه من طرف الكثير هذا من جهة ومن جهة أخرى بسبب علاقته بالثقافة الغربية التي يرى الكثير أنّها أثّرت على الكثير من مواقفه وهي ثقافة لا يمكن اعتمادها كمرجعية للحكم على التراث العربي، وإن كان للثقافة الغربية أثر واضح على مواقف (أدونيس)، فإنّه لا يمكن إلغاء الاجتهاد الشخصي له وأيضا تأثره بالتراث العربي ذاته في بلورة الكثير من هذه المواقف، فكلّ هذه الروافد شكّلت لـ(أدونيس) رؤية خاصة جعلته غير راضٍ على الدراسات العربية المعاصرة التي تعرّضَت للتراث العربي فكلمة "التراث" عنده مصطلح مبهم"والانطلاق من مصطلح مبهم لا يؤدي إلاّ إلى الأحكام المبهمة.خصوصاً أن "التراث" كمّ متناقض، ولا يمكن تقويم الكم المتناقض، ككل. لذلك أفضل، في دراسة ماضينا الثقافي، استخدام عبارات محددة كالفكر العربي،والشعر العربي...الخ ، على أن يكون واضحاً أننا نقصد مفكرين محددين، وشعراء

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 244

[2] أدونيس : كلام البدايات ، ص 145

[3] عصام العسل : الخطاب النقدي عند أدونيس قراءة الشعر أنموذجا، ص 20

محددين. فالفكر أو الشعر ، لا يقيَّم في المطلق.وإنما يُقيَّم نتاج معين لمفكر معين أو لشاعر معين."[1]،وسواء كان هذا المنهج في دراسة التراث قد استمدّه (أدونيس) من المناهج الغربية أو نابعاً من رؤية خاصة، فإنّه طريقة موضوعية تستند إلى تفكير عقلاني ومنطقي، فالتراث كم هائل من المعارف والتجارب المتنوعة والمتناقضة أحياناً ولا يمكن أن ننظر إليها كنظام معرفي متجانس وندرسه على أساس هذه الرؤية.

مسألة التراث كما يشير (أدونيس) ليست قضيّة مستحدثة عند العرب، إنّه ظاهرة عند جميع الشعوب التي تمتلك حضارات وفي كلّ الأزمنة ولقد طُرحت مسألة التراث قديماً عند العرب في العصر الأموي تحديداً بعد التقاء الفكر العربي- الإسلامي بفكر الأمم الأخرى، وأُطلق على الفكر العربي آنذاك مصطلح "الأصيل" وعلى الفكر الأجنبي مصطلح "الدخيل"،وفي عصرنا الراهن بعد التقاء الفكر العربي بنظيره الغربي عادت مسألة التراث لتطرح بقوة في الساحة الفكرية العربية لكن من خلال دراسات عربية معاصرة اتّبعت نفس مسار الدراسات القديمة رغم تغير الظروف تغيراً جذرياً "إن الدراسات الحديثة حول التراث تتحرك في قفص من الأفكار المسبقة، الجاهزة. وهي أفكار تَلْفيقية، وتوفيقية.ذلك أنها تستعيد الكتابات التي كتبت حول "الأصول"- بأسئلتها وأجوبتها، ولا تطرح على "الأصول" أسئلتها الجديدة الخاصة."[2]، وهو بهذا الرأي يدعو إلى إقامة دراسات فكرية حول "الأصول" في أفق المتغيرات الجديدة تختلف كلّياً عن الدراسات السابقة، أي يدعو إلى إعادة قراءة التراث وإعادة تأويل النصوص،هذه الدراسات الجادّة مفقودة في الفكر العربي المعاصر وإن كان (أدونيس) يقرّ بوجود بعضٍ منها لكنّها عُزلت وهُمّشتْ في ظلّ هيمنة القراءة السائدة التي تتكئ على ثقافة الفقهاء كما يقول وهي ثقافة تكرّس سلطة النص وتهمّش الرأي وتلغيه، مسائلة هذه السلطة في غاية الصعوبة وهي في الوقت نفسه القضية الجوهرية التي يجب أن يبحثها الفكر العربي المعاصر،لكن (أدونيس) يقول" لا أجرؤ على القيام بهذه المساءلة، ولا أجد عربياً واحداً يمتلك هذه الجرأة، وهذا يعني أنني أعترف بتعطيل فكري.ومع ذلك فإنني أجد نفسي أفضل حالاً من أولئك الذين "يُلغون" هذه المسائلة أو "يعلقونها"- ويبحثون في ما نتج عنها."[3]، إنّه موقف جريء يدعو إلى إعادة تأويل النصوص والتي لا تخرج عن إطار القرآن والحديث.

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 210

[2] أدونيس : كلام البدايات ، ص 133

[3] المصدر نفسه ، ص 135

كثيراً ما يتحدث(أدونيس) عن"الأصول"دون أن يستطرد في وصفها كما يقول (الغذّامي)"يكتفي أدونيس بترداد مصطلحات الأصل والتأصيل والائتلاف ومن داخله الاختلاف،ويسمي القرآن الكريم والحديث النبوي بوصفهما أصلين،كما يسمي الشعر الجاهلي وشعراء من الأمويين والعباسيين،بوصف الجميع من أهل(الأصل).ولكنه يسمي دون أن يصف."[1]،ويذهب(الغذّامي) إلى أنّ عدم تعريف (أدونيس) لمصطلح "الأصول"كان متعمّداً، كي لا يخاطر في الوقوع في تعريف غير متّفقٍ عليه "لهذا يكون الحديث عن (الأصل)كمسمى دون توصيف هو لجوء إلى الذاكرة الجماعية المتفق عليها، ومن هنا فقط يأتي التطمين ويأتي الاحتماء.وهذا لن يتحقق لو غامر أدونيس فوصف هذا الأصل بوصف جدلي غير متفق عليه مما يؤول إلى تفريق، بينما كان الهدف هو توحيد الحس الاستقبالي وتجميعه وتطمينه."[2]. لا اختلاف في الساحة الفكرية العربية حول أهمية دراسة التراث باعتباره الأساس المرجعي للحضارة العربية – الإسلامية ويبقى الاختلاف على طرق الدراسة والمواقف إزاءه وكيفية التعامل معه في أفق العصر الراهن وما يحمله من تحديات للمجتمعات العربي .

من القضايا التي تمحورت حولها الدراسات الفكرية علاقة التراث بالحداثة وقد تناولها (أدونيس) بعمق،فهي قضية جوهرية لا يمكن تجاوزها والحداثة الأدونيسية لا تدعو إلى قطيعة جذرية مع التراث فالإبداع يشكّل رابطة وصل بينهما لا يمكن قطعهُ "ولئن كان الإبداع فيما وراء القدامة والحداثة، فلا يمكن أن تكون قطيعة بين الحداثة والقدامة، عُمْقياً، وإنّما يكون بينهما فرقٌ."[3]،ويتجلّى هذا الفرق في استخدام العناصر القديمة استخداماً حديثاً وفي الظروف المرتبطة بالعصر وفي الرؤية والرؤيا،إنّ النص الأدبي الحداثي،لا ينشأ من فراغ،بل هناك دائماً ما يربطه بتراثه، و الفرق الذي تُحدثه الحداثة قد يتّسع مضمونه ويعمُقُ ويتعقّدُ إلى مستوى يوشكُ فيه أن يحجبَ الماضي ويُرسّخَ الحاضر، فيُخيّلُ للبعض أنّ هناك انقطاع مع التراث ورفضٌ له "وربّما كان هذا الحجب في أساس ما يدفع بعضهم إلى الكلام على"الرفض" و"الانقطاع"،ذلك أنّ هؤلاء لا يدركون سرّ الابداعيّة وسرّ حركيّتها،فهم أسرى المظهر الخارجي الذي يخضع للرؤية المباشرة التي توجّهها الأهداف والصالح المباشرة السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة."[4]،إنّ

---

[1] عبد الله الغذّامي: تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء–المغرب ، ط2، 2005 ، ص 195

[2] المرجع نفسه ، ص 197

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 98

[4] المصدر نفسه ، ص 99

المغايرة التي تنتجها الحداثة توحي للذاكرة الجماعية أنّها تمثّل رفضاً مطلقاً لكلّ ما هـــو قـــديم وانقطاع جذري عنه ، والحقيقة التي لا يمكن تجاوزها هي أنّ وجود الحداثة مرهـــون بوجـــود التراث وهو ما يؤكده (أدونيس) حين جعل الحداثة والقدامة متلازمين في أي مجتمـــع وفي أيّ زمن، والحداثة العربية هي النجوم التي أضاءت سماء تراثنا العربي ، وهي اليوم تستمدّ من هـــذا التراث ما يضمن استمرارها حاضراً ومستقبلاً "هكذا تضيء الحداثة ماضينا، وتظهره في صورة جديدة.وهي،في الوقت نفسه، تستمد من الماضي قوتها وحضورها.ذلك انها لا تحدث فجـــأةً، فهي حدثٌ له أصوله وتراكماتُه.ولا تهبط من خارج، وإنما تحدث ضمن ما نرثه، وفي اللغة التي نكتب بها. "[1]، إنّه يؤكّد ارتباط الحداثة العربية بتراثها، لأنّ القول بالانقطاع المطلق عن التراث هو نفيٌ لقيم الإبداع فيه أي نفي للحداثة نفسها ، وكما أنّ الحداثة ترفضُ الانقطاع المطلـــق بالتراث فإنّها في نفس الوقت لا تقبلُ بالتواصل الخيطي- السطحي المطلق معه الذي يؤدي إلى التقليد المطلق أي إلى الموت المعرفي والإبداعي والتوقف الحضاري، والحداثة تقتضي إعادة النظر الدائمة في التراث لتُبقي على حضورها الفعّال والذي يُسهمُ في حركة التقدّم والتطوّر بفـــضل طاقته الإبداعية المتجدّدة، و (أدونيس) يركّز دائماً على عنصر الإبداع كحلقة وصل بين الحداثة والتراث "إن الإبداع الجديد متواصل مع الإبداع القديم ، وإن الحداثة نوع من الاستمرار لما في الماضي من الرؤى الخلاّقة.وهذا الاستمرار متناقضٌ مع الاستمرارية التقليدية- الخيطية. فالقول السائد بهذا النوع من الاستمرارية يكشف عن موقفٍ يرى التراث كأنه كبةُ غزْلٍ يلتف علـــى نفسه ، حاملاً خصائص الخيط الواحدِ ، الموحد.وهو موقف يؤكد في زعم أصحابه، على مبدأ الهوية المتواصلة ، الواحة."[2]

يُواصل (أدونيس) توصيف وتفسير تلك العلاقة المركّبة بين الحداثة والتراث ، ومـــن أهـــم العبارات التي وصف بها هذه العلاقة تلك العبارات التي تجمع بين المتناقضات مثل (الانقطاع- الاتصال)،(التجاوز- التأصل)،(الاختلاف-الائتلاف)،وهذا يعني أنّ الحداثة ترتبط بعناصر من التراث وتنفصل عن عناصر أخرى منه، ترتبط بالعناصر الخلاّقة فيه وبالتجارب الابداعية الـــتي ينطوي عليها وذلك كي تضمن حضورها وخصوصيتها في العصر الراهن، إنّهـــا تتجـــذّر في الماضي العريق كي تضمن أصالتها و لا تحـــاكي حداثة الغرب، إنّها اتّصـــال بعمق التـــراث

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 151

[2] المصدر نفسه ، ص 154

وانقطاعٌ عن سطحه هذا الاتصال يقتضي أن تبقى معرفة الماضي مفتوحة دائماً لتستمدّ منها الحداثة الطاقة الخلاّقة التي تعبُرُ بها إلى المستقبل، لكن على الحداثة أن تتجاوز الماضي لأنّها لا تعيدُ ما في التراث ولا تحاكيه إنّها اختلافٌ في ائتلاف"الاختلاف من أجل القدرة على التكيف، وفقاً للتغيرات الحضارية ، والائتلاف من أجل التأصل والمقاومة، والخصوصية."[1].

من القضايا التي تناولها (أدونيس) علاقة الشاعر العربي الحديث بتراثه وتحديداً كيفية تعامل هذا الشاعر مع تراثه،وهو يؤكّد على أنّ الشاعر المبدع لا يمكن أن ينفصل عن تراثه انفصالاً مطلقاً ولكن نوعاً من الانفصال يتيح له فهم التراث ليستلهم من تجاربه الخلاّقة فكراً إبداعياً يجعل منه قاعدةً أساسية ومنطلقاً لتجاربه الشعرية الحديثة، وإذا كان تراثنا العربي المكتوب غنيّاً بالتجارب الابداعية فإنّه "لا يصحّ أن يكون، بالنسبة إلى المبدع،أكثر من أساس ثقافي يؤكد به التجاوز والتخطي لا الانسجام والخضوع.إن رؤيا الشاعر المبدع لا تكمل القِيم والقواعد، أياً كانت،وإنما تتجاوزها.إنها أغنى منها، وأشمل وأسمى."[2] .

يتضمّن التراث الشعري العربي الكثير من القيم التي تندرج في ما يسمّيه (أدونيس) الثبات والتي تشكّل بعضٌ منها المفهوم القديم للشعر، على الشاعر الحديث تجاوز هذه القيم وذلك بالتعامل مع مفهوم حديث للشعر ولا يتمّ هذا إلاّ بالثورة على الثقافة التقليدية السائدة في الساحة الشعرية ليس بغرض الانقطاع عن التراث ولكن استجابة لمتطلبات الحداثة ومواكبةً للعصر"من البداهة أن الشاعر العربي المعاصر لا يكتب في فراغ،بل يكتبُ ووراءه الماضي وأمامه المستقبل، فهو ضمن تراثه ومرتبط به.لكن هذا الارتباط ليس محاكاة للأساليب والنماذج التقليدية، وليس تمشياً معها، ولا بقاء ضمن قواعدها ومناخها الثقافي-الفني-الروحي.فليس التراث عادة في الكتابة ، أو موضوعات طرقت ومشاعر عُونيت وعبّر عنها، وإنما هو طاقة معرفة وحيوية خلق ، وذكرى في القلب والروح."[3] .

إنّ ارتباط الشاعر العربي اليوم بتراثه يجب أن يتجلّى في شكلين، فهو ارتباط خلق وإضافة واستباق ويقصد (أدونيس) أن يبدع الشاعر العربي اليوم كما أبدع أسلافه كي يشكّل شعره إضافة للرصيد الشعري العربي، ومن جهة أخرى ارتباط تقابل وتوازي وتضاد، فالشاعر العربي عليه أن يكتب شعراً لا يحاكي شعر أسلافه أو على الأقلّ يجب أن تكون نقاط التوازي أكثر

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 326

[2] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 95-96

[3] أدونيس : زمن الشعر ، ص 45

من نقاط التلاقي، ويجتهد (أدونيس) بتحديد علاقة الشاعر العربي بتراثه وذلك بوضعه مخطّطاً يرتكز على ثلاثة أسس :

"الأول، هو أن الشاعر العربي الحديث، أيا كان كلامه أو أسلوبه ، وأيا كان اتجاهه إنما هو تموّج في ماء التراث، أي جزء عضوي منه ، وذلك لسبب بدهي هو أن هويته الشعرية، كشاعر عربي، لا تتحدد بكلام أسلافه ، مهما كان عظيما ، وإنما تتحدد بكونه يصدر عن اللسان العربي ،مفصحا عن هذه الهوية بكلام عربي."[1]،فالشاعر العربي الحديث اليوم سيندرج شعره مستقبلاً ضمن التراث العربي لأنّ لغته العربية تفرض ذلك هذا من ومن جهة أخرى لا يمكن لأيّ شاعر عربي اليوم أن يكتب شعراً منفصلاً عن تراثه فهذا ضرب من المحال فالشعر لا يُخلق من عدم ، أمّا التموج فيُقصد بها الحركة الابداعية لهذا الشعر ومغايرته لما سبق ، لأن الإبداع يمثل الحركة والتقليد يمثّل الثبات والركود ، أمّا من يرون في بعض الشعر الحديث أنّه يهدم التراث فهو قول لا أساس له، وإنما هذا النوع من الشعر يهدم صورةً للتراث في أذهانهم.

"الثاني ، هو أن الشاعر العربي الحديث، من حيث أنه تموج، هو تواصل في المد الشعري العربي ، حتى حين يكون ضدِّياً."[2]، على الشاعر العربي الحديث أن يسهم في حركة الشعرية العربية، ولا يتحقق ذلك إلا بإنتاج شعرٍ مغايرٍ شكلاً ومضموناً ، لأنّ التواصل الحركي لا يتجسّد بشعر يكتبُ في إطار التراث فهذا الشعر يرسّخ الجمود، بينما الشعر الحديث المغاير هو الذي يُفعّل الحركة الشعرية العربية حتّى ولو تخيّل البعض أنّه يهدم التراث الشعري العربي.

"الثالث، لا يمكن هذا التواصل أن يكون فعالاً يغني الإبداع الشعري العربي إلا إذا كان، كلحظة خاصة من الممارسة الابداعية، انقطاعاً عن كلام الشعراء الذين سبقوه."[3]، وهو تأكيد لما سبق قوله فالانقطاع هنا تفرضه الحداثة كضرورة قصوى لتعطيل آلة التقليد التي تستنسخ شعر التراث وتفعيل آلة الإبداع والخلق التي تمكّن الشعر العربي من النمو عمودياً.

تمكّن (أدونيس) بعد قراءاته الواسعة للتراث العربي أن يكتشف حداثةً تضمّنها هذا التراث، و لم يصلْ إلى ذلك إلاّ بعد اتّصاله بالثقافة الغربية ونظامها المعرفي وبعد أن تمكّن من تأسيس جهاز معرفي خاص به " أحبّ هنا أن أعترف بأنّني كنت بين من أخذوا بثقافة الغرب. غير أنني كنت،كذلك، بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلّحوا بوعيٍ ومفهوماتٍ

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 15-16

[2] المصدر نفسه ، ص 16

[3] المصدر نفسه ، ص 16

تمكّنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة، وأن يُحقّقوا استقلالهم الثقافي الذّاتي. وفي هذا الإطار، أحبّ أن أعترف أيضاً أنني لم أتعرّف على الحداثة الشعرية العربيّة ، من داخل النّظام الثقافي العربي السائد ، وأجهزته المعرفيّة."[1]،فقراءته للشعر الفرنسي والأدب عموماً هي التي قادته إلى اكتشاف حداثة(أبي نواس)و(أبي تمام) وإلى حداثة التجربة الصوفية وإلى الحداثة النقدية عند (عبد القاهر الجرجاني)،إنّ الحداثة الأوربية هي التي دلّته على الحداثة في تراثنا العربي،وهو بذلك يؤكد على عجز النظام المعرفي العربي حتّى على قراءة تراثنا قراءة استكشافية.

من خلال استنطاق (أدونيس) للتاريخ العربي يرى أنّ الحداثة العربية ظهرت سياسياً مع بداية الحكم الأموي وفكرياً مع انتشار حركة التأويل للأصول يقول "إن الحداثة في المجتمع العربي بدأت موقفاً يتمثّل الماضي ويفسّره بمقتضى الحاضر.ويعني ذلك أن الحداثة بدأت، سياسيّاً، بتأسيس الدولة الأموية، وبدأت فكرياً، بحركة التأويل."[2]،ويعود ذلك أساساً إلى التقاء الثقافة العربية بثقافات أخرى مختلفة تحمل الكثير من التساؤلات وهو ما اضطرّ العقل العربي إلى التعمّق والبحث في عقيدته للإجابة عنها ومواجهة كلّ اتّجاه مشكّك في مرجعيته، وكثيراً ما تفضي الإجابات إلى ضرورة تغيير بعض الأوضاع السائدة،لكن عادةً ما يواجه هذا الحراك الفكري والاجتهاد العقلي والرغبة في التغيير تصلّب النظام القائم على السلفية والمتمثّل في الخلافة، هذا الصّراع اشتدّ في العهدين الأموي والعبّاسي ونتج عنه ظهور تيارين للحداثة.

"الأول سياسي-فكري ويتمثّل من جهة، في الحركات الثورية ضد النظام القائم،بدءاً من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مروراً بالقرامطة والحركات الثورية المتطرّفة.ويتمثّل، من جهة ثانية،في الاعتزال والعقلانية الإلحادية،وفي الصوفية على الأخص."[3]، وسعى هذا التيّار باتّجاهيه السياسي والفكري إلى محاربة التمييز بين فئات المجتمع المسلم ودعا إلى المساواة سياسياً واقتصادياً وإلى إلغاء الحكم الوراثي وكلّ هذا يصبّ في تغيير الأوضاع السائدة بجميع وجوهها.

"أما التيار الثاني ففني، وهو يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية، كما عند أبي نواس، وإلى الخلق لا على مثال، خارج التقليد وكل موروث ، كما عند أبي تمام."[4] ،وهو تيار يحاول أيضاً هدم النظام المعرفي السائد الذي يرى في فن السلف والشعر بخاصة، النموذج الأرقى الذي يجب

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص86

[2] أدونيس : الثابت والمتحول،ج 4 -صدمة الحداثة ، ص 05

[3] المصدر نفسه ، ص 06

[4] المصدر نفسه ، ص 06

أن يحاكيه أي شاعر، هذا التيّار سعى إلى التأسيس لكتابة شعرية ليس على منوال الأوائل يراعي فيها مستجدّات العصر – وبخاصة الحياة المدنية–، وتعبّر عن رؤيا مختلفة للكـــون وللوجـــود ، جوهرها الإبداع والخلق ووسيلتها اللغة التي يمكن تشكيلها كما تشاء عبقرية الشاعر وهو مـــا عبّر عنه «أدونيس»قائلاً "إن الحداثة الشعرية العربية نشأت في مناخ أمرين مترابطين : اكتنـــاه اللحظة الحضارية الناشئة، واستخدام اللغة– أي التعبير بطريقة جديدة يتيح تجسيداً حياً وفنيـــاً لهذا الاكتناه."[1]، ولا شكّ أنّ هذا التحوّل في الكتابة الشعرية ناتجٌ عن التحوّل في الحياة العربية التي عرفت التمدّن وتفاعلت مع الحضارات الأخرى،ولا ننسى أيضاً الدراسات القرآنية الـــتي لعبت دوراً مهمّاً في هذا التحوّل.

من النماذج الشعرية للحداثة العربية التي تعرّض لها (أدونيس) نجد (بشّار بن برد) الذي يرى فيه (أدونيس) من أهم الشعراء الذين يمثّلون الحداثة الشعرية العربية ، فهو أوّل من خرج علـــى (عمود الشعر العربي)، ولا غرابة إن وصفه القدماء بأنّه (قائد المحدثين) "كان بشار بـــن بـــرد (168هـــ./785م.) ،على صعيد الكتابة الشعرية الوجه الأول ، الأكثر بروزاً لهذه الحداثة ، فهو يُعدُّ أول المحدثين ، بالمعنى الإبداعي، ممن خرجوا على ما سمي بـــ"عمود الـــشعر العـــربي" "[2]، ويرى (أدونيس) أن هذا الشاعر أعطى للغة أبعاداً مجازية لم تؤلفْ في الشعر العربي مـــن قبـــل أفضتْ إلى أبعاد جديدة في محتوى هذا الشعر إلى درجة أنّه رفض بعض القيم الدينية الـــسائدة وسعى إلى ثقافة المتعة الجسدية وهو ما أدّى إلى موته تحت سياط الخلافة ، ويركّز (أدونـــيس) على فكرتين جاء بهما(بشّار بن برد)أولاهما تؤكّد على ضرورة إعادة النظر في كلّ ما تجود به قريحة الشاعر وهو بذلك يرفض نظرية الطبع ، وثانيهما يرى أنّ الشعر عملية بحث مـــستمرّة وعلى الشاعر أن يسعى دائماً إلى ابتكار الجديد ، وهما فكرتان من صميم ما تدعو إليه الحداثة.

الشاعر الثاني الذي يمثّل الحداثة –حسب (أدونيس) – هو (أبو نواس) الذي انبهر بتمـــرّده على الأخلاق والدّين وبثورته الجامحة على كلّ القيم الموروثة، هذا الاتّجاه الذي سلكه (أبـــو نواس) في الحياة والقائم على الرّفض والتحرّر من كلّ الشرائع السماوية والأرضـــية والـــذي انعكس بوضوح في شعره ، يرى فيه (أدونيس) أرقى نماذج الحداثة العربية ، وهو بذلك يستند على معايير الحداثة الغربية في دراسته لحالة هذا الشاعر ، فالحـــداثة الغربية هي التي دعـــت إلى

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 325

[2] أدونيس : الثابت والمتحول، 4 صدمة الحداثة ، ص 12

التحرّر من كلّ قيد ديني وأخلاقي واعتماد الفرد أو الذّات كمصدر للإبداع يقول (أدونيس) "إنه الإنسان الذي لا يواجه الله بدين الجماعة ، وإنما يواجهه بدينه هو ، ببراءته هو ، وخطيئته هو. ولعلّه من هذه الناحية ، أكمل أنموذجٍ للحداثة ، في موروثنا الشعري."[1] ،إنّ (أبا نـــواس) كما يضيف (أدونيس) شاعر يؤسّس ولا يرث ويبدأ ولا يُكمل، وهدف الشعر عنده ليس تغييرَ الحياة وحسب ، بل تغييرَ الإنسان أيضاً، إنه يسعى إلى تفجير كلّ طاقـــات الـــنفس البـــشرية المكبوتة "ففي شعره البداية الأكثر غنىً وشمولاً وتنوّعاً لحداثة الشعرية الكتابيّة.فهـــو مقاربـــة معرفيّة للأشياء والعالم والإنسان بحساسية جديدة ، وجمالية جديدة. "[2] ، شكّل (أبو نـــواس) لنفسه عالماً خاصّاً به واستطاع من خلال شعره أن يعيش في حالاتٍ روحية نادرة يتحوّل فيها الوهم إلى يقين والحرّية إلى فضاء لا حدود له ، إنها تجربة بدأت عنده وعنده انتهت.

إذا كان (أبو نواس) انطلق من تجربته الفريدة الخاصة به فإنّ (أبا تمام) انطلق من لغته الخاصة به ليدخل عالم الحداثة العربية ، لقد استطاع أن يفجّر ثورةً فريدةً في اللغة لم يسبقه إليها أحد، وهو بذلك يمثّل تمرّداً من نوعٍ آخر ليس تمرّدا على المجتمع والحياة وإنّما تمرّد على الاســـتخدام التقليدي للغة ، كان وجوده لغوياً يعيش فيه ويشكّل به ما يشاء يقول (أدونيس) "وينطلق أبو تمام (توفي سنة 231هـــ) في تجربته الشعرية من رؤية ترى أنّ الشعر نوع من خلق العالم باللغة، مشبهاً العلاقة بين الشاعر والكلمة بالعلاقة بين عاشقين ، وفعل الشعر بالفعل الجنسي. هكـــذا يقيم علاقاتٍ غير معهودة بين الكلمة والكلمة ، وبين الكلمة والشيء، وبين الإنسان والعـــالم، فيشوّش ((المعنى)) و((اللفظ)) معاً ، ويشوّش المفهوم الموروث ، الشفويّ ، للشعر ذاته."[3]، لقد استطاع (أدونيس) أن يؤسّس لغة شعرية خاصة به جعلن من شعره الفريد غريباً بين النّـــاس ، عجزت أذهانهم عن فهمه فاتّهموه بإفساد الشعر لأنّه لم يحاك من قبله ولكنّه حاكى الإبـــداع الذي تهمس به إليه ذاته الشاعرة ، في شعره عرفت اللغة ميلاداً جديداً ،يفتح الآفاق لكلّ تجربة شعرية واعدة "هكذا اتخذت الحداثة عند أبي تمام بُعداً آخر هو ما يمكن أن نسميه بُعد الخلق لا على مثال ."[4]، تلك أهمّ النماذج الشعرية – وليس كلّها- التي تمثّل الحداثة العربية في التـــراث العربي القديم .

---

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 48

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 52

[3] ا المصدر نفسه ، ص 52

[4] أدونيس : الثابت والمتحول،ج4 – صدمة الحداثة ، ص 17

أمّا في العصر الحديث فيبرزُ الشاعر اللبنـــاني (جبران خليل جبران)كمجدّد أوّل للـــشعر العربي الحديث من المنظور الأدونيسي لقد شكّل نتاجه "ظاهرة من مستوى آخر تتمثل في تجاوز القديم العربي وصهره في قديم أشمل يوناني – مسيحي-كوني، وفي التعبير ،تبعاً لذلك، بطـــرقٍ وأشكالٍ لم يعرفها القديم العربي وأنكرها ((شعراء النهضة)).ومن هنا كان هذا النتـــاج بـــؤرة التمعت فيها دلالات ذات أهمية بالغة في التجربة الشعرية العربية الحديثة ، وفي إرساء مفهـــوم الحداثة."[1]،لقد تمكّن «جبران» ولظروف خاصة (لتكوينه الديني المسيحي واتّصاله بالغرب)، أن يتجاوز الشعر التقليدي ويجعل من شعره رؤيا جديدة وبحث مستمر وكشف عـــن المجهـــول وتطّلع للمستقبل، لقد استطاع أن يؤسّس لمفهوم الحداثة الشعرية العربية في العصر الحديث.

يمثّل التيّار الفكري وجهاً آخر للحداثة العربية في التراث و (أدونيس) في كتابـــه (الثابـــت والمتغير) يكتفي بنموذجين هما الكتابة الصوفية وكتابة (ابن رشد) "أما التيار الفكري فأكتفي، للتمثيل على أهميته في تأسيس الحداثة، بالصوفية، من جهة، وابن رشد، من جهـــة ثانيـــة."[2]، ويعتبر (أدونيس) الكتابة الصوفية من أهمّ النماذج الفكرية التي تمثّل الحداثة في تراثنا العـــربي، والكتابة الصوفية هي لسان حال تجربة ذاتية شديدة الخصوصية ونادرة، عاشت في معزلٍ عـــن كلّ ما يحيط بها ولذلك ظلّت على هامش التاريخ الثقافي العربي "تنبثق المعرفة الـــصوفية مـــن الحضور هنا والآن، وليس من معرفة ماضية.فهذه المعرفة التي تمّت ماضياً، وتأسّست، لم تعـــد قادرةً أن تستجيبَ لهذا الحضور، فهي عامّة وما يقتضيه هذا الحضور يتمثّل في فرادة التجربـــة، وفي زمنيتها المتميّزة.وهذه الزمنيّة هي وقتك أنت ، أي هي ما أنت فيه- ما أَنتَ بوصفك فرداً متميّزاً، في لحظةٍ تاريخيّة متميّزة.فالوقت ، في التجربة الصوفية ، هو ما بين الزّمانين : الماضـــي والمستقبل ، هو ما أنت فيه- هو ((السّيفُ)) أو هو ما ((يَسْحَقك))."[3] ، هذا الانقطاع بـــين المعرفة الصوفية والمعرفة الماضية تفرضه متطلّبات تجربة اللحظة الرّاهنة التي تتميّز بفرادتها وعـــدم ارتباطها بأي تجربة سابقة أو لاحقة، وهو ما يفسّر تفرّد الكتابة الصوفية ، إنّها كتابة إبداعيـــة خلاّقة تصفُ ما لا يمكن أن تصفه لغة منقولة أو مقلّدة "الكتابة الصوفية تجربة في الوصول إلى المطلق ، وهو ما نجده عند كبار الخلاّقين في جميع العصور ." [4] ، و يبقى (النفرّي) من أهـــم

---

[1] أدونيس : الثابت والمتحول،ج4 – صدمة الحداثة ، ص 140

[2] المصدر نفسه ، ص 07

[3] أدونيس : الصّوفيّة والسُّوريالّية ، دار الساقي ، بيروت– لبنان ، ط3 ، 2006 ، ص 116

[4] المصدر نفسه ، ص 156

المتصوفة الذين تأثّر بهم(أدونيس) والـذين يمثّلـون الحداثـة العربيـة في جانبـها الفكـري.

أمّا (ابن رشد) وهو نموذج آخر للحداثة العربية في الفكر العربي" فقد قـصر دور الـدين أو الوحي على تأسيس الفضيلة، وقال إن المعرفة والحقيقة هما من شأن العقل.وفي هذا فتح ابن رشد أمام الإنسان أفق البحث المستمر عن الحقيقة، وعلى المعرفة."[1]،إنّه يتّخذ موقفاً صدامياً مع الفكر السائد، فتهميش الدّين في المسائل المعرفية وتكريس العقل في الوصول إلى المعرفة،موقف مرفوض في الفكر العربي الذي يجعل من الدين هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة.

من نماذج الحداثة التي أشار إليها (أدونـيس) في التـراث، الكتابـة النقديـة لـ(عبـد القاهرالجرجاني) ويعتبره من أهمّ المجدّدين في النقد العربي والمنظّرين للغة الحداثة الشعرية، ويتحدّث عن دراساته المهمّة حول بلاغة النص القرآني ونظرّيته الشهيرة "نظرية النظم" التي تحاول تفـسير بلاغة هذا النص الذي أعجزتْ الأدباء والشعراء، ويشير إلى أنّ (عبد القاهرالجرجـاني) "يقـدّم نقضاً-يكاد أن يكون كاملاً- لمعايير الشعريّة الشفويّة الجاهليّة، ويؤسّس معايير أخرى لـشعريّة الكتابة، يستلهمها من الأفق الكتابيّ الذي فتحه النصّ القرآني."[2]، وهـو مـا يعـني أنّ (عبـد القاهرالجرجاني) من أوّل المؤسّسين للحداثة العربية في مجال النقد الأدبي.

في آخر هذا المبحث إنّ ما يمكن أن نشير إليه هو اعتماد (أدونيس) في تحديد الكتابة الأدبيـة التي تمثّل الحداثة على معيار الاختلاف عن كلّ ما هو سائد، وكذلك معيار التمرّد على الأعراف والقيم الدّينية والأخلاقيّة،وهما معياران قد يؤدّيان إلى أعمال لا صلة لها بالإبداع،كما أنّ التمـرّد على القيم أمر مرفوض لا تتقبّله الروح الإبداعية الحقّة ،وهو لا يمثّل الحداثة الحقيقية لأنّه يـصبح تمرّدًا من أجل التمرّد، أومن أجل خدمة أهداف (سياسية، اقتصادية...) غير بريئة، وما نشيرُ إليه أيضاً هو أنّ (أدونيس) بذل جهداً من أجل تأصيل علاقة الشاعر العربي الحديث بالتراث، ليكون هذا التراث أساساً لانطلاق الشعر نحو غدٍ مزدهر بالإبداع والجديد المُبهر والذي يفتحُ آفاقاً رحبة لتجارب متميّزة لم تُعرفْ في الماضي، هذا الموقف من التراث لم يكن ثابتاً،فـ(أدونيس)كـان في بداياته يسعى جاهداً لتوسيع الهوة بينه وبين هذا التراث،ففي رسالة بعث بها إلى (أنسي الحـاج) عام**1961** م تضمّنت موقفاً متشدّداً من التراث،حيث يقول فيها أن التراث يجـب أن يخـضع لشعرنا وأن حضورنا الشعري هو الذي يهمّنا فهو المركز وما سواه يدور حوله ومنـها التـراث الذي يجب أن نظل في توازٍ معه، وكل ما هو موجود بالوراثة يجب أن يُرفض....الخ [3] .

---

[1] أدونيس : الثابت والمتحول ،ج4 – صدمة الحداثة ، ص 07

[2] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 50

[3] ينظر أدونيس : زمن الشعر ، ص 228 و229

2 – 3 – اللغـــة والحداثـــة :

سبحان من علّم آدم الأسماء كلّها ،وجعل اختلاف ألسنة البشر آيةً من آياته التي لا يحيط بها إنسٌ ولا جان ،و سبحان من أنطق البشر بلغات تولدُ وتنمو وتحيا وتموت كالإنسان ، واللغـــة من لغا بكذا : أي تكلّم به واللغة هي أصواتٌ يعبّرُ بها كلّ قومٍ عن أغراضهم وتُجمعُ على لُغىً ولغاتٍ ويُقالُ سمعتُ لغاتهم أي اختلاف كلامهم[1] ، واللغة في تراثنا ملكة تمكّنُ الإنسان مـــن النطق وهي أصواتٌ يعبّر بها الناس عن أغراضهم وعن وجدانهم وعن معارفهم وعلومهم، وهي تمكّن كلّ شخصٍ من التعبير عن ما يراود نفسه ووجدانه أمّا المفهوم المعاصر للّغة فقد تطـــوّر وتعقّد وبخاصة بعد ظهور اللسانيات كعلم قائم بذاته تفرّعت منه علومٌ تهتمّ بدراســـة اللغـــة البشرية، لكن أغلب المفاهيم تتفق على أن اللغة نظام من الأصوات والرموز ، وهـــي ظـــاهرة اجتماعية يقول (عبد السلام المسدّي) "إن اللغة نظام من الرموز التعبيرية تؤدّي محتوى الفكـــرة التي تمتزج فيها العناصر العقلية والعناصر العاطفية فتصبح اللغة حدثاً اجتماعياً محضاً،إنّ اللغة في الواقع تكشفُ في كلّ مظاهرها وجهاً فكرياً ووجهاً وجدانياً، ويتفاوت الوجهان كثافة بحسب ما للمتكّلم من استعداد فطري وبحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون عليها."[2].

بتجاوز التعاريف التي عادةً ما تختلف وفقاً للزاوية التي يُرى بها اللغـــة ووفقـــاً لاخـــتلاف الحقول العلمية ، فإنّ أهمّية اللغة تكمن في الدور الخطير التي تلعبـــه في بنـــاء الحـــضارات وفي الوجود البشري منذ البدء، والحديث عن دور اللغة يُفضي إلى الحديث عن الوظائف الأساسية لها والتي ترتكز على تحقيقها للتواصل والتبليغ بين الناس وهو مـــا يـــؤدي إلى بنـــاء أنظمـــة ومؤسّسات تسهم بشكل كبير في تنظيم وسير حياة البشر، كما تلعب اللغة دوراً هاماً في حفظ التراث ونقله ومن دونها لا يمكن أن يفصح الإنسان عن احتياجاته الأساسية وهي أداةٌ خطـــيرةٌ تساعد الإنسان في استكشاف الكون الذي يعيش فيه وفي كشف هذا الإنسان نفـــسه لأنّهـــا وسيلة أساسية في أيّ نشاطٍ فكري ومن خلال استخدام اللغة يتمكّن الإنسان من التعبير عـــن أفكاره ومشاعره وكلّ ما يختلج في نفسه، إنّها كالشمس لا يدرك الإنسان قيمتها إلاّ بعـــد أن يحلّ الظلام ولنا أن نتصوّر الحياة بدون لغة ، وبصفة عامّة يمكن أنّ القول إنّ اللغة تسهمُ بشكل كبير جداً في عمليات التفاهم والإبلاغ والتواصل بين البشر ولها دور أساسي في بناء الحضـــارة

---

[1] ينظر ، المعجم الوسيط ، مادة :لغا

[2] عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة ، ص43

الإنسانية والدفع بعجلة التقدّم في مجال العلوم والتكنولوجيا والارتقاء بها إلى حالات أفضل ولا يمكن لبني البشر أن يتفاعلوا أو يمارسوا حياتهم الاعتيادية إلاّ باستخدام اللغة، فحاجة الإنسان إلى اللغة كحاجته إلى ضروريات الحياة الأخرى،واللغة كائنٌ حي تشبّ وتشيخُ وتموتُ إذا لم تتوفّرْ لها عوامل الديمومة والاستمرار التي تستمدُّها من جميع ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ويرتبط تطور أيّ لغة واضمحلالُها بتقدم المجتمع وتقهقره حضارياً.

باللغة يفكّرُ الإنسان ويبتكرُ ويُبدعُ ولا يمكن فصلُ اللغة عن الفكر والإبداع ولهذا فإنّ الأدب يوظّف اللغة توظيفاً خاصاً يُسخّرُ جميع مُقَوّماتها ليُنشئَ خطابه المتميّز، إنّه يستوعبُ المعطيات الخارجية عن طريق اللغة ويحوّلُها إلى معطياتٍ جديدة ذات أبعاد فنّية وجماليّة وتعبيريّة، فالمبدعُ يستثمرُ عبقرية اللغة ويفجّرُ طاقاتها كي تُعبّرَ عن انفعالاته وأحاسيسه.

انطلاقاً ممّا سبق تتجلّى أهمية اللغة ودورها في فتح أبواب الحداثة لأي مبدع في مجال الأدب خصوصاً،إذ ليس من المعقول طرق أبواب الحداثة بلغة تُحتضر، ولا يمكن تجسيد الحداثة بجميع مستوياتها إلاّ عن طريق لغةٍ حديثة تستجيب لمقتضيات هذه الحداثة وشروطها، إنّ المجتمعات"الحداثية" تتميّزُ بقدرتها على نشر المعارف والعلوم والتكنولوجيا على عموم المجتمع ولا تقتصر على نخبةٍ منه ويعود ذلك أساساً إلى استخدام اللغة الأم المنغرسة في أعماق الوجدان الفردي والجماعي باعتبارها الجسر الرّابط بين النخبة والجمهور وبين ثقافة الجامعة وثقافة الشعب، ولا تقومُ اللغة بهذا الدور إلاّ إذا استجابت لمعايير الحداثة، وهذا ما يُفسّرُ دعوة بعض الفلاسفة الألمان إلى تجديد اللغة الألمانية بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية .

في الوضع العربي نجد مفكّراً عربياً هو(هشام شرابي) يتساءلُ"هل يمكن الدخول في الحداثة بواسطة لغة غير حديثة ، لغة ما زالت في مرحلة ما قبل الحداثة ، بمفاهيمها ومصطلحاتها وأطرها الفكرية؟"[1]، ويصف اللغة العربية الفصيحة التقليدية بعدم القدرة على نقل الأفكار، لأنّ اللغة غير الحديثة تُخضعُ –حسب رأيه- الفكر الحديث الذي يُترجمُ إليها إلى نظام معانيها وتراكيبها المهيمنة، إنّ هذه اللغة لا يمكن أن تستوعب فكر الحداثة لأنّها تُقيّد الفكر وتشلّ التعبير "ليس بين لغات العالم الحديث لغة مثل اللغة الأبوية الفصحى في هيمنتها ومقدرتها على غل الفكر وشلّ التعبير الذاتي."[2]، إنّها في رأيه تُخمدُ جذوة الفكر المبدع وتمنع الخلق والإبداع

---

[1] هشام شرابي : النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت – لبنان ، (د، ط)، 1990، ص 85

[2] المرجع نفسه ، ص 20

وتُشجّع الحفظ والتكرار وتُقدّس النص التراثي، ولذلك يدعو (هشام شرابي) إلى تحديث اللغة العربية كي تصبح قادرةً على استيعاب الفكر الغربي الحديث و"لا يتم هذا إلا بالتمكن من لغة (أو لغات) غربية وإتقانها بشكل يمكن الباحث أو الناقد من الخروج كلياً من اللغة الأبوية (وفكرها المهيمن)."[1] ،إنّه يقدّم حلاً للخروج من هيمنة العربية وفكرها التقليدي لبناء فكر حديث بلغة عربية حديثة ، لكن السؤال الذي يُطرح لماذا لم يستطع الكثير من الباحثين العرب الذين أتقنوا اللغات الأوروبية تأسيس لغة عربية حديثة وفكر عربي حديث ؟ إنّ القضية أعقد من أن يقوم بتفكيكها مجموعة من الباحثين ، فالأمر يتطلّب تعاوناً بين جميع الأنظمة العربية السياسية والفكرية ووضع خطط ومشاريع تحديث شاملة .

وفي وصفه للنظام اللغوي العربي يرى (الجابري)أنّ اللغة العربية الموروثة اليوم هي لغة ((عالم الأعراب)) ، لأنّ النحاة واللغويين العرب جمعوا اللغة في عصر التدوين من أعراب البادية وهو ما انعكس على هذه اللغة "إن ((العالم)) الذي فيه نشأت هو عالم حسي لا تاريخي، عالم البدو من العرب الذين يعيشون زمناً ممتداً كامتداد الصحراء ، زمن التكرار والرتابة، ومكاناً بل فضاء فارغاً هادئاً، كل شيء فيه ((ينطق)) و((يسمع))،كل شيء فيه صورة حسية ، بصرية أو سمعية. هذا العالم هو كل، أو أهم، ما تنقله اللغة العربية المعجمية إلى أهلها. "[2]، وظلّت اللغة العربية تصف عالم الأعراب وغلبت هذه اللغة على المعاجم الخاصة والعامة وتوارثت إلى يومنا هذا واللغة تؤثّرُ على رؤية أهلها وعلى طريقة تفكيرهم وهو ما يجعلها اليوم تُبعد الناطقين بها إلى عالم قديم يتناقض مع العالم المعاصر ويلّح (الجابري)على ضرورة تحديث اللغة العربية وذلك ببدء عصر تدوين آخر لهذه اللغة ولكن بمقاييس جديدة واستشرافات جديدة، لكن تبقى كيفية تحديث اللغة العربية من المهمات الجسام التي لا يتصدّى لها إلاّ زمنٌ عربيٌ قويٌ لم يحن أوانه بعد في ظلّ ظروف رّاهنة تعكس مدى التّخلّف الذي يعيش فيه المجتمع العربي وهو العامل الرّئيس في تدهور اللغة العربية لأنّ المبادئ العلمية تؤكّد أن لا تفاضل بين اللغات وهو ما يثبته الواقع إذا ما التفتنا إلى واقع بعض اللغات القريبة منا مثل اللغة التركية والفارسية و....الخ.

بين اللغة العربية و (أدونيس) علاقة خاصة، ومن المواقف التي تُحسبُ له رفضه استخدام اللغة العامية وتمسكه الدائم باللغة العربية الفصيحة، وهو من المدافعين عنها في جميع المحافل ومن

---

[1] هشام شرابي : النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، ص 86

[2] محمد عابد الجابري :التراث والحداثة ، ص 144

الذين يصرّون على استعمالها في كتاباتهم الإبداعية والتنظيرية، وكثيراً ما كان يصف علاقته الخاصة باللغة العربية فهي الوطن المفتوح والسفر الطويل الذي لا ينتهي "اللُّغة، في هذا المكان العربيّ-الإسلاميّ، هي وطني-مفتوحاً على الجهات كلّها، وعلى الآفاق جمعاء.وسكناي وسفري في التاريخ الذي اكتَنَزَتْهُ وفي المستقبل الذي تكتنزه."[1]، ويوحي هذا الموقف بأنّ «أدونيس» لا يمارس حرّيته المطلقة إلاّ من خلال اللغة التي يجد في فضاءاتها الرّحبة أحبّ مكان لفكره وإبداعه فيتّخذها سكناً ووطناً ومن خلالها يسافر عبر الزمن فيكتشف الماضي البعيد والمستقبل الغامض، وعلاقة اللغة بالمبدع أو الخلاّق كما يقول (أدونيس) يجب أن تكون علاقة متميّزة بل غريبة وشاذّة لأنّ هذا الشذوذ هو الذي يُفضي إلى التميّز في اللغة والإبداع "ذلك أنّ اللغة ليست مفردات مجرّدة، حيادية، موجودة بعيدة عنّا.بل هي تعيش في أعماق الخلاّق،ترقد معه وتستيقظ،وتجري في دمه، وتسافر معه في أبعاده، إنها، بكلمة ثانية، صورة روحه وتفجراتها،وروح الخلاّق متفرّدة غريبة، لهذا يأتي نتاجه، بالضرورة، متفرّداً غريباً.وإذا كان هناك فرق بين الخلاّق والآخرين، فلابد من أن يكون هناك فرق بين لغته ولغة الآخرين."[2]، وهو وصف عجيب لعلاقة المبدع بلغته، هذه العلاقة تتجاوز الارتباط بالمبدع وتصل إلى الالتحام، ولذلك فإنّ الفرق الكائن بين المبدع والآخرين يتجلّى أساساً في لغته، هذا المبدع وأمثاله هم من يشيّدون بناء الحداثة.

واللغة عند (أدونيس) ليست أداةً للتواصل وحسب، إنّها السبيل السرّي للكشف، منها تنطلقُ الحركة،ويقع التحوّل،وتنفتح أبواب الإبداع والابتكار،ويُخترق فضاء الغد بما يحمله من مفاجآت. أمّا الطاقة التي تحتويها فلا تنفذ أبداً "اللغة أكثر من وسيلة للنقل أو للتفاهم.إنها وسيلة استبطان واكتشاف.ومن غاياتها الأولى أن تثير وتحرّك، وتهزّ الأعماق وتفتح أبواب الاستباق.إنها تُهامسُنا لكي نصير، أكثر مما تهامسنا لكي نتلقَّن.إنها تيار تحولات يغمرنا بإيحائه وإيقاعه وبُعده.هذه اللغة فعلٌ، نواةُ حركة، خزّانُ طاقات.والكلمة فيها أكثر من حروفها وموسيقاها.لها وراء حروفها ومقاطعها دم خاص ودورة حياتية خاصة.فهي كيان يكمن جوهره في دمه لا في جلده.وطبيعي أن تكون اللغة هنا إيحاء لا إيضاحاً."[3]، هذه اللغة يتعامل المبدع مع جوهرها لا مع مظهرها المتمثّل في حروفها وموسيقاها، وهذا التعامل الخاص هو

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 88

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 61

[3] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 70

الذي يشكّل الذّات المبدعة، التي بدورها تؤسس للتحوّل والتغيّر، إن رؤية (أدونيس) للغة تتجاوز بكثير الرؤية النفعية لها، إنها ذلك العالم العجيب المليء بالأسرار ، وهي ذلك الكائن الذي، يؤثّر ويتأثّر، يحيا ويموت، إنها وسيلة خلق أكثر منها وسيلة تعبير.

يفرّق (أدونيس) بين اللغة القديمة واللغة الحديثة ويتركّز هذا الفرق في المعنى "الفرق الأساسي بين اللغتين((القديمة)) و((الحديثة)) هو أن المعنى في اللغة ((القديمة)) موجود مسبقاً، والكاتب يصوغه بشكل جديد.لكن المعنى في اللغة ((الحديثة)) (الثورية) ينشأ في الكتابة وبعدها.فالمعنى فيها بَعْديّ لا قَبْلي."[1]، وهو ما يعني أنّ اللغة القديمة تجترّ المعاني السابقة في شكل مختلف بينما تبتكر اللغة الحديثة معانٍ جديدة في تعابير جديدة، إنّها لغة ثورية تتمرّد على كلّ ما هو سائد فهي لغة خلق وابتكار وتؤسس دائماً لكتابة جديدة مغايرة، أما اللغة القديمة فهي تخضع للفكر السائد لأنّها لغة تقليد ومحاكاة .

كيف يتّم التحرّر من اللغة وتحريرها في آن واحد؟ لا يتمّ ذلك إلاّ بمعرفتها معرفة عميقة وشاملة "إذا كانت اللغة افتراضاً، "تستعبد" عقول بعضنا وحياتهم، فإن تحرّرهم لا يتم بجهلها، أو "بتغييرها" بل بمزيد من معرفتها.ولا يقدرون، بالتالي، أن يتحرروا منها ، إلاّ بها وفيها.فلئن كانت موضع "موتهم" فإنها هي نفسها موضع "انبعاثهم". فمن جسد اللغة ذاتها، وفيه، يبدأ تحرير اللغة، وتحرير الشعر، وتحرير الفكر."[2].

يدعو (أدونيس) إلى تجديد اللغة من داخلها وإلى عدم تغييرها أو استبدالها باللغة العامية التي دعا إلى استعمالها بعض المثقفين في لبنان ومصر وغيرهما، ولا يتمّ تجديد اللغة إلاّ بالكشف عن طاقاتها وخصائصها لأنّه السبيل الوحيد إلى تحريرها ومن ثمّ تحرير الفكر والإبداع بصفة شاملة وهو ما تقتضيه الحداثة وهذا ما يؤكّده قائلاً "فاللُّغة كيان، ولا نقدر أن نجدّده إلاّ من داخله، من داخل عبقريَّته، وجماليَّته، وخصوصيَّته.إن كنت حديثاً حقاً، فأنت تحيا داخل هذا الكيان- لا إلى جواره، أو خارجه، أو على هامشه،- أي أنَّك تحيا في بهاء القديم، وفي طاقاته الفنّية التي لا تُستنفذ.وكلّ كلامٍ على الحداثة ينبغي أن يتمّ في إطار هذه الإحاطة وهذه الكلّية وهذه الرؤيا الشاملة."[3] ، وهذا الموقف يحسبُ لـ(أدونيس)، إنّه لا يتصوّر حداثةً أدبية دون معرفة شاملة للكيان اللغوي العربي قديمه وجديده، وكثيراً ما يدعو شعراء الحداثة الشبّان إلى الإحاطة الكاملة

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 132

[2] أدونيس : المحيط الأسود ، ، دار الساقي ، بيروت- لبنان ، ط1، 2005 ، ص 36

[3] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 95

باللغة العربية لأنّ الإبداع في أيّ لغة يجب أن ينطلق من معرفة عميقة لهذه اللغة ،هذه المعرفة هي التي تحرّرُ المبدع واللغة معاً من هيمنة الفكر التقليدي السائد والانطلاق إلى عالم التجديد والابتكار، هذا الفكر السائد هو الذي يحاصر الناطقين بهذه اللغة في منطقة التقليد الضيّقة ويمنع عنهم هواء الحرية والإبداع ،وإذا كانت اللغة العربية ذات تأثير على النظام المعرفي العربي فهذا لا يعني أنّ في بنيتها ما يعرقل حركة أو النشاط العقلي الذي يستطيع من خلال طاقته التي أودعها الله فيه أن يطوّر هذه اللغة ويجعلها تواكب حركته السريعة وهذا ما ذهب إليه (أدونيس) في حديثه عن اللغة العربية "صحيح أن للغة العربية بنيتها الخاصة التي تؤثر في النظام المعرفي العربي.لكن هذه خصوصية تميّزها من سواها، فهي العلامة على أنها هي ما هي.لكن اللغة ، أية لغة، لا تَقْسر العقل إلا إذا كانت تملكه وتسيره، وكان الإنسان مجرد مكان تنتج اللغة فيه وبه أصواتها ومعانيها.وهذا مما لا يصح القول به.العكس هو الصحيح.ولذلك فإن خصوصية اللغة تنطوي على طواعية وقابلية للتكيف مع حركة العقل، ولتلبية حاجاته.فالقصور أو العجز لا يكون في طبيعة اللغة وإنما يكون في النظرة المعرفية وفي طرق التفكير والفهم. " [1].

يلقي (أدونيس) باللائمة على العقل العربي الذي أدّى عجزُه وقصوره إلى عدم تمكّن اللغة العربية من مواكبة التقدّم الذي حصل في بقية المجتمعات، والإبداع لا يشترطُ لغةً دون أخرى وإن استعصى في لغةٍ ما فهذا يعني أنّ النظام المعرفي هو العائق الحقيقي واللغة تتقدّم وتتأخّر تبعاً لواقع مستعمليها وهو ما يفسّر وضع اللغة العربية التي تعيش في مجتمعٍ متخلّف في جميع الميادين "ليست اللغة وسيلة تعبير وحسب، وإنما هي كذلك طريقة تفكير.لكل وضع اجتماعي إذن لغته: لغتنا السائدة هي لغة أوضاعنا السائدة.وهذه أوضاع متخلفة، على جميع المستويات.لهذا كانت لغتنا متخلفة على جميع المستويات.إنها لغة بيانية، صنعية،زخرفية، والمجتمع هنا يستهلك اللفظة ، كمتعة فردية، أي كما يستهلك السلعة.هكذا فقدت اللغة حيوية الإبداع وحرارة الحياة.تحولت إلى ما يشبه الركام.لهذا أخذت تناقض العمل.إنها تمجد لحظة الكلام، لا لحظة العمل، لحظة الاستهلاك،لا لحظة الإنتاج."[2].

في هذا الوضع السائد لا يمكن أن تتنفس الحداثة هواءً نقياً يساعدها على الحياة، ولا يمكن للغة العربية أن تنمو أو تتفجّر قدراتها أو تتحرّرَ من الاستخدام المتوارث لها المستند إلى تراكيب

---

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 120

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 129

وجمل تُجترُّ منذ مئات السنين، أي لا يمكنها أن تتحوّل إلى وضعية تجعلها تستجيب لمقتضيات العصر في مجتمعٍ مستهلكٍ لا ينتجُ شيئاً،فحياة العربي الثقافية اليوم هي استمرارٌ لحياة أسلافه أو هي مرآةٌ عاكسة لثقافة الغرب، لأنّ عقلية الاستهلاك هي التي تسود اليوم في المجتمع العربي، وفي ظلّ هذا الوضع اللغوي السائد فإنّ المسافة بين الشاعر واللغة تزداد اتّساعاً وهو ما يعني أنّ الحداثة تزداد ابتعاداً عن واقعنا الشعري وقد يزداد واقعنا ابتعاداً عن الشعر نفسه"فقبل أن تكون ((حديثاً)) في الشعر أو((قديماً)) يجب أولاً أن تكون شاعراً.ولا تكون شاعراً في لغة ما، إلا إذا شعرت وكتبت كأنك أنت هي، وهي أنت."[1]،ولا يتحقّق ذلك للشاعر إلاّ بعد أن يعيش داخل اللّغة وتعيش داخله فتصبح هي كأنّها هو، هذا التّوحّد بين الشاعر واللغة هو ما يجب أن يكون للدخول إلى عالم الحداثة الشعرية الساحر، فالمعرفة اللغوية هي من أوليات الحداثة الشعرية التي لا يمكن أن تتحقّق من دونها والمعرفة اللغوية تتطلّبُ سفراً طويلاً وشاقّاً عبر تاريخها المترامي الأطراف والثري بفكره المتنوّع إل حدّ التناقض أحياناً "وبما أن اللّغة العربية والمجتمع العربيّ ليسا نباتين فطريين ، بل إنّ لهما تأريخاً عريقاً طويلاً، وبما أن الحداثة العربية تتمّ بهما وفيهما ، فإن معرفة ((قديميهما)) بأصوله وتغيّراته ومشكلاته، خصوصاً ما يتعلّق بأسرار اللّغة وعبقريّتها، جزء جوهريّ من معرفة ((الحداثة))."[2].

إنّ نهاية الثقافة العربية كما يذهب (أدونيس) يعني دخول هذه الثقافة في مرحلة الموت الإبداعي، إنّ هذه الثقافة تتمثّل إمّا في فكر رُكامي تكراري هامشي تنتجه الجامعات العربية، وإمّا في فكر تبسيطي تسطيحي ينتجه الإعلام العربي وفي كلّ هذا هناك شبه غياب كامل للفكر الخلاّق الذي يحتضن الحداثة بكلّ أنواعها، من أهمّ علامات هذه النهاية يذكر (أدونيس) ثلاث علامات يصفها بالانشطار على مستوى التاريخ وعلى المستوى السياسي و" انشطار على مستوى اللغة.اللغة العربية في ذاتها أجمل من النتاج الذي أنتجته.ما النتيجة؟ اللغة العربية سقف ساحر طائر- لا أركان له ولا أعمدة.الواقع يسير في اتجاه، وهذه اللغة- السقف ظل يجهد في تغطية هذا الواقع، لكنه لا يسير في اتجاهه.لا يتطابق معه.شيئاً فشيئاً يزداد ابتعاداً.

وما من عربي يعرف، اليوم، لغته الأم: ما من عربي يجرؤ أن يعرف نفسه."[3]،إنّ الهوة تزداد اتّساعاً بين العربي ولغته،ومعرفة أغلب المتعلّمين العرب بلغتهم هي معرفة سطحية لا يمكن أن

---

[1] أدونيس : الشعرية العربية ، ص 110

[2] المصدر نفسه ، 111-112

[3] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 195

تؤسّس لانطلاقة فعلية أو بداية جديدة، وهو وضع لا يسهمُ فقط في تغييب الإبداع بل يؤدّي إلى قتله، ومن ثمّ لا يمكن الحديث عن أيّ نهضة للفكر العربي أو عن أيّ حداثة في أيّ مجال من المجالات ذلك أنّ الإبداع هو القلب النابض في جسد الحداثة الحيّ.

لقد تمكّن بعض أسلافنا من الشعراء والمتصوّفة من الغوص في أعماق اللغة وأن يفجّروا طاقتها الإبداعية فاكتشفوا أبعاداً أخرى ووصلوا إلى مستويات عليا من الجمال الفني وحقّقوا ما طمحت إليه الحداثة "الفكرة الأساس في نزعة الحداثة تكمن في إدراك التماثل بين الطبيعة واللغة، وقد بدأ هذا الإدراك أبو نواس وأبو تمام، وبعض الشعراء الصوفيين، وبخاصّة، النفَّري. لم تعد الطبيعة بدءاً منهم، مجموعة من الأشياء المخلوقة، وإنما أصبحت مجموعة من الإشارات، أي أنها تحولت إلى غابة من الرموز."[1]، لقد خلقوا لغةً خاصّة بهم تعبّر بصدقٍ عن رؤيتهم الفريدة للكون وللحياة هذا الانفجار الذي أحدثوه خلخل بنية التعبير الشعري -كما يقول (أدونيس)- و لم يصلوا إلى ذلك إلاّ بعد أن التحمت عقولهم وقلوبهم باللغة العربية وصدق فيهم قول (أدونيس) نفسه حين يقول إنّ الإنسانُ لغة.

اهتمّ (أدونيس) باللغة اهتماماً كبيراً لوعيه الشديد بضرورتها واستحالة الاستغناء عنها في أيّ عملية تطوّر أو تقدّم تمرّ بها المجتمعات البشرية،وإذا كان الخلق والتغيير المستمرّ من أهمّ غايات الحداثة فإنّ ذلك لا يتحقّق إلاّ من خلال اللغة لالتحامها بالفكر البشري،وللغة العربية في وجدان(أدونيس) مكانة متميّزة جعلته يرفضُ استبدالها باللغة العامية ويهاجم كلّ من يتّهمُها بالعجز أو القصور ويعزو التخلّف الذي يتخبّط فيه الفكر العربي إلى عجز الإنسان العربي- والنظام العربي عموماً- وفشله في مواجهة التحدّيات التي تفرضها تحوّلات العصر المتتابعة، ومع تمسّك (أدونيس) باللغة العربية فإنّه في الوقت نفسه يدعو دائماً إلى تحديثها، هذا التحديث لا مفرّ منه لكي تُواكب اللغة العربية ركب الحداثة إذ صار من المستحيل الإبداع بلغة تقليدية موروثة استنفذت جميع طاقاتها، ولا يتمّ هذا التحديث اللغوي إلاّ من خلال المعرفة المعمّقة والشاملة للغة،وبواسطة هذه المعرفة يتمّ الكشف عن أسرار اللغة وأبعادها وتُبعث جميع قدراتها الإبداعية وهو ما تحقّق في الواقع العربي عند بعض أسلافنا العظماء، وإذا كان لكلّ لغةٍ عبقريتها وخصوصيتها فإنّ الحداثة لم تقتصر على لغة دون أخرى.

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 166

2 – 4 – النقـــد و الحداثـــة :

النقدُ لغةً من نَقَدَ الشيءَ أي نَقَرَهُ لِيَختَبِرَهُ أو لِيُمَيِّزَ جيّدَه من رديئِه و نَقَدَ الدراهم أو الدنانير نقداً وتَنقاداً أي ميّز جيّدها من رديئها[1]، وللكلمة معاني أخرى، لكن ما يهمُّ هو معناها المذكور والذي استعاره الأدب والفكر عموماً، والنقد ظاهرة بشرية محضة تقتصرُ علـــى البـــشر دون المخلوقات الأخرى وهذا ما يُفسّرُ سُنّة التحوّل والتبدّل المستمرّة في جميع نشاطاتهم والتّقـــدّم الحاصل في حياتهم، وللنقد أهمّيةٌ كبيرة في نمو ورُقي المجتمعات في كلّ المجالات وأيّ ُغيابٍ له أو انحسار يؤدّي إلى التقهقر والجمود والتخلّف ولهذا السّبب حرِصت الدّول المتقدّمة على تفعيـــل أدواته وتطويرها لكي يتمكّن من دعم أيّ مسار نحو التحديث والتطور .

إنّ النقد البنّاء ضرورة قصوى لبناء المجتمعات المتقدمة والحفاظ على أمنها بكلّ ما تحملـــه كلمة أمن من معاني و الدفع بها إلى الانفتاح ومواكبة أي جديد، والنقد يثير التساؤلات الناجعة ويكشف عن النقائص والعيوب والمحاسن ويقدّم الحلول ويفتح باب الاجتهاد والابتكار بفضل قراءته المستحدثة والمستمرّة للواقع بجميع مستوياته وتحليلها ،ولا يتأسّسُ الفكر النقدي الحديث إلاّ في مجتمعٍ تسودُ فيه حرّية الفكر والرأي والتعبير "لا يمكن للوعي النقدي الحديث أن يرتكز على قاعدة واحدة أو أن ينبثق من فكر واحد أو من نظرية واحدة.فبصفته وعياً ناقداً وحـــديثاً لابد له من أن ينبع من أطراف وحركات فكرية متعددة تتناول المجتمع وثقافته من مواقع ومن أبعاد مختلفة."[2] .

في المجال الأدبي يسعى النقد إلى كشف النص الأدبي وتفسيره ثمّ الحكم عيه "ويقوم جـــوهر النقد الأدبي أولا على الكشف عن جوانب- النضج الفني في النتاج الأدبي وتمييزها مما ســـواها على طريق الشرح والتعليل.ثم يأتي بعد ذلك الحكم العام عليها."[3] ، ويبدو تعريـــف (غنيمـــي هلال) شافياً كافياً، ولكن هناك بعض الآراء التي ترى في النقد غموضاً، لتعدّد الرؤى والمواقف والطرق والمرجعيات، وهو ما يؤدّي إلى الاختلاف حول مفهومه ووظيفته وأهدافـــه، ويعـــود ذلك إلى التحوّل الكبير الذي عرفه النقد وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين وفي أوروبا تحديداً حيث شهد ثورةً لم يعرفها من قبل، شملت مناهجه وأدواته وإجراءاته ، لقد عرف النقد الكثير من النظريات والمناهج والأفكار لمواكبة الثورة الابداعية في الأدب من جهـــة ولتـــأثّره

---

[1] ينظر ، المعجم الوسيط ، مادة :نقد

[2] هشام شرابي : النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين ، ص 16

[3] محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 11

بالتقدّم الهائل في جميع الحقول المعرفية ، وأصبح النقد تقليداً ثقافياً، وصار كل إسهام فكري أو فني أو حتى علمي لا يمكن أن يتأسس إلا بوصفه نقداً لما سبق، وتطوّرت وضعية النقد الأدبي بحيث أصبحت تتجاوز دراسة العمل المعين في حدود الجنس الأدبي المعيّن لتشمل أبعاداً أخرى، كالصلات التي تنعقد بين العمل والمؤثرات السياقية مثل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ...الخ، وظهركمّ هائل من المناهج النقدية كالمناهج المتأثرة بالعلوم الإنسانية مثل المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي ، والمناهج النصّية التي استندت إلى علم اللسان مثل المنهج البنيوي والأسلوبي ثم ظهرت السيميائية والتفكيكية ونظريات التلّقي والقراءة وكلّها تسعى إلى تأسيس علم يدرس الأدب ويفسّر ظواهره المختلفة.

في الساحة الأدبية العربية وفي القرن العشرين عرف النقد تيارين كبيرين، أحدهما يتّكأُ على التراث البلاغي والنقدي العربي ويستمدّ منه أدواته للتعامل مع النصوص الأدبية ، والآخرُ ينطلق من النقد الغربي كمرجعية أساسية ويتّخذُ من مناهجه وسيلةً إجرائية لفكّ طلاسم النصوص الأدبية العربية القديمة والحديثة كما فعل (كمال أبو ديب) في استخدامه للمنهج البنيوي في كتابه (جدلية الخفاء والتجلّي) لدراسة الشعر العربي،هذا الصراع بين هاذين التيارين أدخل النقد العربي في أزمة لا يزال يتخبّط فيها إلى يومنا هذا، فالتيّار الأوّل لم يعد قادراً على توفير أدوات إجرائية صالحة في عصرٍ يشهد الكثير من التحولات في النص الإبداعي والأجناس الأدبية ، كما أنّ التيار الثاني يعتمد على مناهج نقدية غربية أصبحت تثير الكثير من الإشكاليات وبخاصة في كيفية التعامل معها، لأسباب عديدة، منها أنّها نشأت في بيئة ثقافية مختلفة،وأنّها وصلت متأخّرة إلى الساحة النقدية العربية بسبب بطئ تعامل العرب مع المستجدّات الفكرية وانتظارهم للنتائج المحقّقة ولنظرة العرب المتوجّسة من كلّ وافد ثقافي غربي، إضافة إلى ذلك تلاحق هذه المناهج في فترة زمنية وجيزة خصوصاً بعد الثورة اللسانية، وهو ما صعّب مهمّة النقاد العرب فأخذوا بهذه المناهج وردّدوا أسُسَها ونظرياتها دون استيعابها، وما زاد في تعقيد الأمر الترجمة التي اعتمدها العرب في نقل هذه المناهج وهي ترجمة غلب عليها التسرّع والاجتهاد الشخصي والرؤية الفردية الضيّقة، هذه الترجمة أسهمت في بروز وجه من أهم وجوه الأزمة في النقد العربي وهي أزمة المصطلح النقدي العربي.

تقع على النقد العربي اليوم أعباء ثقيلة أهمها مواكبة الحركة الأدبية العربية التي تسعى جاهدة لطَرق أبواب الحداثة، وعلى النقد أن يطوّر أدواته وأساليبه وتعامله وفق ما يستجدّ في الساحة الأدبية و في أُفق خُصوصيّة الإبداع العربي، بمعنى أنّ على النقد العربي أنْ يطرقَ هو أيضاً أبواب الحداثة، يذهب (فاضل ثامر) إلى أن النقد العربي وجد صعوبة كبيرة في تأسيس نقد حديث،لأنّ سمات الحداثة في النقد الأدبي الغربي غير ظاهرة ولذلك اتّخذ مسعى النقد العربي نحو الحداثة نوعاً من الصّراع بين القديم والجديد وبين مختلف مدارس النقد "ونتيجة لكل ذلك فقد لمسنا خلطاً كبيراً لدى الباحثين والنقاد خلال العقود الستة الأولى من هذا القرن في تحديد ماهية النقد الحديث، وهو استمرار للخلط الحاصل في تحديد ماهية ما هو حديث في الأدب العربي،"[1]، ومع ذلك فهو متفائل بظهور نقد عربي يجمع بين الحداثة والأصالة ويرى في تجربة (عبد السلام المسدّي)في تحديد ماهية الحداثة النقدية من أبرز وأعمق المحاولات، وفعلاً فإنّ رؤية (عبد السلام المسدّي) للحداثة النقدية من أهمّ الرؤى العربية التي سعت إلى تحديد مفهوم النقد الحداثي والإحاطة به والحداثة النقدية عنده حداثة من حيث المضمون ولا تقومُ إلاّ إذا جدّد النقد مقولاته ومتصوراته ومصطلحاته "بل قل بعبارة محوصلة إن النقد لا يتجدّد إلاّ إذا جدّد نظامه المفهومي أو قل إنّه لا يتحوّل إلى "حداثة" نقدية إلاّ عندما "يستحدث"جهازاً معرفياً يباشر به النص الأدبي كما لم يباشره به السابقون."[2] ،أمّا الحداثة من حيث الصياغة فيقصد بها الخصائص التي تتميّز بها لغة النقد"وهو أمر على غاية من الدقّة إذ كأنما يجتمع فيه مُعطى القدم منذ أن كان أدب ونقد ومعطى الحداثة يوم اعترض الفن على توارث الإبداع ولكنْ للالتباس المستحدث بالمتقادم خفيَ السلك الرابط فغاب عن وعي النقد."[3].

لم يُغفلْ (أدونيس) أهمّية النقد في الأدب العربي ، لدوره الكبير والخطير في تحديد مسار الحداثة الأدبية والدّفع بركبها إلى مستوياتٍ بعيدة ، وفي حديثه عن النقد يُقرّ أنّه ليس ناقداً ولا منهج له في تلقّي الشعر "لا أزعم أَنّني ناقد.ولا أتبنّى في تذوّق الشّعر وفهمه أيّ منهج.ولئن صحَّ لي أن أحدّد في هذا المجال ما أنا، فإنني أميل إلى أن أصفَ نفسي بأنّني راءٍ، يتّجه نحو أفقٍ غير مرئي."[4] ، وهو بذلك يتخلّصُ من أغلال المناهج النقدية ويعطي لنفسه الحرية المطلقة في

---

[1] فاضل ثامر : اللغة الثانية ، ص 114

[2] عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة ، ص16

[3] المرجع نفسه ، ص 17

[4] أدونيس : كلام البدايات ، ص 189

قراءة النصوص الأدبية وتحليلها، إنّه لا يريد تحمّل تبعات النقد ولا أعباءه و لم يسترسل في شرح صفة الرّائي التي وصف بها نفسه لكن يبدو أنّها تطلق على كلّ متأمّل في الأدب يصل به تأمّلُه إلى كشف ما لا تصل إليه المناهج النقدية التي لا يعتمد عليها فهو يبتغي اللاّمنهج سبيلا، لأنّه يرى في المنهج حجاباً يحجب الذوق والتأمّل والمعرفة إنّه يلغي الجسد ولغته وكلامه ، فالمنهج في رأيه بقيوده الصّارمة التي يفرضها يمنع من تشكّل تلك العلاقة السحرية التي تنشأ بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والعالم ، وهو أكبر من المنهج كما يقول "فالإنسانُ أكبرُ من المنهج، وأوسعُ وأغنى."[1]، وما يجب ذكرهُ أن هذا الموقف الأدونيسي كان متوقعاً، فشخصية (أدونيس) المتمرّدة والمشرئبّة للتغيير لا يمكن أن تتقيّد بأيّ منهج وضعه البشر، إنّها ترى في هذه المناهج قيوداً تمنعها من الكشف عن خبايا وأسرار في الإبداع،قد لا تصل إليها هذه المناهج نفسها،وكثيراً ما أعاب النقاد على (أدونيس) عدم التزامه بأيّ منهج في كتاباته التنظيرية.

تتميّز نظرة (أدونيس) للنقد بخصوصيتها -كما جرت العادة- فالناقدُ لا يصيرُ ناقداً إلاّ بعد أن يمارس طقوسه النقدية على نفسه و والنقدُ هو قراءةٌ متفرّدةٌ ليست كأيّ قراءة وليست عمليّة تأويل إنّها ابتكار معرفي تنطلق من النص الذي تمتحنهُ "النقد أكثرُ من قراءة:ليس تفسيراً للنصّ أو تأويلاً وحسب.إنّه معرفة، أو هو ابتكارُ معرفةٍ جديدة، انطلاقاً من النّص واستناداً إليه،مِمّا هُوَ ومِمّا قَبْلَه.والنّقدُ، في ذلك، امتحانٌ للنَّص:هل هو ((طبقَةٌ)) واحدة، ولذلك سرعان ما ((يموت))، أم أنّه، على العكس، ((طبقات))– تموت طبقةٌ فتولد أخرى؟ هل نَضب وَاسْتُنفد وأصبح عاجزاً عن توليد المعنى ، أم أنّه ، على العكس ، لا يزال مُسْتودَعاً من الطاقات التي تُولِّد المعاني؟."[2]، وهكذا يجعل(أدونيس) من النقد ذلك المستكشف الذي يغوص في أعماق النص ويستخرج معانيه المتلألئة التي لا تنضب فيشكّل منها معرفة جديدة إنّه يبدع معرفة أخرى انطلاقاً من رحم هذا النص المنفتح على أكثر من دلالة، هذا النقد أيضاً يميّز بين النص المثمر والنص الذي جفّت معانيه، وبين النقد والتساؤل وشائجٌ قويةٌ وعميقة، فجوهر النقد تساؤلٌ، ولذلك فالنقد عند (أدونيس) شكل من أشكال الفكر الذي يعيش بالتساؤلات الدائمة "النّقدُ كالفكر، أو هو فِكرٌ لا يتغذّى ولا ينمو إلا بالتّساؤل المستمرّ.وهو لذلك يَضَعُ نفسَه، لا الأشياء والنّصوصَ وحدَها،موضعَ تساؤلٍ دائم، وإعادة نَظر مستمرّة."[3] .

---

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 189

[2] المصدر نفسه ، ص 190

[3] المصدر نفسه ، ص 190

والنقد عند (أدونيس) يتناقضُ مع المناهج المغلقة التي لها بداية ونهاية ، إنّه دائماً بدايةٌ لا نهاية لها ، إنّه يؤسّسُ دوماً لبداية كلام آخر، أمّا عن النقد السائد في الأدب العربي فهو نقدٌ عاكسٌ للنقد الغربي ومناهجه، دون أن تكون له أيّ أسس معرفية يستند إليها"يكاد ((الأخذ)) أو ((النقل)) عن الأجنبي أن يكون لازمةً نقديّة عند معظم نقّاد الشعر العربيّ الحديث، وقرّائه.وهو موقفٌ لا يستندُ ، غالباً، إلى أيّة معرفةٍ حقيقيَّة لا بالشعر((المنقول)) ولا بالشعر((الناقل)) .ويبدو،في أحيانٍ أخرى، أنّ النوازع السياسيّة-الإيديولوجيَّة هي التي تمليه."[1]،وفي القول إشارة إلى تأثّر الأدب العربي في مرحلة من مراحله بالفكر الاشتراكي.

ما يلاحظه (أدونيس) على النقاد العرب ليس الأخذ بالمناهج الأجنبية فقط ولكن النقص المعرفي عند الكثير منهم وغياب الرّوح العلمية في ممارساتهم النقدية ، هذا الوضع السائد يجعل من النقد العربي عاجزاً عن مقاربة النصوص الشعرية "فهو لا يزال ، كما يبدو، حرفيّاً و جزئيّاً، لا يقدر أن يستوعب كلّيّة النص في سياقه وعلاقاته، وعالمه الرّؤيويّ.والحقّ أنّ المسألة في مثل هذا النقد لا تنحصر في النقص المعرفيّ، وإنّما تشير كذلك إلى خللٍ واضطراب في الأخلاقيَّة العلمية –الموضوعيَّة التي يستلزمها النّقدُ الجديرُ بهذا الاسم."[2]، وقد يبلغُ الجهلُ ببعض النقاد أقصاه حين نجدهم – كما يقول (أدونيس) – لا يعرفون أبجديات الشعر كالوزن والإيقاع لأنّهم يعتبرون النّقد هوايةً أو مهنةً صحفيةً وهو ما يُشكّل خطراً كبيراً على مستقبل الشعر والأدب"وعلى الصعيد النّقد الأدبي، نرى في كثير من كتب النّقد المتداولة ، وبينها كتبٌ ((تقدميّة)) مباحث حول قصائد لا يعرف نقّادها ألفباء النّد الشعري:التّمييز بين الموزون وغير الموزون.وعلى صعيد الكتابة الشعرية، نرى أشخَاصاً كثيرين،بينهم ((تقدميّون)) أيضاً، يعجزون عن هذا التمييز- فكأنَّ النّقد والكتابة مجرّد هواية، أو مجرّد صناعة أو حِرْفة -بالعدْوى-لا بالأصالة."[3]، ويعزو هذه الوضعية إلى عوامل أدّت إلى غياب النقد الحقيقي وهي :

""أوّلاً- مازال النقد خاضعاً، بشكل عام، للمقاييس النقدية القديمة.فهو يحاكم تجربة جديدة بتجارب قديمة."[4]،وهو ما لا يمكن أبداً، ذلك أنّ الشاعر سيخضع شعره لمعايير نقدية هو يرفضها أساساً، ولا يستجيب شعره لها، هذه المقاييس النقدية القديمة يفرضها النظام المعرفي

---

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 41

[2] المصدر نفسه ، ص 43

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 62

[4] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 255

السائد الذي يحاول ترسيخ قيم الماضي القديمة ولا يتفاعل مع مستجدّات العصر الراهن،وما نلاحظه أنّ النقد في أيامنا هذه اتّجه إلى استخدام المناهج النقدية الغربية بشكل واسع،و(أدونيس) يتحدث هنا عن النقد في الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم.

"ثانياً-مازال النقد خاضعاً لآلية العلاقة الشخصية، صداقة أو عداوة،سلباً أو إيجاباً."[1] ،وهو ما يعني غياب المعايير العلمية الموضوعية وطغيان العوامل الذاتية في تعامل النقاد مع الشعراء، هذه الوضعية ترسّخها الأعراف البالية التي تستند إلى القبلية والجهوية،ويدعمها النظام السياسي.

"ثالثاً-انعدام الثقافة.فلكي ننقد قصيدة لا يكفي أن تكون لنا ثقافة شعرية جمالية واسعة، وحسب، وإنما يجب أن تكون لنا ثقافة عامة عميقة وشاملة."[2]وهو ما أُشير إليه سابقاً ، فالكثير من النقاد يفتقرون إلى المعرفة التي تمكّنهم من نقد النصوص نقدا شاملاً وبناءً يصل إلى كشف النواحي الجمالية والإبداعية ، وبخاصة إذا علمنا أن شعراء الحداثة يوظفون في أشعارهم الكثير من الثقافات والأساطير والرموز وغيرها وهو ما يتطلّب ثقافة واسعة لدى النقاد ليس للتراث العربي وحسب ولكن لتراث الكثير من الأمم القديمة والحديثة، ولا نستغرب أنّ نجد بعض الشعراء الكبار يمتلكون ثقافة واسعة لا يحيط بها كلّ النقاد الذين يتناولون نصوصهم ، وهذا الوضع لا يساعدُ الشعر العربي والإبداع الأدبي عموماً في التقدّم نحو الأفضل.

"رابعاً- النقد السائد أسير المضمونية، أي أنه ينقد ((الأفكار)) و ((الموضوعات)) ويهمل طريقة التعبير"[3] ، وهذا يعني أنّ النقد يهمل البنية الأساسية في الشعر وهي بنيته التعبيرية التي تشكّل العناصر الجمالية فيه والتي يجتهد الشعراء في بنائها ولا يعنيهم المضمون كثيراً الذي لا يُضفي على الشعر أي صبغة جمالية ولا يزيد أو ينقص في قيمته الإبداعية.

يتحمّل النقد العربي اليوم مهمّاتٍ جساماً، منها إسهامه في التحوّل الأدبي بعامة والشعري بخاصّة، ولهذا عليه أن يواكب هذا التطوّر الذي تشهده النصوص الشعرية العربية ولا يتمّ ذلك إلاّ بالتأسيس لمعايير نقدية جديدة لا تخضع للمفاهيم السائدة "فالنقد الشعريّ العربيّ يجب أن يتخلّص من المسلّمات،ومن المفهومات الشائعة المتداولة، التي تُفسد النظر، من أجل أن يؤسّس للقراءات المضيئة، الغنيَّة والمُغْنية.والنقد، بهذا المعنى ، إبداعٌ آخر ، ونصٌّ خلاّق آخر."[4] ، وفعلاً

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 255

[2] المصدر نفسه ، ص 255

[3] المصدر نفسه ، ص 255

[4] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 19

فالنص النقدي هو نص إبداعي يولد من النص الشعري وإذا كان الشاعرُ مبدعاً فلا يمكنُ للناقد إلاّ أن يكون مبدعاً ، ولهذا السبب لا يمكن أن يكون النقد علماً مثله مثل بقية العلوم التجريبية،إنه مزيج من موضوعية العلم وصرامته وذاتية الفن وإبداعه.

يحرص (أدونيس) على أن يتمتّع الناقد الحديث بثقافة واسعة تمكّنه من نقد النصوص الشعرية الحديثة والتركيز على جانبها اللغوي باعتباره الإطار الذي يتجسّد فيه الجمال والإبداع الشعري"أخلص إلى القول إن على الناقد الحديث أن يمتلك ثقافة تضاهي، على الأقل ، ثقافة الشاعر الذي ينقده.وعليه أن لا يجابه القصيدة بأفكار ومعايير مسبقة...عليه أن لا يجابهها من حيث أنها واقعية أو سريالية، مفيدة أو ثورية...إلى آخر هذه التصنيفات اللاشعرية. وإنما عليه أن يجابهها من حيث أنها نص لغوي –جمالي."[1]، ويتضح من هذا القول تأثّر (أدونيس) بالمنهج البنيوي والمناهج النصية بصفة عامة في النقد، وفي الوقت نفسه يركّز على عدم مقاربة النصوص الحديثة بأدوات نقدية موروثة، فالناقد الذي مازال خاضعاً للمفاهيم النقدية القديمة يستحيل عليه فهمُ الحداثة الشعرية أو استيعابها، فإذا استعصت عليه قراءتها فكيف يمكن له أن ينقدها وهذا يعني أنّه لا يمكن الفصل بين الحداثة الشعرية والحداثة النقدية "طبيعي أن الدعوة إلى انقلاب في فهم الحداثة الشعرية العربية تقتضي الدعوة إلى انقلاب مماثل في نقد هذه الحداثة."[2]،ولا يكتفي (أدونيس) بالدعوة إلى نقد حديث بل يحاول التأسيس له من خلال عرضه لمبادئ أساسية يجب أن يقوم عليها هذا النقد:

"1- المبدأ الأول الذي يجب أن ينطلق منه النقد الحديث في تقويم الشعر الحديث هو أن مفهوم الممارسة الكتابية الحديثة يختلف جذرياً عن المفهوم الذي استقر تراثياً-تاريخياً."[3]،على النقد الحديث أن يدرك التغيّر الحاصل في المفاهيم الموروثة والذي عليه تجاوزها لأنّه لا يمكن ممارسة النقد في ظلها،عليه أن يستند في مقاربته للنصوص على المفاهيم المستحدثة وعلى رأسها الشعر نفسه الذي شهد تحوّلاً في مفهومه ودوره.

"2- بدءاً من هذا المفهوم، ينبغي النظر إلى القصيدة الحديثة كنص يدرس ببُنيته الخاصة، أي ضمن العلاقات التي تقيمها لغة النص: تراكيب، وصوراً ، ورموزاً."[4]،انطلاقاً من تغير مفهوم

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 256

[2] المصدر نفسه ، ص 338

[3] المصدر نفسه ، ص 338

[4] المصدر نفسه ، ص 338

الشعر على النقد الحديث أن ينظر إلى القصيدة الحديثة نظرة مختلفة ، حيث تصبح القصيدة نصاً قائما بذاته وتكمن أهميته في بنيته الخاصة المشكّلة من علاقات تؤسسها لغته، هذه البنية تحيلُنا إلى مجهول وعلى هذا النقد أن يكشف أغواره.

"3- الممارسة الكتابية الحديث ممارسة استباقية."[1]، والاستباق يعني المغايرة مع الماضي ومع السائد والاتّجاه نحو المستقبل ،ويرى (أدونيس) أنّ لهذه الممارسة الاستباقية وجه سلبي يتمثّل في أنّها قطيعة مع أيديولوجية الكتابة السائدة، ووجه إيجابي يتمثّل في أنّ رؤاها وطرق تعبيرها معانقة للمجهول وهو ما يؤسّسُ لمفهومات جديدة تختلف كلّياً عن المفهومات المتوارثة توجّه النقد الحديث وتُخلّصه من ترسبّات النقد القديمة ، من هذه المفهومات الجديدة يذكر «أدونيس»: المنقطع و المتشابك ،الكثير ، اللامنتهي ....الخ.

"4- القصيدة –النص ، إذن، لا تعود مجرّد خيط نفسي، أو فكري، أو مجرد سطح انفعالي، وإنما تصبح نسيجاً حضارياً، شبكة/فضاء، يتداخل فيها إيقاع الذات وإيقاع العالم، وتحتضن الزمان الثقافي الخلاّق. "[2]، هذه القصيدة الحديثة هي التي تنتجها الممارسة الاستباقية التي تتجلّى فيها تجربة الذات العميقة إحساساً ومعرفةً ، وتشاكلها مع الكون وتحتضن اللحظة التي تزاوج بين الفكر والإبداع.

"5- النقد الحديث هو نقد هذا الفضاء في إيقاعه الشامل."[3] ، على النقد الحديث أن يتابع هذا الإيقاع الشامل ويتعامل معه ، هذا الإيقاع الذي جوهره الإبداع ووجهته التغيير الشامل ، لكن على هذا النقد أن يتسلح بوعي كبير ورؤية بعيدة وأدوات ناجعة مستحدثة وثقافة واسعة.

يكتنفُ لغة (أدونيس) شيءٌ من الغموض ، لأنّه يستعمل لغة قريبة من اللغة الشعرية غير المباشرة ، ومع ذلك فيمكن أن نوجز ما يذهب إليه ، إنّه يدعو النقد العربي الحديث أن يواكب التطور الذي تؤسسه القصيدة الحديثة وذلك بأن يتمكّن من استخدام أساليب وإجراءات وأدوات حديثة يحصل عليه من خلال المعرفة الواسعة والدراسات المعمقة والممارسات الموضوعية المسؤولة وعليه قبل ذلك التخلّص من المفاهيم الموروثة ، إنّ القصيدة الحديثة اليوم كما يذهب (أدونيس) تبتكر قارئها وناقدها، ومن القضايا الهامة التي تطرّق إليها(أدونيس) بكثير من الاهتمام، هي قضية التلقّي والقراءة ، وهو يدعو النقد الحديث إلى تناول هذه القضية

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 339

[2] المصدر نفسه ، ص 339

[3] المصدر نفسه ، ص 339

بإلحـــاح كبير ، لأنّ الحداثة الشعرية تقتضي تغييراً جذرياً يشملُ الإبداع والنقد وأيضاً المتلقّي باعتباره طرفاً مهمّاً في كلّ معادلة أدبية إبداعية ، لابدّ أن تتغير ذهنية المتلقّي التي تسيطرُ عليها ثقافة النظام المعرفي التقليدي،ففي ظلّ هذه الثقافة المتوارثة لا يمكن للمتلقّي أن يتفاعـــل مـــع النصوص الحديثة"إذا كانت هَيْمنة الماضوّية نوعاً من هيمنة البُنية السّياسيّة السّائدة، فإننا نُدرك كيف أنّ هذه الأخيرة تفرض،بطرقها الخاصّة،تراتُباً معياريّاً لطرائق الكتابة الـــشعريّة تـــؤدّي، بدورها،إلى طُرقٍ معيّنة في القراءة.هكذا نلاحظ ، في الممارسة القرائيّة–النّقديّة السائدة أنّ النصّ الشعري الذي لا تمكن قراءته بسهولة، أي لا يمكن استخدامه، وفْقاً لذلك التّراتبُ المعيـــاريّ، يُنفَى من ((مملكة)) النّظام الثقافيّ المهيمن، بحجّةٍ أو بأخرى: ((يُتّهمُ)) بأنّه مخالِفٌ لمعايير الكتابـــة الموروثة ((الأصيلة)) أو بأنّه مكتوبٌ بطريقةٍ تخرّب هذه المعايير، أو بأنّه ((غـــامِضٌ)) أو غـــيرُ ((جماهيريّ)) أو مناقضٌ لمصالح ((الجماهير))...إلخ. "[1].

يتّهم (أدونيس) النظام السياسي بترسيخ الاتّجاه التقليدي في القراءة وذلك من خلال نشر النصوص التقليدية وإدراجها في المناهج الدراسية والجامعية ، إضافة إلى استغلال وسائل الإعلام في التأثير على الرأي العام ، كما أن هذا النظام يهمّش النصوص الحديثة التي تحاول خلخلة هذه البنية السائدة بطرح التساؤلات وبإنتاج كلّ ما هو جديد ومغاير لمـــا هـــو ســـائد ، يـــدعو «أدونيس» النقد إلى تناول مسألة التلقّي/القراءة بنفس الجدّية التي يتناول بها مـــسألة الإبـــداع نفسه وذلك ببحث كيفية تذوّق النصوص الحديثة واستيعابها وهي مسألة تتجاوز النقد لتشمل النظام العربي بجميع مؤسّساته.

أخيراً يدعو(أدونيس) إلى حداثة نقدية وذلك كي يلعب النقد العربي دوراً في دفع عجلـــة الحداثة الأدبية، ولا يتمّ ذلك إلاّ بتخلّصه من المفاهيم المتوارثة واستحداثه أساليب خاصة تمكّنه من مقاربة النصوص الحديثة وإضاءة كلّ جوانبها، عليه أيضاً أن لا يكتفي بنقد النصوص بـــل يتجاوز ذلك ويتناول قضايا أخرى مرتبطة بالإبداع مثل مسألة تذوّق الشعر الحديث وكيفيـــة تلقّيه ،والنقد عند (أدونيس) فكر وإبداع "النقد في المشروع الأدونيسي تجاوز للأحكام القيمية التي بقيت ردحاً من الزمن ملازمة له في ظل النقد الانطباعي، هو اليوم ، لم يعد تلك الـــسلطة التي تفرض وصايتها على الإبداع ، مفضلة مبدعاً على آخر ، بل هو الإبداع نفسه،"[2] .

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 50–51

[2] عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر ، ص 169

2 – 5 – الثـــورة و الحداثـــة :

نقول ثار ثوراناً وثوراً وثورةً أي بمعنى هاج وانتشر، ويُقالُ ثار الّخان وثار الغبارُ وثار بـــه الشرُّ أو الغضبُ وثارتْ به الحصبةُ وثار الماءُ من بين كذا: بمعنى نبع بقوّة وشدّة وثار بفـــلان الناسُ بمعنى وثبوا عليه[1] ، والثورة كمصطلح لم يلق الاهتمام في الكتابات العربية إلاّ بعـــد أن قابله المترجمون العرب لكلمة (Révolution) عند الحديث عن الثورة الفرنسية والثورة الصناعية والثورة المجيدة في الفكر الفرنسي والفكر الانجليزي وبعد ارتباط الثـــورة بـــالفكر الماركـــسي الاشتراكي و بحركة تحرّر الشعوب العربية من نير الاستعمار وبانتشار حركة التحرّر عموماً في جميع أنحاء العالم، وذلك ما جعل مصطلح الثورة يرتبط بالمجال السياسي وهو ما يفسّر طغيـــان الوجه السياسي لهذا المصطلح على بقية الوجوه الأخرى، إنّ مجرّد ذكر كلمـــة الثـــورة في أيّ خطاب عادي تقفز إلى الأذهان فكرة تغيير نظام الحكم، من المفاهيم الشائعة المفهوم الماركسي للثورة الذي يرى "أنّ الثورة إحدى وسائل النمو والتطور الاجتمـــاعي ، وتهـــدف الثـــورة الاشتراكية (Révolution Socialiste) عنده إلى التخلّص من الرأسمالية والقضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان." [2]،وهو مفهوم يرتكز على محاربة النظام الرأسمالي باعتبـــاره نظامـــا يستغل طبقة العمال لتحقيق الربح الوفير والرفاهية لفئة قليلة في المجتمع إنّه وجه من وجوه النظام الإقطاعي ،ويرى في الثورة النظام العادل الذي يساوي بين كلّ فئات الشعب ويقسّم الثـــروة بالعدل وهكذا تختفي نظام الطبقات في المجتمع .

إذا انتقلنا إلى بعض الآراء الأخرى نجد بينها من يرى في الثورة ثـــوراتٍ ،فهنـــاك الثـــورة الفكرية التي تتمرّد على الوضع الثقافي السائد بسعيها إلى هدمه عن طريق البحث في المجهـــول وإدراك ما يقع خارج المجال الحسّي وذلك بالتفكير المستمرّ في مصير الإنسان وفي سرّ وجوده، كما تجتهد في إنتاج كلّ ما هو مناقض أو على الأقلّ مغاير لما هو سائد، وهناك الثورة النفسية والتي تقتصر على علاقة الإنسان بنفسه ومحاولته استكشاف قوته الباطنية وطاقاتـــه المكبوتـــة وصراعه الداخلي من أجل تغليب قوة الخير على قوة الشر الكامنة فيه،أمّا الثورة الاجتماعيـــة فتسعى إلى تجسيد المساواة بين أفراد المجتمع وفئاته وذلك بمحاربة كلّ أنواع التمييز والقـــضاء على المصالح الشخصية وترسيخ مبادئ الحرية والمساواة والتضحية من أجل الوطـــن والتقـــدم

---

[1] ينظر ، المعجم الوسيط ، مادة :ثار

[2] ينظر ،مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي ، مادة ثورة

...الخ، وهناك الثورة العلمية وهي في الأصل ثورة فكرية في موضع التجريب، إنّها ثورة البحث الذي يقوده العقل في مجالات المعرفة ويسعى من خلال نشاطاته الاستكشافية والتفسيرية إلى توفير السعادة والرفاهية للكائن البشري، ثمّ هناك الثورة الصناعية و تأتي كنتيجة طبيعية للثورة العلمية،وتسهم في تنشيط حركة الاقتصاد وتطور حركة النقل والإعلام وعموماً فهي ترتبط بالحياة اليومية للإنسان ولها تأثير كبير في التحولات التي يشهدها العالم اليوم، وأخيراً تأتي الثورة السياسية كتجميع لكلّ الجوانب الإيجابية للثورات السابقة هي التي تؤسّس لنظام سياسي يحقّقُ الأهداف التي تسعى إليها جميع الثورات السابقة من خلال توفير الجو المناسب والبيئة الملائمة.

ما يجب التنبيه إليه أنّه لا يوجد مفهوم دقيق موحّد لمصطلح الثورة لكن ما هو مشترك بين أغلب مفاهيمها أنّها تسعى إلى تغيير الوضع القائم إلى وضع أحسن يحقّق – على الأقلّ- بعض ما تطمح إليه كلّ ثورة وإن تعدّدت الأساليب والوسائل "الثورة بشكل عام هي عملية هدم وبناء، وهي الانتقال إلى تشكيلة جديدة.وقد تحدث الثورة في أوقات مختلفة وبلدان مختلفة بقدر نضوج الظروف والمقدمات لها.كما أنّ الثورة تمثل انعطافاً حاسماً تطول المفاصل والانساق البنيوية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية...الخ وتستهدف بناء علاقات انسانية جديدة وخلق انسان جديد في فكره وعاداته وتقاليده ونظرته إلى الطبيعة وقوانينها."[1]، فالثورة تهدف إلى تغيير جذري يحقّقُ مطالب غالبية أفراد المجتمع ،بعد أن أصبح الوضع القائم لا يستجيب لمتطلباتهم ولا يرقى لطموحهم، وينتج عنها وضع مختلف في أفق رؤية جديدة للعالم وللوجود وللمستقبل، وعرف العالم ثوراتٍ عديدة أشهرها الثورة الفرنسية، الثورة الصناعية، الثورة البلشفية، الثورة الجزائرية...الخ، وفي المجال الثقافي ارتبط مصطلح "الثورة الثقافية"بالزعيم الصيني (ماو تسي يونغ)(Mao Tse Tung) على الرّغم أنّ البعض يرى أنّ مصطلح "الثورة الثقافية" "يعود – في الحقيقة – إلى "الأدبيات السياسية" اليابانية في القرن الماضي، التي يكاد يكون كتّابها مجهولين خارج اليابان، ويقال الآن أنّ صاحب المصطلح يسمى هوسوماتا، وأنّه كان أستاذا لعلم الحساب في جامعة طوكيو القديمة، وأنه قال ما معناه: أن التطور الصناعي والعسكري لليابان، يحتاج إلى ثورة ثقافية، أي تغيير أنماط السلوك العام والعادات البالية."[2].

يمكن أن نستخلص من هذه المقدمة المقتضبة أنّ الثورة والحداثة يلتقيان في عنصر مهم جدّاً

---

[1] شاكر اليساوي : في بعض المفاهيم والأفكار ، دار الينابيع ، دمشق – سوريا ، (د، ط) ، 1996 ، ص 50

[2] سامي خشبة :مصطلحات فكرية ، ص 100

وهو السعي الحثيث إلى تغيير الأوضاع السائدة والتوق إلى الحرية، بل جوهر الحداثة هو الثورة المستمرة التي لا تنطفئ أبداً،ولمصطلح الثورة قوة تعبيرية جعلت الكثير من الكتاب وغيرهم يستخدمونه للتعبير عن أي تغيير جذري وشامل .

بين (أدونيس) والثورة علاقة عشقٍ أبدي تتجلّى في فكره وحواراته ومواقفه وكتاباته كيف لا ؟ وكلاهما يحمل في داخله التمرّد المستمرّ والرفض الشديد ويتطلّع إلى كلّ جديد ومختلف عن طريق التغيير الجذري والشامل لجميع بُنى المجتمع التقليدية، ومن يتابع مسيرته لا يُفاجأ ويدرك بعمق طبيعة العلاقة بينه وبين الفكر الثوري، لقد عاش طفولته على حكايات الثورة العربية ضد الهيمنة التركية وويلات الحرب العالمية الثانية وعاش شبابه في زمن الثورات العربية وغير العربية وهي فترة ساد فيها الفكر التحرّري والفكر الماركسي إلى جانب أنّها فترة عرفت اشتداد الصراع العربي الصهيوني، إضافة إلى كلّ ما سبق نجد شخصية (أدونيس) التي تتّسمُ بكره الجمود والتكرار وتترعُ إلى التغيير الجذري لكلّ ما هو موروث أو تقليدي وتتطلّع إلى البحث في المجهول وتأنف أن تبحث في المعلوم المعروف، فلسفة التجديد والبحث في المجهول من المبادئ الأساسية التي ميّزت منهج (أدونيس) في الحياة، هذا الفكر لن يجد في تلك الفترة مصطلحاً معبّرا بقوة عنه أكثر من مصطلح الثورة وبخاصة إذا علمنا أنّ مصطلح الحداثة لم يتبلور بعد في الأدب والفكر العربيين في فترة الخمسينيات والستّينيات.

رأينا سابقاً أنّ الجانب السياسي يطغى على الجوانب الأخرى في مفهوم الثورة لكن عند (أدونيس) لا يشكّل هذا الجانب إلاّ بعداً من أبعاد الثورة التي تعني الحركة الشاملة التي تمسّ جميع مستويات الحياة "الثورة حركة شاملة ليست السياسة فيها إلاّ بعداً واحداً من أبعاد كثيرة، اجتماعية ، ثقافية، فنية ، جنسية.ويجب أن تتحرك هذه الأبعاد وتنمو معاً في حركة الثورة."[1]، هذا الرأي ناتجٌ عن رؤية شاملة لا تقتصر على مجال دون آخر إنّها تسعى إلى تغيير كلّ البنى والعقليات السائدة وبخاصة الماضي الذي يجب أن لا يبقى محاطاً بالتقديس، بل عليه أن يواجهَ بالنقد وأن يُتجاوزَ وهذا ما طرحه(أدونيس) في افتتاحية العدد الثاني من"مواقف" في(ديسمبر 1968م)يقول"تعني الثورة، فيما تعني، نظرة جديدة.هذه النظرة تتضمن،بالضرورة، نقداً لما سبقها، سواء كان دينياً أو غير دينيّ.وتتضمّن، بالضرورة، تجاوزاً لما سبقها. "[2] ، و هي لهجة

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 103-104

[2] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 175

حادّة و جريئة تعبّر عن موقف متشدّد نحو التراث العربي في فترة زمنية كان النظام المعرفي التقليدي مهيمناً على الفكر العربي هيمنة شبه كاملة، هذا الموقف نحو التراث سيتغيّر كما رأينا سابقاً بمرور الزمن و يجنح إلى الكثير من الليونة والاعتدال،والموقف في حدّ ذاته ثورةٌ عارمة على كلّ ما هو موروث وتقليدي واندماجٌ في الحاضر ومُستجدّاته بل وتجاوزٌ له للانطلاق إلى مستقبلٍ يحمل الكثير من الجديد، إنّه ثورة على مظهر السائد وجوهره وهو ما يؤكّدهُ في افتتاحية العدد الثالث من "مواقف" (فبراير 1969م) حين يقول "لكن الثورة هي في آن، الواقع وما يتجاوزه.وما يتجاوز الواقع هو ضوء الثورة الحقيقيّ.الثورة لذلك فَنٌّ موت وفنّ إضاءة في آن.فَنّ اندماج وتجاوز.فَنٌّ إبادةٍ وإحياء.فنّ الوحدة الجديدة بين شكلٍ ومضمونٍ جديدين."[1].

لا تقبل الثورة الأدونيسية بأنصاف الحلول إنّها تسعى بكلّ طاقاتها لتغيير الوضع بأكمله ولا تكتفي بالحاضر المغاير بل تتوق إلى مستقبل لم تتّضح ملامحه بعد، وفي نفس هذه الافتتاحية يرى (أدونيس) أنّ الفكر الثوري عليه أن يتحرّر من ترسبّات الفكر الموروث لأنّه لا يمكنُ أن تقوم الثورة بفكر قديم يعيش على هامش العصر الراهن أو ربّما خارجه، فكر عاجز عن حلّ إشكاليات هذا العصر ولذلك فالثورة العربية عليها أن تواجه المستعمر الخارجي كعدو أوّل متطوّر وتواجه في نفس الوقت عدوّاً آخر متخلّفاً ومهيمناً يسيطرُ على الذّهنية العربية ويُوجّهها، هذه الثورة لا يمكنُ أن تُحقّقَ ذاتها وتنتصر إلاّ بعد تهزم العدوين معاً،ومن ثمّ تؤسّسُ بنية جديدة للمجتمع العربي كي يتمكّن الحاضر من التعامل مع المستقبل"فالثورة ليست القبض على السّطح.بل القبض على الجوهر: ليست تغيير التاريخ وحسب، بل إنها كذلك، تسييرُه وصنعه.إنها الانتقال من المغلق إلى المنفتح.من المحدود إلى اللاّنهائي.إنها ليست حركة تحرير((خارج)) الإنسان بقدر ما هي حركة تحرير((داخل)) الإنسان."[2]،وهو بذلك يصل إلى صميم الثورة الحقيقية ، فالنفس البشرية هي التي تحمل التغيير وتجسّده على أرض الواقع، والإنسان الذي لم يتحرّر داخلياً من أفكاره القديمة،من الخنوع والرّضا بالواقع وبالهزيمة وبالجمود لا يمكن أن يقوم بثورة جذرية تمكّنه من الحصول على الحرّية بمعناها الشامل ومن ثمّ العبور إلى المستقبل ،يتجلّى من هذا القول إنّ (أدونيس) كان شديد الوعي بالأفكار التي يطرحها،فمفهوم الثورة عنده لا يتناول القضايا الهامشية في المجتمع ، بل يتميّز بالعمق والشمولية

[1] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 177-178

[2] المرجع نفسه ، ص 178

ويركّزُ على النـــواحي ذات التأثير الكبير على الوضع العربي برمّته، ولذلك فالثورةُ لا يجـــب أن تقتصر على المجال السياسي-الاقتصادي-الاجتماعي، بل لابُدّ أن تمتدّ إلى المستوى الثقـــافي وتقوّضُ البنية الثقافية القديمة لتحلّ محلّها بنية جديدة تجيب عن جميع التساؤلات التي يطرحهـــا العصر وتزيح العقبات التي تواجه حركة المجتمع نحو التقدّم .

لا يقوم بهذه الثورة إلاّ المثقف العربي الذي يقود هذه الحركة "من يقوم بالدور المباشر الأول في هدم البنية الثقافية القديمة؟ المثقفون-الثوريون أي الكاتب الذي لا يكتفي بالهدم، وإنما يقدم بديلا لما هدمه.هكذا تواكب الثورة الثقافية ، الثورة الاقتصادية والسياسية.وهكـــذا تتكامـــل الثورة."[1]، هذا المثقّف العربي الذي يسهم في الثورة الشاملة لا يتمكّن من هدم البنية الثقافيـــة القديمة إلاّ إذا أسّس ثقافة عربية مختلفة تنطلق من موقف ورؤية جديدة للعالم وعن قناعة كاملة بالتغيير إلى ما هو أفضل.

ويعرضُ (أدونيس) غايات الثورة وأهدافها من خلال أحلام الثائر العربي -الـــتي هـــي في حقيقة الأمر أحلام (أدونيس) نفسه- هذا الثائر العربي لا يكتفي بالحلم وإنما يقرنه بالاجتـــهاد ويعملُ كلّ ما في وسعه من أجل تحقيق ما يصبو إليه، إنّه يحلمُ بالقضاء على الجانب المظلـــم في النفس البشرية والمتمثّل في الطغيان والعبودية والعنصرية.....وما ينتجُ عنها من فقـــر وجهـــل ودمار، إنّه يحلم بأن تسود الحرّية والإبداع والنقد البنّاء والكشف والمعرفة اللانهائية وأن تتأسّس رؤية جديدة شاملة للوجود وللأنا وللآخر وأن يتجاوز الفكر العربي الوثوقيات التي تغلق آفاقه وتعطّل حركته وتمنع التساؤل من التنفّس وتسدّ أبواب البحث، باختصار يحلم الثائر العربي "في هذه المرحلة الثورية-الكونية، أن يكون تغيير المجتمع العربي شاملاً وجذرياً.ويدرك أن التغـــيير الثوري لا يقتصر على إعادة بناء السياسة، وإنما يشمل إعادة بناء المجتمع ككل."[2]،ولا يتحقّقُ ذلك إلاّ إذا كان الإيمانُ بأنّ الثورة هي حاضر هذا العربي ومستقبله.

عندما يتحدّثُ (أدونيس) عن الثقافة الثورية نشعرُ وكأنّه يتحدث عن الحداثة وفي كثير من السياقات يتطابق مفهوما الثورة والحداثة مثل قوله "وإذا كانت الثورة هي الثقافـــة الوحيـــدة الحقيقية للشعب الذي يريد أن يحطم أغلاله،ويتقدم، ويصنع نفسه بنفسه، فـــسوف يـــرى أن الثقافة التي تسود الحياة العربية هي التي تبقي على الارتباط بالغرب، أي التي يمكن وصفها بجميع

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، المرجع السابق ، ص 88

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 103

الصفات إلاّ صفة الثورية.فهي إما أنها غارقة في اجترار الثقافة الماضية، وإما أنها غارقة في اجترار الثقافة الغربية.إنها، في الحالين، ثقافة استلاب لا ثقافة ثورة."[1] ، وبتأمّل قصير ندرك أنّ (أدونيس) في هذا القول يتحدّث عن الحداثة ولكن من خلال مصطلح الثورة و لم يستخدم الحداثة لأنه لم يتشكّل بعد في الفكر العربي في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، إنّه يريد تأصيل مصطلح الثورة كي يكون عربيًا معاصرًا لا يرتدّ إلى الماضي ولا يعكس ثقافة الآخر الغربي وهو موقف مطابق تماماً لموقفه من الحداثة العربية المعاصرة، والتغير في استخدام المصطلح أو تحوّل المفهوم في الكتابات العربية يعود أساسًا إلى التغير في الظروف والمراحل وعدم الاستقرار في استعمال المصطلحات لتخبّط الفكر العربي بين المذاهب والمناهج المتجدّدة، ولذلك فالكاتب العربي يجد نفسه تائهاً يبحث عن المصطلح الذي يعبّر بصدق عن فكره وآرائه، وسرعان ما يستبدلُ مصطلحاً بمصطلح آخر حين يجد في هذا الأخير التعبير الأقوى والأدقّ وهو الرأي الذي ذهب إليه(مصطفى خضر)حين لاحظ أنّ مفهوم النهضة تحوّل إلى مفهوم الثورة ثم إلى مفهوم الحداثة " وفي كل مرحلة من حياة العرب الحديثة والمعاصرة كان ثمة نقد بمعنى ما، وكان ثمة نقد إلى حد ما أيضاً... وكانت الفرضيّة الرئيسة التي انشغل بها، واشتغل عليها،هي نهضة الأمّة والشعب أو المجتمع أو الوطن. وتحوّل مفهوم النهضة، التي كانت إحياء قومياً أو بعثاً قومياً إلى مفهوم الثورة، أكانت ثورة عربية قومية أم طبقية أم إسلامية... وانتهى مفهوم الثورة إلى مفهوم الحداثة!"[2]،وفي كتابات (أدونيس) الأولى نجده يستخدم مصطلح الثورة للتعبير عن فلسفة التجديد التي يحملها عوض مصطلح الحداثة الذي لم نجد له أثرًا في هذه الكتابات، وما يؤكّد الرأي السابق استخدام (أدونيس) الثورة كنقيض للتقليد في قوله "إن المجتمع لا يمكن أن يكون إقطاعيًا واشتراكيًا في آن،كذلك لا يمكن أن يكون ثوريًا وتقليديًا في آن."[3]،ولنرى قوله "الشعر هو دائمًا شعر شاعر معين والثورة هي دائمًا ثورة شعب معين."[4]، ألا يذكّرنا هذا بحديثه عن خصوصية الحداثة التي ترتبط بخصوصية شعب وعبقرية لغته، ولنرى قوله "الثورة تتجسد في أعمال تخلخل باستمرار نظام القيم الحضارية، أي تحول باستمرار مفهوم الثورة."[5]،

---

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 124-125

[2] مصطفى خضر: النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعة نقدية عربية معاصرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق – سوريا ، (د، ط) ، 2001 ، ص 65

[3] أدونيس : زمن الشعر ، ص 89

[4] المرجع نفسه ، ص 73

[5] المرجع نفسه ، ص 73

وهو ما يذكّرنا أيضًا بحديثه عن تحول مفهوم الحداثة وعدم استقراره ، وهو يشير أن الثورة تحمل نقدًا ذاتيًّا لكي تضمن استمرارها وهو ما ينطبق على الحداثة، ولنتأمّل قوله "إن الثورة تؤدي حتميًّا إلى تفكّك البنية الحضارية القديمة وزوالها.كل ثورة على المحتوى هي كذلك ثورة على الشكل، وثورة في طريقة الفهم والنظر."[1]،حيث يتجلّى التطابق بين مفهوم الثورة ومفهوم الحداثة عند (أدونيس) ، فالحداثة هي أيضًا تؤدي إلى زوال البُنى القديمة وتستبدلها ببنُىً حديثة، كما أنّ كل حداثة في المحتوى هي بالضرورة حداثة في الشكل وحداثة في طريقة الفهم والنظر.

كثيرًا ما يربط(أدونيس) الثورة بالشعروحين يلجأ إلى تحديد مقياس الثورة في الشعر يقول "وأرى أن تحديد هذا المقياس يجب أن يعتمد على:

1-تفكيك البنية الثقافية العربية القديمة التي تتعارض مع الثورة، وهدم هذه البنية وتجاوزها.

2-فتح آفاق جديدة تتيح نشوء البنية الثقافية الثورية الجديدة."[2]، أليس هذا المقياس من مقتضيات الحداثة الشعرية نفسها وهو ما يتّضح أكثر حين يتحدّث عن الشاعر الثوري "إن الشاعر الثوري يرتبط بتطلعات الإنسان، بحركة الكشف، بهاجس التغيير والتجاوز، يرتبط بابتكار المستقبل.بهذا وحده يستطيع أن يؤثر في وعي القارئ، أي في وعي الجمهور."[3]، والشاعر الثوري الذي يتحدّث عنه (أدونيس) يواجه كما يقول إشكالية فهم الجمهور لشعره، فالمتلقي وتحت أفق الهيمنة الواسعة للثقافة التقليدية يجد صعوبة في التواصل مع الشاعر الثوري وهو ما يجعل هذا الأخير مضطّرًا إلى الاتّجاه إلى فئة قليلةٍ من الجمهور لكنّها متميّزة ومنتجة وتسهمُ في نشوء الثورة الشاملة وهنا في حقيقة الأمر يتحدّث بلا ريب عن شاعر الحداثة،والشعر الثوري عند (أدونيس) يستحيل أن يأتي من الماضي لأنّه يعبّر عن تطلّعات وأمنيات الثورة التي تسعى إلى تغيير الواقع ليس بالعودة إلى الماضي ولكن بالانطلاق نحو المستقبل"إن الثورة هي علم تغيير الواقع،والشعر الثوري هو البعد اللغوي (بالمعنى الشامل لكلمة لغة) لهذا العلم المغير.الشعر الثوري، بهذا المعنى لا يجيء من الماضي، بل من الحاضر-المستقبل."[4]،هذا الشعر الثوري هو الذي يؤسّسُ لكتابة ثورية جديدة تختلف شكلاً ومضموناً عن الكتابة القديمة وتسهمُ في بناء ثقافة جديدة ونظام معرفي عربي جديد، هذه الكتابة الجديدة

---

[1] أدونيس : زمن الشعر، ص 89

[2] المصدر نفسه ، ص 126

[3] المصدر نفسه ، ص 102

[4] المصدر نفسه ، ص 103

هي الكتابة الثورية وهي البعد الرؤياوي للثورة وهي كتابةٌ لا يمكن أن تنشأَ إلاّ بلغة عربية جديدة يسمّيها (أدونيس) لغة ثورية .

والثورة في اللغة هي الثورة التي تهدم اللغة القديمة عن طريق تفجير اللغة العربية واستخراج طاقاتها الابداعية التي لا نهاية لها "الثورة اللغوية هنا تكمن في تهديم اللغة القديمة، أي في إفراغها من القصد العام الموروث.هكذا تصبح الكلمة فعلا لا ((ماضي)) له، تصبح كتلة تشع بعلاقات غير مألوفة."[1]، وليس من السهل كما يقول (أدونيس) جعل اللغة العربية لغةً ثورية وهي مسألة من أعقد المشكلات التي تقف عائقاً أمام مسيرة الثورة العربية ، لأنّه من العسير تحويل الكلمة ومن ثمّ الكتابة إلى قوة إبداع وتغيير تضعُ قطار الفكر العربي التقليدي على سكة البحث والتساؤل، وينبّه (أدونيس) إلى أنّ الثورة في اللغة ليست في الشكل الخارجي لهذه اللغة "وإنما هي تفجير للغة من الداخل.إن ثورة اللغة حين تقتصر على الشكل ، على الجرس وإيقاعاته النغمية ، تتحول إلى ترجيع مرضي."[2] .

كلّ السياقات التي يُوردها (أدونيس) عند حديثه عن الثورة الشاملة والثورة في الشعر والشاعر الثوري والثورة في اللغة تبيّن بما لا يدعو للشك أنّه يتحدّث عن مفهوم الحداثة الشعرية قبل أن يظهر مصطلح الحداثة في كتاباته بعد، وهو ما يعني أن مصطلح الثورة في كتاباته الأولى يعبّر عن مفهوم الحداثة الذي يستعمله في ما بعد ويتخلّى شيئاً فشيئاً عن مصطلح الثورة الذي يقلُّ كثيراً في كتاباته الأخيرة، وحين يقسّمُ (أدونيس) الحداثة إلى مستويات ثلاثة يرى أنّ لها مفهوم علمي وفني وثوري والمفهوم الثوري للحداثة هو المرتبط بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

وفي حوارٍ له وفي معرض إجابته عن السؤال كيف تحدّدُ العلاقة بين الحداثة والثورة في المجتمع العربي اليوم؟ قال أنّ التغيير الذي طرأ على المجتمع العربي تغيير شكلي سطحي وليس نوعياً، بمعنى أنّ أغلب العرب يعيشون في حياة حديثة بمنجزاتها لكنّهم بذهنية قديمة وطرق تفكير تقليدية ويعني ذلك أنّ العربي اليوم يعيشُ حالة اغتراب واستلاب تُبعدهُ عن ذاته وهو ما جعل الجهدَ الإبداعيَ العربي اليوم يُبذلُ في سبيل استرداد هذه الذّات "ومن هنا تتلاقى الحداثة والثورة- فكل جمهور عربي حديث لابد أن يكون ثورياً، وكل شعر عربي حديث لابد أن

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 131

[2] المصدر نفسه ، ص 131

يكون ثورياً،ولكن ليس بالمعنى السياسي الجزئي المباشر، وإنما بالمعنى الحضاري الشامل."[1]، وهو قول قد يبيّن العلاقة بين مصطلح الحداثة ومصطلح الثورة بالمفهوم الشامل، وذلك حين بدأ (أدونيس) باستخدام مصطلح الحداثة (أجري هذا الحوار في أيار1974م) ، فالحداثة تؤدّي إلى الثورة بالمعنى الحضاري الشامل، وهي الثورة التي تغيّر في العمق ،أي تسهمُ في تغيير المواقف المبدئية والذهنيات والرؤى ،والثورة بمعناها الحضاري الشامل أيضاً ستؤدّي حتماً إلى الحداثة، وهذا ما يعني أنّ الحداثة العميقة هي ثورةٌ شاملة، والثورة الشاملة هي حداثة عميقة.

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 251

الفصل الثالث

الحداثـــة والشعر عند أدونيس

- توطئة:أدونيس والتجديد في الشعر العربي
- ماهيـــة الشعر
- اللغة الشعرية
- الإيقـــاع و الوزن
- التلقـــي

توطئة:أدونيس والتجديد في الشعر العربي

الشعر عند (أدونيس) عشقٌ أزليّ رافقه منذ نعومة أظفاره وسيظلُّ حتّى بعد مماته، ولا خلاف في أنّ (أدونيس) ظاهرة عربية شعرية متميّزة في أدبنا المعاصر،وهو إلى جانب ذلك مفكّر لا تقلّ دراساته التنظيرية أهمّيةً عن كتاباته الشعرية وهو يحمل رؤية إزاء الحياة والمجتمع "أدونيس،لا شك، ليس مجرد شاعر،بل هو أيضاً منظر للشعر، إن لم يكن أهم منظر للشعر بين ظهرانينا.وهو أيضاً صاحب فكر وصاحب نظرة إلى الحياة والعالم نجد آثارهما الواضحة في نثره لدى معالجته لشتى القضايا، سواء ما تعلق منها بالشعر أو بغيره."[1]،و(أدونيس) شاعر فوق العادة، لأنّ الشعر عنده ليس فنّاً فقط وليس تجربةً وحسب، إنّه أبعدُ من ذلك بكثير، إنّه نوعٌ من النبوة، شكل عجيب من أشكال الرؤيا التي تحمله إلى عوالم أخرى، إلى وجودٍ آخر لا تدركه الأحاسيسُ ولا تحيط به العقولُ، لأنّه يتجلّى في ما وراء هذا الواقع المادي،و(أدونيس) يؤمن بقدرة الشعر على التغيير إيماناً غريباً يدعو إلى التعجب والاستغراب، لأنّ هذا الإيمان جاء في عصرٍ تراجع فيه الشعر وانحسر أمام طغيان الصورة وتكنولوجيا الاتّصال،ولكن قد يزول هذا الاستغراب إذا علمنا مدى تأثر(أدونيس) بالصوفية الإسلامية والسوريالية والفلسفة الغربيتين وهي اتّجاهات تبحث في المعارف التي تتجاوز قدرة العقل "الشعر بالنسبة لأدونيس مغامرة أنطولوجية يدخل من خلالها الشاعر إلى عالم متعدد الأبعاد ،تضحى فيه الذات تمارس كينونتها كامتداد لاستمرارية الوجود الإنساني، وكصيرورة تاريخية تعيد اكتشاف التشكّلات والممارسات الخطابية التي أضمرتها علاقات قوى وإرادات سلطة كانت سائدة،"[2].

لم يقتصر تميّز (أدونيس) على الجانب الإبداعي الشعري بل تعدّاه إلى الجانب الفكري و إلى مواقفه التي أثارت الكثير من الجدل في الساحة الفكرية العربية، ويتميّز فكره بالتجديد والرفض لكلّ المفاهيم الموروثة سواء في الشعر أو في الثقافة بصورة أشمل وهذا (يوسف الخال)رفيقه في مجلة (شعر) يقول"فنحن لا نجدّد لأنّنا قرّرنا أن نجدّد، بل لأنّ الحياة تتجدّد فينا.فالمستقبل لنا، ولا حاجة بنا إلى صراع مع القديم."[3]، فالتجديد سنّة من سنن الحياة والثبات موت وسكون والحياة لا تقبل إلاّ الحراك والتحوّل، وقد وجد(أدونيس) في الحداثة وأطروحاتها كلّ ما كان يصبو إليه، فهي الثورة التي لا تعرف الخمود والحركة التي لا تتوقف والبحث الدائم عن الجديد

---

[1] عادل ضاهر :الشعر والوجود دراسة فلسفية في شعر أدونيس ،دار المدى للثقافة والنشر، دمشق – سوريا ، ط1، 2000 ، ص15

[2] عبد العزيز بومسهولي: الشعر والتأويل قراءة في شعر أدونيس ، أفريقيا الشرق ، بيروت – لبنان ، (د،ط) ، 1998 ، ص 14

[3] يوسف الخال : الحداثة في الشعر ، ص 93

والكشف المتواصل للمجهول والدفع المستمر بالإبداع إلى أقصى درجات التفجّر، ولهذا أصبح(أدونيس) المنظر الأول للحداثة الشعرية في الأدب العربي و لم يقترن اسم أحدٍ كما اقترن اسمه بها ولا أحد ينكر أيضاً –حتى الرافضين لها- مدى التأثير الذي مارسته الحداثة في الشعر العربي في القرن العشرين"لقد أحدثت حركة الحداثة هزة بل زلزالاً في ميدان الشعر وحاولت إحداث تغيير نوعي في طبيعة التعاطي مع هذا الفن العربي المميز."[1].

تمكّن(أدونيس) من خلال الحداثة–أو تمكّنت هي من خلاله– أن ينشئ جيلاً من الشعراء العرب الذين آمنوا بأطروحات الحداثة وفكر التجديد الذي تحمله وسعوا إلى تأسيس مرحلة جديدة وبداية أخرى للشعر العربي قد لا نجد لها مثيلاً في عمره الممتدّ،وعلى الرغم من أنّ الكثير يشكّكون في قيمها ويرتابون في أمرها بل ويذهبون إلى أنّ عمرها لن يطول كثيراً،على الرغم من كلّ ذلك فلا يمكن تجاهل الخلخلة التي أحدثتها في الثقافة الشعرية العربية المعاصرة.

يسعى مشروع الحداثة الأدونيسية إلى تجديد كلّ المفاهيم الموروثة حول الشعر وإحداث نوع من القطيعة مع البنية التقليدية له وتكمن خصوصية (أدونيس) في أنّه المنظر والمفكر والشاعر في آن واحد ولا يمكن فصل هذا عن ذاك "ويربط أدونيس الموقف الفكري والموقف التنظيري والسلوك الإبداعي معا، فهو لا يُطلق الرؤى والأحكام والمواقف إلاّ ليؤسّس على ضوئها انطلاقة نوعية نحو تجسيد أثر هذه المواقف شعراً، أو نثراً،"[2]،وبطبيعة الحال فالحداثة الأدونيسية لا مفهوم ثابت عندها،كلّ المفاهيم في مشروعها معرّضة للنقد ولإعادة النظر وأوّل هذه المفاهيم مفهوم الشعر الذي يجب أن يتغيّر كلّيا كي يتلاءم مع روح العصر ويستجيب لحياة الإنسان المعاصر المعقّدة والمنفتحة على المجهول، ولابدّ أن تتغيّر لغة الشعر باعتبارها الجسد الذي يحتضنه، ولا يمكن أن تقبل الحداثة الأدونيسية بالبنية الإيقاعية القديمة التي تحدّ من حرية الإبداع وتمنعه من أن يكتشف إيقاعاً جديداً ينساب مع انفعالات النفس وبخاصة أنّ اللغة العربية غنيّة بموسيقاها، وفي نفس المسار تسعى هذه الحداثة أن تصنع قارئها الذي يتمكّن من قراءة شعرها وفق مقاييس جديدة متحرّرة من المقاييس القديمة، يمكن أن نوجز فنقول أنّ (أدونيس) يسعى من خلال مشروعه أن يؤسّس–وهو المغرم بالبدايات-بداية للشعر العربي، فيتأسّس شعر جديد لا تربطه بالشعر العربي القديم سوى أنّهما ينطقان بلسان عربي واحد .

---

[1] محمد حمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها و مظاهرها ، ص 354

[2] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 172-173

3-1 – ماهيـــة الشعـــر :

الشعر من أبرز الفنون ارتباطاً بالإنسان وأقدمها نشأةً ويعود ذلك إلى اقترانه بأكثر صفات الإنسان تميّزاً وعلى رأسها المشاعر و اللغة "ارتبط الشعر بالإنسان منذ الأزل لأن الإنسان هـــو الكائن الحي الوحيد الذي يحس بالألم، ويتذوق الجمال ويحسن التعبير عنهما."[1] ،واللغة كانت في العصور الأولى تلبي حاجيات الإنسان الضرورية كالحاجة البيولوجية والحاجة للتواصل مـــع الآخر وغيرها، لكن مع مرور الزمن ومع تطور الفكر تجاوزت وظيفتها النفعيـــة إلى وظـــائف أخرى كالوظيفة الجمالية التي مثّلها فن الشعر بقوة "قد ارتبطت نشأة الشعر بمرحلة من مراحل نمو اللغة لدى الانسان، حين أصبحت اللغة ذات طابع جمالي،بعد أن كانت نفعية مباشرة."[2].

ارتبط الشعر في مراحله الأولى بلغة الكهّان والفلاسفة واقترن بعالم الغيبيـــات والأســـاطير والحديث عن الشعر متشعّبٌ والحديث عن الشعر العربي أكثر تشعّباً واتّساعاً فهو الفـــنّ الأوّل عند العرب وهو "ديوانهم" و لم تحتف ثقافة بالشعر كما احتفت به الثقافة العربية ويعود ذلـــك إلى عوامل قد يكون على رأسها طبيعة اللغة العربية ذاتها وطبيعة البيئة الصحراوية التي نشأ فيها العربي وهي بيئة تدعو إلى التأمّل والتحاور مع الذات والكون إضافة إلى نمط المعيشة التي كـــان يحياها هذا العربي والقيم التي آمن بها ...الخ، وإذا كان التعريف الشائع عند العرب للشعر أنّـــه "الكلام الموزون المقفّى" فهذا لا يعني أنّ القدماء اهتمّوا بالإيقاع وحده فكثيراً ما نجد في التراث آراء اهتمّت بجوانب أخرى كالصياغة والتصوير والتأثير على السامع وغيرها،ثمّ أنّ هذا التعريف الذي كثيراً ما ينظر إليه المعاصرون بعين السذاجة والسطحية لم يكن الغرض منه تحديد مفهومٍ للشعر بقدر ما كان الغرض منه التمييز بينه وبين النثر وبينه وبين القرآن الكريم، ويدرك أهـــل المنطق جيّداً أنّ هناك فرقاً بين هذا التعريف وبين القول "إنّ كلّ كلام موزون مقفى هو شعر".

على الرغم من التطوّر الذي شهده الشعر العربي عبر مسيرته الطويلة، فإنّ أهمّ تحول شهده كان في القرن العشرين، إذ بدأت نظرة العرب تتغير نحو هذا الفن الأصيل لأسباب عديدة قـــد يكون أهمّها اتّصالهم بالغرب إلى جانب التحوّلات الكبرى التي مسّت المجتمع العربي على جميع المستويات إضافة إلى الأحداث الجسيمة التي مرّت بها هذه الأمّة، وانطلاقاً من هـــذه النظـــرة الجديدة بدأ النقاد يبحثون عن مقاييس جديدة ومناهج مغايرة لمقاربة النصوص الشعرية واجتهد

---

[1] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 200

[2] محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 361

الشعراء في إنتاج نصوص تحاول التحرّر من النمط القديم للشعر التقليدي وهكذا "شهد القرن العشرون محاولات شتى في سبيل تطوير الشعر العربي ليس لها نظير في تاريخ هذا الشعر الطويل."[1]، لقد شهد هذا القرن ظهور الشعر المرسل الذي تحرّر من وحدة القافية (عبد الرحمان شكري)،والشعر الساعي إلى تأسيس لغة شعرية جديدة (جبران خليل جبران)، ثمّ جاء شعر التفعيلة كمحطّة مهمّة في تطور الشعر العربي على يد (نازك الملائكة)و(بدر شاكر السيّاب) وصولاً إلى قصيدة النثر التي تبنّاها شعراء الحداثة.

على الرغم من أنّ الجميع أسهم في تطوير الشعر العربي لكن الخلاف كان شديداً بين شعراء التفعيلة وشعراء قصيدة النثر فـ(نازك الملائكة)تقول عن دعاة هذه القصيدة "فالشعر، في نظر أصحاب هذه الدعوة ليس إلاّ معاني من صنف معيّن،فيها خيال وعاطفة وصور، وسواء بعد ذلك أن يكون موزوناً أو غير موزون، لأنّ الوزن ، في رأيهم،ليس شرطاً في الشعر.وعلى هذا الأساس يكون للشعر في نظرهم عنصر واحد هو المضمون.فإذا أردنا أن نستخلص للشعر تعريفا مشتقا من آرائهم هذه قلنا أنه "تجمع معان جميلة موحية فيها الإحساس والصور"."[2]، وهو ما يعني أنّ رواد الشعر الحديث –وإن اتّفقوا على ضرورة تطوير الشعر العربي- اختلفت نظرتهم حول كيفية هذا التطوير وبخاصة في جانبه الإيقاعي، فرواد قصيدة النثر يدعون إلى بنية إيقاعية جديدة تؤسس قطيعة جذرية مع إيقاع(الخليل)وليس مع التراث الشعري العربي وهو ما يؤكّده(يوسف الخال)حين يقول "حركة الشعر العربي الحديث، بعد منتصف هذا القرن،حركة ثورية تطورية تنبع من داخل تراث الأدب العربي لا من خارجه، وهي حقيقة تفرضها اللغة العربية وثقافتها."[3]،وهو ما يعني أنّ الحداثة الشعرية العربية في عمومها لا تتعارض مع التراث.

لقد نشأ الشعر العربي الحديث في ظروف خاصة وفي أفق تحوّلات كبرى شملت المعارف والعلوم والتكنولوجيا وربّما لهذا السبب لم يكن أمام الشعر العربي إلاّ أن يتغير ليواكب الحياة الجديدة ويدخل إلى عالم الحداثة المنفتح على المجهول"عندما نقول إن الحداثة في الشعر الجديد، هي مفهوم حضاري قبل كل شيء فإن هذا التغيير يعني جملة أشياء..يعني أولا،أن هذا الشعر هو الصياغة الجمالية الصحيحة للإنسان العربي الحديث، لا في همومه العاطفية، أو احتياجاته الاجتماعية أو أزماته النفسية، وإنما في ثورته الحضارية المعاصرة.

---

[1] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ،دار العودة ،بيروت – لبنان ، ط3، 1981 ، ص 43

[2] نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد – العراق ، ط3 ، 1967 ، ص 192

[3] يوسف الخال : الحداثة في الشعر ، ص 93

وهو يعني، ثانياً، أن هذا الشعر أحد مقومات الحضارة العربية الحديثة،وليس وجهاً سياسيّاً أو لافتة أيديولوجية، ولكنه العنصر الجمالي الذي يتسق مع مسار هذه الحضارة ولا يشذ عنها."[1]،وفي الساحة الأدبية تحدّيات كبرى وتساؤلات تزداد إلحاحاً، على النقاد والشعراء أن يواجهوها كماهية الشعر اليوم وما وظيفته وما مستقبله؟ وما دوره في عصر تكنولوجيا الاتّصال الرهيبة؟ ثمّ ما علاقته بالواقع وكيف يتصدّى لعزوف المتلقّين؟ وهل يمكن للشعر أن ينافس العلوم والفلسفة في البحث وفي اكتساب المعارف؟ إلى غيرها من التساؤلات التي حاول (أدونيس) من خلال مسيرته الطويلة في الإبداع والتنظير أن يجيب عنها.

بدايةً يقرّ (أدونيس) بأنّه لا توجد هناك قواعد ومعايير ثابتة مستقرّة عبر الأزمنة السابقة وعند مختلف الثقافات تحدّد بدقّة ماهية الشعر ، فالشعر ليس كائناً مخلوقاً لتتّخذ من صفاته معاييراً لتحديده "ليس هناك وجود قائم بذاته نسمّيه الشعر،نستمدّ منه المقاييس والقيم الشعرية الثابتة المطلقة.ليست هناك، بالتالي،خصائص أو قواعد مُسَبَّقة تحدّد الشعر، ماهية وشكلاً، تحديداً ثابتاً مطلقاً."[2]،منطقياً ما يقوله (أدونيس) مقبول، فلا يوجد شخصٌ بذاته أو ثقافة بشرية وصية على الشعر تضع مفاهيمه وتحدّد معاييره ومن ثمّ فكلّ مبدع له الحقّ في الاجتهاد والابتكار، لكن من منظور آخر- فنّي إن صحّ التعبير- لا يمكن إلغاء كلّ ما كُتب عن الشعر عبر آلاف السنوات ومسح كلّ المفاهيم السابقة فالمعارف والعلوم تتشكّل عبر عملية تراكمية يسهم فيها جميع البشر وعبر مراحل زمنية طويلة متتالية، ثمّ أن هناك الكثير من المفاهيم التي لا ترسو على مفهوم قار وبخاصة في مجال الفنون.

يحاول (أدونيس) إلغاء قدسية أي مفهوم موروث ليتمكّن من التحرّر من أي قيد ويضع مفهومه الخاص حتّى وإن كان شديد التعارض مع ما هو مألوف، وفي نفس الوقت يؤكّد أنّ مفهومه للشعر نابع من رؤية شخصية لا يُلزم بها أحداً وإن كان يدعو إليها بكلّ تفاني وإصرار، وهو يحمل نفساً شاعرة تهفو إلى التغيير وإلى تأسيس مفاهيم جديدة خاصة تغاير كلّ ما هو موروث بل وتغاير حتى ما هو مستجدّ إذا لم يوافق هواها، وهو ما يفسّر عدمَ احتفاء (أدونيس) بشعر التفعيلة على الرغم من جدّته، ويفكّر بذهنية الحداثة التي تتفلّت من أي تحديد وتنطلق في فضاء مفتوح لا نهائي متحرّر من قيود العقل و مناهجه لا يخضع إلاّ للإبداع

[1] غالي شكري : شعرنا الحديث إلى أين ؟ ، دار الشروق ، القاهرة – مصر ، ط1 ، 1991 ، ص 116-117

[2] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 97

والابتكار والتجديد والتحول الدائم وهو ما انعكس على مفهوم الشعر عنده"تحديد الشعر عند أدونيس عملية زئبقية لا تخضع لمقاييس جاهزة،لأن الشعر في ذاته تجاوز مستمر لمقاييس، وتأسيس جديد لمشاريع جديدة متجدّدة ."[1].

ينطلق (أدونيس) من كلّ ما سبق ليعطي مفهوماً للشعر، والذي يصفه بالجديد تأكيداً على مبدأ المغايرة "لعلّ خير ما نعرّف به الشعر الجديد هو أنه رؤيا.والرؤيا، بطبيعتها، قفزة خارج المفهومات السائدة.هي،إذن، تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها."[2]، ومصطلح الرؤيا شائعٌ جدّاً عند شعراء الحداثة ، وبخاصة حين حديثهم عن ماهية الشعر الحديث وهو مفهوم مركزي وجوهري يساعدهم في التعبير عن ذلك العالم المجهول الذي يخترقه الشعر ليكشف عن الكثير من الأسرار التي لا تتجلّى في العالم المادي ، والرؤيا عند (أدونيس) في دلالتها الأصلية هي العلم بالغيب ولا تحدث إلاّ إذا انفصل الرائي عن العالم المحسوس وغاص في عالم الذات ومن خلال الرؤيا يزاحُ الحجاب وتحصل المعرفة إنّها رفضٌ لكلّ ما هو عقلي أ، منطقي إنها كشفٌ في لحظة انفلتت من قيد الزمان والمكان "والرؤيا إذن كشف.إنها ضربة تزيح كل حاجز،أو هي نظرة تخترق الواقع إلى ما وراءه.وهذا ما يسمّيه ابن عربي علم النظرة.وهو يخطر في النفس كلمح البصر."[3]، إنها كما يضيف شكلٌ من أشكال الإبداع، و(أدونيس) يبدو هنا متأثّراً بالنصوص الصوفية، فالرؤيا مصطلح صوفي بامتياز، وقد استعاره(أدونيس) من شعراء الرمزية الفرنسيين قبل اطّلاعه عليه في النص الصوفي،فـ(بودلير)(Baudelaire)كان يحلم بواقع غير موجود وكان (رامبو) (Rimbaud) يعتبره الرائي الأوّل، أمّا هذا الأخير كتب رسالتين سنة 1871م حول نظرته للشعر"وتدور الرسالتان حول الفكرة القديمة المعروفة التي تعتبر الشاعر شخصا ملهما يتنبأ بالمستقبل ويتحدث عنه بلسان الساحر والعراف والحكيم."[4]، وأطلق عليهما اسم(رسالة الرائي) (lettre du voyant)ويدعو فيهما الشاعر أن يكون رائياً، وعلاقة الشعر بالسحر والكهانة والاطّلاع على الغيبيات قديمة جدّا عند الإغريق والعرب،وكلّ هذا يؤكّد تأثّر(أدونيس) بالمذهب الرمزي والسريالي الغربي وأيضاً بالتصوف الإسلامي ولهذا السبب نجده وغيره من شعراء الحداثة يذهبون إلى أنّ الشعر هو رؤيا في الدرجة الأولى تتجاوز الظاهر إلى

---

[1] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 167

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 9

[3] أدونيس : الثابت والمتحول، 4 صدمة الحداثة ، ص 150

[4] عبد الغفار مكاوي : ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحديث،ج1، ص105

الباطن لتكشف علاقات جديدة وصوراً بديعة لا تخطر على بال "تحمل الرؤيا الحديثة هاجس الكشف عن عالم بريء حلمي، بعيد يتوارى في زيف الوجود ووهم الواقع.ولذلك فهي رؤيا مستقبلية تسافر دوما عبر الخيال والحلم إلى ما وراء الظاهر، إلى الباطن الذي يبقى قابعا في ساحة الممكن والاحتمال ."[1]، والرؤيا لا تنبثق من الواقع الذي يحياه الشاعر أو من تجربته، ولا يدركها الوعي أو يستوعبها الفهم أوتحيط بها العقول، بل تتزلُ عليه كمنحة إلهامية تجعله يرى ما يراه الناس في لحظة خارج إطار الزمن الفيزيائي مثل اللحظة التي يعيشها الصوفي في أسمى درجات الصفاء الذاتي، والرؤيا عند(أدونيس) هي أيضاً إبداع وابتكار وقدرة على التوحيد بين المتناقضات يقف أمامها العقل حائراً مذهولاً.

إذا كان الشعر رؤيا بالدرجة الأولى فإنّ علاقته باللغة علاقة شديدة الخصوصية فهو يفجّرُ طاقاتها الكامنة أو بعبارة أخرى يخترقُ عالمها السرّي ليكشف عن كنوزه ويستقصي أبعاده ويعود مشحوناً بطاقةٍ خلاّقة تدركُ ما لا يُدركُ وتشكّلُ مالم يتشكّل من قبل "فالشعر الجديد هو، في هذا المنظور، فنٌّ يجعل اللغة تقول ما لم تتعودْ أن تقوله.فما لا تعرف اللغة العادية أن تنقله، هو ما يطمح الشعر الجديد إلى نقله.يصبح الشعر في هذه الحالة ثورة على اللغة.وفي هذا،يبدو الشعر الجديد نوعاً من السحر لأنّه يجعل ما يفلت من الإدراك المباشر مدركاً."[2].

بالرؤيا واللغة الخاصة يتمكّن الشعر من تأسيس عالم بديع مختلف جذرياً ويتجاوز بذلك كلّ ما هو سائد بل ويذهب (أدونيس) إلى اعتبار الشعر طاقة لا تغيّر نمط الحياة السائد فقط،بل تسهم أيضاً في نموّه وتطوّره إلى ما هو أفضل"والشعر تأسيس، باللغة والرؤيا:تأسيس عالم واتجاهٍ لا عهد لنا بهما، من قبل.لهذا كان الشعر تخطياً يدفع إلى التخطي.وهو،إذاً،طاقة لا تغيّر الحياة وحسب، وإنما تزيد، إلى ذلك، في نموّها وغناها وفي دفعها إلى الأمام وإلى فوق."[3]،ويتجلّى هنا إيمان(أدونيس) بقدرة الشعر على التغيير تفوق قدرة عوامل أخرى مهمّة أكثر تأثيراً في حياة البشر كالدّين والعلوم والأنظمة السياسية والاقتصادية، ويبرّر موقفه هذا بارتباط الشعر الوثيق بأعماق النفس البشرية ومكانته التي تساعده على التأثير في سلوك الناس ومواقفهم"فهو، لانغراسه في أعماق الإنسان، فعّال، وملزم، إنه حميّا تسري في الإنسان

---

[1] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 137

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 17

[3] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 92

وتسري، من ثمّ عبر سلوكه ومواقفه وأفكاره ومشاعره، في الحياة والواقع."[1]، وهو موقف يثير الكثير من الحيرة والتساؤل، فأيّ إنسان هذا الذي ينغـــرس في أعماقه الشعر أهو الـــشاعر أم المتلقّي، فإذا كان الشاعر فقط فما قدرة هؤلاء الشعراء على التغيير وإذا كان المتلقّي فعدد قرّاء الشعر قليل وأغلبهم من الفئات غير القادرة على التغيير.

يعتبر (أدونيس) الشعر وسيلة حوار بين الأنا والآخر، وإن كان هذا لا يقتصر على الـــشعر فقط بل يصدق على الفنون كلّها وقد يكون الشعر الفن الأقلّ تأثيراً في التواصل بين الشعوب بسبب عائق اللغة، إذ أن الشعر يفقد الكثير من جمالياته بسبب الترجمة، وهل يمكن أن ينـــافس الشعر السينما مثلاً في دورها الكبير الذي تلعبه في عملية التواصل بين الشعوب.

ويذهب (أدونيس) إلى أنّ الشعر ليس مجرّد ظاهرة ثقافية، بل هو أصل وروح هذا الكـــائن البشري وروح تاريخه ، فإذا كانت السياسة تتحكّمُ الآن في زمـــام الأمـــم والعـــالم وتوجّـــه الأحداث و تطغى على الأخبار ، فإنّ كلّ سياسة عظيمة –حسب (أدونيس) – لابدّ أن تسير وفق رؤيا تقدمية يشكّل الشعر أهمّ أبعادها،لا شكّ أنّ هذا الموقف فيه الكـــثير مـــن المبالغـــة المرفوضة في عصرٍ سيطرت فيه الصورة على عقول الناس ونفوسهم وأصبح الإعلام هو المسيطر والموجّه الأوّل للرأي العام وتراجع الشعر تراجعاً كبيراً قد لم يشهده من قبـــل، ويعـــود هـــذا الموقف لـــ(أدونيس) لارتباطه بالشعر وإيمانه الكبير بقدرته على التغيير هـــذا الإيمـــان يـــصفه (الغذّامي) بقوله "يبلغ إيمان أدونيس بالشعر كقيمة مطلقة حدّاً مخيفاً فعلاً،إذا ما تمعنا فيه، بعيداً عن الانفعال الشعري، كما هي عادتنا الموروثة عن الذات المتشعرنة، وأخذنا في مبـــدأ النظـــر النقدي الثقافي."[2]، تلك هي ظاهرة (أدونيس) التي تتفرّد في كلّ شيء ولا عجب إذا علمنا أنّ أهم التيّارات التي أثّرت في فكره كانت تؤمن بالقوى الروحية التي تتجاوز قدرة العقل وتراهـــا عاجزة عن الوصول إلى بعض المعارف ، ولذلك نجد (أدونيس) يصف الـــشعر بالمعرفـــة ذات القوانين الخاصة التي تختلف عن القوانين العلمية، إنّها معرفة ترتكز على أساس ميتـــافيزيقي "إن الشعر الجديد نوع من المعرفة التي لها قوانينها الخاصة في معزل عن قوانين العلم.إنّـــه إحـــساس شامل بحضورنا ، وهو دعـــوة لوضـــع معـــنى الظـــواهر مـــن جديـــد، موضـــع البحـــث والتساؤل.وهو،لذلك،يصدر عن حساسية ميتافيزيائية، تحس الأشياء إحساساً كشفيّاً.الـــشعر

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 92

[2] عبد اللّه الغذّامي:النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء–المغرب،ط3 ، 2005 ،ص 291

الجديد، من هذه الوجهة، هو ميتافيزياء الكيان الإنساني."[1]، وهي دعوة إلى إعـــادة النظـــر في طريقة الوصول إلى المعرفة ، فلا يجب أن يكون العقل هو السبيل الوحيد إلى الوصـــول إليهـــا فالشعر أيضاً لديه القدرة الكبيرة في الوصول إلى المعرفة، لكن (أدونيس) لا يصف هذه المعرفة ولايعطي قوانينها، إنّها معرفة لا تدركها العقول، وما يؤخّذ على (أدونيس) تـــأثره بـــالفكر والثقافة الغربيين وبخاصة في مسائل الاعتقاد، فإذا كان يحقّ للشعر الغربي أن يطرح تـــساؤلات تتعلق بالوجود والبعث ونهاية الكون ومصير الإنسان والحياة والموت...الخ فإنّ علـــى الـــشعر العربي أن لا ينساق وراء هذه التساؤلات ولا ننسى أنّ لكلّ ثقافة خصوصيتها ومن ثمّ فلكـــلّ شعر تساؤلاته الخاصة.

ولأنّ الشعر الجديد كشف عن المجهول ورؤيا خاصة فهو يتّسمُ ببعض الـــسمات الـــتي لم يعرفها من قبل أو على الأقل لم يعرفها بنفس الشدّة مثل الغموض والقلق والتمرّد على ما هـــو منطقي "إنّ الشعر الجديد باعتباره كشفاً ورؤيا، غامض، متردد،لا منطقي.ولهذا لابد له مـــن العلو على الشروط الشكلية، لأنّه بحاجة إلى مزيد من الحرية- مزيد من السر والنبوة."[2]، لكن كيف يتمّ فهمُ هذا النوع من الشعر ؟ ثمّ هذا الشعر يكشف عن ماذا؟ يكشف عن معرفـــة لا تدركها العقول فكيف تُدرك؟ وعلى الرغم من كلّ ذلك فـــ(أدونيس) يدعو إلى المزيـــد مـــن الحرية لأجل ماذا؟ هل لأجل الكثير من الغموض ؟ و(أدونيس) دائماً ينفي عن الشعر أيّ صبغة عقلانية أو منطقية وهو أمر لا يمكن قبوله، إذ لا يمكن إلغاء دور العقل في العملية الإبداعية ومن يتصوّر ذلك فهو واهم، إنّ مجرّد استخدام اللغة لا يمكن أن يتمّ دون تدخّل العقل، ثمّ أنّ النفس البشرية عالم شديد التعقيد يستحيل الفصل بين مكوّناته، ولا يمكن أبداً خلق إبداع أو تذوقه في غياب العقل "والإبداع في حاجة إلى الخيال وإلى الأحلام حتى إلى الإلهام وهي هامة للإبـــداع الفني وتهم الفنان المبدع ولكن يجب الأخذ بها من خلال وعي متبصر داخل دائرة العقـــل."[3]، وموقف (أدونيس) في إلغائه لكلّ ما هو عقلاني أو منطقي لا التباس فيه، ولهذا اتّـــسم شـــعر الحداثة العربية بالطابع الميتافيزيقي "نزع الشعر الحديث نزعة ميتافيزيقية بوصفه فعالية إبداعية لا

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 10

[2] المصدر نفسه ، ص 14

[3] مصطفى عبده : فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني، مكتبة مدبولي ، القاهرة – مصر ، ط2 ، 1999، ص 133

تعرف الاكتمال، لأنها تساؤل مستمر حول ماهية الإنسان والوجود.هذه الماهية التي طُمست تحت تراكم معطيات حضارة "الآلة الذرية"."[1].

إنّ (أدونيس) في تبنّيه للنظرة الميتافيزيقية متأثّرٌ-كما أشرنا سابقاً- بالمذهب الرمزي والسريالي، فأصحاب المذهب السريالي تمرّدوا على كلّ ما هو سائد في عصرهم وعلى العالم الحسّي المدرك لاعتقادهم بقدرة الإنسان على تجاوز العقل والشعور والوعي في إدراك حقيقة الوجود، والاعتماد على اللاشعور والخيال والحدس في الوصول إلى هذه الحقيقة، كما آمنوا بالحرّية المطلقة والعفوية في الفنّ " والمذهب السريالي يريد أن يتحلّل من واقع الحياة الواعية ، زاعماً أنّ فوق هذا الواقع أو خلفه واقع أقوى فاعلية وأعظم اتّساعاً، وهو واقع اللاوعي المكبوت داخل النفس البشرية.ولقد بنى السرياليون مذهبهم على أساس أن يعبّر الفنان عن عقله الباطن دون تحفظ، غير مبالٍ بما سيكون."[2]، إنّ الغموض والتردّد والقلق والنفور من المنطق كلّها صفات تعبّر عن الحياة المعاصرة الذي يعيشها الشاعر، وهو بفطرته البريئة يحنُّ إلى الطبيعة العذراء وهدوئها وصفائها وبساطتها ، لكنّه في الواقع يكابد تعقيدات العصر التي سبّبتها التكنولوجيا الحديثة ، إنّه يعيش حياة سريعة طغت عليها الآلة ولذلك جاء الشعر تجسيداً لهذه الحياة الجديدة "إن الشعر الجديد هو ، بشكل ما ، كشف عن حياتنا المعاصرة في عبثيّتها وخللها.إنّه كشف عن التشققات في الكينونة المعاصرة."[3]، وهذا الكلام يذكّرنا بمقولات شعراء الحداثة الفرنسيين التي دعت إلى التعبير عن روح العصر والانخراط فيه .

تلك هي أهمّ سمات الشعر عند (أدونيس) والتي كثيراً ما تتمحور حول مفاهيم مركزية كالرؤيا والخلق والإبداع إلى جانب الاستخدام غير المنطقي للغة وكلّ ذلك من أجل تجاوز المفاهيم الموروثة والسائدة للشعر إلى مفهوم جديد ينسجم مع أطروحات الحداثة وأفكارها ومبادئها ، وما يلاحظ أنّ (أدونيس) في تعريفه للشعر لا يركّز كثيراً على الموسيقى فيه، فلا يمكن حسبه تحديد الشعر بالوزن"إنّ تحديد الشعر بالوزن تحديد خارجي، سطحي، قد يناقض الشعر، إنّه تحديد للنظم لا للشعر."[4] ، ومع ذلك فهو يرى أنّ الشعر لا يمكن أن يستغني عن الموسيقى لكن ليس بالضرورة أن تكون إيقاع (الخليل) الموروث، ويدعو (أدونيس) في موضع

---

[1] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 123

[2] فايز ترحيني : الدراما ومذاهب الأدب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط1، 1988، ص 221

[3] أدونيس : زمن الشعر ، ص 19

[4] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 101

آخر إلى اتّجاه جديد في الشعر يسمّيه "الكتابة الشعرية" وهي كتابة جديدة تنشأ في ظـــروف مغايرة تماماً وتؤسّس لنوع آخر من الكتابة قد يؤدّي إلى تغيير جذري في مفهوم الشعر"وفي هذا ما يشير إلى أن المسألة، في الكتابة الشعرية، لم تعد مسألة وزن وقافية، حصراً،بـــل أصـــبحت مسألة شعر أو لا شعر، وإلى أن هذه المسألة تضعنا، تبعا لذلك، أمام إمكان الكتابة الـــشعرية، في أفق آخر غير الأفق الموزون المقفى، وهو إمكان يتيح لنا أن نعدِّل التحديد الموروث للشعر، وأن نضيف إليه، وأن نؤسس مفهومات أخرى للشعر."[1] ، هذه الدعوة أثارت الكـــثير مـــن الجدل في الساحة النقدية العربية ، ورأى البعض أنّ (أدونيس) يسعى إلى إلغاء كـــلّ الحـــواجز بيـــن الأجناس الأدبية ضمن مشروعه الحداثي الذي يهدف إلى خلخلة البنى الثقافية العربيـــة وتغيير كلّ ما استقرّ في الأدب العربي، وربّما كانت تلك الدعوة بغرض فتح المجال أمام قصيدة النثر باعتبارها أهمّ منجزات الحداثة الشعرية العربية .

لقد نشأت قصيدة النثر في الغرب واكتملت على يد (بودلير) (Baudelaire) وكان لمجلّـــة (شعر) الدور الأوّل في نشرها وترسيخها في الساحة الشعرية العربية ، ويفتخر (أدونيس) بكونها أصبحت مفهوماً عربياً خالصاً بعن أن وجد جذوراً لها في النصوص الصوفية "إنّ قصيدة النّثر، مثلاً، هي اليوم قصيدة عربية ، بكامل الدّلالة، بنيةً وطريقةً، مع أنّها في الأساس مفهومٌ غربيّ، وقد أخذت بُعدَها العربي خصوصاً بعد تعرّف كتّابها على الكتابات الصوفيّة العربيّة."[2]، وهـــو كلام مردود عليه فالنص الصوفي لا يمكن أن يكون شعراً بالمقاييس العربية وهو ما لم ينتبه إليه (أدونيس)، إنّ اختلاف الثقافات له دور مهم في تحديد المفاهيم وهو ما يعني أنّ مفهوم الـــشعر في الغرب قد يختلف عنه عند العرب أو عند الهنود أو غيرهم ، ثمّ إذا كانت (منظومـــة ابـــن مالك) ليست شعراً رغم توفرها على الوزن فكذلك النص الصوفي ليس شعراً حتّى وإن جاءت لغته غير مألوفة ، فاللغة الخاصة لا تنشئُ لوحدها شعراً ،وعلى الرّغم من أنّ قصيدة النثر لقيت رواجاً كبيراً عند الشعراء الشبّان العرب، غير أنّها وما تزالُ تطرح الكثير من الإشكاليات، فعلى مستوى المؤسسات التعليمية والثقافية نادراً ما تدرجُ في مناهج التعليم أو تقبلُ في المـــسابقات الشعرية، أمّا على مستوى النقد فهناك الكثير من النقّاد الذين يخرجونها من إطار الشعر حتّـــى وإن تقبّلوها كتجربة أدبية ، (صلاح فضل) يعتبرها شكلاً من أشكال التجريب لكنّه يرفض أن

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 12

[2] المصدر نفسه ، ص 76

تكون بديلاً عن الشعر العربي ولا عن محاولات أخرى قد تأتي لاحقاً "لكن أقسى ضربة أصابت الشعر العربيّ في الآونة الأخيرة في تقديري هي وهم الانقطاع التامّ عن بنيته العموديَّة بالانقلاب إلى "قصيدة النثر"، وهي شكل تجريبي بديع، لكنَّها لا يمكن أن تكون بديلاً تامّاً عن الشعر العربيّ بمختلف تنوّعاته ودرجاته، خاصّة بتيّاره العريض المتدفّق بالإمكانات الإيقاعية والموسيقية."[1]،ولترسيخ مكانة قصيدة النثر في الساحة الشعرية العربية يمعن (أدونيس) كثيراً في التفريق بين الشعر والنثر مع تأكيده المتواصل أنّ الوزن ليس هو المعيار الأساس للتمييز بينهما بل هو كيفية استعمال اللغة، فكلّما انزاحت اللغة عن المعيارية كلّما اقتربت من الشعرية وابتعدت عن النثرية "ان الوزن ليس مقياسا وافيا أو حاسما للتمييز بين النثر والشعر،وإن هذا المقياس كامن،بالأحرى، في طريقة التعبير، أو كيفية استخدام اللغة، أي في الشعرية."[2].

والواقع يفضي إلى أنّ الجدل حول الشعر والنثر لا ينتهي ولن يؤدي إلى أمر حاسم، لأنّ مفهوم الشعر غير قار فهو متحوّل يتغيّر من زمن إلى زمن وفقاً للتحوّلات التي تطرأ وبخاصة في البنية الفكرية والثقافية للمجتمع، ثمّ أنّ التصنيف السائد للكتابة على أنّها إمّا شعر أو نثر لا يساعد على الحسم فبعض الكتابة لا يمكن أن تسمّى شعراً أو نثراً كالمنظومات النحوية والفقهية والكتابات الصوفية وغيرها، فهي تتجاوز هذا التصنيف،ويركّز (أدونيس) على عنصر الغموض كأحد الخصائص التي تميّز الشعر عن النثر، إضافة إلى طريقة التعبير التي لها جانب كمّي يتمثّل في الوزن والنثر وجانب نوعي يتمثّل في التعبير نثرياً بالنثر أو بالوزن والتعبير شعرياً بالنثر أو بالوزن[3]، هذا الحرص على التمييز بين الشعر والنثر من طرف (أدونيس) كان الغرض منه فتح المجال للكتابات الشعرية الجديدة التي لا تلتزم بأوزان(الخليل)وقافيته، وإذا كانت قصيدة النثر لم تتّضح بنيتها الإيقاعية فإنّ لغتها سعت إلى تحطيم كلّ الروابط اللغوية المألوفة والتراكيب المنطقية السائدة إنّها تحاول تطويع قواعد اللغة وجعلها تنسجم مع ضروريات العصر ومبادئ الحداثة لتجعل من الشعر مفهوماً متغيّراً لا يستقرّ على حال، ومن ثم رفض المفهوم القديم للشعر" تنطلق قصيدة النثر في الحركة الشعرية العربية الجديدة، من هذه الظاهرة:إخضاع اللغة وقواعدها وأساليبها لمتطلبات جديدة بحيث أنها تثير، من جديد،في تراثنا العربي معنى الشعر بالذات."[4]،

---

[1] صلاح فضل : تحولات الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2002 ، ص 11

[2] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 25

[3] ينظر ، المصدر نفسه ، ص 23

[4] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 102

ما تجدر الإشارة إليه أنّ قصيدة النثر فتحت الباب للكثير من أدعياء الشعر ممّن لا ناقة لهم ولا جمل في فن الشعر وهو ما يصعّب المهمّة على النقّاد في تمييز الشعر من اللاشعر لغياب مقاييس واضحة وبخاصة في تلك النصوص التي تُغرق في الغموض أو في الإبهام،وهو ما يجعل الإجابة عن السؤال من هو الشاعر ؟ أمراً صعباً، وقد تطرّق (أدونيس) إلى هذا السؤال مشيراً إلى أنّ عدد الشعراء في العالم وفي العالم العربي الذين يستجيبون إلى المعايير الفنية والرؤيوية قليل ولذلك يقول " لن أنطلق من هذه المعايير القصوى.أكتفي بتلك المعايير الأوَّليّة التي لابد من أن تتوفّر في الشخص الذي نسمّيه شاعراً. فلا نقدر، إن كان الشعر هو ما يهمّنا حقّاً،أن نقول عن شخصٍ إنّه شاعر(ولو كانت له عشرات المجموعات) إلاّ إذا كانت له:

أ- رؤية خاصّة،

ب- تؤسّس لعلاقات خاصّة به، بين لغته والأشياء،

ج- تؤسّس لتقنيّة فنّيَّة وجماليّة خاصّة، أو لغةٍ شعريّة خاصّة."[1]، فالشاعر هو ذلك الإنسان الذي يتميّز بالرؤية المتفرّدة للعالم وللوجود والتي تختلف عن ما هو سائد سواء في ماضيه أوفي حاضره ، هذه الرؤية الخاصة تنبجس من ذاتٍ مبدعة تتلاشى فيها كلّ المفاهيم الموروثة ليبرز الرفض والتمرّد والخلق والإبداع ، إنّها تلك الذات التي لا تخضعُ للمؤثّرات الأيديولوجية والسياسية بسبب ما تحمله من طاقة مبدعة خلاّقة مُلهمة تصنع هويتها الفريدة من خلال استعمال مبهر للغة ، هذا الشاعر هو الذي يؤسّسُ نظامه الشعري الخاص يُمكّنه من الكشف وطرق باب المستقبل ، وممّا لا شكّ فيه أنّ نظرة (أدونيس) للشاعر هي امتداد لنظرته للشعر فالشعر الحقيقي عنده هو الرائي والمبدع والخلاّق والثوري والرافض والمتمرّدُ...الخ .

وفي إطار التجاوز والتخطي تأتي فكرة التجريب كانعكاس للتحولات التي طرأت على الشعر العربي، فشعر الحداثة هو شعر تجريبي بامتياز لأنّ التجريب مغامرةٌ وشكّ في المطلق والمكتمل والأبدي للنموذج الشعري وهو في نفس الوقت تعزيز للرؤيا وتكريس للغموض وخروج من المحسوس للدخول في اللامرئي، إنّ التجريبية سعي دائمٌ للابتكار في طرق التعبير "أعني بالتجريبية:المحاولة الدائمة للخروج من طرق التعبير المستقرة أو التي أصبحت قوالب وأنماطاً، وابتكار طرق جدية.و تعني هذه المحاولة إعطاء الواقع طابعاً إبداعياً حركياً. "[2] ، إنّ

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 37

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 287

الشعرية العربية التي تمثّل الحداثة هي تلك الشعرية التي ترتكز على التجريب كسبيل وحيد للوصول إلى الفضاء الرحب والانفتاح اللانهائي، والشعر التجريبي هو الشعر الجديد الذي تحاربه القوى الرجعية من أجل المحافظة على مواقعها من خلال دعم الشعر التقليدي ، والملاحظ أنّ (أدونيس) يعبّر عن شعر الحداثة بالشعر الجديد أو الشعر الثوري أو الشعر التجريبي، فالجدّة والثورة والتجريب كلّها وجوه للحداثة المنشودة ، وفي خضمّ هذا التحوّل الذي تثيره الحداثة شهدت القصيدة العربية تحوّلاً جذرياً في أغلب بنياتها ، فكيف ينظرُ (أدونيس) إلى القصيدة الحديثة؟.

إنّ أهمّ ما يميّز القصيدة الحديثة عن نظيرتها القديمة هي أنّ هذه الأخيرة ذات بنية لغوية تعبيرية تعكس واقعاً معيشاً وتأتي في قالب نمطي اجتراري معروف وهو بذلك ينفي عنها ميزة التجديد على عكس القصيدة الحديثة التي يميّزها الخلق والإبداع "القصيدة الحديثة (الطليعية) خلق: تقدم للقارئ ما لم يعرفه من قبل،في بنية شكلية غير معروفة.وهي، إذن، لا تعكس.وتلك هي الخاصية الجوهرية للشعر الحديث: إحلال لغة الخلق محل لغة التعبير."[1]، وهو ما يعني أنّ القصيدة الحديثة لم تعدْ مرآةً تعكسُ الواقع وإنّما غدت هي نفسها واقعاً إبداعياً غنيّاً يفاجأ القارئ بعناصر جديدة مبهرة لم يعهدها من قبل، إنّها تخلقُ لغتها وصورها وشكلها وتعدّد مستوياتها وأصواتها وتفاعلها ممّا يشكّل تميّزها وفرادتها.

اتّجهت الحداثة الشعرية إلى الاهتمام بوحدة القصيدة وهو ما يدعو إليه (أدونيس) قائلاً "فشكل القصيدة الجديدة هو وحدتها العضوية،هو واقعيتها الفردية التي لا يمكن تفكيكها، قبل أن يكون إيقاعاً أو وزنا."[2]، ولابد أن نشير إلى غموض مصطلح الوحدة العضوية في أدبنا العربي بسبب اختلاف النقاد حول فهمه ذلك أنّه انتقل من الأدب الغربي لارتباطه بالشعر الملحمي، إلى جانب الخلط الذي وقع بينه وبين الوحدة الموضوعية، و(أدونيس) بتركيزه على الوحدة العضوية يتجاوز وحدة الموضوع ووحدة البناء اللغوي والحالة النفسية للشاعر ليصل إلى وحدة تنسجم فيها كلّ هذه العناصر لتتحوّل القصيدة إلى بنية موحدّة فريدة منسجمة متجانسة تنصهر فيها البنى الإيقاعية والموضوعية والدلالية والحالة النفسية والتجربة الشعورية لتصبح القصيدة ذاتاً قائمة بنفسها لها بصمتها الخاصة وهويتها الخاصة، على عكس القصيدة التقليدية

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 294

[2] المصدر نفسه ، ص 15

التي تحافظ على ثباتها فإنّ ما يميّز القصيدة الجديدة تلك الحركة الدائمة فهي لا تحافظ على أيّ شكل ثابت لأنّ الثبات يعني السقوط في النمطية التي ترفضها الحداثة.

وكما أنّ الرؤيا هي جوهر الشعر الحديث فقد ارتبطت القصيدة الحديثة بالرؤيا الشاملة التي تتّسم بالتعقيد والتشابك والتفاعل كنتيجة منطقية لتجربة الشاعر المعاصر، والقصيدة الحديثة – حسب (أدونيس) – تتشكّلُ انطلاقاً من تغلغلها العميق في النفس البشرية وشموليتها واستيعابها لتحولات العالم "بدل القصيدة-الحكاية،أو القصيدة –الأفكار، أو القصيدة-الزخرف، أو القصيدة-الوصف والموضوع الخارجي، يقيم الشاعر الجديد القصيدة-الدفعة الكيانية،القصيدة-الرؤيا الكونية.وهذه قصيدة تنمو في اتجاه الأعماق في سريرة الإنسان ودخيلائه، وتنمو أفقياً، في تحولات العالم.وهي لا تصدر، مصادفةً عن"مزاجٍ" أو "وحيٍ " بل تصدر بدفعة ورؤيا واحدة، وحدس واحد."[1] ، إنّها قصيدة لا تنشأ عن رؤية جزئية فكرية أو واقعية حسية أو لغوية سطحية...الخ، وإنما تنشأ عن رؤيا شاملة عميقة كونية وهي دعوة ضمنية لعولمة الشعر وحث الشاعر العربي على الانفتاح على جميع الثقافات، هذه القصيدة هي التي تعبّر بصدق عن الحداثة الشعرية، إنّها القصيدة المنفتحة على كلّ الاحتمالات والتي تأبى أن تسكن في أيّ شكل من الأشكال فهي بخلقها لحضورها تغيّر مقاييس الشعر والجمال، والإبداع هو المبدأ الذي لا يمكن حصره في أيّ حدّ من الحدود.

ويبشّر (أدونيس) بظهور قصيدة عربية جديدة تتداخل فيها الأشكال التعبيرية العربية وغير العربية وتلتحم فيها الرؤى الدينية والفلسفية والعلمية لتشكّل أحد أوجه الوجود يسمّيها "القصيدة الكلّية" "تأسست "القصيدة" الكلية كما يسميها أدونيس قصيدة الرؤيا الشاملة التي تبتغي تأسيس الكينونة عن طريق الكلام."[2]، وهكذا يحاول (أدونيس) إصباغ العالمية على الشعر وتحويله إلى فنّ تنصهرُ فيه جميع تجارب الشعوب وفنونها ومعارفها وعلومها ، ويعود هذا إلى إيمان (أدونيس) بالشعر وقدرته على التغيير، كما أنّ هذه القصيدة كانت مطلباً لشعراء الحداثة في الغرب وعلى رأسهم (مالارميه) (Mallarmé) الذي كان يدعو إلى ما يُسمّى بالقصيدة الإنسانية "إن شعراء الحداثة وفي مقدمتهم الرمزيون قد نبذوا قضية الوصف والحدث أو المناسبة

---

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 96

[2] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 200

والذاتية والانحياز إلى الذات في مطالبتهم بما يسمى بالقصيدة الكلية يأتي مالارميه في طليعة هؤلاء الرمزيين، في مناداته للقصيدة الإنسانية."[1].

ومن القضايا التي تناولها(أدونيس) علاقة الشعر بالواقع، فلطالما عُرف الشعر بأنّه يعكس الواقع ويعبّر عن همومه وأفراحه، تحدياته ، إخفاقاته...الخ ، أو كما يقول (أدونيس)كان الشعر يصف الواقع وصفاً خارجياً وهو بذلك يعيش على مظاهر الأشياء والكينونة لكن الشعر الجديد هو"محاولة للنفاذ إلى أعماق الواقع، وراء المظاهر والسطوح-وصوب الخارق والفائق."[2]، وهو الدور الأساس للشعر الرؤيا الذي يتجاوز الأسس التي يقوم عليها الواقع المحسوس ويندفع نحو ما وراء هذا الواقع ليكشف عن المجهول، فكشف الواقع المحسوس وتفسير ظواهره وأسبابها متروك لبقية العلوم، والواقع من المنظور الحداثي لا يؤثّر على الشعر بل العكس هو ما يحدث، فالشاعر هو الذي يبشّر بواقعٍ آخر في شعره "القصيدة العظيمة تشمل الواقع وتتجاوزه: إنها تحتضن الواقع والممكن.وكل شعر يحتضنه الواقع ويستنفذه لا يكون أكثر من وثيقة:لا يكون شعراً."[3]،وهنايتحدّث (أدونيس) ضمنياً عن شعر المناسبات أو شعر الحدث فهو شعر يحتويه الواقع ويتحوّل بمرور الزمن إلى وثيقة تاريخية لا تحملُ أيّ عنصر جمالي .

إنّ الشعر الذي تؤسّسه الحداثة هو شعرٌ يؤثّرُ ولا يتأثّر، يغيّر الواقع والتغيير هنا ليس بالمفهوم السائد المباشر وإنّما يعني هذا التغيير تجاوز هذا الواقع إلى واقعٍ أفضل يشكّله الشعر "فالشعر يغيّر الواقع لا من حيث انه يقلبه سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، بل من حيث أنّه يتجاوزه ويقدم صورة جديدة لواقع جديد أفضل وأغنى."[4] ، وبذلك يتحوّل شاعر الحداثة إلى نبي يبشّر بعالم جديد بريء وواقع آخر يتجاوز الواقع المعيش ، وإذا كان (أدونيس) يؤكّد أنّ التغيير الذي ينشده الشعر يختلف عن التغيير الذي تحدثه الأنظمة السياسية أو الاقتصادية أو النظريات العلمية، فإنّه في الوقت ذاته لا يوضّح كيف يحدث هذا التغيير، وهنا قد يتحوّل الشاعر إلى مفكّر يضع النظريان الفكرية والفلسفية لتصبح مرجعاً لأي تغيير قادم فأين روح الفنّ في هذا الشعر؟ إنّ الحداثة الشعرية من المنظور الأدونيسي ثورة على الواقع من أجل واقع

---

[1] بشير تاوريريت : الشعرية والحداثة بين أفق النقد الأدبي وأفق النظرية الشعرية ، ص 68-69

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 21

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 155

[4] المصدر نفسه ، ص 157

آخر و(أدونيس) في كلّ ما سبق يدعو "إلى خلق مرحلة جديدة مختلفة في مقاربة الواقع والحياة في شتى تمظهراتها،"[1].

من خلال قراءة متفحّصة لنظرة (أدونيس) لماهية الشعر نتأكّد مدى نفوره من كلّ ما هو عقلي ومنطقي، فهو دائماً يحاول تغييب العقل عن دائرة الإبداع الشعري وكأنّه يقول ما أفسد الشعر إلاّ إعمالُ العقل فيه وهو أمر تفرضه ماهية الشعر عنده، فالرؤيا تقع خارج سيطرة العقل والوعي والشعور ففي حديثه عن الشعر الذي يصبو إليه يقول"على هذا المستوى تصغر مقاييس العقل والمنطق، وتبطل.يصغر كذلك شأن القواعد والمؤسسات والأنظمة.فليس شاعراً من يعقلن ويمنطق.بل الشاعر من يقفز، بحدسه فيما وراء العقل والمنطق، ويتحد بتيار الحياة ودفعته الخالقة، حيث لا يعود أمامه أي حاجز."[2]، وهو موقف فيه الكثير من الشطط فالكائن الإنساني وحدة متكاملة عقلياً ونفسياً وروحياً لا يمكن الفصل بينها مثل القصيدة التي يدعو إليها (أدونيس) نفسه، على أنّه محقّ إذا تحوّل الشعر إل صناعة عقلية محضة، ومع ذلك لا نفهم انبهار (أدونيس) بـ(أبي تمام) واعتبار شعره ضمن أشعار الحداثة على الرغم من أنّ (أبا تمام) اهتمّ كثيراً بالصياغة اللغوية التي ارتكزت على إعمال العقل.

على عكس العقل كان للفلسفة دورٌ مهمٌّ في شعر الحداثة عند (أدونيس) ، فهو يعتبر الشعر شكلاً من أشكال الفلسفة، وهو موقف كان متوقعاً لارتباط الفلسفة بالميتافيزيقيا "الشعر بمعنى آخر ، فلسفة من حيث أنه محاولة اكتشاف أو معرفة الجانب الآخر من العالم، أو الوجه الآخر من الأشياء، أي الجانب الميتافيزيقي كما نعبر فلسفياً.كل شعر عظيم لا يمكن، من هذه الزاوية، وبهذا المعنى ، إلا أن يكون ميتافيزيقيا."[3]، إنّ الشعر والفلسفة يشتركان في كشف الحقائق الباطنية التي تفشل العلوم العقلية في الوصول إليها ، بل يذهب (أدونيس) إلى أنّ كلّ شعر عظيم يتضمّن رؤىً فلسفيةً، غير أنّه ينبّه إلى دقّة هذه الصلة بين الشعر والفلسفة، فلا يجبُ أن تنشأ في طرق التعبير بمعنى أنّ الفلاسفة الذين يعبّرون عن أفكارهم شعرياً لا يكتبون شعراً بل منظومات فلسفية، كذلك الشعراء الذين يكتبون بطرق فلسفية منطقية لا يكتبون شعراً وإنّما يستخدمون الفلسفة والمنطق، يجب أن تلتحم الرؤيا الفلسفية بالرؤيا الشعرية التحاماً كلّياً في سبيل الوصول إلى الحقائق المنشودة "إن الشعر بالذات باعتباره، من وجهة نظره، طريقة من

---

[1] حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، ص 178

[2] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 30

[3] أدونيس : زمن الشعر ، ص 174

الطرق غير العقلية الموصلة إلى معرفة للحقيقة أرقى من المعرفة العقلية،يصبح في اعتقاد أدونيس،كما كان لمارتن هيدجر من قبله،أهم مساند للمعرفة الفلسفية."[1]، لكن هل كان قدرُ الشعر أن يكون منافساً للفلسفة والعلوم في الوصول إلى الحقائق، وإذا كان دور المعارف والعلوم الجوهري هو البحث عن الحقائق وتفسير الظواهر فإنّ الشعر والفنون عموماً ليس من شأنها البحث عن الحقيقة أو على الأقلّ لا يعتبر هذا البحث دوراً رئيساً لها، وإذا كانت العلوم والتكنولوجيا جسدَ الحضارة فإنّ الفنّ هو روحها،هو الذي يؤكّد إنسانية الإنسان ، هو ذلك السرّ الذي سيبقى سرّاً ولا يمكن الاستغناء عنه، إنّه ذلك الترياق الذي يحافظ على توازن النفوس ويشعرها بالسكينة ويزيل عنها القلق والاضطراب الذي عادةً ما تثيره المادة الجافة القاسية،الفنّ هو أبُ الجمال وأمّه فأين شعر الحداثة من كلّ هذا؟ هذا الحديث يؤدّي إلى التطرّق إلى الوظيفية في الشعر.

(أدونيس) من دعاة "الفنّ للفنّ" ويعني ذلك أنّه يرفض أن يحمل الشعر أي رسالة أيديولوجية أو سياسية أو أخلاقية ، وتبقى الرسالة الوحيدة التي يحملها الشعرُ هي الشعرُ نفسه،فالشعر إذا طغت عليه الوظيفية مات وتبدّد "والواقع أن طغيان الوظيفية آخذٌ بتحويل القصيدة إلى نوع من المقالة تتضمّن كلّ شيء إلا الشعر."[2] ، فالوظيفية تسخّر الشعر وتستخدمه كأداة توصيل وقناة ترويج لأفكار معيّنة وهو ما يعني غيابَ الإبداع غياباً شبه تام،واتّساعَ الهوّة بين الشعر والذات الشاعرة أي زوال الرؤيا وحضور الواقع المحسوس، والشعرُ كلّما ابتعد عن الوظيفية كان أشدّ قرباً للإبداع، ومع ذلك فقد لا تكون الوظيفية في بعض الحالات نفياً للشعر وبخاصّة إذا آمن الشاعر بالقضية التي يناضل من أجلها ففي هذه الحالة تتّحد القضية ورؤيا الشاعر ولا يمكن الفصل بينهما و في شعر (محمود درويش) أبرز مثال على ذلك فشعره حول القضية الفلسطينية من أهمّ محطّات الشعر العربي الحديث في القرن العشرين، وإذا كان من أهمّ ما دعا إليه (أدونيس) هو التحرّر من قيود الماضي وتأسيس بداية للشعر العربي، فإنّ هذا الحاضر نفسه سيصبح ماضياً في يومٍ ما فكيف سيكون مستقبل هذا الشعر؟ .

يرى (أدونيس) أنّ هذه المسألة تهمّ القارئ والناقد ولا تشكّل هاجساً للشعراء "السؤال عن مستقبل الشعر قد يهمّ القارئ والناقد، ولست موقناً أنّه يهمّ الشاعر. لا يكتب الشاعر، كما

---

[1] عادل ضاهر :الشعر والوجود دراسة فلسفية في شعر أدونيس ، ص 23

[2] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 177-178

أرى، تلبيةً لفكرةٍ مسبّقة،أو استجابةً لدعوةٍ من خارج، لكي يشغله هذا السؤال.ثمّ إنّ الشعر بوصفه بدايةً، لا يُفسّر بالزمن.بل الزّمن هو الذي يفسّر بالشعر.بل أكاد أقول ليس للشعر زمن، الشعر هو الزمن. "[1]، والمقصودُ أنّ شعر الحداثة لا يبلى ولا يشيخ فالحداثة هي ذلك الوهجُ الدائم الذي يحفظ للشعر شبابه الدائم وضوئه الخارق الأبدي ومن ثمّ فلا أهمّية للزمن لانعدام أيّ تأثير له.

لكن (أدونيس) لا يكتفي بذلك – ولو اكتفى لكان أحسن- بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يؤكّد أنّ الشعر سيزدادُ ارتباطاً بما وراء الواقع وبجوهر الأشياء وبحقائق الباطن وسيزدادُ نفس القدر ابتعاداً عن الواقع الخارجي وعن الوظيفية الممقوتة ،سيظلّ الشعرُ كشفاً دائماً عن أغوار الذات وعالم اللغة"هكذا أميل إلى القول إنّ الشعر سيزداد ارتباطاً باللاّمرئي،بالحقائق الداخليّة-القلبيّة.سيزداد رفضاً لكلِّ ما يجعل منه إملاءً من خارج، أو اندراجاً في ايديولوجيا ما،أو نظامٍ ما، أو مؤسّسة ما.سيزداد وثوقاً بأنَّ له حقائقه الخاصّة، مقابل الحقائق الأخرى التقنيّة والنصّيّة."[2] .

وإذا كان الإعلام –كما يعترف (أدونيس) -سيزداد هيمنةً وحضوراً بفضل وسائله الضخمة وتأثيره القوي على الناس مدعوماً بالتقنية و النصّية الدينية فإنّ الشعر في مقابل ذلك "سيمعن في استقصاء المناطق التي يعجز هذا المحتلّ الهائل عن الدخول إليها-مناطق القلب والحبّ والسؤال والدّهشة والموت."[3]، وسيزداد الشاعر يقيناً بأنّ للشعر غايةً ساميةً ليس بالمفهوم التقليدي الذي يجعل من الشعر مطيةً لخدمة مذهب ما أو قضيّة ما، وإنّما غاية الشعر تبدأ من كون هذا الشعر أسمى طريقة تعبير عند الإنسان يتمكّن من خلالها الكشف عن العلاقة التي تصلُ بين العالم وكلّ ما فيه، أمّا القصيدة فإنّها "ستبدو أمام الآلتين التقنيّة والنصّيّة،كأنّها خارج الزَّمن الواقع.لذلك سوف يحدث انقلاب كامل في بنيتها الداخليّة، وفي هيكليَّتها الخارجيّة."[4] .

ويزداد تنبأ (أدونيس) بالتغييرات الكبيرة التي تحدث في مجال الشعر كأن تتّسع الكتابة الشعرية لتضمّ الكثير من العناصر الجديدة ، ولتصبح القصيدة كائناً عجيباً يحتوي على الكثير

---

[1] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 116

[2] المصدر نفسه ، ص 119

[3] المصدر نفسه ، ص 120

[4] المصدر نفسه ، ص 120

من الفنون والمعارف المتنوعة، لكن في المقابل هل يمكن التنبأ بمستقبل الإبداع؟ أليس الإبـــداع تلك الطاقة الخلاّقة التي لا يمكن لأحد أن يرسم مسارها أو يتوقّع نتائجها ؟ والحـــديث عـــن الشعر في مدينة (أدونيس) لا ينتهي ولكن يمكن إيجاز مواقف وآراء هذا الشاعر كما يأتي:

- يقرّ أنّه لا توجد مقاييس تحدّد ماهية الشعر ولذلك سيبقى مفهومه متحوّلاً متغيّراً .
- جوهر الشعر رؤيا وتعامل فريد (عبقري) مع اللغة وهو ما ينتج عنه خلق وإبداع وتجـــاوز وتخطّي وكشف عن معرفة جديدة .
- غموض الشعر دليل على عبقريته فكلّ خلاق غامض عند معاصريه.
- شعر الحداثة تجريبي مناقض للوظيفية يتجاوز العقلانية والمنطق ليعانق الفلسفة والميتافيزيقا.
- المقياس الأساس في التمييز بين الشعر والنثر هو كيفية استخدام اللغة.
- قصيدة النثر نموذج لشعر الحداثة الذي حطّم كلّ المعايير الموروثة.
- القصيدة الحديثة قصيدة إنسانية كلّية وهي وعاء جمالي تنصهر فيها جميع الرؤى وتتداخل فيها جميع الأجناس الأدبية.

ولا شكّ أنّ (أدونيس) في الكثير من المواقف والآراء متأثّر بـــشعراء الرمزيـــة الفرنـــسية والسريالية والفلسفة الغربيتين ومع ذلك فلا يمكن إنكار الجهد الفريد الممتدّ عبر مسيرة زمنيـــة طويلة والرؤية الخاصّة والأفكار الذكيّة الناتجة عن كثير من التمعّن والاطّلاع وكلّ هذا يشكّل مشروعاً حداثياً شعرياً عربياً خاصّاً به ، ومع ذلك فإنّ أهمّ ما يؤخذ على (أدونيس) هو أنّـــه جعل من الشعر نوعاً من السبل المؤدّية إلى معرفة خاصّة لا يمكـــن أن تـــدركها عقولنـــا أو تستوعبها أفهامنا لأنّها تتجاوز القدرة العقلية وهو بذلك يجنح بالشعر إلى مهمّة هي في الأساس من اختصاص العلوم والفلسفة وينأى به عن جوهر الفنون وهدفها النبيل ، فعند قراءتنـــا لآراء (أدونيس) حول الشعر نحسّ وكأنّه يتحدث عن علم من العلوم وليس عن فنّ لغوي عريق يعبّر عن الجمال بشتّى مظاهره، ويترجم المشاعر والأحاسيس التي تختلج في النفس البشرية إلى لغـــة عجيبة جذّابة، كما يؤخذ على (أدونيس) أيضاً تحجيمُهُ لدور العقل في العملية الإبداعية،والعقل كما ندرك جيّداً لا يمكن إلغاء دوره في أي نشاط إنساني.

3-2 – اللغــة الشعــرية :

باللغة اكتشف الإنسان الوجودَ و ذاتَه وازداد يقيناً بقدرته وتميّزه على بقيــة المخلوقــات، وباللغة سافر عبر مراحل التحوّل الذي لا يعرف نهايةً أبداً، وحين اســتخدم الإنــسان اللغــة استطاع أن يلبّيَ حاجياته الضرورية واستطاع التواصل مع الآخر وظلّت اللغة لفترة زمنيــة لا يعرفها إلاّ الله تؤدّي وظيفتها النفعية المحضة،ولكن سنّة التحوّل والتطوّر اقتضت أن تتجاوز اللغة وظيفتها النفعية إلى وظيفة أخرى ارتبطت بحاجة الإنسان الشعورية والانفعالية والتأمّلية هــي الوظيفة الجمالية، ليولد الشعرُ نتيجة هذا التفاعل الفريد بين اللغة والإنسان، بين عبقرية اللغــة وحساسية النفس البشرية، فالشعر هو ذاك الجانب الجميل للغة أو لنقل الجانب البريء لعلاقــة الإنسان باللغة"وقد عرف الانسان العالم، أو حاول أن يعرفه لأول مرة،يوم أن عرف اللغة.وهو لم يعرف السحر إلا يوم أدرك قوة الكلمة، و لم يعرف الشعر إلا يوم أدرك قوة السحر."[1].

الشعر فنّ ميدانه اللغة فهي تشكّلُ مادّته الأساسية فطرق التعبير وأساليب الصياغة والــبنى الصوتية ...الخ هي الأساس الجوهري لمقاربة الشاعر لرؤياه وللتعبير عن تجربته الخاصة، وممّا لا شكّ فيه أنّ المبدع حين يستخدم اللغة لتشكيل خطابه الشعري سيجنح إلى استخدامٍ غير عادي لها، إذ يخترقُ الاستعمال المألوف لها وينتهك صيغ الأساليب الجاهزة والروابط المنطقية ويشحنها بطاقة انفعالية إبداعية ومنه تنشأ لغة جديدة غير معيارية نسمّيها اللغة الشعرية أو اللغة الفنية أو اللغة الأدبية "ولغة الشعر هي الوجود الشعري الذي يتحقق في اللغة انفعالا وصوتا موســيقيا وفكرا...لغة الشعر إذن هي مكونات القصيدة الشعرية من خيال وصور موسيقية، ومواقــف إنسانية بشرية."[2]، وممّ لا جدال فيه أنّ جوهر البنية الشعرية يقوم على أساس الفاعلية اللغوية وربّما لهذا السبب كانت اللغة الشعرية محور اهتمام النقد قديماً وحديثاً.

ازداد الاهتمام بالبناء اللغوي في النصوص الشعرية بعد التحــول الكــبير الــذي حقّقتــه الدراسات اللسانية ونشأة علم اللسان وما نتج عنه من مناهج نقدية جديدة ركّزت اهتمامهــا على البنية اللغوية للنصّ الشعري، وقد ميّز النقد مستويين داخل اللغة الشعرية، مستوى إخباري تواصلي وهذا من صميم الوظيفة اللغوية ومستوى إيحائي جمالي يعتمد على الإشارة والرمــز،

---

[1] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص173

[2] السعيد الورقي : لغة الشعر العربي الجديد مقوماتها الفنية وطاقاتها الابداعية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط3، 1984 ، ص 5

وأيّ خلل يصيب المستوى الأوّل سيغرقُ النصّ في الإبهام ويعيق عملية التلقّي، أمّا غياب المستوى الثاني فيُفقدُ النص شعريته ويتحوّل عندئذ إلى كلام عادي.

من أهمّ القضايا التي عالجها النقد الحديث-وإن لم تكن مستجدّة- علاقة الشاعر باللغة، فكثيراً ما اشتكى الشعراء من قصور اللغة عن التعبير عن ما يختلج في نفوسهم وبخاصة شعراء الحداثة الذين يسعون للتعبير عن روح العصر في أشعارهم "ومن الثابت أن "مشكلة" تعامل الشعراء مع اللغة ليست جديدة على الإطلاق.ففي كل العصور وفي كل الآداب طرحت هذه المشكلة بشكل أو بآخر.ولكن أحداً لم يطرحها بالشكل المميّز الذي ظهر مع الشعراء الرمزيين الغربيين.ومن بعدهم السرياليين.وتبعهم في ذلك شعراء الحداثة ودعاتها من العرب المعاصرين."[1]، وهو أمر تقتضيه مبادئ الحداثة التي تتمرّد على كلّ موروث وسائد، والشاعر الحديث لا يمكن أن يعبّر عن عصر حديث شهد تحولات جذرية بلغة شعرية قديمة لم تعد تستجيب لمعطيات الواقع الجديد"وليس غريباً أن تتميّز لغة الشعر المعاصر عن لغة الشعر القديم، بل الغريب ألا تتميز عنها."[2]، ولقد واجه الشعراء الرومانسيون العرب معضلة كبيرة في تعاملهم مع لغة الشعر العربي القديم حيث وقفت عاجزة عن التعبير عن روح العصر الحديث بكلّ تحولاته، وهو ما جعلهم يبذلون جهداً كبيراً في تشكيل لغة شعرية جديدة بديلة تصوّر الحياة الحديثة وتعبّر عن تجاربهم المختلفة، والواقع أنّ تجديد لغة الشعر عمليّة مستمرّة لا تتوقف تفرضها سنن التحول والتغيّر التي تشهدها الثقافات ، ثمّ أنّ اجترار نفس اللغة الشعرية قد يقتلها شعرياً و يحوّلها إلى لغة مبتذلة لا فرق بينها وبين اللغة العادية "اللغة كالتربة...مهما تبلغ بها الخصوبة عرضة للتشقّق.وخصوبتها مهدّدة دائماً باستغلال يمتص حيويتها فهي تحتاج إلى إنعاش متواصل حتى لا تصبح مجدبة عقيمة."[3].

انتبه (أدونيس) إلى أهمّية اللغة في الشعر ودورها الكبير في تجديد هذا الشعر وتحويله إلى شعر يستجيب لمعايير الحداثة ، فتجديد الشعر ينطلق أوّلا من تجديد لغته دون أن الخروج عن إطارها وهو ما يفسّر اختلافه مع شعراء الحداثة العرب الساعين إلى استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية وهو من المواقف التي تحسب له، لكن تمسّك (أدونيس) باللغة العربية الفصحى

---

[1] محمد حمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها و مظاهرها ، ص 159

[2] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص174

[3] محمد حمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها و مظاهرها ، ص 159

كلغة للإبداع لا يعني تمسّكاً بلغة الشعر العربي القديمة، فقد ثار على هذه اللغة ودعا إلى تحديثها جذرياً وهو ما يندرج ويتماشى مع مشروعه الحداثي الساعي إلى التغيير.

ولأهميّة اللغة الشعرية عند (أدونيس) فقد اعتبرها المقياس الرئيس في التفريق بين الشعر والنثر،ذلك أنّ استخدامها في الشعر يختلف اختلافاً كبيراً عنه في النثر، أو كما يقول أصحاب الأسلوبية إنّ اللغة الشعرية هي انزياح عن اللغة النثرية،و(أدونيس) بعد عرضه لأمثلة من الشعر يستنتج قائلاً "وهذا يوصلنا إلى أنّ الفرق بين الشعر والنثر ليس في الوزن، بل في طريقة استعمال اللغة."[1]،إنّ لغة الشعر لا تقول الواقع بل تقول واقعاً آخر تؤسّسه رؤيا الشاعر، وهي بذلك تبتعد دون قصدٍ عن الوضوح والتقريرية والمباشرة، إنّها ليست لغة إبلاغ بل لغة إبداع ولغة غموض " إن لغة الشعر هي اللغة – الإشارة، في حين أن اللغة العادية هي اللغة – الإيضاح."[2]، تلك هي لغة الشعر توحي ولا تصف، تلمّحُ ولا تصرّح، تتجاوز المنطق والمألوف،لأنّها الأداة الخارقة التي تمكّن الشعر من الكشف والبحث في المجهول وما وراء الواقع المحسوس، إنّها تعبير غير عادي لرؤيا الشاعر التي تعجز اللغة العادية عن تصويرها، ولهذا السبب فإنّ اللغة الشعرية تحيد عن معناها العادي المتعارف عليه وتتعالى إلى معاني عميقة غامضة.

متى تتحوّل اللغة العادية إلى لغة شعرية؟ يقول (أدونيس) "غير أن اللغة في الشعر تكون شعرية حين تقيم علاقات جديدة:1-بين الإنسان والأشياء، 2- بين الأشياء والأشياء،3-بين الكلمة والكلمة.أي حين تقدم صورة جديدة للحياة والإنسان."[3]، إن مجرّد إقامة هذه العلاقات الجديدة يعني أنّها لغة خلق أكثر منها لغة تعبير والرؤيا التي ترافق شاعر الحداثة هي التي تفرض لغة جديدة في شعره تؤسّس علاقات جديدة بين الإنسان والكون لأنّ نظرة الشاعر تختلف كلّياً عن نظرة النّاس، وهو ما ينتجُ عنه تلك النظرة المختلفة للعلاقات التي تربط بين الأشياء، فعلى سبيل المثال قد لا ينظر الشاعر إلى العلاقة بين الموت والحياة كعلاقة نفي أو تناقض وإنّما قد ينظرُ إليها على أساس أنها علاقة تكامل أو انسجام أو...الخ، ولا شكّ أنّ هذا الأمر ينطبق على اللغة ذاتها حين تصبح العلاقة بين الكلمة والكلمة في لغة الشعر على غير ما ألف الناس في استعمالهم، إلى درجة أن يرفضها الكثير منهم، ذلك أنّ الشاعر بسبب رؤيته المختلفة جذرياً لا يمكنه أن يستخدم اللغة المألوفة لقصورها بل يلجأ إلى لغة تسمو على الاستخدام العادي لتصل

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 24

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 17

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 154

إلى مقام الرؤيا الشعرية وهنا يحدث تحوّل كبير في بنيتها التي تتضمّن علاقات جديدة لم يعهد الناس مثلها من قبل، ولعلّ لغة النصوص الصوفية تعدّ أبرز مثال على التحوّل الجذري في البنية اللغوية، هذا ما يجب أن تكون عليه اللغة في الشعر الحديث لأنّها إن لم تكن كذلك، لم تبلغ مستوى الخلق وسقطت في الاستعمال العادي ولا يغني الشعر حينئذٍ وزنٌ ولا قافية "تكون اللغة، في الشعر، مجرد لغة، أي تكون "لغوية" في حالتين: إذا كانت وعاء أو ثوبا، أو إذا كانت نسقاً لفظياً ينتظم في جلجلة أصْدافية. ذلك أنها لا تكون في الحالتين إلا "قشرة" أو"ناقلا"."[1]، وهنا ينتقد (أدونيس) الوظيفية في الشعر حين تصبح اللغة مجرّد وعاء يحمل أفكاراً أيديولوجية وآراء خاصة يسعى الشاعر إلى نشرها لإيمانه بها أو لجني مكاسب مادية أو معنوية ، وينتقد أيضاً الصناعة اللفظية والإيقاعية التي تجعل من اللغة مجرّد إعادة صياغة تراكيب قديمة في ثوب جديد دون الاستناد إلى رؤيا خاصة أو تجربة متفرّدة ، إنّه ينتقد التجديد السطحي الذي لا يصل إلى العمق ولا يمس جوهر الشعرية وربّما لهذا السبب لم ير في شعر التفعيلة أيّ تحوّل عميق مسّ اللغة الشعرية بل رآه إعادة تشكيل سطحي لأوزان(الخليل) وحسب،إنّ ما يهمّه هو الإبداع أو الخلق كما يسمّيه وهو من أهمّ مقومات الحداثة الشعرية التي تجعل من الشعر فنّاً مدهشاً يشكّل اللغة تشكيلاً بديعاً ويكتشف فيها أبعاداً لم تُعرفْ وإمكاناتٍ لم تُستغلّ بعد "فالشعر هو ، بمعنى ما، جعل اللغة تقول ما لم تتعوّد أن تقوله."[2] .

الشعر عند (أدونيس) ثورة مستمرّة على اللغة لأنّه يحاول دائماً الكشف عن حقائق تعجز اللغة العادية أو السائدة عن الوصول إليها، ولأنّ الكشف عمليّة مستمرّة فإنّ التمرّد على المفاهيم لا يتوقّف وهوما يقتضي البحث المتواصل عن لغة جديدة داخل الكيان اللغوي تستجيب للواقع الجديد ومتطلّباته وتتمكّن من خرق الحجاب الذي يحجب العوالم الأخرى "فاللغة بالنسبة لأدونيس هي سبيل لاختراق فجوات العالم المغمورة،التي تفضي إلى أكوان أخرى تكون فيها الحرية المطلقة،هي جوهر التكينن،ومن ثم سر بحث الشاعر الدؤوب عن هذه الحرية التي تمكنه من ممارسة أقصى درجات الهوس التخييلي،"[3].

في معرض إجابته عن ماهية اللغة الشعرية يستعرض (أدونيس) أهمّ الآراء النقدية حول هذه اللغة ويحصرها في اتّجاهين بغرض التبسيط كما يقول ، فالاتّجاه الأوّل وهو السائد كتابةً

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 154

[2] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 114

[3] عبد العزيز بومسهولي: الشعر والتأويل قراءة في شعر أدونيس، ص 53

وقراءةً في أدبنا العربي يرى أنّ لغة الشعر هي نفسها اللغة العامة المشتركة بين الناس والشاعر يجتهد في إعادة صياغة المعنى المعروف في بناء لغوي جميل ومؤثّر على المتلقّي، فليس مطلوباً من الشاعر خلق علاقات جديدة بين اللغة والواقع بل المطلوب منه إعادة صياغة للعلاقات القائمة أصلاً، هذا الاتّجاه لا يتوافق مع أطروحات الحداثة وبطبيعة الحال مع (أدونيس) الذي يرى في هذه اللغة العامة غشاوة تحجب الواقع مهما اجتهدت في تصويره أو تفسير ظواهره"وما نحتاج إليه هو إذن خرق هذا الحجاب.ولا يتحقّق هذا الخرق إلاّ بلغة تخرق تلك اللّغة العامّة المشتركة.ولابدّ، إذن، من أن تكون لغة "خاصّة".بهذه اللغة الخاصّة، يكشف الشاعر عن خصائص وعلاقات وآفاق لا تتيح اللّغة اليوميّة العامّة الكشف عنها."[1].

إنّ (أدونيس) مع الاتّجاه الثاني –وهو غير سائد كتابة وقراءة- الذي يرى في اللغة الشعرية لغةً شديدة الخصوصية، لا تقدّم اليقين ولكن تعطي الاحتمال بواسطة رؤى وعلاقات يتحول الواقع فيها إلى أثير، هذا الكلام يفضي إلى الحديث عن العلاقة بين لغة الشعر القديم ولغة شعر الحداثة، وكثيراً ما يوازن بينهما (أدونيس)، فاللغة الشعرية التقليدية عنده لغة سطحية تعتمد على الوصف والتعبير اللغوي تهتم بالزيّ، تعبّر عن الواقع المادي المحسوس،تتجنّب التوغلّ والغوص،لا تثير أيّ تساؤل أو احتجاج، بينما لغة الشعر الجديد فهي على النقيض، تبتعد عن الوصف والوضوح لأنّها لغة خلق ولغة الخلق تثير الكثير من التساؤل وتغيّر ما هو كائن وتتوغّل في المجهول وتشكّل الواقع ليس كما هو ولكن كما تشاء رؤيا الشاعر"تكتفي اللغة، في شعرنا العربي التقليدي، من الواقع ومن العالم بأن تمسهما مساً عابراً رفيقاً، فهي لغة وصفٍ وتعبير.ويطمح الشعر الجديد إلى أن يؤسس لغة التساؤل والتّغْيير، ذلك أن الشاعر هو من يخلق أشياء العالم بطريقةٍ جديدة."[2]، إنّه ينتقد لغة الشعر العربي السائدة التي لم تعد تستجيب لتحولات العصر.

إنّ الشعر لا يمكن أن يتحوّل أو يتطوّر إلاّ بتحوّل في بنيته اللغوية، ذلك أنّ اللغة هي جسد هذا الشعر "وقد كانت قضية لغة الشعر تثار دائما عند كل مرحلة من مراحل التجديد والتطور.ولا إنكار لوقوع هذه القضية من قضايا التجديد في شعرنا المعاصر موقعا أساسيا."[3]، ولهذا السبب أخذت لغة الشعر موقعاً مهمّاً في اهتمامات (أدونيس)، وكان تركيزه على عنصر

---

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 38

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 16-17

[3] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص176

اللغة كبيراً، خاصّةً إذا قورن بالإيقاع على سبيل المثال، فاللغة هي وعاء الفكر والفكـــر هـــو الذي يقود عمليّة التحوّل والتغيير في أيّ مجتمع من المجتمعات وفي أيّ مجال من مجالات الحياة.

ومن المصطلحات التي استخدمها (أدونيس) مصطلح "التفجير" وفي حديثه عن تفجير اللغة الشعرية التقليدية يقول أنّ الكثير أساءوا فهمه ومنـــهم الـــشاعر المـــصري (صـــلاح عبـــد الصبور)يقول " فلم أقصد من هذا التفجير استخدام التراكيب الدّارجة في لغة الحياة اليومية، أو المفردات النّابية المبتذلة،أو الصيّغ غير النحويّة، أو الألفاظ الأجنبية والعبارات العلميّة،أو التبسيط الصّحفي،مِمّا يُوهم الذين يمارسون هذا الاستخدام أنّهم "يجدّدون"ظنّاً منهم أنّ هذه الأشياء لم يعرفها "الأقدمون"، وإنّما عنيت تفجير البنية الشعرية التقليدية ذاتها، أي بنية الرؤيا وأَنْـــساقها، و"منطقَها"، ومقارباتها، أو بعبارة أكثر إيجازاً:تفجيرَ مسَار القول، وأفقِه."[1]،وقد لا نلوم مـــن أساءوا الظنّ في (أدونيس) فقد كثُر الداعون إلى استخدام العامية في الشعر في فتـــرة تاريخيـــة وكان منهم(يوسف الخال) وهو زميل (أدونيس) ورفيقة في مجلّة (شعر) التي تبنّت قصيدة النثر وهي القصيدة التي تخلّت تماماً عن إيقاع (الخليل) وهو من أهمّ ركائز الشعر العربي، وفي نفس الوقت لا يمكن إلاّ أن نؤكّد حرص (أدونيس) على العربية الفصحى بعد مسيرته الطويلة، إنّه لم يقصد إقحام اللغة العامية ولا لغة الصحافة في الشعر ولا هدم القواعد النحوية والصرفية وإنّما كان قصده عدم اجترار لغة الشعر القديم التي لم تعد صالحة للاستخدام في القرن العشرين وبناء لغة شعر جديدة في إطار اللغة العربية الفصحى.

لا يكتفي(أدونيس) بالدعوة إلى تفجير اللغة، بل يسعى إلى تجسيد هذه الآراء في شعره الذي يتميّز بلغة شعرية خاصّة جدّاً لا تُنسبُ إلى شاعرٍ سواه، إنّ الشاعر المعاصر لا يمكن أن يبـــدع بلغة شعرية قديمة جامدة عاجزة عن مواكبة حركة الحياة، صار قاموسها الشعري مجرّد ألفـــاظ ميتة تحمل معاني محدّدة مكرّرة لا صلة لها بالعصر، وعلى هذا الأساس لابدّ للشاعر المبـــدع أن يتميّز بلغته الخاصة التي تحمل هويته ولا يحدث ذلك إلاّ إذا وُلدت في شعره وانطلقـــت منـــه وأسّس بدايتها الأولى "اللغة ليست ملك الشاعر، ليست لغته إلاّ بقدر ما يغسلها من آثار غيره، ويفرغها من ملك الذين امتلكوها في الماضي.وبما أن المبدع يتحد بالرؤيا والاستباق، فإن اللغة التي يستخدمها لا تكـــون لغته إلا بقـــدر ما يفرغها من ماضيها، ويشحنها بالمستقبل."[2]،و ما

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 132

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 78

يؤخذ على (أدونيس) هنا لجوئه إلى استخدام بعض الكلمات التي توحي باحتقار للغة الشعر التقليدية كأن يستعمل (يغسلها) أو (يطهرها) وكان بإمكانه الاستغناء عنها بأخرى،والغريب أيضا أنّ لا يستخدم مصطلح الأسلوب ولا الأسلوبية ولا يشير إلى مبادئها أو أدواتها على الرغم من أنّ كلامه هذا يندرج في صميم هذا العلم.

تتّجه آراء (أدونيس) ومواقفه في المسار الذي رسمه مشروعه الحداثي الساعي إلى تغيير المفاهيم الموروثة وتأسيس أخرى جديدة على أنقاضها ولعلّ تحديد لغة الشعر من أكثر الأهداف التي سعى إلى تحقيقها هذا المشروع"من الأهداف الأساسية التي يدعو إليها (أدونيس) هو القيام بثورة ضد اللغة الشعرية القديمة (بمعناها القاموسي والاجترارية)، والتي تتشكل من علاقات بسيطة واضحة معروفة، ومحددة مسبقاً."[1]، لكن هل من السهولة تحديد اللغة الشعرية في ظلّ الهيمنة الواسعة التي تفرضها اللغة الشعرية القديمة على الشعراء والمتلقّين على حدّ سواء يقول (أدونيس) "والخَلَل في اللّغة الشعريّة العربيّة كامنٌ في أنّها،لسببٍ أو آخر، وَحَّدت بين الأشياء و"أسمائها" (تصورّاتنا وأفكارنا القديمة عنها). لم يعد الشاعر، بقوّة هذا التوحيد وضغطه، يرجع إلى الأشياء نفسها (الباقية أو الناشئة) ليتأمّل فيها،ويبتكر دلالات جديدة لها، وإنّما أصبح رهين دلالاتها القديمة الموروثة."[2]، ولا نملك إلاّ أن نقرّ بما ذهب إليه (أدونيس) فهيمنة الثقافة الشعرية القديمة على الفكر الشعري العربي المعاصر من أهمّ معوّقات الحداثة الشعرية العربية، إذ من الصعوبة بمكان التحرّر من تلك الصور البلاغية والتراكيب اللغوية وما تحمله من دلالات في كتابة الشعر أو قراءته، وعلى سبيل المثال تعني الصورة (زيد أسدٌ) عند أغلب من يقرأها أو جميعهم أن زيد قوي وشجاع، وذلك لهيمنة التصور التقليدي لها على فكرهم، لكن ليس بالضرورة أن تُفهم هكذا، فيمكن أن تعني أنّ زيداً هذا حيوان أو شرس أو ظالم أو...الخ، غير أنّ الواقع الشعري العربي يؤكّد صعوبة هذا التحوّل، وهو ما يعترف به (أدونيس) حين يؤكّد صعوبة التحرّر من هذه التصورات القديمة الرّاسخة،لأنّ اختراق هذه التصورات الموروثة وابتكار أخرى يعني هدم الواقع الشعري التقليدي المتجذّر في الفكر العربي.

إذا كانت علاقة اللغة بالفكر من أكثر القضايا التي أثارت جدلاً في الفكر والفلسفة بصفة خاصّة منذ القديم، فإنّ (أدونيس) يدعو إلى لغة شعرية غير خالية من الفكر، على أن لا تكون

---

[1] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 220

[2] أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص 74

ناقلةً أو مروّجةً له، لأنّ الشعر يسقط حينها في الوظيفية التي تقتلُ لغة الشعر إن الوظيفيّة "لا تجرّد الشعر من هويّته وحسب، وإنما تقتل اللغة الشعرية ذاتها: تحوّلها إلى أدوات تزيين أو تقبيح،فتنتج شعراً لا يؤثّر بخصوصية الشعرية-اللغوية، بل بالموضوع الذي يتحدث عنه، شأن النثر العاديّ."[1]، و(أدونيس) لا يرفض أن يحمل الشاعر فكراً، وإنّما يرفض أن تتحوّل لغة هذا الشعر إلى حامل لفكر بعينه، ففي هذه الحالة تصبح اللغة رهينة هذا الفكر والحرّية كما هو معروف من أهمّ متطلّبات الإبداع الشعري.

يحثّ (أدونيس) الشاعر على أن يكون واسع المعرفة شديد الاطّلاع على جميع أشكال الفكر لأنّ ضحالة الفكر لا تنتجُ شعراً، لكن يجب أن تنصهر كلّ هذه الأفكار والمشاعر والرؤى وتمتزج لتشكّل شعراً خالصاً لا يدعو إلى أيّ فكر بعينه وإنّما يدعو إلى الشعر نفسه، و(أدونيس) في هذا الموقف يرفض ما يسمّى بقضية الالتزام في الأدب حيث يلتزم الشاعر بمبادئ خاصّة وأفكار معيّنة يدعو إليها في شعره، وقد أثارت مسألة الالتزام خلافاً حادّاً بين النقاد والأدباء، والحقيقة أنّه ليس من السهل أن يتحرّر الشاعر من مبادئه في شعره، فهو إنسان قبل أن يكون شاعراً ولا يمكن أن يعيش في عزلة فكرية " لست أدري هل يريد أدونيس أن يبقى الشاعر في دائرة "اللامنتمي"، أو "الحياد"،حتى يستطيع أن يعبر عن خلجات نفسه وعن كينونته أحسن تعبير!! يعني هذا –حسب تعبير أدونيس- أن الشعر "بريء" من المواقف ومن الانتماء...والحق-في نظري-أن الشعر لا يستطيع الخروج من الدائرتين، دائرة "الفن"ودائرة"المواقف"..."[2]، لكن الحقيقة أنّ (أدونيس) لم يطلب من الشاعر الحياد التام وإنما طلب منه أن لا تخضع لغته الشعرية لأيّ اتّجاه أيديولوجي أو سياسي أو غيرهما وأن تخضع للإبداع وحده ففي حديثه عن الوظيفية في الشعر يقول "لا يعني هذا أن الشاعر"حيادي" أو يجب أن يكون "حياديا"، بل يعني أنه لا يجوز أن يخضع كتابته للمقتضيات الإيديولوجية والسياسية ولمستلزمات الإيصال والعادة السائدة في طرق الكلام."[3]، وفي هذه المسألة يبدو موقف (أدونيس) مضطرباً لم يستطع أن يحسم فيها، لأنّها من القضايا الخلافية التي لا يمكن لأيّ فريق أن يحسم فيها لصالحه بشكل نهائي.

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص177

[2] سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ، ص 217

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، ص20

ولأنّ الكلمة عند النحويين هي لفظة مفردة تدلّ على شيء وهي التي تؤلف الجملة وفق نظام تحدّده اللغة، فقد لقيت اهتماماً من طرف (أدونيس) لدورها في بناء لغة الشعر الحديث وفي التعبير عن الرؤيا الشعرية ولأهمّية الرمز والأسطورة في شعر الحداثة، وأوّل ما ينبّه إليه (أدونيس) هو خطأ الرأي السائد بوجود كلمات شعرية وأخرى غير شعرية "لا يزال بعضهم ينظرون إلى الكلمة نظرة غائية، فهناك، في زعمهم، كلمات شعرية، وكلمات أخرى غير شعرية.فكأن القصيدة عندهم نوع من الفسيفساء اللفظية.لكن ما من كلمة هي شعرية بذاتها أكثر من غيرها.هنالك كلمات تتضمن في استخدامها، أو لا تتضمن، طاقة شعرية."[1] ، ويعني ذلك أنّ موهبة الشاعر هي التي تحوّل الكلمة إلى كائن يفيض بالشعرية، بوضعها في السياق الملائم داخل القصيدة وبشحنها بالطاقة العاطفية والانفعالية، وهذا ما نلمسه في بعض الأشعار الحديثة حين تتحوّل فيه بعض الكلمات المنهكة من الاستخدام اليومي والإعلامي إلى كلمات مشحونة بطاقة شعرية هائلة بفضل قدرة الشاعر وعبقريته الشعرية ونظرته الثاقبة وتجربته المتميّزة، فكلمات مثل الدبّابة، الجريدة، الحجر، المدينة ، ...الخ قد حملت الكثير من المعاني التي لم توضع لها أصلاً.

إنّ الكلمة داخل القصيدة الحديثة وبفضل الانزياحات التي تمارسها اللغة الشعرية تتحوّل إلى كيان آخر مفعم بالحيوية ويحيل إلى فضاء آخر من المعاني ولن تصبح مجرّد اسمٍ أطلق على مسمّى أو مصطلح يعبّر عن مفهوم في علم من العلوم "فليست الكلمة في الشعر تقديماً دقيقاً أو عرضاً محكماً لفكرة أو موضوع ما ، ولكنها رَحمٌ لخصب جديد."[2]، إنّ الكلمة في الشعر تخرج عن كلّ الحدود التي ترسمها المعاجم لها، وتتحوّل إلى فيض من البوح والإيحاء الذي لا يمكن أن يحدّد مهما كثرت القراءات وتعدّد التأويل،وهذا ما يميّز لغة الشعر التي ولطبيعتها الخاصّة تعتمد كثيراً على الألوان والظلال التي تثيرها الكلمات، وإذا كانت الكلمة في اللغة النثرية لا تخرج عن المعنى المتعارف عليه في الاستخدام العادي، فإنّها تتخلّى في اللغة الشعرية عن ذلك المعنى وتكتسب دلالات جديدة تستمدّها من السياقات المختلفة"ويعتبر أدونيس أنه حيث نحيد بالألفاظ عن طريقتها العادية في التعبير والدلالة ونضيف إلى طاقتها خصائص الإثارة والمفاجأة والدهشة يكون ما نكتبه شعراً"[3].

---

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 115

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 17

[3] محمد حمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها و مظاهرها ، ص 94

إنّ الكلمة في الشعر كما يقول (أدونيس) يجب أن تعلو على ذاتها وأن توحي إلى إمكانات كثيرة وعلى الشاعر أن يخرجها من عتمة الاستخدام المتكرّر إلى نور الإبداع، عليه أن يشحنها كي تحي من جديد، لكن ما تجب الإشارة إليه في هذا المقام أنّ هناك كلمات لا يمكن التعدّي على حرمتها وقداستها وبخاصة في مجتمعنا المسلم ، فهي كلمات لا تحتمل أكثر من معنى ووضعها في سياق شعري معيّن قد يؤدّي إلى تأويلات لا تُحمدُ عقباها وعلى سبيل المثال اسم الجلالة (الله)، يعبد ، يسبّح، الكعبة ،القرآن ...الخ وأغلبها تنتمي إلى المعجم الدّيني ، وهناك الكثير من شعراء الحداثة من يعترض على هذا الرأي ويعتبره تعدّياً على حرّية الإبداع،لكن الردّ على هؤلاء يتمثّل في أنّ الحرّية مفهوم نسبي وليس مطلقاً هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ الإبداع الحقيقي فضاء واسع لا حدود له ولن تؤثّر عليه بعض الاستثناءات القليلة.

وللكلمة عمر مثل المخلوقات الحيّة، أو لنقل مدّة صلاحية –إن صحّ التعبير– فهي تولد وتعيش ثمّ تموتُ، وتموت الكلمة حين يتخلّى عن استعمالها المجتمع اللغوي وتدفن في المعاجم والكتب القديمة، هذا العمر يسمّيه (أدونيس) العمر اللغوي ويهتمّ به علماء اللغة والاجتماع، ولها عمر آخر يسمّيه العمر الشعري، والكلمة تموت شعرياً حين يبقى استخدامها الشعري القديم مستمرّاً "والكلمة أيضاً تشيخ وتُستنفذ، وهذا الجانب يُعنى به الشاعر، فيحرص على أن يشحن الكلمات التي يستخدمها بلهب جديد، يجعلها في فتوة دائمة–أي في حركة مستمرة من الولادة المستمرة.ولهذا،يُخلِّصها من طرق استخدامها السابقة، ويغسلها من العلاقات التي هي أشبه بالبقع والتورّمات التي تقودها إلى الهرم.وهو، في هذا يُلغي عمرها السابق ويلغي بهذا الإلغاء مفهومات وأساليب هي الأخرى مستنفذة."[1]، بالتجديد المتواصل لاستعمالات الكلمة في الشعر يُكتبُ لها الخلود شعرياً وتضلّ تشعّ بفضل الانبثاق المتوالد للدلالات التي تحملها فكأنّها روح تستمدّ من أرواح الشعراء خلودها.

تتحوّل الكلمة في شعر الحداثة إلى رمز، والبعد الرمزي من أهمّ أبعاد شعر الحداثة العربية لتأثّرهم الكبير بشعراء الرمزية الفرنسية، وقد تنوعت الرموز فمنها الرموز الأسطورية والتاريخية والدينية والصوفية والشعبية...الخ وهناك الرمز الخاص الذي يبتدعه الشاعر ليعبّر عن تجربته الشعرية الخاصّة "يأتي الرمز الخاص ليشكل مجالا رحبا لحركة الشاعر،يجد فيه حرية أكثر وفرصة

[1] أدونيس : كلام البدايات ، ص 180–181

أكبر لاختيار رمزه الذاتي، الذي يتمثل فيه تجربته بشكل أشد خصوصية وأصالة."[1]، وتتعـــدّدُ دلالة الرمز من شاعر إلى آخر وربّما تتعدّد عند الشاعر نفسه وفي القصيدة الواحدة كما هـــو رمز المطر عند الشاعر العراقي (بدر شاكر السيّاب) على سبيل المثال.

استطاع (دي سوسير) (de Saussure) أن يحدث ثورة في علوم اللسان أثّرت على كـــلّ الدراسات التي جاءت بعده ومن أهمّ آرائه تمييزه بين المصطلحات (اللسان،اللغـــة، الكـــلام)، فاللغة ظاهرة اجتماعية يلتزم بنظامها جميع أفراد المجتمع الناطق بها، أمّا الكلام فهو فعل شخصي ملموس ونشاط مُراقَب، يمكن ملاحظته إثر الأداء الصوتي أو الكتابي، فاللغـــة تمثّـــل الثابـــت والكلام يمثّل المتحوّل، بمعنى أنّ اللغة يحكمها نظام نحوي وصرفي ثابت أمّا الكـــلام فهـــو أداء شخصي قد يلتزم فيه المتكلّم بتلك القواعد وقد لا يلتزم، إذ في أحايين كثيرة يحيد هذا المتكلّم عن اللغة المعيارية فيلجأ إلى الانزياحات وتنشأ احتمالات عديدة للكلام ويـــصبح المـــتكلّم في وضع متحرّر يسمح له بتشكيل اللغة كما يشاء.

لقد حاول (أدونيس) أن يستخدم مصطلح الكلام لارتباطه بالفـــرد المتكلّم للتعبير عن اللغة الشعرية عند الشاعر، فإذا كان الشعر العربي نابعا من لسان واحد منذ العصر الجـــاهلي فـــإنّ الكلام الشعري العربي متنوّع متعدّد، لانّ لكلّ شاعر عربي عظيم كلام شعري خاص به ينبـــع من هويته الشخصية وبصمته الخاصة به وأسلوبه المتميّز، إنّه كلامٌ يؤسّس لبداية نموذج جديد لا يحاكي إلاّ ذاته"فالكلام الشعري كلام الذات المبدعة هو، دائما، بمثابة وليد جديد يخرج مـــن رحم اللسان.ومثل هذا الكلام الناشئ والمنشئ معا يشوش الكلام السائد، ويزلـــزل ســـلطته الإيديولوجية.بل انه اختراق دائم للثقافة السائدة،ولإيديولوجيتها.وهو من هنا يتجاوز"وحدة" الكلام السائد،الموروث، أي أنه يلغي وحدة السطح، لكن من أجل أن يرسي وحدة العمـــق- وحدة التنوع، والاختلاف، والتّمايز."[2]،لا شكّ أنّ (أدونيس) يكرّر نفس الأفكار السابقة عن اللغة الشعرية وهو باستخدامه لمصطلح "الكلام" يحاول أن يوظّف علـــم اللـــسان الحـــديث ومصطلحاته في التعبير عن رؤيته الحداثية وإن كان استخدامه لمصطلح "الكلام" قليل جدّاً.

ومن المصطلحات التي استخدمها ولكن بقلّة أيضاً مصطلح "المجاز" وهو عنده مجازان "مجاز تعبيري" و" مجاز توليدي "، فالمجاز التعبيري هو ذلك المجاز البلاغي الموروث السائـــد في الكلام

---

[1] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 347

[2] أدونيس : سياسة الشعر ، ص14

الشعري والذي لا يرتكز إلى رؤيا، هذا المجاز يعيد صياغة المعاني المتداولة في صياغات جديدة، فوظيفته زخرفيه بحتة، أمّا المجاز التوليدي فهو المجاز الذي يستجيب لمعطيات العصر ومقتضيات الحداثة، إنّه يبشّر بميلاد تصوير فنّي خارق والميلاد هو دائماً بداية وهنا البداية تؤسّس لـــشعر جديد غريب غامض لما يحمله من خصائص مغايرة"إن بيانية الإبداع الشعري العظيم تقوم على ما أسمّيه بالمجاز التوليدي فهو،بما يتضمنه من البعد الأسطوريّ-الترميزي، وبقدرته على جعـــل اللسان يقول أكثر مما يقوله عادة، أي على جعله يتجاوز نفسه، يكشف عن الجوانب الأكثـــر خفاء في التجربة الإنسانية،مما لا يستطيع الكلام التعبيري-العادي أن يكشف عنه، وهو يدفع، تبعا لذلك، إلى رؤية العالم بشكل جديد ، وإلى إعادة النظر فيه.إنه يدخل إلى مجـــال التـــصور الإنساني أبعاداً تقود الإنسان نحو أبعاد أخرى، نحو فضاء آخر."[1]، فالمجاز التوليدي هي تلـــك القدرة الإبداعية التي وهبها الله للشاعر والتي تمكّنه من تأسيس لغة شعرية جديدة يستخدم فيها الرمز والأسطورة لينتج شعراً حداثياً يسهمُ في كشف المجهول وتفجـــير المكبـــوت في بنيتنـــا الاجتماعية والثقافية والسياسية.

من الصعب الجزم إن كان (أدونيس) قد أخذ مصطلح" المجـــاز التوليـــدي" (metaphor generative) عن المفكّر الأمريكي(دونالد شون) (Donald Schön)،(1930م-1997م)، فمن المعروف أنّ هذا المفكر هو من ابتكر هذا المصطلح من خلال أبحاثه التي تمحورت حـــول تطوير طرق التعلّم المهني،وربّما استلهم (أدونيس) مصطلح" المجاز التوليـــدي" مـــن نظريـــة (تشومسكي) (Chomsky) المعروفة باسم "القواعد التوليدية التحويلية" ويعبّر عادة مـــصطلح التوليد في علوم اللسان عن القدرة الإبداعية التي يمتلكها كلّ إنسان في تشكيل عدد غير منتهي من الجمل التي لم يسمعها من قبل بطريقة طبيعية فطرية لا شعورية، وعلى كـــلّ فـــإنّ تـــأثر «أدونيس» بعلوم اللسان لم يكن تأثّراً عميقاً لنفوره من أيّ منهج علمي أو معرفة عقلية محضة.

إنّ أهمّ ما يمكن أن نستخلصه هو أنّ اللغة الشعرية في مشروع الحداثة الأدونيسية احتلّـــت مكانةً مركزية لإدراك (أدونيس) التام بأنّ اللغة هي جوهر هذا الفنّ ونواته .

يمكن إيجاز ما سبق في ما يأتي:

- كلّ تحوّل شعري عظيم لا يتمّ دون تطوّر في اللغة، فالحديث عن أيّ تطوّر في مـــسيرة الشعر العربي لا يتحقّق إلاّ إذا حدث تحوّل في لغته

[1] أدونيس : سياسة الشعر، ص 26

- كلّ تجربة شعرية عظيمة تتجلّى في بنية لغوية عظيمة
- اللغة الشعرية هي لغة تتجاوز الواقع المادي المحسوس، ولذلك فهي تحيد عن معانيها المألوفة كي تقول واقعاً يخرجُ من رحم الرؤيا
- اللغة الشعرية هي المقياس الأساس في التمييز بين الشعر والنثر
- اللغة الشعرية هي لغة الإشارة، لغة الإيحاء، لغة الخلق،تقيم علاقات جديدة، وهي لغة التساؤل والاحتجاج والتغيير
- اللغة الشعرية هي التي تؤسّس لعلاقات جديدة بين الإنسان والأشياء وبين الأشياء والأشياء وبين الكلمة والكلمة
- لا تتجدّد اللغة الشعرية إلاّ عندما تتحرّر تحرّراً كاملاً من قيود استخداماتها السابقة الموروثة
- لا توجد كلمات شعرية وأخرى غير شعرية، وموهبة الشاعر وقدرته وعبقريته هي التي تشحن الكلمات بعد أن يحمّلها معاني جديدة
- الكلمة في اللغة الشعرية هي كائن آخر عجيب يحمل دلالات لا حصر لها وطاقة انفعالية هائلة
- لكلّ شاعر عظيم لغة شعرية خاصّة به تنشأ عن استخدامه الفريد للغة وللكلمة،وعن الرؤيا المتفرّدة له.

أخيراً إذا كان تطوير اللغة حتمية تاريخية وضرورة فنية في الشعر لا مناص منها، فإنّ ذلك لا يعني أن تتحوّل هذه اللغة إلى غابة كثيفة من الرموز التي يستحيل فكّ شفراتها ويعجز عن استيعابها حتى النقاد المتمرّسين ذلك أنّها تتجاوز في كثيرٍ من الأحيان الإدراك العقلي، ولن يجدي نفعاً قول القائلين ليس شرطاً أن نفهم ما يُقال فقط علينا أن نحسّ به، ولكن كيف نحسّ بما لا نفهمه أصلاً؟.

3-3 – الإيقـــاع والوزن :

الإيقاع لغةً هو اتّفاقُ الأصوات وتوقيعها في الغناء [1]، وعادة ما تقترن كلمة الإيقاع بالمجال الموسيقي والعناء وألحانه في المعجم العربي، وفي نفس الاتّجاه يذهب المعجم الفلسفي حين يعتبر الإيقاع "مصطلح موسيقي ينصب على مجموعة من أوزان النغم، والوزن انقسام عمل موسيقي إلى أجزاء، جميعها ذات مدة واحدة، فهو تعاقب مطرد لأزمان قوية أو ضعيفة.

فالإيقاع مركب موسيقي يشتمل على أزمان غير متساوية، وهو جانب الموسيقى في الـــشعر، والوزن صيغة آلية، والإيقاع إبداع جمالي."[2]، لكن هناك من يعطي للإيقاع أبعاداً أخرى، ممّـــا يصبغ عليه نوعا من الغموض يجعله عصيّاً على التحديد، فالإيقاع –حسب بعض الآراء- سابق للموسيقى إنّه مستوحى من الطبيعة ومن حركة الإنسان والحيوان، فظـــاهرة الليـــل والنـــهار وتعاقب الفصول إيقاع، وحركة الأقدام (المشي والركض) ونبضات القلب وتعاقب الـــشهيق والزفير إيقاع، وتعاقب الرسوم والأشكال بصورة منتظمة إيقاع وحركة أمواج البحر إيقـــاع وهكذا...الخ، فهناك أشكال كثيرة من الإيقاع أدركها البشر وارتاحوا لوجودها وربّما كانت من أهمّ مصادر الإلهام عندهم ، وكلّ هذا يعني أنّ الإيقاع إيقاعات، إيقاع حركي وصـــوتي وشكلي وكوني.

ومع كلّ ذلك فقد ظلّ مصطلح الإيقاع أكثر ارتباطاً بالموسيقى في الثقافة الإنسانية وذلك لأنّه يقوم على مبدأ الانتظام والتكرار وهما جوهر الموسيقى، فالإيقاع الموسيقي هو نوع مـــن تكرار المقاطع الصوتية المنتظمة ، والمقطع الواحد قد يكون بسيطاً وقد يكون مركّباً،وإذا علمنا مدى ارتباط الشعر بالموسيقى أدركنا أهمّية الإيقاع ودوره الخطير في فن الـــشعر، وبخاصـــة في الشعر العربي الذي ارتبط بالموسيقى أكثر من غيره في بقية الأمم لعوامل خاصّة علـــى رأســـها طبيعة اللغة العربية ذاتها وحياة العرب الثقافية في العصر الجاهلي التي اعتمدت علـــى الـــشفوية والسماع "ترى الدراسات الأنثروبولوجية أن العلاقة الصميمية قائمة تاريخيـــاً بـــين الـــشعر والإيقاع.وفي ضوء ذلك يمكن تفسير نشأة الشعر العربي في حضن الرجز، فالإيقاع يعتمد على التكرار الذي يلبّي حاجة نفسية بشرية، وإحساساً عميقاً بحركة الطبيعة."[3].

---

[1] ينظر ، المعجم الوسيط ، مادة :وقع

[2] ينظر ،مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي ، مادة إيقاع

[3] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 262

ليس من المبالغة القول إنّ الإيقاع بنية جوهرية في الشعر وعنصر أساسي في تكوينه، ولا يمكن للشعر أن يستغني عنه في أيّ حال من الأحوال ، وهذا الرأي من الآراء القليلة التي لم تثر أيّ خلاف ولقيت إجماعاً في كلّ الثقافات وفي كلّ العصور، وإن لم يحسم الأمر في تشكيل هذه البنية الإيقاعية وتحديدها، وعلى الرغم من اهتمام النقاد العرب القدامى بالجانب الموسيقي في الشعر، غير أنّهم لم يتعرّضوا كثيراً إلى مصطلح الإيقاع لاعتباره مصطلحاً موسيقياً يقترن بالغناء والألحان ، ومع ذلك فقد لامسوا جوهره عند حديثهم عن العروض وعن مقاييس جودة اللفظ وتأثيره على النص كحسن السبك وتلاحم الأجزاء وجرس الصوت...الخ.

في العصر الحديث شاع مصطلح الإيقاع في الكتابات العربية النقدية بعد انتشاره في النقد الغربي باسم (rhythm,rythme)، والإيقاع في الشعر هو تلك الحركة المنتظمة المتكرّرة لعناصر لغوية وما يترتّب عنها من انسجام وتواتر في المقاطع الصوتية تنشأ عن انفعالات شعورية وذات تأثير على المتلقي، والوزن كما هو شائع في الأدب العربي إلى جانب القافية هو شكل من أشكال الإيقاع الشعري وهناك من أطلق عليه اسم الإيقاع الخارجي وعارض البعض هذه التسمية، على اعتبار أنّ الإيقاع الخارجي في القصيدة لا ينحصر في الوزن والقافية فقط بل تشكّله عناصر موسيقية أخرى وهو رأي صائب إلى أبعد الحدود.

شهدت البنية الإيقاعية للشعر العربي محاولات تجديد منذ العصر العباسي وإن لم تخرج عن إطار العروض الخليلي وتفعيلاته، و لم يكن لها أيّ تأثير كبير في مسيرة الشعر العربي، غير أنّ القرن العشرين قد عرف أهمّ تحوّل في موسيقى الشعر العربي بعد ظهور محاولات شعرية تحرّرت من القافية واستخدمت قافية مزدوجة(نظام المقطوعات)، وهو ما تجلّى في شعر الرومانسيين العرب لتأثّرهم بالمذاهب الغربية، لكن هذه المحاولات اتّخذت طابعا شخصياً وكانت قليلة متفرّقة و لم يكتب لها الانتشار ومع ذلك فقد لفتت الانتباه إلى إمكانية التجديد في موسيقى الشعر العربي وبذلك باب الاجتهاد في هذا المجال، وكان ظهور شعر التفعيلة في العراق على يد (نازك الملائكة) و(بدر شاكر السيّاب) كأوّل محاولة حقيقية لتجديد موسيقى الشعر العربي استطاعت أن تؤسّس لتحول جذري في البنية الإيقاعية للقصيدة العربية، حتّى وإن لم تحدث قطيعة جذرية بإيقاعات (الخليل)، وربما لهذا السبب تقبّلها الشاعر العربي والقارئ العربي على حدّ سواء.

لقد كان التجديد في موسيقى الشعر العربي ضرورة ملّحة كرّستها التحوّلات التي عرفها العالم والتي كان لها تأثير كبير على الثقافة العربية وكذلك فرضتها سنة التحوّل والتطوّر، هذا التحول في الإيقاع باركه أغلب النقاد والشعراء العرب وهذا (عز الدين إسماعيل) يقول"إن الشعر الجديد لم يلغ الوزن ولا القافية،لكنه أباح لنفسه- وهذا حق لا مماراة فيه – أن يدخل تعديلا جوهريا عليهما لكي يحقق بهما الشاعر من نفسه وذبذبات مشاعره وأعصابه ما لم يكن الإطار القديم يسعف على تحقيقه."[1]،ولقد حقّقت قصيدة التفعيلة رواجاً كبيراً عند الشعراء العرب وبذلك استطاعت أن تؤسّس بديلا إيقاعياً للنموذج التقليدي (نظام الشطرين) الذي ساد مدّة زمنية طويلة، و لم تكتف الحداثة بهذا التحوّل الذي طرأ على البنية الإيقاعية للقصيدة العربية بل واصلت مسيرتها الساعية إلى تغيير النماذج الموروثة "تأتي الحداثة نقيضا للسلطة والطقس.ومن ثم كان إصرارها على تحطيم البنية الإيقاعية التقليدية قويا، لتؤسس إيقاعا جديدا يجسد إيقاع الحضارة الحديثة المتقلبة حتى الأعماق،المضطربة بلا حدود، الحافلة بالتعارض الدرامي الأكثر دلالة."[2].

وتأتي قصيدة النثر كنموذج للحداثة الشعرية الذي يؤسّس لقطيعة جذرية مع البنية الإيقاعية الموروثة،وحجّة أصحابها أنّ إيقاع(الخليل)لا يمثّل إلاّ شكلاً من أشكال الإيقاع،واللغة العربية غنية بتشكيلاتها الإيقاعية التي تحتاج من يستكشفها، وإذا كانت قصيدة التفعيلة قد لقيت قبولاً في الساحة الشعرية العربية ، فإنّ قصيدة النثر قد أثارت –وما تزال- جدلاً واسعاً بسبب غموض بنيتها الإيقاعية وصعوبة تحديد مقاييس لهذه البنية من طرف النقد العربي، ومع ذلك فقد وجدت من يساندها من النقاد العرب الذين رأوا في اكتشاف إيقاعات شعرية جديدة حتمية تاريخية يقول (كمال أبو ديب) "خلق إيقاع شعري حديث، إذن، ليس عملاً مفتعلاً:إنه حتمية تاريخية، ولقد جاء حتمياً.ودور المؤثرات الخارجية يجب أن يُحدَّد من جديد:أن يكون لها أكثر من فعل اللفت إلى مجالات ممكنة،شيء يكاد يناقض حركة الثقافة كلها:يناقض إيقاع التطور التاريخي."[3]، ويدعو(كمال أبو ديب) إلى التحرّر الكامل من الإيقاعات التقليدية، ويحثّ الشعراء على تأسيس إيقاعات جديدة خاصّة بهم لا تخضع إلى أيّ معايير، بل تتجاوب مع انفعالاتهم وتجاربهم أو بمعنى آخر تتجاوب مع إيقاعات ذواتهم"يبرز الشاعر العربي هنا سيّد

---

[1] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص 65

[2] إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، ص 263

[3] كمال أبو ديب: في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ط1، 1974، ص 522

كلماته وألوانه وريشته وآلة نغمه،لا يرتبط بالإيقاعات التقليدية المستقرة –إن كانت قد وجدت– ويلتمُّ في قوقعتها، بل يغامر وراء إيقاعات جديدة طرية هشة، أو هو بالأحرى يستسلم لإيقاع القصيدة–التجربة دون مقاومة أو محاولة لتأطيره ضمن أطرٍ مسبقة التصور."[1].

يعبّر(كمال أبو ديب) عن تيّار الحداثة في الشعر الذي يدعو إلى التجريب والمغامرة والتمرّد على الأشكال القديمة، وهو في ذلك يتوافق مع (أدونيس) الذي لم يحظ الإيقاع عنده بكثير من الاهتمام وبخاصة إذا قورن بماهية الشعر أو بلغته، وما يدلّ على ذلك قلّة ما كتب عن البنية الإيقاعية في الشعر، وهو لم يخرج عن الرأي السائد الذي يرى في الموسيقى عنصراً مهمّا في تكوين الشعر، بل يؤكّد أنّ الموسيقى بنية جوهرية في الشعر وذات صلة وثيقة بنشأته "لا شك أن الشعر في نشأته ذو صلة بالموسيقى، فقد كان تكرر الصوت في فواصل منتظمة،وتساوي اللحظة الموسيقية في الأبيات أو تواقتها، يسهل الترانيم الشعرية القديمة."[2]،و(أدونيس) يرى أنّ الشعر لا يمكنه أن يستغني عن الموسيقى، وعلى الشاعر المقتدر أن يستغلّ هذه الطاقة الموسيقية في شعره لتوظيفها في عملية التواصل مع المتلقّي، فالبنية الإيقاعية ذات تأثير لا يمكن تجاهله على الجمهور، ومع ذلك فإنّ الموسيقى لا تصنع وحدها شعراً "صحيح أن على الشاعر أن يستنفد الطاقة الموسيقية في الكلمة، لكي يأتي تعبيره أشمل وأبعد أثراً.فمعنى الكلمة بحدّ ذاته قد لا ينجح في إيصال ما يريد أن يوصله إلى القارئ– وطاقتها الموسيقية تساعد في هذا الإيصال.فمن الخطأ أن نتصور أن الشعر يمكن أن يستغني عن الإيقاع والتناغم.كذلك من الخطأ القول بأنهما يشكلان الشعر كله."[3]، ولا خلاف في ما ذهب إليه (أدونيس) فللبنية الإيقاعية دور مهم في تشكّل جوهر الشعر والشعر هو الفنّ اللغوي الأكثر ارتباطاً بالموسيقى ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ولا خلاف أيضاً في كون هذه البنية الإيقاعية لا تشكّل وحدها الشعر فهناك عناصر أخرى مهمّة كاللغة والرؤيا والتصوير...الخ، ونجد رواد الحداثة الغربية أنفسهم كـ(بودلير) (Baudelaire)و(رامبو) (Rimbaud) و(مالارميه) (Mallarmé) و(إليوت)(Eliot) لم يدعوا إلى التخلّي عن الإيقاع بل اعتبروه من أسس البناء الشعري، لكن كيف ينظر (أدونيس) إلى الإيقاع؟ .

---

[1] كمال أبو ديب : في البنية الإيقاعية للشعر العربي، ص 510

[2] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 105

[3] المصدر نفسه ، ص 104

يرى أنّ الإيقاع لا يتمثّل فقط في ما تحدثه الصياغة اللغوية والقافية من تناسق صوتي لأنّ تلك من أساسيات الإيقاع التي يتجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يجسّد تلك العلاقة الروحية بين النفس الشاعرة واللغة والحياة، فالإيقاع هو نكهة الشعر السرّية التي توحّد بين الشاعر واللغة والتي ينجذب إليها المتلقّي وهو في حالة اللاوعي "الإيقاع في اللغة الشعرية لا ينمو في المظاهر الخارجية للنغم.القافية،الجناس،تزاوج الحروف وتنافرها-هذه كلها مظاهر أو حالات خاصة من مبادئ الإيقاع وأصوله العامة.إن الإيقاع يتجاوز هذه المظاهر إلى الأسرار التي تصل فيما بين النفس والكلمة ، بين الإنسان والحياة."[1]،وهنا تبرز الحداثة الأدونيسية التي تبحث في جوهر المفاهيم و في المجهول، ويلجأ إلى استخدام لغة تحاول أن توضّح لكنّها تحتاج إلى توضيح، إنّه يميّز بين ما يسمّى الإيقاع الخارجي والذي لا يتمثّل فقط في الوزن والقافية بل يتعدّاه إلى كلّ جرس خارجي تحدثه الوحدات اللغوية، كتوافق الحروف وتنافرها وتأليف الجمل والعبارات على نسق خاص وتكرار الكلمات والجمل والأصوات فيها، واستخدام الحروف المهموسة والمجهورة...الخ ، أو ما يسمّى الموسيقى التركيبية التي يدركها العقل عن طريق السماع، وبين إيقاع داخلي إبداعي لا يُدرك عن طريق العقل لأنّه يتجاوز الوعي إلى اللاوعي وهو إيقاع سرّي يحصل بين الشاعر واللغة والحياة، والحقيقة أنّه من الصعب الوصول إلى ما يقصده (أدونيس) لأنّه يدخل هنا إلى المناطق الغامضة التي يصعب على العقل إيجاد تفسير لها.

يدعو (أدونيس) إلى التمييز بين الإيقاع والوزن ويكشف عن العلاقة بينهما وهي علاقة الكلّ بالجزء أو كما يقول علاقة النبع بالمجرى "الوزن نصّ يتناهى.قواعد محددة.حركة توقفت.علم.تآلفٌ إيقاعي معين وليس الإيقاع كله.

الإيقاع فطرة.حركة غير محدودة.حياة لا تتناهى.الإيقاع نبع،والوزن مجرى معين من مجاري هذا النبع.والإيقاع، شعريا، هو كل تناوبٍ منتظم.إنه، بعبارة ثانية،تناوب في نسَق."[2] ، فالوزن هو شكلٌ من أشكال الإيقاع، أمّا الإيقاع فهو ظاهرة ارتبطت بالنفس البشرية وبالكون، وشعرياً هي ظاهرة تتجدّد باستمرار ولا يمكن أن تُحدّد أو تتوقّف، وهي تتميّز بالتكرار والتناسق الذي يدعم ويحافظ على بناء القصيدة الكلّي، وعلى انسجامها وانسيابها، وإذا كان الوزن إطار موسيقي خارجي ميّز بنية القصيدة التقليدية، فإنّ القصيدة الجديدة ذات إيقاع داخلي، أو ما

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 85

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 164

يوصف بالنسيج الإيقاعي المتعدّد الأبعاد، هذه الأبعاد تكوّن شعرية الإيقاع التي تتشكّل في اللاوعي والتي تتطلّب مقدرة شعرية لا تتوفّر إلاّ عند القليل من الشعراء "والقصيدة القديمة قائمة على الوزن السهل، المحدد، المفروض من خارج،بينما تقوم القصيدة الجديدة على الإيقاع، والإيقاع نابع من الداخل، لذلك هو ابتكار ويتطلب استخدامه قوة وبراعة وموهبة أكثر مما يتطلب استخدام الوزن."[1] ، وهو أمر لا جدال فيه فابتكار إيقاع جديد عمل في غاية الصعوبة وبخاصة في الثقافة العربية التي ألفت نوعاً من الإيقاع له جذور ضاربة في التاريخ وفي الفكر العربي، والثقافة العربية عموماً شديدة التمسّك بالقديم لتأثّرها بالقيم الدينية، وللتداخل العميق بين الأدب و العقيدة.

يدعو (أدونيس) إلى التجديد في إيقاعات الشعر العربي ولن يتمّ ذلك إلاّ بالتحرّر من الإيقاع القديم المتمثّل أساساً في الوزن والقافية أو ما يسمّى بإيقاع(الخليل)، ويؤكّد (أدونيس) على أنّ هذا الإيقاع المتوارث ما هو إلاّ تشكيلة إيقاعية داخل موسيقى اللغة العربية التي تحتوي على طاقة موسيقية هائلة لم تستكشف بعد، لكن الممارسة المتواترة والتقليد السائد جعل من الإيقاع الخليلي وكأنّه هو كلّ ما تتضمنّه موسيقى اللغة العربية"ثمة خطأ أول في النظر السائد إلى الوزن/القافية، يكمن في التوحيد بين الأصل والممارسة الأولى لهذا الأصل.فهو يوحد بين موسيقية اللسان العربي ووزنية الشعر العربي.وهذا مما أدى،بقوة الممارسة والقسر الإيديولوجي، إلى تقليص الطاقة الموسيقية اللغوية في الوزن الخليلي، وإلى تحويل أوزان الخليل إلى قوالب مطلقة تتجاوز التاريخ، مع أنها وليدته، وتتجاوز موسيقى اللّغة العربية مع أنها ليست إلاّ تشكيلات محددة،من مادة إيقاعية تشكيلية غير محددة. "[2]، ويشير (أدونيس) هنا إلى أهمّ آرائه في مسألة الإيقاع في الشعر العربي، إنّه يؤمن بقدرة اللغة العربية وثرائها الإيقاعي، وهو يسعى لاستغلال هذا الثراء في تأسيس بداية لإيقاع جديد في الشعر العربي، يتحرّر هذا الإيقاع الجديد كلّيا من إيقاعات (الخليل)، ولا شكّ أنّ الكثير يشاطرون (أدونيس) في مسعاه هذا، لأنّه دعوة إلى الإبداع والخلق ولو أنّ واقع الشعر العربي يكشف عن صعوبة هذه الدعوة التي تواجه سؤالين كبيرين أولهما من هذا الشاعر الموهوب الذي يتمكّن من تأسيس إيقاع متفرّد جديد ؟ والسؤال الثاني من هو الناقد المتمكّن الذي يستطيع وضع مقاييس للكشف عن هذا الإيقاع؟.

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 39

[2] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 10-11

يبدو موقف (أدونيس) من إيقاع(الخليل) مضطرباً، فهو وإن لم يدع صراحةً إلى التخلّي عنه، لكن في الكثير من المواقف يدعو إلى التحرّر المطلق من قيوده ويعتبره عائقاً في وجه الحداثة والإبداع "إن في قوانين العروض الخليلي إلزامات كيفية تقتل دفعة الخلق، أو تعرقلها، أو تقسرها.فهي تجبر الشاعر أحياناً أن يضحي بأعمق حدوسه الشعرية في سبيل مواضعات وزنية، كعدد التفعيلات أو القافية."[1] ، هذا الكلام قد ينطبق على بعض الشعراء ،لكن لا يصدق على كلّ الشعراء، فهناك من الشعراء العرب من يمتلك مقدرات لغوية وإبداعية تمكّنه من تجاوز هذه القيود الشكلية، والملفت للنظر أنّ (أدونيس) لا يخفي إعجابه بـ(الخليل) الذي يصفه بالأصولي الكبير، وهو حسبه عندما وضع أوزاناً للشعر العربي لم يقصد بهذا العمل أن يكون قاعدة لمن يأتي من الشعراء بعده، وإنّما قصد بوضعها تأريخاً للإيقاع الشعري العربي المعروف وحفظاً لها يقول "إن الوزن الخليلي لا يؤلف الشكل الشعري العربي كله، وإنما يؤلف جزءاً منه."[2]، وليس بالضرورة أن يبقى قالباً خالداً للشعر العربي، وهو أمر لا جدال فيه.

ما يثير الاستغراب فعلاً هو موقف (أدونيس) من شعر التفعيلة، إذ لم يُشرْ إليه في حديثه عن الإيقاع وهذا يعني أنّه لا يعتبره تجديداً في البنية الإيقاعية ويعود ذلك لاعتماد هذا الشعر على تفعيلات (الخليل)، أو ربّما لنظرة (أدونيس) المختلفة عن نظرة (نازك الملائكة) في ما يخص الحداثة في الشعر العربي "وفي ضوء الحداثة،بالمعنى الذي أشير إليه، يبدو مضحكاً القول إن بداية الشعر العربي الحديث قامت على تغيير في نسق التفعيلة، كما تزعم نازك الملائكة، وكما جرى وراء زعمها معظم "الباحثين" في الحركة الشعرية العربية الحديثة.إن أبا نواس أو أبا تمام أكثر حداثة من نازك الملائكة، لا في قصيدة "الكوليرا" وحدها، النموذج الأول المزعوم للحداثة ، بل في شعرها كله."[3]، وهي لهجة فيها الكثير من التهجّم، وهو موقف مجحف في حقّ رواد شعر التفعيلة، فأغلب النقاد العرب يعتبرون قصيدة التفعيلة من أهمّ ملامح التجديد في البنية الإيقاعية للشعر العربي، بل إنّ هذه القصيدة أعطت دفعاً قوياً للشعر العربي وأسهمت كثيراً في تطوّره وغيّرت نظرة المتلقّي العربي للشعر (من نظام البيت إلى نظام السطر)، وأتاح إيقاعها الجديد للشاعر العربي مساحة واسعة للتعبير عن تجاربه المعاصرة ومكّنه من التحرّر الفعلي من قيود

---

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 104

[2] المرجع نفسه ، ص 99

[3] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 167

الوزن والقافية، بل استطاعت قصيدة التفعيلة أن تحقّق تلك المعادلة الصعبة التي تجاوز أو توفّق بين التراث والحداثة.

إنّ التجديد في الإيقاع عند (أدونيس) يقتضي قطيعة جذرية مع البنية الإيقاعية الموروثة وهذا ما يفسّر عدم احتفائه بالشعر المرسل وشعر التفعيلة، فالقصيدة الحديثة عند تتمرّد عن كلّ قوالب إيقاعية جاهزة سعياً منها إلى الذهاب بعيداً في الكشف والابتكار والتجاوز وفتح المزيد من الآفاق، والتجدّد في الإيقاع لا يعني أبداً التوقف عند أيّ شكل من أشكال الإيقاع،فهذا التجدّد مستمر للبحث المتواصل عن إيقاعات أخرى وهكذا، لأنّ الحداثة الشعرية ابتكار متواصل واللغة العربية كما يقول (أدونيس) غنية بالتشكيلات الإيقاعية التي لا تستنفذ "لن تسكن القصيدة الجديدة في أي شكل ثابتٍ نهائيّ، وهي جاهدة أبداً في الهرب من كل أنواع الانحباس في أوزان أو إيقاعات محدودة، بحيث يتاح لها أن توحي بالإحساس بجوهر متموّج لا يدرك إدراكاً كلياً ونهائياً. لم يعد الشكل جمالاً وحسب، ففكرة الجمال بمعناها القديم ماتت."[1]، وهو يذهب في ما معناه أنّه لا يوجد شكل نهائي ولا مفهوم نهائي في ميدان الإبداع الشعري، ولذلك هو يرفض فكرة توارث الأشكال لأنّ ذلك قتل للإبداع وتجميد لحركة الحداثة.

أصبح الإيقاع في القصيدة الحديثة بنية جوهرية تتجاوز دورها المتوارث والكامن في إضفاء الجمالية السطحية أو الزخرف الناتج عن التكلّف والصناعة اللفظية إلى دورٍ أكثر تعقيداً يرتبط بكيفية التعبير وبالانفعالات الناتجة عن الرؤيا وعن التجربة الشعرية، بمعنى آخر أصبح الإيقاعُ أكثر التحاماً بالتجربة الشعرية ومن جميع جوانبها وهذا ما يوضّحه (أدونيس) قائلاً "ولا تنبع الموسيقى في الشعر الجديد من تناغم بين أجزاء خارجية وأقْيسة شكلية،بل تنبع من تناغم داخلي حركي هو أكثر من أن يكون مجرد قياس.وراء التناغم الشكلي الحساب ، تناغم حركي داخلي هو سرّ الموسيقى في الشعر."[2]، إن الموسيقى التي يتحدّث عنها (أدونيس) هي تلك الموسيقى الباطنية التي تعزفها أحاسيس الشاعر والتي لا يلتفت فيها هذا الشاعر إلى أيّ إطار خارجي ولا يلتزم فيها بأيّ قواعد مسبقة، وإنما يلتزم بالعودة إلى الأصل والنبع الموسيقي الذي لا يجفّ وهو اللغة العربية، لغة الشعر والموسيقى، هذه اللغة التي استمدّ منها الشاعر الجاهلي تلك الإيقاعات الخالدة، هذه اللغة التي أشرقت في النص القرآني ببنية إيقاعية مُعجزة، إنّ الحداثة الشعرية تأبى أن

---

[1] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 100

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 14

تستخدم إيقاعاتٍ موروثة لأنّ من أهمّ مقوّماتها الإبداع الذي يقتضي ابتكار إيقاعات جديدة تواكب التطوّر وتعبّر عن روح العصر "إن الشكل الشعري الجديد عودة إلى الكلمة العربية – إلى سحرها الأصلي،وإيقاعها، وغناها الموسيقي والصوتي."[1]، لكن ما يجب الإشارة إليه أن الإيقاع الخارجي الناتج عن تناغم أجزاء خارجية هو أيضاً انعكاس لتناغم داخلي وبخاصة في الأعمال الشعرية الحقيقية التي تبتعد عن التكلّف،بمعنى آخر أنّ القصيدة الحقيقية لا يمكن الفصل فيها بين إيقاع خارجي وإيقاع داخلي لأنّ بنيتها الإيقاعية واحدة موحّدة.

يحاول (أدونيس) بتركيزه على الموسيقى الباطنية في القصيدة أن ينظّر لإيقاع جديد تجسّده "قصيدة النثر" التي أثارت ومازالت تثير الكثير من الجدل في النقد العربي، وقد انقسم النقاد والشعراء إلى فريقين ، فريقٍ مدافع متعصّب لها و فريقٍ ثاني مهاجم متعصّب ضدّها وبرز طرف آخر يحاول التوفيق بين الموقفين، و(أدونيس) بطبيعة الحال من المتحمّسين لها لأنّها تمثّل ثورة شاملة على جميع المفاهيم والمعايير الموروثة في الشعر العربي وهي بذلك تعبّر عن الحداثة الشعرية العربية وتحقّقُ ما تطمح إليه، لقد كان (أدونيس) أوّل من أطلق عليها هذا الاسم بعد نقل مفهومها من الأدب الفرنسي وكان لمجلة (شعر) دور كبير في نشرها عربياً ولقد لقيت هجوماً شديداً في بداية ظهورها من طرف الشعراء والنقاد العرب وعلى رأسهم (نازك الملائكة) التي تقول عنها وعن أنصارها في لبنان "ولقد سمّوا النثر الذي يكتبونه، على هذا الشكل، باسم"قصيدة النثر" وهو اسم لا يقل غرابة وتفككا عن تعبير غيرهم (الشعر المنثور).ذلك أن القصيدة إما أن تكون قصيدة وهي إذ ذاك موزونة وليست نثراً، وإما أن تكون نثراً فهي ليست قصيدة.فما معنى قولهم "قصيدة النثر" إذن؟."[2]، وما أزعج «نازك الملائكة» هو ذلك الالتباس الذي سبّبته هذه القصيدة فالقارئ العربي العادي لم يستطع التمييز بينها وبين "قصيدة التفعيلة" وهذا يعني أنّها شوّشت على إنجازها الكبير في مسيرة الشعر العربي، والحديث عن "قصيدة النثر" مهمّ جدّاً لأنّها تعتبر المولود الحقيقي للحداثة الشعرية العربية فقد حطّمت كلّ المفاهيم الموروثة والقوالب التقليدية وبخاصة في بنيتها اللغوية والإيقاعية على وجه الخصوص،وعلى الرغم من أصولها الفرنسية إلاّ أنّ (أدونيس) يذهب إلى أنّها أصبحت عربية الوجه واللسان، وقد اكتسبت مشروعيتها برسوخها في الساحة الشعرية العربية " لا أريد هنا أن أدافع عن" قصيدة النثر"، فهي

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 165

[2] نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، ص 132

من الرسوخ بحيث لم تعد في حاجة إلى من يدافع عنها.وفي نصوصها الكثيرة،المتنوّعة،الجميلة،يكمن الدفاع الأكثر قوّة وحسماً."[1] ، غير أنّ الانتشار لا يعني الرّسوخ، والرسوخ الحقيقي هو التغلغل في الثقافة الشعرية العربية والاستمرار،وهذا النوع الأدبي لا يمكن أن نحكم عليه إلاّ بعد فترة زمنية قد تطول، وهي إلى حدّ الآن لم تستطع أن تشكّل بديلاً عن القصيدة العمودية أو قصيدة التفعيلة، وأبرز تحدّي يواجه " قصيدة النثر" هو أنّها لم تحدّد بنيتها الإيقاعية.

إذا كان (أدونيس) مؤمناً بضرورة الموسيقى في الشعر فأين يتجلّى إيقاع "قصيدة النثر"؟ يجيب "في قصيدة النثر، إذاً، موسيقى.لكنها ليست موسيقى الخضوع للإيقاعات القديمة.بل هي موسيقى الاستجابة لإيقاع تجاربنا وحياتنا الجديدة–وهو إيقاع يتجدد كل لحظة."[2]، وهو ردّ في الحقيقة غير مقنع، لأنّ جوهر القضية ليس في التحرّر من الإيقاعات الموروثة وإنّما في تأسيس إيقاع بديل وهو ما يبدو غائباً إلى أجل غير مسمّى، وعلى الرغم من الانتشار الواسع–وهو سلاح ذو حدّين–لهذا النوع من الكتابة فإنّ (أدونيس) لا يبدو راضياً على أغلب ما يُكتب، إذ لا يرى فيه إلاّ كتابات بالنثر ولا تمثّل "قصيدة نثر" حين يقول "هكذا تتأرجحُ هذه الكتاباتُ بالنّثر، والتي تُسمّى، دون دقّة، واستعجالاً، "قصائد نثر"، بين "غياب الذّات"، و"حضور الآخر".وهو تأرجحٌ لا يزال يخلق مُشكلاً على المستوى التقني، وعلى المستوى النّظريّ، معاً."[3]، وهذا يعني أنّ الكثير ممّا يكتب باسم "قصيدة النثر" ليس كذلك، إنّه يفتقد –كما يضيف (أدونيس) – إلى الجانب الفنّي هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك سيطرة للمفهوم الغربي على بعض كتّابها العرب وهو ما يعني غياب للإبداع الشعري.

لم يقدّم (أدونيس) مقاييس نقدية واضحة تميّز بين قصيدة النثر عن أيّ كتابة نثرية تدّعي الشعرية، ومقياسه الوحيد هو حضور الرؤية والأفق والمعنى والحسّ الموسيقي[4] ، وهو كلام عادي لا يمكن اعتماده كمقياس منهجي، وهذا مأزق آخر يكشف عن غياب مقاييس نقدية تحدّد هذا النوع من الكتابة، وهو ما يقلق النقاد حين يواجهون "قصيدة النثر"، إذ تبدو القاعدة الوحيدة التي توجّهها هي الحرية الواسعة لشاعرها والتحرّر الكامل من أيّ قالب موسيقي

---

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 121

[2] أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، ص 105

[3] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق ، ص 114

[4] ينظر المصدر نفسه ، ص 112

مسبق، وكأنّ أنصار هذه القصيدة ما زالوا يجتهدون في البحث عن إيقاع خاص بها، وهذا ما يوحي به كلام (أدونيس) عنها، حيث يقرّ بأنّها كانت مجرّد أفق آخر للكتابة الشعرية العربية ولم تكن انفراجاً لأزمة لها "لم تكن "قصيدة النثر" حلاً لأزمة الكتابة أو الإبداع. لم تكن "الرّسالة" التي حملت الأجوبة النهائيّة لقضايا الشعريّة العربيَّة. كانت مجرّد أفق آخر إلى جانب قصيدة الوزن،"[1].

ألا يمكن القول إنّ "قصيدة النثر" نُقلت إلى بيئة عربية غريبة عنها قسراً، وهي بيئة تكرّس الإيقاع كبنية جوهرية –بجميع أشكالها- لا يمكن الاستغناء عنها في الشعر، وأنّ أنصار هذه القصيدة يحاولون البحث عن جذور لها من خلال العودة إلى بعض النصوص الصوفية والخطب المسجوعة في التراث العربي وهو رأي يتطلّب المزيد من الحجج المقنعة لأنّ هذه النصوص لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تتحوّل إلى نصوص شعرية على الأقلّ في إطار المعايير العربية للشعر، كما أنّ أنصار "قصيدة النثر" يركزون على الموسيقى الدّاخلية وهم في ذلك كمن يصطاد السمك في كثيب من الرّمل، فالموسيقى الداخلية تفضي حتماً إلى نوع من الموسيقى الخارجية.

لقد فشل منظّروا "قصيدة النثر" – ومنهم (أدونيس) - في إرساء معايير واضحة تكشف عن بنيتها الإيقاعية، وهو ما يفسّر قلة حديث (أدونيس) عن الجانب الإيقاعي لهذه القصيدة فهو ربّما لم يجد ما يقول!، ومع ذلك تبقى "قصيدة النثر" كحالة خاصّة من الكتابة الشعرية وأفقاً آخر للتجارب الشعرية قد يفضي يوماً ما إلى نوع جديد من الإيقاع في الشعر العربي بعد مراحل من التطور،كما لا ننسى أنّها الممثّل الأكثر بروزاً للحداثة الشعرية العربية، على الرّغم من أنّ هذه الحداثة فشلت في تأسيس بنية إيقاعية جديدة، وهو ما اتّخذه بعض المشتغلين في الساحة الأدبية العربية كمبرّر لإعادة النظر في مشروع هذه الحداثة وما قدّمته للشعر العربي"والثابت الذي لا جدال فيه،هو أن البنية الإيقاعية الجديدة لم تعد تحمل أي جديد.وأن حركة الشعر الحديث التي اعتمدت في ثورتها الشاملة على الثورة في مجال الإيقاع، قد وصلت إلى الأفق المسدود، الأمر الذي يؤكد أن البحث في حداثة الإيقاع مرتبط ارتباطاً جدلياً بالبحث في الحداثة الشعرية بصفة عامة،"[2] .

---

[1] أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق، ص 123

[2] أحمد المعداوي : أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، الرباط – المغرب ،ط1، 1993، ص 76

ما يمكن أن نستخلصه حول آراء (أدونيس):

- لم يهتم كثيراً بالجانب الإيقاعي في الشعر في مشروعه الحداثي، وقد يكون ذلك لاقتناعه بالفشل في تأسيس بديل إيقاعي جديد لإيقاعات «الخليل»

- يؤكّد أنّه لا وجود لشعر بدون إيقاع، فالبنية الإيقاعية بنية جوهرية في الشعر، ولكن للإيقاع تشكيلات لا حصر لها

- الإيقاع يتجاوز الأطرَ الخارجية الناتجة عن أصوات الحروف وعن التراكيب المنتظمة للوحدات اللغوية إلى حركة النفس الشاعرة وعلاقتها بالرؤيا وباللغة

- لخلق إيقاع جديد يجب العودة إلى المنبع الأوّل وهو الكلمة العربية واللغة العربية وتفجير طاقاتها الموسيقية

- الإيقاع الخليلي لا يستنفذ موسيقى اللغة العربية الغنية بموسيقاها ،لأنّه لا يمثّل إلاّ بعض تشكيلاتها الموسيقية المتعدّدة

- الإيقاع الخليلي يعيق تدفق الشعرية ويحصرها في قوالب مقيّدة للإبداع، ويمنع النفس الشاعرة من أن تسلك فضاءً إيقاعياً خاصاً بها

- لقصيدة النثر إيقاع خاص لا يلتزم بأيّ قالب موسيقي خارجي جاهز وإنّما يستجيب لحركة النفس ويواكب تجربة الحياة الجديدة

- إذا كانت القصيدة القديمة تقوم على الوزن ، فإنّ القصيدة الحديثة على النقيض من ذلك تسعى للتحرّر من أيّ إيقاع محدّد

-لا يمكن تحديد الشعر بالوزن والقافية لأنّ هذا التحديد قد يناقض جوهر الشعر نفسه

- يسعى مشروع الحداثة الأدونيسية في الشعر إلى تأسيس بنية إيقاعية جديدة تُحدث قطيعة جذرية مع إيقاعات (الخليل)، لكنّه لم يستطع إلى حدّ الساعة الوصول إلى ذلك.

3-4 – التلــقّي :

إذا كانت اللغة الشعرية هي لغة فنية جمالية تتعالى على اللغة النفعية التبليغية فهذا لا يعــني استغنائها كلياً عن التواصل، فقد يموت النص الشعري ويندثر إذا لم تتوفّر لغته على إمكانيــة التواصل مع الآخر وهو المتلقّي، واللغة ما وجدت إلاّ لتصل بين طرفين، ولذلك فالشعرُ لا يُلقى إلاّ ليُسمع ولا يُكتب إلاّ ليُقرأ، والعمل الشعري تشكّله الأطراف الثلاثــة الــشاعر والــنص والمتلقّي، وحتّى وإن بدا أنّ المتلقّي هو الحلقة الأضعف، فإنّ الحقيقة تؤكّد أنّ أيّ غيــاب لــه سيؤدّي إلى خلل كبير يسقطُ النص في هوة النسيان، ولن تكتب له الحياة إلاّ بظهور متلقٍّ له.

لعوامل عديدة أهملت الدراسات الأدبية هذا المتلقّي و لم تهتمّ به كثيراً على الرّغم من أنّهــا أشارت إليه في مواضع قليلة، فعند العرب يبدو اختفاءُ المتلقّي مقبولاً بسبب سيطرة الــنص في الدراسات الدينية وما يترتّب عنه في أيّ دراسة أدبية، في العصر الحديث ظهــرت في الغــرب مناهج نقدية كالمناهج السياقية التي أعلت من مكانة المؤلّف وكرّست فكرة "سلطة المؤلّــف" وصبّت اهتمامها على المبدع وكلّ ما يحيط به من أحداث تاريخيــة واجتماعيــة و...الخ، ثمّ جاءت المناهج النصّية التي بدأت بالبنيوية والتي أعلنت "موت المؤلّف" ودعــت إلى الاهتمــام بالنص الأدبي والوقوف على بنيته اللغوية بغض النظر عن العوامل الخارجية الــتي أســهمت في تشكيله وبغض النظر عن الموضوع الذي يتناوله،و لم تتوقف مسيرة النقد في إنتــاج المنــاهج والنظريات إذ سرعان ما ظهرت اتّجاهات جديدة اهتمّت بالمتلقّي وأعلت من سلطته ودوره في العمل الأدبي باعتباره طرفاً مهمّاً لا يمكن حذفه من المعادلة الأدبية، ومن أشهر النظريات النقدية التي ظهرت في هذا المجال واهتمّت بدور المتلقّي ما يسمّى بــ(نظرية الاستقبال /أو اســتجابة القارئ)، (Reader response / Reception Theory)، وتُترجم أيضاً إلى (نظرية التلقّي)، وقد ظهرت في ألمانيا ومن أبرز رموزها الألمانيان (هانز روبرت ياوس) (Hans Robert Jauss)، (فولفغانغ آيزر) (Wolfgang Iser)،والإيطالي (أمبرتو إيكو) (Umberto Eco)،"من الصعب الإحاطة بتفرعات هذه النظرية و تشعباتها، وترجع الصعوبة إلى عدم ثبــات نقــاط التركيــز واتّساع رقعة مراكز الاهتمامات التي تؤسس طروحات هذا التوجه النقدي.ولعل الجامع الذي يوحد بين المنتسبين إليها هو الاهتمام المطلق بالقارئ والتركيز على دوره الفعال كذات واعية لها نصيب الأسد من النص وإنتاجه وتداوله وتحديد معانيه."[1]، واشتملت الاتّجاهات المهتمّــة

[1] ميجان الرويلي و سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي ، ص 282

بالمتلقّي على الكثير من الأفكار والمفاهيم والمصطلحات، وهناك من يفرّق بين (نظرية التلقّي)و(جمالية التلقّي)،فالأولى تهتمّ بأنواع الخطابات الأدبية وكيف تعامل معها النقد، أمّا الثانية فتهتمّ بأنواع القراءات لنفس النص الأدبي،وعموماً فكلّ هذه الاتّجاهات المهتمّة بالمتلقّي تحاول الإجابة عن التساؤلات المرتبطة بكيفية تعامل المتلقّي مع النص الأدبي.

يأتي النص الشعري في مقدّمة النصوص الأدبية التي تلقى اهتماماً كبيراً من طرف أصحاب هذه الاتّجاهات "يمكن وضع تلقي الشعر بوصفه تلقياً إشكالياً في مقدمة أشكال التلقي الأدبي، لما يتمتع به الشعر من وضع خاص ونوعي في بنيته النصيّة والأدبية والثقافية والفكرية والحضارية، فهو الجنس الأدبي الأكثر رمزية من بقية الأجناس الأدبية، والأكثر تاريخية في علاقة المتلقي به-خصوصاً القارئ العربي-الذي تعد علاقته القرائية بالشعر - شفاهياً و كتابياً – وثيقة إلى درجة الجدل والتماهي والتفرّد."[1].

وتبرزُ اليوم القراءة كأهمّ وسيلة لتلقّي الشعر بعد انحسار الوسائل الأخرى لظروف الحياة المختلفة (الملتقيات ، الأمسيات، الندوات ، ...الخ)، فالشاعر لا تتاح له الفرص الكثيرة للتوجّه مباشرة إلى جمهوره ، والقراءة نشاط مركّب، فيزيائي، معرفي، عاطفي ، حجاجي ،...الخ يهدف إلى الوصول إلى جماليات النص الشعري، والقراءة هي أيضاً تجربة شخصية تتحاور وتتفاعل مع تجربة الشاعر من خلال النص المقروء وغايتها إيجاد الأثر كما يقول (الغذّامي) "إذ ليس من هدف القراءة إيجاد معجم بديل تقيد به الكلمات مرة أخرى.ولكن هدف القراءة هو إيجاد (الأثر) والأثر مصطلح فني يحل محل الغرض والهدف في النص الأدبي، ويحقق الوظيفة الجمالية في التذوق والتفاعل مع النص من جهة القارئ."[2]، والأثر كما يضيف (الغذّامي) هو ما يحدثه النص في نفس القارئ، هذا الأثر هو أكبر تحدّي تواجهه الحداثة الشعرية العربي، فشعر الحداثة –أو على الأقلّ أغلب هذا الشعر-أخفق في الوصول إلى وجدان القارئ ، وهو ما يعني فشله في إقناع هذا القارئ بأطروحاته الحداثية، وما زاد في تعقيد القضيّة هو ارتباط هذا القارئ العربي بالمفاهيم الموروثة حول الشعر العربي، فهو أثناء قراءة أيّ نص حداثي لا يجد فيه ما يؤكّد تلك المفاهيم فيحدثُ نوعٌ من النفور"وكثير ممن ألفوا قراءة الشعر العربي القديم يواجهون صعوبة كبيرة في التجاوب مع الشعر الجديد وربما رفضوه من أجل هذه الصعوبة."[3]، ولا شكّ

---

[1] محمد صابر عبيد: شيفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى ،منشورات الاختلاف ،الجزائر- الجزائر ، ط1 ،2009 ،ص 64

[2] عبد الله الغذّامي :الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر،ط4 ،1998، ص288

[3] عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، ص187

أنّ القارئ العربي لا يبذل أيّ جهد فكري لمحاولة الوصول إلى الأثر، لأنّ قراءة الشعر يراها نوعاً من المتعة الفكرية التي تدغدغ النفس وتريح العقل وترهف الحس،وهي رحلة تعبر فضاءً آخر تبهج الوجدان وتطرد الحزن والكآبة، وهذا ما تعوّد عليه القارئ العربي قروناً طوالاً،ولا شكّ في أنّ هذه الأزمة التي يعاني منها شعر الحداثة ستطول، ولا يمكن تجاوزها بسهولة ويسر"ويتطلّب من المبدعين والنقّاد اجتراح مسالك جديدة وجريئة في فتح قنوات التواصل الجماليّ مع الجمهور،لأنّ الشعر هو الذي يحمل جِيْنات الرّوح العربيّ الوراثيَّة، وهو الذي يجدّد اللّغة ويضمن لها البقاء،واللّغة هي بنك الذّكاء القوميّ، والشعر في نهاية الأمر هو جوهر الفنون ولابدّ أن يتوهّج بازدهارها."[1]، وعلى المتلقّي العربي أيضاً أن يواكب ويستوعب كلّ التحوّلات التي تطرأ على الشعرية العربية وأن لا يبقى حبيساً للمفاهيم التقليدية للشعر، وعليه أن يجتهد لتذوّق هذا الفن العربي الأصيل وذلك بتعميق معارفه الثقافية وتوسيعها، فعلى متلقّي الشعر اليوم أعباءٌ كبيرة وعليه" أن يضاعف فيها قدراته وطاقاته حتى تتضاعف لذّته القرائية ويتضاعف مستوى إنجازه التأويلي الجمالي،ويرتفع بتلقيه إلى قامة الخطاب الشعري الذي يقاربه ويتعاطى معه ويخترقه قرائياً."[2] .

لعلّ من أبرز القضايا الشعرية التي تؤرّقُ (أدونيس) هي مسألة التلقّي، إنّ مشروع الحداثة الأدونيسية الشعري لم يجدّ حلاّ لهذه المعضلة، أو بمعنى أدّق لم يجدْ متلقّياً في مستوى الشعر الذي ينتجه "إنني أرى أن الأزمة الحقيقية اليوم ليست أزمة كتابة، وليست أزمة نتاج، لأن هناك نتاجاً جيداً ونصوصاً ممتازة، إنما أزمة قراءة.ليس هناك قارئ عظيم ليمارس فعل التأويل لهذه النصوص الممتازة،تأويل يفتح لها الأفق الذي تطمح إليه ويدخلها في نسيج الثقافة الكونية.وهذا كله مسؤولية القراءة."[3]، وإذا كان (أدونيس) محقّاً إلى حدّ ما في ما ذهب إليه من كون القراءة لم ترق بعد إلى مستوى شعر الحداثة ، فإنّ هناك من جهة أخرى نوع من المبالغة في تحميل القارئ وحده هذه المسؤولية في الانسداد الواقع في عملية التواصل بين القارئ العربي والشعر، ثمّ لا يمكن تجاهل الكثير من الآراء التي صدرت عن نقادٍ عرب تؤكّد صعوبة التواصل مع هذه النصوص وهم كما هو معروف على دراية كبيرة واطّلاع واسع ومعرفة عميقة بكلّ ما يتعلّق بالأدب العربي أو الغربي ولا يمكن التشكيك في مقدرتهم النقدية أو موهبتهم القرائية، أليس من

---

[1] صلاح فضل : تحولات الشعرية العربية ، ص 12

[2] محمد صابر عبيد: شيفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى ، ص 68

[3] صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس ، ص 83-84

الإنصاف القول إنّ الحداثة الشعرية العربية لم تستطع الوصول إلى وجدان القارئ العربي بجميع أطيافه وأنّ لها دوراً ما في هذه الأزمة الشائكة، لكن الغريب أنّ (أدونيس) لا يحمّل هذه الحداثة أيّ مسؤولية لإيمانه المطلق بمبادئها وأطروحاتها، وهذا ما يؤخذ على شعراء الحداثة ومنظّريها في الأدب العربي.

انطلاقاً من إيمان (أدونيس) بهذه الحداثة فهو دائما ما يعزو أسباب هذه الأزمة إلى النظام الثقافي السائد الموروث، أو ما يسمّيها بالماضوية، هذه الماضوية الفنية والسياسية هي التي تكرّسُ اتّجاهاً وحيداً للقراءة تفرض على الشاعر العربي أن يلتزم الوضوح في نصوصه، لأنّها لا تهتمّ إلاّ بمضمون النص ولا ترى في التحوّلات التي طرأت على العصر أيّ علاقة به"ومثل هذه القراءة سلبيّة لا تُعنى إلاّ بالكشف المباشر عمّا يُسمّى بـ"المضمون"أو بـ"قَصْد"الشاعر.وهي إذن، قراءة تقرأ النّص كوصف، من حيث أنّ اللغة أداة تمثيل ونَقْل، لا أداة تساؤل، وتَغْيير.والقارئ هنا لا يقرأ النّص في ذاته، وإنما يقرأ ذاكرتَه الشخصيّة:الماضوية-الإيديولوجية."[1]، وبالتالي فهذه القراءة تكرّس ما هو موروث ولا تتطلّع إلى أيّ جديد ولا تدعمه إنّها قراءة تستخدم النص ولا تقرأه، أو بمعنى آخر هي تقتله عوض أن تبث فيه الحياة ولذلك يسمّيها (أدونيس) بالقراءة الطامسة التي تنفي من الوجود كلّ نص يتمرّد على معاييرها"وطبيعيّ أنّ هذه القراءة ستُدين كلّ نصّ عصيّ على ما تريد.إنّها قراء يمكن أن نسمّيها بـ"القراءة الطَّامِسة": لا تطمس نصيّةَ النّص وحسب،وإنما تطمس كذلك إمكانَ التّساؤل، وإعادةَ النّظر، والحركيّة الإبداعيّة.إنها،باختصار ، تطمس الشّعر."[2]، هذا النمط من القراءة يكرّسه النظام الثقافي والسياسي القائم في المجتمعات العربية، فهو يخشى التغيير لأنّ كلّ شكل من أشكال التغيير يهدّد سلطته المهيمنة، ولهذا فهو يسعى دائماً لإبقاء الحال كما هو عليه، ولا يمكن أيضاً تجاهل الفكر الإيديولوجي الذي يحبّذ الثبات والإبقاء على المفاهيم الموروثة باعتبارها مفاهيماً تحملُ نوعاً من التقديس وتتضمّن الحقائق المطلقة وهذا ما يؤثّر سلباً على الأدب، فهذا الفكر السائد لا ينتج إلاّ قارئاً مولعاً بالنصوص الشعرية القديمة ويواجهها بنفس القراءة المتوارثة وهنا يكمن جوهر الأزمة في عملية تلقّي الشعر العربي، فهذا القارئ حين يتصدّى لنص شعري لا يواجهه بأسئلة جديدة ولا بروح المستكشف المغامر وإنما بأفكار مسبقة يبحث عنها في هذا النص"هذا " القارئ " لا

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 52

[2] المصدر نفسه ، ص 52

يقرا النّص من حيث هو نَصٌّ قائمٌ بذاته،في استقلالٍ عنه:نَصٌّ-شكْلٌ، لـــه لغتـــه وعلاقاتهـــا وأبعادها.إنه،بالأحرى،لا يقرؤُه، وإنَّما يَبحثُ فيه عمّا يؤكّد أو ينفي، ما "يضمره" في عَقْلـــه ونفسه."[1]،إذا كان ما يصفه (أدونيس) هو واقع لا يمكن لأحد إنكاره، فإنّ ما يؤخذُ عليه هو عملية التعميم التي يمارسها في حقّ القرّاء العرب، فهو لا يميّزُ بين الناقد المحتـــرف أو القـــارئ العادي ويضعهم جميعاً في فئة واحدة،تحملُ نفس الذهنية التي تنبهر بجمالية الموروث والـــتي لم تتحرّرْ من قيود الإيديولوجية الفكرية السائدة وهذا رأي فيه الكثير من المبالغة.

ما يعزّز القراءة التقليدية السائدة النظرة الشائعة للشعر والمبنية على الفكرية-المنفعية عـــوض الفنية-الجمالية كما يصف (أدونيس) ، إنّها نظرة ترتكز على الفائدة المرجوة من النص الشعري وبذلك فهي ترجمة تحوّلُه "إلى نصٍّ نثري "علميّ" فتمحو جماليّة الكلمات وعلاقاتها، والـــصور والتخيّلات والأبعاد الانفعالية لكي تُثْبِتَ "المضمون".وهي إذن "إهلاك" للنَّص الـــشعريّ مـــن حيث أنَّها لا ترى فيه إلاَّ ما يمكن "استهلاكه"."[2]،وباستخدام (أدونيس) للمصطلح الاقتصادي "الاستهلاك" فهذا يعني أن هذه النظرة ينتج عنها قارئ غير مبدع لا يتفاعل مـــع الـــنص ولا يتحاور معه ولا يستكشف أبعاده إنّه مجرّد مستهلك للنص وفقط، وفي هذا أيضاً نـــوع مـــن المبالغة فلا يمكن إلغاء الكثير من قرّاء الشعر العربي الذين يتذوّقون الشعر جمالياً وفنياً ويميّـــزون بذائقتهم الحسّاسة بين الصور المستحدثة والصور المجترّة ويتفاعلون معه بـــشكل راقـــي، ثمّ أنّ النظرة التي ترى في الشعر رسالة مقدّسة تعبّر عن آمال وآلام الناس لا تتناقض مع جمالية هـــذا الشعر وفنّيته.

من المبادئ التي أرساها النظام الثقافي السائد هو مبدأ القياس الذي لقي انتقاداً من طـــرف الكثير من المفكّرين العرب ورأوا فيه أحد معوّقات الحداثة في الفكر العربي المعاصر، فالقيـــاس على النموذج الموروث أشاع نوعاً من الثقافة التي تحاكم أيّ جديد بناءً على القديم المـــوروث، وترفض وفقاً لذلك أيَّ نتاجٍ فكري لا يتحرّكُ في أفق الماضي وهو ما يؤثّرُ على الشعر باعتباره أحد أهمّ أوجه الثقافة العربية الأصيلة "من المشكلات التي ولّدها مبدأ القياس على الأصـــل أو النموذج، مشكلة التكوّن الثقافي للقارئ أو للمثقف العربي نفسه.فهذا المبدأ يقتضي، عمليـــاً، تناقل الموروث الثقافي بالطرق التفسيرية المحافظة.و هنا تكمن الأسبـــاب التي أدت إلى تكويـــن

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 57

[2] أدونيس : كلام البدايات ، ص 26

نموذج للمثقف العربي يمكن أن نسمّيه المثقف المدرسي،وهو نفسه النموذج الذي يوجّه المدرسة العربية، اليوم، ويخطط لمناهجها التربوية، ولتقدّمها."[1]،هذا الواقع الثقافي الرّاسخ في المجتمعات العربية هو الذي ينتج ذلك المتلقّي الموجّه الذي يتجنّبُ أيّ نص شعري لا يتوافق مع نظرته المسبقة للشعر،وهو واقع لا يمكن تغييره بين عشيّةٍ وضحاها ،فبعض التحوّلات قد تستغرق قروناً، من كلّ ما سبق يتّضح أنّ (أدونيس) يعزو سبب انتشار القراءة السائدة للشعر إلى هيمنة النظام الثقافي الإيديولوجي السياسي الذي يوجّه القراءة التقليدية ويكرّسُها، بل ويوجّه أيضاً الكتابة التي تستجيب لشروط بقائه ولا ننسى أنّ هذا النظام يعتبرُ عند (أدونيس) من أهمّ معوّقات الحداثة العربية بوجه عام كما رأينا سابقاً، هذا الواقع بكلّ مكوّناته قد يفسّرُ مدى أزمة تلقّي الشعر الناتج عن غموض شعر الحداثة.

قضيّة الغموض في الشعر الحديث من أكثر القضايا التي تناولتها الدّراسات النقدية الحديثة في الأدب العربي المعاصر، يؤكّدُ (أدونيس) أنّه لا يبشّرُ بالغموض لأنّ بعض أدعياء الشعر يتّخذون منه وسيلةً لإخفاء عجزهم عن إبداع الشعر، كما لا يبشّرُ أيضاً بالوضوح لأنّ بعض أدعياء الشعر أيضاً يتّخذون منه وسيلة للتواصل مع الجمهور وبذلك يصبح غطاءً يخفي عجزهم عن الإبداع ويضيف (أدونيس) "فلا يعنيني "الغموض" بذاته أو "الوضوح"بذاته، وإنما الإبداع هو الذي يعنيني."[2]، وإن بدا التناقض يلفّ هذا الموقف، فإنّ الفكرة التي يدعو إليها (أدونيس) هو ترك النفس الشاعرة على سجيّتها، ولا ضير إن جاء النصّ غامضاً أو واضحاً، المهمّ أن يحمل في جوهره الإبداع، ولا ننسى أنّ ثقافة الشاعر وظروف حياته ونظرته للحياة كلّها عوامل تسهم في تركيبة نصوصه الشعرية.

من أهمّ آراء (أدونيس)في مسألة غموض الشعر، هو ما معناه أنّ الغموض لا ينتج عن صعوبة النص وإنما ناتج عن الإيديولوجيا يقول "إن مسألة الوضوح والغموض ليست متأتية عن القصيدة الصعبة أو الأثر الفني الصعب، بقدر ما هي متأتية عن موقف إيديولوجي."[3]، ويجتهد (أدونيس)كثيراً في تحليل موقفه هذا، فالإنسان العربي –حسبه– عاش بعد الإسلام في فضاء اليقين بعد أن كشف له الدين الجديد كلّ الحقائق الكونية،وهذا الأمر ينعكس على الشعر العربي (كنوع من القياس)، فالشعر الجاهلي أصلٌ عرف كلّ الحقائق الشعرية التي يمكن أن يصل

---

[1] أدونيس : الثابت والمتحول، 4 صدمة الحداثة ، ص 130

[2] أدونيس : زمن الشعر ، ص 281

[3] المصدر نفسه ، ص 281

إليها الشعر وهو ما يعني أنّ هذا الغموض لن يؤدّي إلى أيّ حقيقة جديدة لم يعرفها الأوائل، ومن جهة أخرى اتّخذ الشعر العربي قديماً كأداةٍ، إذ تحوّل الشاعر إلى عالم وخطيب، ينقل الأفكار والمواقف والمواعظ والحكم من خلال شعره وهو أمر يتطلّب الوضوح.

إذا كان للوضوح في الشعر العربي جذور تاريخية وعوامل متعدّدة أدّت إلى نشأة نوع من القرّاء العرب الذين ينفرون من الغموض، فكذلك لا يمكن أن ننفي أنّ ظاهرة الغموض في الشعر رؤية غربية محضة فقد دعا إليها شعراء الحداثة في الغرب أمثال (بودلير)(Baudelaire) و(رامبو)(Rimbaud) وغيرهما، وهو ما يعني أنّها غريبة عن بيئة الشعر العربي، أليس من الإنصاف القولُ إنّ هذه الظاهرة المنقولة من عند الآخر المختلف عنّا لا يجب أن نفرضها قسراً على شعرنا العربي، ثمّ نتّهمُ القارئ العربي بالعجز، لأنّه لا يمكن أن نتجاهل بناء القصيدة الحداثية التي أصبح مستعصياً على الفهم والتحليل، ثمّ أنّ مسألة الغموض مسألة نسبية وإذا كان بعض الغموض عنصر جمالي في القصيدة، فإنّ بعض الغموض الآخر لا علاقة له بالإبداع أصلاً، وإن كان (أدونيس)يربط بين الغموض والإبداع حين يقول "كل خلاّق غامض بالنسبة إلى معظم معاصريه، لا الآن وحسب، بل في التاريخ كله، وفي الشعوب كلها، لا في الفن وحده، بل في الفلسفة أيضاً.وبهذا المعنى يمكن أن نسمي المعاصرة حجاباً بين الخلاقين والقراء.لكن هذا الحجاب يتمزق أمام الذين يجيئون بعد.وبما أن النص يبقى هو هو،لا يتغير،فإن تهمة الغموض دعوى باطلة: قناع يخفي به القارئ ضعف ثقافته وقصورها،وإصراره على أن يفهم ما تغير بذهنية لم تتغير." [1]، نلاحظ أنّ (أدونيس)دائماً يتّهم القارئ العربي بالقصور والعجز عن الفهم ويجعل من الغموض تهمةً جاهزة يرمي بها هذا القارئ كلّ نصّ استعصى عليه،وهو موقف فيه الكثير من التجني والتطرّف، ثمّ أنّ اقتران الغموض بالإبداع ليس صحيحاً دائماً، فكثيراً من الأعمال الشعرية الإبداعية لم تقترن بالغموض، وأشعار (نزار قباني) و(محمود درويش) و(بدر شاكر السيّاب) وغيرهم دليل على ما نقول.

هناك مغالطة كثيراً ما يتّخذها شعراء الحداثة –ومنهم (أدونيس)–كحجّة لتبرير الغموض في أشعارهم وهي أنّ بعض المبدعين قد سبقوا عصرهم ولذلك فإنّ نصوصهم لا يمكن أن يستوعبها معاصروهم، وإنّما سيأتي بعدهم قرّاء يتمكّنون من فتح كنوزها الفنّية ويكتشفون أبعادها الجمالية، ولكن ألا يمكن أن تبقى هذه النصوص منغلقة إلى الأبد، ثمّ من يؤكّد أنّها

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 280

ستُفهمُ في عصرٍ لاحق ؟ سؤال لا جواب له،إنّ الشاعر المبدع هو الذي يصلُ شعرُه إلى القارئ في كلّ مكان وفي كل زمان، هو الشاعر المقتدر الذي يستطيع حقنَ قصيدته بالغموض الجذّاب وبالوضوح المغري وأن يمزج بينهما في تركيبة إبداعية عجيبة لا يعرف سرّها إلاّ هو، فأيّ زيادة في تركيز الغموض يقتل القصيدة وأيّ نقصان فيه قد يقتلها أيضاً، إنّ العلاقة بين القصيدة والغموض كالعلاقة بين الأرض والشمس فأيّ اقتراب من الشمس يحرقها وأيّ ابتعادٍ عنها يجمّدها، المبدع وحده من يستطيعُ تحديد المكان المناسب و المسافة المناسبة.

الغموض مسألة جدلية لن يحسم فيها أحد، ويبقى من أهمّ سمات شعر الحداثة التي تقف عائقاً بينه وبين القارئ العربي الذي يتّهمه (أدونيس)بضحالة ثقافته وبإصراره على استيعاب هذا الشعر بذهنية لم تتغيّرْ، وهو ما يعني أنّ هناك تبايناً بين مستوى القارئ ومستوى شاعر الحداثة وهذا ما يشير إليه (أدونيس)قائلاً"إن التسارع الحضاري الذي نعيشه اليوم أدى إلى أن ينمو الشاعر أكثر من القارئ،وإلى أن يزداد كثيراً الفرق بين ظاهرتي النمو لدى كل منهما، إلى درجة تقارب حالة الانفصال والغربة."[1]،وهو ما يعني أنّ الشاعر استطاع أن يواكب –من خلال شعره– التحوّلات التي عرفها العصر بينما بقي القارئ أسير الماضي (الشعري)، و لم يستطع أن يتأقلم مع تحوّل الشعرية العربية التي تضاهي نظيرتها الغربية والتي تمكّنت من تشكيل أفق من التساؤلات المستحدثة التي لا يستطيع أن يتعامل معها هذا القارئ، وكما هو ملاحظ دائماً فإنّ (أدونيس)يتّهم القراءة السائدة بالعجز والقصور،لكن ما هي القراءة التي يطمح إليها (أدونيس)؟، أو بمعنى آخر ما مفهوم القراءة في مشروع (أدونيس)؟.

من أهمّ الأفكار التي يردّدها (أدونيس)هو أنّه لا يمكن قراءة شعر الحداثة بنفس معايير وأفكار القراءة التقليدية، فالحداثة في الشعر تقتضي حداثة في قراءته يقول "إنّ نصّاً شعريّاً يُفْلِت من المعايير المقنّنة الماضوية،ومن جماليّتها، لا تمكن ولا تصحّ قراءته إلاّ بمعاييرَ مختلفة،وجماليّة مختلفة.وهذه قراءة لا تهدف إلى معرفة "المعنى" أو"المضمون" بشكلٍ مباشر، وإنّما تهدف إلى الدّخول في العالم التّساؤلي الذي يؤسّسه النّص."[2] ، فالقراءة التي يريدها (أدونيس)ليست تلك التي تبحث عن المعنى المباشر للجمل والعبارات أو التي تتساءل عن مضمون النص وغرضه وعن أيّ قضية يتناولها، إنما يطمح إلى القراءة التي تتحاور مع هذا النص بالدخول إلى عالمه الإبداعي

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 166

[2] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 55

الخاص والبحث عن أهمّ التساؤلات التي تطرحها التجربة الشعرية والكشف عن الفضاءات التي تبلغها رؤيا الشاعر.

ويذهب (أدونيس)بعيداً في الاهتمام بتلقّي الشعر حين يرى أنّ البحث في كيفية تلقّي النص لا يقلّ أهميّةً عن البحث حول شروط إبداعه، وهي دعوة موجّهة إلى النقد العربي للاهتمام بمسألة تلقّي شعر الحداثة، كما يكشف هذا الاهتمامُ عن الهاجس الذي يسكن (أدونيس) الناتج عن إخفاق الحداثة الشعرية في الوصول إلى أكبر عدد من القرّاء العرب، على القارئ العربي- كما يشير (أدونيس) - أن يستخرج من القصيدة أهمّ التساؤلات التي تطرحها وذلك وفقاً لمبدأ التساؤل الذي تسعى الحداثة إلى ترسيخه، ومن ثمّ عليه أن يميّز بين النصوص التي تحتضنُ الإبداعَ والنصوص التي تحتضنها الزخارف اللغوية السطحية ولذلك عليه "أن يميّز بين مستويين: الإبداع والبدعة.الإبداع يعكس أغوار الحياة فهو رؤيا ونبوّة.والبدعة تعكس زبد الحياة ، فهي زيّ."[1] .

يطلب (أدونيس)من القارئ أن يميّز بين الشعر واللاشعر بالمنظور الحداثي، لكن من هو هذا القارئ الذي يتمكّن من ذلك، إنّه الذي يتجرّد من روح الماضي ويتسلّح بروح المستقبل التي تمكّنه من التوغل في النصوص شعورياً ولا شعورياً، أي أن يعيش تجربة أخرى تتفاعلُ مع تجربة الشاعر شعورياً وفكرياً وإبداعياً، إنّ قراءة الشعر تفترض"شروطاً كثيرة أهمّها القدرة على استعادة الحالة الشعورية-الخيالية- الفكرية الكامنة وراء النص المقروء والقدرة على التمييز بين التجارب الشعريّة ممّا يفترض ثقافةً شعرية واسعة، والقدرة على التقويم الجماليّ."[2]، فالقارئ عند (أدونيس)هو قارئ نموذجي غير عادي يخوض مغامرة إبداعية أخرى يستنفر فيها جميع قدراته ومعارفه السابقة التي يجب أن تتّسع لتمكّنه من احتواء واستقبال كلّ الموجات الإيحائية والانفعالات التي تنبثق من بنية النص الشعري المقروء، ذلك أنّ القارئ عند (أدونيس) هو مبدع آخر يتذوّقُ القصيدة جمالياً بغض النظر عن مضمونها وعن المواقف التي تحملها والتي قد تتعارض مع مواقف هذا القارئ ونظرته.

لكن إلى ماذا تهدف هذه القراءة؟ يجيب (أدونيس)"تهدف هذه القراءة إلى مرافقة النّص في رحيله الاستكشافي:

---

[1] أدونيس : زمن الشعر ، ص 170

[2] أدونيس : كلام البدايات ، ص 27

أ- طريقته في استخدام اللّغة، وفي التّشكيل.

ب- طريقته في المعرفة وفي التّغيير.

ج- قيمته المعرفية.

د- بعده الجمالي، وكيفية استقصائه لإمكانات اللّغة، وللتّشكيل، التي لم تُكتشف جيداً بعد،أو لم تُكْتَشَفْ أصلاً."[1]، إنّها قراءة شاملة وعميقة فهي كشف داخل كشف، وتجربة داخل تجربة، وإبداع يستقصي إبداعاً ويفجّر مكنوناته ويلقي الضوء على كلّ أبعاده اللغوية والتصويرية والمعرفية والجمالية، وكأنّ (أدونيس) في هذه الحالة يتحدث عن القراءة النقدية.

من أهمّ آراء (أدونيس) التي نسجّلها في قضية تلقّي الشعر هو عدمُ تبنّيه لمناهج نقدية دون أخرى إذ يحاول الأخذ بجميع المناهج السياقية والنصّية في قراءة النصوص الشعرية يقول"لا تصحّ قراءة العمل الشعريّ بما هو خارجٌ عنه، ولا بمُجرّد نصّيته المحضة.فقراءته بعناصر من خارجه إلغاءٌ له، وقراءته بذاته وحده،إلغاء لتاريخيّته أو لاجتماعيّته.فليس العمل الشعريّ مجرّد انعكاسٍ نفسيّ-ذاتيّ، كما أنه ليس مجرّد انعكاسٍ واقعيّ-اجتماعي.إنه قبل كل شيء:مُركّبٌ إبداعي يَصدرُ عن مركبٍ إنسانيّ.وهو إذن، قبل كل شيءٍ، كشفٌ.أعني أنه ليس وثيقةً عن المُعْطَى،وإنما هو اختراقٌ وتجاوز."[2]،وهو أمرٌ كان متوقّعاً منه ، فـ(أدونيس) يرفض استخدام المنهج لأنّ الإنسان فوق المنهج كما يقول، كما أنّ المنهج يلتزم بقواعد وإجراءات عقلية ومنطقية وهو ما لا يتوافق مع رؤيته، ولكن بالفعل فالقراءة الحقيقية الشاملة لا يمكن أن تلتزم بأيّ منهج دون آخر، لأنّ ذلك يقيّد حرّيتها ويفقدها عناصر مهمة قد يكشف عنها منهج ولا يصل إليها آخر، وبالتالي فالقراءة الشاملة هي التي تستخدم كلّ المناهج المتاحة من أجل اقتحام عالم النص الشعري والكشف عن أبعاده اللغوية والجمالية والمعرفية وعلاقاته المتشابكة بالواقع والتاريخ والتراث والعصر...الخ، وإذا كانت القراءة إبداعاً فالإبداع لا منهج له.

إنّ للقراءة جمالية خاصة لابد من توفرها، فقراءة النص الشعري لا يجب أن تتمّ كأيّ قراءة أخرى، مثلها مثل التّأمّل في أيّ عملٍ فنّي الذي يقتضي طقوساً خاصّة تستحضر جميع الطاقات الشعورية واللاشعورية وحضوراً روحياً وعقلياً ومعرفياً كاملاً غير منقوص"إنّ قراءة النصّ الأدبيّ تقتضي أدبيّة القراءة، وتلقّي الجمال يفترض جماليّة التلقّي.أو لنقل ،بعبارة ثانية، إنّ أدب

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 55

[2] أدونيس : كلام البدايات ، ص 28

الكاتب، يوجب أدب القارئ."[1]، وهو ما يجهله الكثير من قرّاء الشعر،إذ لا يفرّقون بين قراءة نصّ شعري وقراءة مقالة في جريدة يوميّة، أو كما يعبّرُ (أدونيس)فإنّهم يقرؤون الشعر نثراً بينما هو يتطلّب أن يُقرأ شعرياً أو كما يعبّر عن ذلك بمصطلح "شعرية القراءة" التي تعني تجربة استكشاف ممتعة داخل عوالم النص الشعريّ المتعدّدة، إنّها غوص داخل أعماقه يفضي إلى المزيد من الكشف الذي لا يتوقّف أبداً "هكذا لا تقدّم لنا شعريّة القراءة عالماً واضحاً ويقينياً.إنها، على العكس، تدفع بنا إلى أبعدَ في أفق النّص الشعريّ.إنها شكلٌ من المعرفة يتماهى مع التغيّر والحركيّة والالتباس.وهي،لذلك،معرفة مفتوحةٌ،شأن النصّ ذاته، وشأن الإنسان والعالم.

إن شعريّة القراءة هي تحويل الكتابة إلى مكان اكتشاف، وأدواتِ اكتشاف، وعلاقات اكتشاف. "[2]، ما يريد الوصول إليه (أدونيس)،هو أنّ قراءة النصّ الشعري لا تصلُ إلى نهاية محدّدة وإنما هي دائمة التحوّل والتغيّر تتدخّل فيها عواملٌ عديدة منها بعدا المكان والزمان ومنها مؤهّلات المتلقّي وطبيعة معارفه المتنوعة ثمّ لا يمكن تجاهل التطوّر الذي يمسّ المناهج النقدية والنظريات الأدبية والدراسات اللغوية والأنتروبولوجية والنفسية وغيرها، كلّ هذا يسهمُ في تعدّد القراءات وتغيّرها وتطوّرها لنفس النصّ الشعري الواحد، إنّها رحلةٌ لا تنتهي من الكشف وهو ما يعني إعادة لإنتاج هذا النصّ وبثّ روح جديدة فيه وهذا ما يفسّر خلود تلك النصوص الشعرية التي تحمل في نواتها طاقة لا تنفذ أبداً وهي طاقة الإبداع، هذه الطاقة هي التي تجعل من النصّ الشعري يتجدّدُ مع كلّ قارئ جديد.

إنّ"شعرية القراءة" هي التي مكّنت (أدونيس)من قراءة التراث الشعري قراءة جديدة وصل من خلالها إلى أنّ الشعر الجاهلي "إنما كان شعرَ حضارة، كان شعراً يصدرُ عن رؤية مركّبة، غنيّة، وباختصارٍ: حضاريّة."[3] ،ولا شكّ أنّ (أدونيس)في حديثه عن شعرية القراءة يبدو متأثّراً بنظرية التلقّي الألمانية، ويبرز ذلك من خلال الأفكار التي يطرحها كتعدّد القراءات والقارئ مبدع آخر،أفق التوقّع، جمال القصيدة يتكشّف مع كلّ قارئ جديد...الخ ،ومع ذلك فقد استطاع أن يمتلك رؤية خاصة لتلقّي الشعر العربي ولوضع هذا التلقّي في الثقافة الشعرية العربية بشكل عام.

---

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 49

[2] أدونيس : كلام البدايات ، ص 37

[3] المصدر نفسه ، ص 36

من المصطلحات التي استخدمها (أدونيس)مصطلحا "القراءة السطحية"و"القراءة العمودية" للتعبير عن أشكال القراءة للشعر العربي، فالقراءة الأولى قراءة عابرة لا تكشف عن أغوار النص ولا تستقصي أبعاده الجمالية، أمّا منتهج القراءة العمودية "فيقرأ النّص من حيث هو عُمْقٌ ثقافيّ-تاريخيّ.وهذا اللّقاء في العمق هو الذي يُتيح الكشف عن أهميّة النّص، ودوره، وقيمته، وهو الذي يُولِّد مَعْناه المتحرّك."[1]، هذه القراءة العمودية تندرج في إطار ما سمّاه "شعرية القراءة" وهو ما يدعو إليه في مشروعه الحداثي الذي يرتكز على مبادئ التغيّر والكشف والحراك الدّائم.

من القضايا التي تطرّق إليها (أدونيس) مسألة جمهور الشعر التي عادةً ما تُفرض عليه لأنّها تأتي ضمن الأسئلة التي تطرح عليه في حواراته المختلفة، وهو يرى أنّ الشعر الأقلّ جماهيرية هو شعر الحداثة ويعود ذلك إلى أنّ الثقافة السائدة تكرّس المفاهيم الموروثة وتمارس الإلغاء على أيّ شعر جديد، وفي هذا الأفق الثقافي لا ينتشرُ إلاّ الشعر التقليدي لأنّه يجد البيئة الملائمة المساعدة و يلبّي رغبات الجماهير"لا أريد أن أتحدّث عن نفسي فأقول إنني الأقل انتشاراً لأنني الأكثر حداثة وجذرية في الرؤيا الشعرية وفي بنية التعبير،وإنما أود أن أكتفي بالقول إنّ الأكثر انتشاراً، اليوم، في المجتمع العربي، ضمن مقاييسه وأوضاعه الثقافية، هو، بالتأكيد الأقل حداثة وجذرية."[2]،أليس في هذا الموقف نوع من التعالي على المثقف العربي الذي يسيءُ إليه (أدونيس)كثيراً ويتّهمه بالجهل في مجال الشعر والثقافة عموماً، ألا يمكن القولُ إنّ الحداثة الشعرية تبحث عن متلقّي للشعر على مقاسها، أليس من مبادئ الحداثة تغيير الوضع السائد فلماذا فشلت الحداثة الشعرية في تغيير وضع تلقّي الشعر العربي؟ وهو فشلٌ لا تبرّره الأسباب التي عادة ما يوردها (أدونيس) وعلى رأسها النظام الثقافي السائد، بل يمكن القول إنّ شعر الحداثة قد زاد الهوة بين القارئ العربي والشعر بكلّ أطيافه وهو أمر يكشف عنه الواقع الشعري.

يُلاحظُ على (أدونيس) نوع من الارتباك في مسألة علاقة شعر الحداثة بالجمهور العربي، إذ يلجأ أحياناً إلى تبرير قلّة انتشار شعر الحداثة في كونه فنّاً كالموسيقى والفنون التشكيلية وهذه الفنون لا يمكن أن تنافس التلفزيون والسينما جماهيرياً ذلك أنّها شكل من أشكال العلم "و نحن

[1] أدونيس : سياسة الشعر ، ص 60

[2] المصدر نفسه ، ص 155

نقبل لا جماهيرية العلم،مع أنه أشد التصاقاً بتطوير الجماهير وتطوير حياتها، فلماذا لا نقبل كذلك، لا جماهيرية الفن؟"[1]، ويتجلّى مدى اضطراب (أدونيس) هنا، فلا يمكن مقارنة الشعر بالموسيقى أو الفنّ التشكيلي في الثقافة العربية، فمعروف مدى مكانة الشعر في هذه الثقافة، ومن جهة أخرى لا يمكن مقارنة هذه الفنون بالعلم بأيّ حال من الأحوال، فالحديث عن جماهيرية العلم حديث لا معنى له.

من كلّ ما سبق نجد (أدونيس) يعي جيداً أنّ أهمّ تحدّي يواجه الحداثة الشعرية هو ذلك الجدار الذي يفصلها عن المتلقّي العربي والذي فشلت في هدمه مهما كانت الأسباب المبرّرة لهذا الفشل، وما يمكن إيجاز أهم أفكار (أدونيس) في ما يأتي :

- في الثقافة السائدة المدعومة من طرف النظام الإيديولوجي السياسي،هي الموجّه الأوّل لقراءة الشعر العربي.
- القراءة السائدة للشعر قراءة ماضوية سطحية لا يمكنها أن تفكّ شفرات النصوص الشعرية الحداثية.
- الغموض ظاهرة مرتبطة بالخلق والإبداع وليست سبباً في اتّساع الهوة بين شعر الحداثة والقارئ العربي.
- الحداثة الشعرية تقتضي حداثة في القراءة ولا يمكن قراءة شعر متغيّر بذهنية لم تتغيّر.
- قراءة الشعر تقتضي قدرات ومواهب ومعارف عميقة وحضوراً شعورياً خاصاً،لأنّها في جوهرها كشف وإبداع.
- في الساحة الشعرية العربية الشاعر الأقل انتشاراً هو الأكثر حداثة.
- جمال القصيدة يتجدّد مع كلّ قارئ جديد ومتميّز.

لكن ما يؤخذُ على (أدونيس) فعلاً هو اتّهام طرف دون آخر في أزمة قد تسهم فيها أطراف متعدّدة ، فهو دائماً ما يعزو أزمة تلقّي شعر الحداثة إلى المتلقّي العربي ، و لم يشرْ أبداً إلى إمكانية وجود أيّ خلل في هذا الشعر يعيق عملية التواصل، وهذا ربّما لإيمانه العميق بمبادئ الحداثة و أطروحاتها، ومن جهةٍ أخرى هو يضعُ نفسه كمدافعٍ عن كتاباته الإبداعية الشعرية التي قد تواجه هذه الأزمة أو ربّما قد واجهتها فعلاً.

[1] أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، ص 247

خاتمـــة

خاتمة: بعد هذه الرحلة الاستكشافية في عالم الحداثة و(أدونيس) يمكن أن نقف على أهمّ النتائج التي توصلّ إليها هذا البحث وهي :

– نشأ مصطلح الحداثة في الغرب، وواكبت نشأته أهمّ التحوّلات الكبرى التي عرفتها المجتمعات الأوربية والتي تمخّض عنها أهمّ وأعظم تطوّر في حياة البشرية، ثمّ انتقل مصطلح الحداثة إلى الأدب العربي بغموضه وتعقيداته، ولهذا تعدّدت مفاهيمه التي استندت إلى رؤى شخصية، وقد أثار مصطلح الحداثة جدلاً نتج عنه بروز تيّارين متصارعين ، تيّار معادٍ للحداثة الغربية وآخر مناصرٍ لها وبرز تيّارٌ آخر يحاول التوفيق بينهما.

– استخدم (أدونيس) مصطلح الحداثة مقيّدا بنسبة تفوق استخدامه له مطلقا ،و يعود ذلك إلى أنّ الحداثة مصطلح فكري مركّب وواسع الاستخدام في العديد من المجالات المعرفية وهو يحتاج إلى الكثير من الوصف والشرح والتفصيل والاستقراء من جميع الجوانب و الزوايا .

– استحوذت تراكيب الإضافة والوصف على أغلب استخدامات مصطلح الحداثة عند (أدونيس) ويشير ذلك إلى حرص هذا الأخير على تحليل واستقراء كل ما له علاقة بهذا المصطلح باعتباره العنصر المستهدف بالدراسة في كتاباته التنظيرية.

– أخذ مصطلح (حديث) النصيب الأكبر من الاستخدام من بين مشتقات الجذر اللغوي لمصطلح الحداثة ، بسبب ارتباطه الوثيق بمصطلح الحداثة من جهة، وعدم نفور (أدونيس) من استخدامه من جهة أخرى ، لكن ما تجب الإشارة إليه هو أن هذا المصطلح لا يأتي دائما مرادفًا للحداثة أو معبّراً عنها، إذ كثيرا ما يستخدمه (أدونيس) مقابلاً لكلمة قديم أو للتعبير عن العصور المتأخّرة (العصر الحديث،النقد الحديث،الدولة الحديثة،العالم الحديث، الإعلام الحديث،...الخ)، وجاء مصطلح (محدث) ثانيا من حيث الاستخدام لكن لا يستخدمه (أدونيس) إلاّ عند الحديث عن التراث العربي، لأن هذا المصطلح كثُر استخدامه عند النقاد والبلاغيين العرب.

– من أهم العلاقات التي تشكّلت مع مصطلح الحداثة عند (أدونيس) نجد علاقة الائتلاف خاصة مع الجدة والتجديد، علاقة الاختلاف وبخاصة مع التقليد، علاقة الاقتضاء مع الإبداع ، علاقة التضمين مع الرفض والتمرد...الخ.

– استند مصطلح الحداثة عند (أدونيس) على الخلفية الفكرية الغربية وبخاصة الفلسفة الألمانية والشعرية الفرنسية ، لكنّه حاول أن يجد جذورا لهذه الحداثة في التراث العربي ببحثه عن نماذج إبداعية تستجيب لمعايير و مقتضيات الحداثة الغربية.

– الحداثة بمفهومها الشامل عند (أدونيس) ثلاث مستويات، حداثة علمية وحداثة التغيرات الثورية، الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية وأخيراً الحداثة الفنية،فالأولى تستهدف معرفة الطبيعة والسيطرة عليها ، أمّا حداثة التغييرات الثورية فتعني ظهور أفكار ونظريات جديدة ينتج عنها بروز أنظمة جديدة تؤدّي إلى تحوّل في بنيات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأخيراً الحداثة الفنّية التي تصدر عن نظرة جديدة للكون وللإنسان وتتمثّل في التساؤلات التي تستكشف اللغة الشعرية وتؤدّي إلى تجارب جديدة وطرق مبتكرة في التعبير وهو هنا يقتصر على فنّ الكتابة الشعرية دون بقية الفنون الأخرى.

– مفهوم الحداثة عند (أدونيس) متحرّك غير قابل للتحديد وهو ما اعترف به،ومع ذلك ومن خلال قراءة شاملة لمواقفه وآرائه يمكن أن نستخلص ما يلي:

مقوّمات الحداثة الأدونيسية	**– موقفٌ وعقلية** **– رؤيا متفرّدة للكون و للإنسان** **– إبداع** **– إبتكار طرق في التعبير**
خصائص الحداثة الأدونيسية	**– التمرّد والثورة على النظام السائد والتقاليد بجميع أشكالها** **– الاتّصال بالتراث والانفصال عنه في آن واحد** **– الاقتران بالاختلاف والتغير والخروج على النمطية** **– إرساء مبدأ التساؤل والاحتجاج** **– فتح آفاق جديدة للتجارب الإبداعية**
مقتضيات الحداثة الأدونيسية	**– الكشف والمغامرة والقبول بالمجهول** **– تجاوز المفاهيم الموروثة** **– معرفة معمّقة للحاضر والماضي** **– نفي وإبطال أوهام الحداثة في الشعر خاصة**

– حسب (أدونيس) فإنّ أهمّ ما يميّزُ الحداثة الغربية عن نظيرتها العربية هو تحرّرها من أيّ مرجعيّة دينية وإيمانها بقدرة الإنسان على التغيير وعلى الإبداع ونشرها للفكر النقدي فهي كما يصفها دنيوة، أمّا الحداثة العربية فأهمّ ما يميّزها سيطرة النظام الإيديولوجي وتهميش الذات وهي على العموم دينية ،وإذا كانت الحداثة الغربية تتفوّق على الحداثة العربية في جميع المستويات تقريباً فإنّ الحداثة العربية في مجال الشعر تضاهي نظيرتها الغربية.

– يرى (أدونيس) أنّ الحداثة العربية تواجهها معوّقاتٌ على رأسها هيمنة الثقافة التقليدية التي يكرّسها النظام السياسي الإيديولوجي القائم وكذلك الوضع الصعب الذي تعيشه اللغة العربية وأخيراً انتشار التقليد بوجهيه تقليد الأنا (بالارتداد إلى التراث) وتقليد الآخر (الأوروبي-الأمريكي)، وحضور التقليد يعني غياب الإبداع بصفة تلقائية.

– يبرز عند (أدونيس) النص القرآني ليس كنص حداثي أدبي فريد فقط ، وإنّما كباعث أساسي لبروز الحداثة بجميع أشكالها في الثقافة العربية، فالدراسات القرآنية أرست دعائم الحداثة النقدية والحداثة الشعرية والحداثة الفكرية على وجه شامل.

– إنّ الحداثة التي يدعو إليها (أدونيس) لا تشكّلُ قطيعةً جذرية مع التراث ،إنّما هي تواصل إبداعي ولغوي مع هذا التراث ، وهي بذلك تستمدّ منه قوتها وحضورها ، إنّ ما ترفضه هذه الحداثة هو أن تكون مجرّد مرآة عاكسة له ، وانطلاقاً من كلّ هذا تدعو الحداثة الأدونيسية إلى إعادة قراءة الأصول (القرآن والحديث الشريف والشعر الجاهلي) قراءة حديثة ، إنّ إعادة قراءة التراث قراءة جديدة هي التي جعلت أدونيس يكتشف الحداثة السياسية فيه (الخوارج ، الزنج ، القرامطة...الخ) والحداثة الفكرية (المعتزلة ، الصوفية ، ابن رشد...الخ)والحداثة النقدية (عبد القاهر الجرجاني)والحداثة الشعرية (بشار بن برد ، أبو نواس ، أبو تمام...الخ)، مع الإشارة إلى أنّ الحداثة الغربية هي التي أرشدت (أدونيس) إلى الحداثة في التراث العربي.

– الحداثة الأدونيسية تدعو إلى تحديث اللغة ، فاللغة ليست وسيلة تعبير وحسب إنّها طريقة تفكير، فلا يمكن الدخول إلى عالم الحداثة بلغة تقليدية ولا يتمّ تحديث اللغة العربية إلاّ بمعرفة معمّقة لها قديمها وحديثها ليتمّ بعد ذلك استكشاف أبعادها وتفجير طاقاتها.

– يرى (أدونيس) أنّ الحداثة في الكتابة تقتضي حداثة في النقد ، فلا يمكن مقاربة نصوص الحداثة بمقاييس نقدية تقليدية عاجزة عن مواكبة التطوّر الحاصل في الكتابة الإبداعية ، على النقد الحديث تجاوز كلّ المفاهيم الموروثة وذلك باستيعاب كلّ جديد والتسلّح بمعرفة شاملة وعميقة ، ومن الأمور التي يركّز عليها أدونيس هي مطالبته للنقد الحديث أن يتعرّض إلى مسألة التلقي/القراءة بمزيد من الاهتمام.

– مصطلح الثورة يحمل نفس مفاهيم الحداثة عند (أدونيس) في كتاباته الأولى وذلك قبل أن يستخدم مصطلح الحداثة، وبين الحداثة والثورة علاقة رحم قويّة في الفكر الأدونيسي ذلك أنّ كلّ حداثة حقيقية هي ثورة شاملة بالمفهوم الواسع للثورة الذي يدعو إلى تجاوز كلّ المفاهيم التقليدية.

– الحداثة الشعرية في الفكر الأدونيسي تهدم كلّ المفاهيم السابقة وأوّلها مفهوم الشعر الـــذي أصبح رؤيا وتعاملاً عبقرياً مع اللغة، وهو نوع من الكشف عن المعرفة التي تتجاوز القدرة العقلية، أمّا القصيدة الحديثة فهي قصيدة إنسانية كلّية ، إنّها وحدة تنصهر فيها جميع الرؤى و تتـــداخل فيهل كلّ الأجناس الأدبية.

– الحداثة الأدونيسية تُعلي من مكانة اللغة الشعرية وتعتبرها المعيار الأساس في التفريق بين الشعر والنثر الشعر، واللغة الشعرية هي لغة تتجاوز الواقع إنّها لغة خلق أكثر من كونها لغة تعبير.

– الحداثة في الشعر عند (أدونيس) تسعى إلى تجاوز البنية الإيقاعية الخليلية والتحرّر من قيودها التي تعيق الدفقة الشعرية ، ويمكن القول أنّها تسعى إلى تأسيس قطيعة جذريـــة مـــع إيقاعـــات (الخليل)، والعودة إلى المنبع الأوّل لها وهو موسيقى اللغة العربية.

– يرى (أدونيس) أنّ الحداثة في الشعر تقتضي حداثة في قراءته، ولا يمكن أبداً تذوّق قصيدة حديثة من خلال قراءة سائدة موروثة، والحداثة في القراءة تقتـــضي قـــدرة ومعرفـــة عميقـــة واستحضاراً شعورياً خاصّاً، لأنّ القراءة تجربة إبداعية أخرى.

– لم تستطع الحداثة الأدونيسية تأسيس بنية إيقاعية بديلة لإيقاعات (الخليل) ، كما فشلت في إيجاد حلّ لأزمة التلقّي التي يعاني منها شعر الحداثة، وأرجعت سبب الأزمة لتدنّي الثقافة الشعرية للقارئ العربي،وهذا لا يشكّل وحده سبب هذه الأزمة ،فطبيعة هذا الشعر لها أيضاً دور فيها.

– ترى الحداثة الأدونيسية في الشعر كشفاً لنوع من المعرفة لكن دون أن تصف هذه المعرفة أو تتناولها بنوع من التحليل، فهي معرفة يحيط بها الغموض وهو الظاهرة التي يتميّز بها أيـــضاً شـــعر الحداثة.

– كثيراً ما يستخدم (أدونيس) في حديثه عن الحداثة لغة جميلة وأسلوب جذّاب ، لكن هـــذه اللغة لا تصلحُ في الكتابة التنظيرية التي تتطلّب لغة نثرية مباشرة وأسلوبا علميا واضحا.

– من النتائج الهامّة تحجيم (أدونيس) لدور العقل وهذا يعني تشكيكه في العقلانيـــة اقتـــداءً بـــ(نيتشه) ، وهي من أهم مقومات الحداثة الغربية ، ويبدو هذا نوعاً مـــن التنـــاقض في فكـــر (أدونيس) لكن (أدونـــيس) لا يـــرفض العقلانيـــة ولا ينكـــر دورهـــا في الحداثـــة العلميـــة والاقتصادية...وإنّما يبعدها عن الحداثة الفنّية والإبداع بصفة عامة.

– يحاول (أدونيس) تأصيل الحداثة الغربية وذلك بالبحث عن جذور لها في التراث العـــربي، فنرى الحداثة الشعرية (أبو نواس وبشار)والسياسية(التمرّد والفرق الخارجة) والفكرية(ابن رشد) والنقدية(عبد القاهر الجرجاني)، أمّا قصيدة النثر الغربية فلها أصول عربية متمثّلة في النـــصوص

الصوفية (النفري وابن عربي)،لكن يمكن لأيّ باحث في أيّ ثقافة أن يفعل ذلك لأنّ الإبداع والتمرّد على السائد من الصفات البشرية التي لا تقتصر على زمن أو ثقافة.

– لم تعط الحداثة الأدونيسية أيّ أهمّية لإلقاء الشعر ، وكأنّ شعر الحداثة وُجد ليُقرأ فقط ، مع أنّ طبيعة الشعر العربي وتاريخه يؤكّدان أنّ الإلقاء يلعبُ دوراً كبيراً في التواصل مع الجماهير.

– هناك تشابهٌ كبير بين شخصية (أدونيس) وطبيعة مصطلح الحداثة بالمفهوم الغربي فكلاهما يحمل سمة التمرّد والحراك الدائم والتجديد المستمرّ وينبذ تقديس المفاهيم أو تحديدها والجمود والرتابة وبنوع من المبالغة يمكن القول أنّهما وجهان لعملة واحدة.

– فكر الحداثة عند (أدونيس) شكّلته روافد عديدة أهمّها المدرسة الرمزية والسريالية والفلسفة الألمانية والتراث العربي وبخاصّة الفكر الصوفي إلى جانب اجتهادات تنظيرية أدونيسية خالصة لا يمكن تجاهلها.

– يبدو أنّ مفهوم الحداثة هو المفهوم المركزي والمحوري في الفكر الأدونيسي ، بل يمكن القول أنّ هذا الفكر بدون الحداثة يفقد الكثير من أهمّيته، فكلّ مواقف (أدونيس) وآرائه وإبداعاته يسيطر عليها ويوجّهها مفهوم الحداثة ، أو لنقل إن صحّ التشبيه ،إذا تمثّل هذا الفكر رجلاً فبصره هو الحداثة ، لا ينظر إلى أيّ شيء إلاّ بمنظور واحد هو منظار الحداثة، وهو أمر إذا نظرنا إليه إيجابياً قلنا أنّ (أدونيس) يحمل هموم هذه الأمّة وينشد لها التطور والتقدّم لتصل إلى مراتب الأمم المتقدّمة ، أمّا إذا نظرنا إليه سلبياً فنقول أنّه متأثّر بالفكر الأوروبي ويحاول طمس بعض القيم الدينية، ولعلّ هذا هو سبب الجدل الذي أثاره الفكر الأدونيسي.

– إذا كانت من أهمّ ميزات الحداثة رفض التحديد والعقلنة، فقد انعكس ذلك على فكر(أدونيس)كلّه فأغلب المفاهيم التي يتناولها مفاهيم زئبقية متحرّكة دائمة التحوّل تأبى التحديد والثبات، هذه الميزة تُعبّر عن نوع من الاضطراب والقلق، وإن كان يرى فيها البعض سمة إيجابية تتمثّل في التجدّد والحيوية، لكن الفكر الذي لا يرتكز على المقاييس العقلية ولا ينتج مفاهيم محدّدة هو فكرٌ لا يمكن الاستناد إليه كمرجعية ولا يمكن الاعتماد عليه في بناء أيّ حضارة .

– تلك أهمّ النتائج التي توصّل إليها هذا البحث الذي يفتح الباب على مصراعيه لأيّ بحث آخر يحاول الكشف عن عالم (أدونيس) وعالم الحداثة وهما عالمان غامضان يتضمّنان الكثير من النقاط المظلمة التي تحتاج إلى من يسلّط عليها الأضواء من خلال المزيد من رحلات الاستكشاف العلمي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. أدونيس : الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب ،ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط9 ،2006
2. أدونيس :الثابت والمتحول بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب ،ج4 صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط9 ،2006
3. أدونيس :الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط3 ، 2000
4. أدونيس : الصّوفيّة والسُّوريالِيَّة ، دار الساقي ، بيروت– لبنان ، ط3 ، 2006
5. أدونيس : المحيط الأسود ، ، دار الساقي ، بيروت– لبنان ، ط1، 2005
6. أدونيس : النص القرآني وآفاق الكتابة ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1993
7. أدونيس : زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1978
8. أدونيس : سياسة الشعر ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1996
9. أدونيس: فاتحة لنهايات القرن بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة ،دار العودة، بيروت– لبنان، ط1، 1980
10. أدونيس : كلام البدايات ، ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1989
11. أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، (د ، ط) ، 2009
12. أدونيس : موسيقى الحوت الأزرق (الهوية ، الكتابة ، العنف) ، دار الآداب، بيروت – لبنان ، ط1، 2002

ثانياً : المراجع

1 : الكتب باللغة العربية

13. إبراهيم رماني :الغموض في الشعر العربي الحديث، منشورات وزارة الثقافة الجزائرية ،الجزائر،(د،ط)، 2007
14. ابن منظور : معجم لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة – مصر
15. احمد المعداوي : أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، الرباط – المغرب ،ط1، 1993
16. ألان تورين : نقد الحداثة ، تر: أنور مغيث ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر ، (د،ط) ، 1997
17. السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الجديد مقوماتها الفنية وطاقاتها الابداعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط3، 1984
18. الياس الخوري :الذاكرة المفقودة دراسات نقدية ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط2، 1990
19. برتراند رسل : حكمة الغرب الفلسفة الحديثة و المعاصرة ج2 ، تر: فؤاد زكريا ،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 1983
20. بشير تاوريريت : الشعرية والحداثة بين أفق النقد الأدبي وأفق النظرية الشعرية،دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع دمشق–سوريا، ،ط1، 2008
21. جهاد فاضل:أسئلة النقد حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب، تونس– ليبيا، (د، ط)، (د ،ت)
22. جورج طرابيشي:معجم الفلاسفة ،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت – لبنان، ط1 ، 1987
23. حبيب بوهرور: تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني،جدارا للكتاب العالمي ، عمان – الأردن ، ط1، 2008

24.حسن المصطفى وآخرون: عبدا لله الغذّامي والممارسة النقدية والثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1 ، 2003
25.حسن حنفي : في الــفكر الغربي المعاصر،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط4 ، 1990
26.خيرة حمر العين : جدل الحداثة في نقد الشعر العربي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق –سوريا ، (د، ط) ، 1996
27.رضوان جودت زيادة : صدى الحداثة ما بعد الحداثة في زمنها القادم ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء–المغرب،ط1، 2003
28.رولان بارت :درس السيميولوجيا ، تر:عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء–المغرب، ط3، 1993
29.زينات بيطار : بودلير ناقدا فنيا ، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1993
30.سامي خشبة :مصطلحات فكرية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة مصر ، (د،ط) ، 1997
31.سامي سويدان : جسور الحداثة المعلقة ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1997
32.سعيد بن زرقة : الحداثة في الشعر العربي أدونيس نموذجاً ،أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان، ط1 ، 2004
33.سمير حجازي :المتقن معجم المصطلحات اللغوية و الأدبية الحديثة ، دار الراتب الجامعية ، بيروت – لبنان، (د،ط) ، (د،ت)
34.شاكر اليساوي : في بعض المفاهيم والأفكار ، دار الينابيع ، دمشق – سوريا ، (د، ط) ، 1996
35.شكري محمد عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت ، (د،ط)، 1993
36.صقر أبو فخر :حوار مع أدونيس الطفولة ،الشعر ، المنفى،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان ، ط1، 2000
37.صلاح فضل : تحولات الشعرية العربية ، دار الآداب ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2002
38.طوني بينيت و لورانس غروسبيرغ و ميغان موريس : مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع، تر:سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة ،بيروت–لبنان ، ط1 ، 2010
39.عادل ضاهر : الشعر والوجود دراسة فلسفية في شعر أدونيس ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق – سوريا ، ط1، 2000
40.عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية،ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت–لبنان،ط1، 1984
41.عبد الرحمن عبد الحميد علي : النقد الأدبي بين الحداثة و التقليد ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة – مصر، (د، ط) ، 2005
42.عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ، تونس، ط1، 1994
43.عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1983

44.عبد العزيز بومسهولي: الشعر والتأويل قراءة في شعر أدونيس ، أفريقيا الشرق ، بيروت – لبنان ، (د،ط) ، 1998
45.عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 1998
46.عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، (د،ط)، 2001
47.عبد الغفار مكاوي : ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحديث ، ج1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة–مصر، (د.ط) ، 1972
48.عبد الغني بارة :إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر مقاربة حوارية في الأصول المعرفية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،(د، ط) ، 2005
49.عبد الله الغذّامي :الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر،ط4 ، 1998
50.عبد اللّه الغذّامي:النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء– المغرب،ط3 ، 2005
51.عبد الله الغذّامي: تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء–المغرب،ط2، 2005
52.عبد الله الغذّامي: تشريح النص مقاربة تشريحية لنصوص شعرية معاصرة ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء–المغرب ، ط2، 2006
53.عبد الله فهد النفيسي : التراث وتحديات العصر ، شركة الربيعان للنشر والتوزيع – الكويت، ط1 ، 1986
54.عبد الناصر جندلي:تقنيات ومناهج البحث في العلوم السياسية والإجتماعية ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، (د ،ط) ، 2005
55.عبد الوهاب المسيري:دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية ،القاهرة – مصر،ط1، 2006
56.عدنان علي رضا النحوي : تقويم نظرية الحداثة ، دار النحوي للنشر و التوزيع ، الرياض –السعودية ، ط1 ، 1992
57.عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ،دار العودة ،بيروت – لبنان ، ط3، 1981
58.عزّ الدين الخطابي :أسئلة الحداثة و رهاناتها في المجتمع و السياسة و التربية ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1، 2009
59.عزت محمد جاد : نظرية المصطلح النقدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة–مصر، (د.ط) ، 2002
60.عصام العسل : الخطاب النقدي عند أدونيس قراءة الشعر أنموذجا ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط1 ، 2007
61.عطيات أبو السعود : الحصاد الفلسفي للقرن العشرين ، منشأَة المعارف جلال حزى و شركاه ، الأسكندرية – مصر ، (د ،ط) ،2002
62.عمر ازراج : أحاديث في الفكر و الأدب ، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة – الجزائر ، ط1 ، 1984

63.غالي شكري : شعرنا الحديث إلى أين؟ ،دار الشروق ، القاهرة – مصر ، ط1 ، 1991
64.فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2006
65.فاضل ثامر : اللغة الثانية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1994
66.فاضل صالح السامرّائي : التعبير القرآني ، دار عمار ، عمان – الأردن ، ط4 ، 2006
67.فايز ترحيني : الدراما ومذاهب الأدب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط1، 1988
68.فيكتور برومبير:غوستاف فلوبير، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر، تر:غالية شملي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان ، ط1 ، 1978
69.كرين برينتون:تشكيل العقل الحديث،تر شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة–مصر ،(د.ط)، 2004
70.كمال ابو ديب: في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ط1، 1974
71.مالكولم برادبري و جيمس مكفارلين :حركة الحداثة ،ج1، تر: عيسى سمعان ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق – سوريا ، (د، ط) ، 1998
72.مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة–مصر، (د،ط) ، 1983
73.مجمع اللغة العربية:المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ،القاهرة – مصر ، ط4 ، 2004
74.محمد الشيكر : هايدغر و سؤال الحداثة ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء – المغرب ، (د،ط) ، 2006
75.محمد بنيس :الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته 4.مساءلة الحداثة ،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء– المغرب، ط2 ،2001
76.محمد حمود: الحداثة في الشعر العربي المعاصر بياناتها ومظاهرها، دار الكتاب اللبناني بيروت – لبنان،ط1 ، 1986
77.محمد سبيلا : الحداثة و ما بعد الحداثة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء – المغرب ، ط2 ، 2007
78.محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي : الحداثة وانتقاداتها نقد الحداثة من منظور غربي ، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء– المغرب ، ط1 ، 2006
79.محمد صابر عبيد: شيفرة أدونيس الشعرية سيمياء الدال ولعبة المعنى ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2009
80.محمد عابد الجابري :التراث والحداثة دراسات ..ومناقشات ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت–لبنان ، ط1، 1991
81.محمد عابد الجابري :نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت – لبنان ، ط6 ، 1993
82.محمد عبد المطلب : بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي، دار المعارف، القاهرة – مصر ، ط2، 1995
83.محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، بيروت – لبنان ، (د ، ط) ، 1973
84.محمد مجدي الجزيري : نقد التنوير عند هيردر ، دار الحضارة للطباعة و النشر والتوزيع طنطا–مصر، (د،ط)، 1999
85.محمد محفوظ: الإسلام ، الغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء–المغرب، ط1، 1998

86.محمد نور الدين افاية :الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء – المغرب، ط2، 1998
87.مشري بن خليفة : الشعرية العربية مرجعياتها و ابدالاتها النصية ،وزارة الثقافة– الجزائر ،(د، ط)، 2007
88.مصطفى خضر: النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعة نقدية عربية معاصرة ، منشورات اتحـــاد الكتـــاب العرب، دمشق–سوريا ،(د،ط)،2001
89.مصطفى خُلال : الحداثة و نقد الأدلُوجَة الأصوليَّة ،رؤية للنشر و التوزيع ،القاهرة – مصر، ط1 ،2007
90.مصطفى عبده : فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني، مكتبة مدبولي ،القاهرة – مصر،ط2 ، 1999
91.ميجان الرويلي وسعد البازعي:دليل الناقد الأدبي،المركز الثقافي العرب،الدار البيضاء–المغرب،ط4، 2005
92.نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ،منشورات مكتبة النهضة ، بغداد – العراق ، ط3 ، 1967
93.نعيم فرح:الحضارة الأوربية في العصور الوسطى ،منشورات جامعة دمشق–سوريا، ط2، 1999–2000
94.هبرماس: القول الفلسفي للحداثة،تر:فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة،دمشق – سوريا، (د،ط)، 1995
95.هشام شرابي: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت – لبنان ، (د، ط) ، 1990
96.وهب أحمد رومية : شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت (د،ط)، 1996
97.يوسف الخال : الحداثة في الشعر، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت – لبنان ، ط1 ، 1978

2 : الكتب باللغة الفرنسية

98. le ROBERT quotidien : Dictionnaires LE ROBERT , paris - France ,1996

3: المجـــلات

1.مجلة عالم الفكر، مج19 ، ع 3 ، 1988
2.مجلة فصول، مج 16 ، ع2 ، 1997

ملخـــص

Summary

This research tries to unfold the term Modernity in the poetry of Adonis (an Arab poet),in the preamble, it investigates about the most Important circumstances which surrounded the rise of this term in its original western thought ,and ,it searches about how the transition was done to the Arab literature ,which concepts were adopted and argued.

In the first chapter ,the research concentrates on what is meant by the modernity in the poetry of Adonis and shows the obstacles which faced the Arab modernity in comparison with the western one.

Then , in the second chapter , it deals with the importance of modernity in the thinking of Adonis through the explanation of the most important relations which were founded between modernity and some basic concepts in the Arab thought .

Finally ,it deals in the last chapter with modernity in poetry as seen by Adonis and focuses on the meaning of poetry , the poetic language ,rhythm and the poetry reception matter.

Résumé

Cette recherche tente de dévoiler le terme de la modernité chez le poète arabe Adonis,elle s'élance dans son préambule à travers une recherche sur les principales circonstances qui ont entouré la naissance de ce terme dans son milieu occidental,aussi ,elle ressort les principaux concepts dans la pensée occidentale , la manière de son passage à la littéraire Arabe ainsi que les concepts qu'il a acquis et la polémique suscitée.

Dans le premier chapitre, la recherche s'est concentrée à mettre en évidence la fonction de la modernité chez Adonis, elle s'est penchée aussi sur les principaux obstacles de la modernité arabe et la relation avec son homologue occidentale.

Dans la deuxième chapitre la recherche s'est intéressée à la position de la modernité dans la pensée Adonisienne à travers sa concentration sur les principales et différentes relations qui se sont fondées entre la modernité et quelques concepts fondamentaux dans la littéraire et la pensée Arabe en général.

Enfin la recherche dans son dernier chapitre a traité la modernité dans la poésie comme la perçoit Adonis et elle s'est concentrée aussi sur la substance poétique, la langage poétique,le rythme et la question de l'acquisition poétique.

فهرس الموضوعات

مقدمـــة : .....أ،ب،ج

تمهيـــــد : الحداثة المصطلح والمفهوم:.....07

أولاً: الحداثـــة عنـــد الـــغـــــرب :.....09

أ- الإطـــار المكاني و الزماني :.....09

ب-مفاهيم الحداثـــة في الفكر الغربي :.....14

ثانياً: الحداثـــة عنـــد الـــعـــــرب :.....28

أ-مفهوم الحداثة في الأدب العربي :.....28

ب-جدل الحداثة في الأدب العربي :.....38

الفصل الأوّل: الحداثـــة عند أدونيس: المصطلح والمفهوم.....41

توطئة:نبذة عن حياة أدونيس.....42

1-1 مصطلح الحداثة عند أدونيس.....48

2-1 المرجعيات الفكرية والأبعاد لمصطلح الحداثـــة عند أدونيس.....66

3-1 مفهوم الحداثة عند أدونيس.....77

4-1 بين الحداثة العربية والحداثة الغربية.....98

5-1 معوقّات الحداثة العربية.....108

الفصل الثاني : مشروع الحداثـــة الأدونيسية.....116

توطئة: أدونيس ومشروع التغيير.....117

1-2 النّص القرآني و الحداثـــة.....118

2-2 التـــراث و الحداثـــة.....123

3-2 اللغة و الحداثـــة.....138

4-2 النقـــد و الحداثـــة.....146

5-2 الثـــورة و الحداثـــة.....155

الفصل الثالث: الحداثـــة والشعر عند أدونيس 164
توطئة: أدونيس والتجديد في الشعر العربي 165
3-1 ماهيـــة الشعـــر 167
3-2 اللغـــة الشعـــرية 185
3-3 الإيقـــاع والوزن 198
3-4 التلـــقّي 210
خاتمـــة: 223
قائمة المصادر والمراجع ملخّص: 229
ملخّص: 235
فهرس الموضوعات: 237